زاخار بريليبين

سانكا

روايـــة



ترجمة: د. تحسين رزاق عزيز

زاخار بريليبين

سانكا

رواية

ترجمة: د. تحسين رزاق عزيز

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PG3492.98.R554 S26125 2020

Prilepin, Zakhar, 1975

سانكا : رواية / تأليف زاخار بريليبين ؛ ترجمة تحسين رزاق عزيز. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

548 ص. ؛ 12,8 × 20 سم.

ترجمة كتاب: Sankya (Санькя)

تدمك: 978-9948-25-122-4

1- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- القرن 21.

2- القصص العربية- مترجمات من الروسية- القرن 21.

أ- عزيز، تحسين رزاق. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

Sankya (Санькя)

© Zakhar Prilepin

First published in Russian in 2006.

طبع الكتاب بموافقة المجلس الوطني للإعلام برقم الطلب MC-03-01-0396224 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 8002220

www.kalima.ae KALIMA كلمة

ص.ب، 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف، 579 5995 2 +971

Abu Dhabi Culture & Tourism للثقافة والسياحة

ســانكا

روايـة

المحتويات

مقدمة المترجم

اطَّلع القارئ العربي عـــلى الأدب الروسي، منذ بداية القرن العشرين، عن طريق ترجمات الأدب الروسي الكلاســيكي إلى اللغة العربية عبر لغة وســيطة، وبالذات عبر اللغة الإنجليزية واللغـــة الفرنســية. ثم ظهــرت في النصف الثــاني من القرن العشرين ترجمات مباشرة من اللغة الروســية للأدب الروسي الكلاسيكي (أدب القرن التاســع عشر) والأدب السوفييتي. فالقارئ العربي مطلـــع اطّلاعاً جيداً عـــلى الأدب الروسي في القرن التاســع عشر والقرن العشريـــن. ولم تظهر ترجمات عن الأدب الروسي في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين إلاّ مؤخراً.

إنَّ الأدب الروسي المعاصر هو امتـــداد للأدب الروسي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهناك اليوم أدباء لامعون وجيّدون لا يقلون شأناً عن سلفهم. ومن أهم الأسماء البارزة في مجال الرواية الروسية المعاصرة - زاخار بريليبين.

زاخار بريليبين (اســمه الحقيقي - يفغينــي نيكولايفيتش بريليبين، ولد في قرية بالقــرب من مدينة ريزان في عام 1975)، كاتب ولغــوي وناشر روسي. له نشــاطات متنوعة، اجتماعية وثقافية وسياسية وشــارك في المشاريع الإبداعية المختلفة، فهو منتج ورئيس تحرير ومقدم برامج تلفزيونية وموســيقي وممثل. شغل عدة مواقع ثقافية آخرها نائب المدير الفني لقسم الأدب في مسرح موســكو الفني. حائز جائزة حكومة الاتحاد الروسي في مجال الثقافــة وعدداً من الجوائز الأخــرى، من بينها جائزة أفضل المبيعات الروسية، وجائزة البوكر الروسي لعدة سنوات وللعديد من الروايات، من بينها رواية «ســانكا». ألف ســت روايات وسبع مجموعات قصصية وخمسة كتب سيرة ذاتية عن الكُتَّاب الروس وثلاثة كتب في مجال الصحافة ومنهجاً دراسياً. ويتمتع الكاتب بشــهرة كبيرة بين القراء الــروس والناطقين باللغة الروسية. وتُرجِمَت أعماله إلى العديد من اللغات العالمية.

يصنِّــف النقاد الروس روايته «ســانكا» واحدةً من أفضل الروايات الروســية التي صدرت في العقــد الأول من القرن الحادي والعشريــن. وقد مــدح الرواية الكثير مــن الكتّاب الــروس، من بينهم إدوارد ليمونوف وألكســندر بروخانوف وأشــاد الأخير، على وجه الخصوص، «باللغــة الرائعة والمتينة التي كُتِبَــت بها الروايــة» - ووصف الناقد الفنــي ميخائيل شيفدكوي رواية «سانكا» على أنّها إفصاح قوي ومأساوي عن

تفكير جيل من الشـــباب انتهى بهم المطاف في صفوف الحزب البلشـــفي القومي. وقـــد تحدثتُ مع أســـاتذة الأدب الروسي المعاصر في جامعة «فارونيش» الروســـية عن رواية «ســـانكا» فأشادوا بها كثيراً، بعضهم شبّهها برواية «الممسوسون» للكاتب الروسي الكبير فيودور دوستويفسكي وبعضهم شبهها برواية «الأم» للكاتب الروسي السوفييتي ماكسيم غوركي، من حيث الأهمية ومن حيث السياق، ولتناولها لموضوع الشباب الثوري المتحمس ونهايته المُفجِعَة.

تتنـــاول الرواية اســـتعراض حركة المعارضـــة (وفق خيال الكاتب)، وعلى وجـــه الخصوص المعارضة الراديكالية. ونرى من خـــلال عَينَي المؤلـــف الحركة الاحتجاجيـــة من الداخل، ونراقب مصير وأفكار ومشـــاعر الشخصية الرئيسة في الرواية - الشـــاب سانكا. ونرى العالم في هذه الرواية من خلال البطل الخيالي سانكا تيشين الناشط في «اتحاد المبدعين الوطني اليساري الراديكالي» الذي أسسه المثقف كوستينكو (شخصية من خيال الكاتب). ومع تفاقم صراع المنظمة مع الدولة تتجه المنظمة إلى العمل السري.

يكـــرس «أعضاء الاتحـــاد» وقتهم الشـــخصي كله لصراع غير متكافئ وشرس ضد «النظام الســـياسي» الذي يكرهونه. ويقومون بأعمال شغب واسعة، ويتواجهون مع قوات مكافحة الشغب، ومن ثم يتعرضون للاعتقال ويحكم عليهم بالسجن.

نالت الرواية العديد من الجوائز، من بينها: جائزة أوريكا (2006)، والجائزة الأدبية لعموم الصين «أفضل كتاب أجنبي لعام 2006» (2007)، وجائزة ليف تولستوي الأدبية «ياسنايا بوليانا» (2007).

تُرجمَت الرواية إلى العديد من اللغات الأجنبية، من بينها: اللغات الصينية والبولونية والصربية والفرنسية والألمانية والرومانية والإيطالية وغيرها من اللغات.

ملاحظة: أرجو الانتباه إلى أنَّ أسماء الأعلام باللغة الروسية قد ترد بصيغ للتصغير وللتحبب وقد وردت بعض الأسماء في هذه الرواية بأشكال مختلفة، مثلاً، الاكساندر - سانكا وساشا ساشكا وسانيا، وفينيا - فينكا، ويانا - يانكا، وفيرا - فيرتشكا. أقول هذا حتى لا يلتبس الأمر على القارئ الكريم.

د. تحسين رزاق عزيز

3 أغسطس (آب) 2020

الفصل الأول

لم يُسمح لهما بالذهاب إلى المنصة. نظرَ ساشا تحت قدميه: لقد تعبت عيناه من النظر إلى الأشرطة الحمراء والمعاطف الرسمية الرمادية.

ما هو أحمر ومضَ عن قربٍ ولامسَ وجهه وفاحت منه أحياناً رائحة القماش الكاسد.

والرمادي وقف خلف السور. «المجنَّدون»، المتشابهون والقصار القامة الذين يمسكون بخمول بهراواتٍ طويلة. ورجال الشرطة ذوو الوجوه الثقيلة والحمراء الداكنة من التهيج. وبالتأكيد الضابط، الفتي، الذي ينظر بتحدٍ إلى الحشد. يداه المتغطرستان - على العارضة العلوية للسياج الذي يفصل المتجمهرين عن حراس القانون والنظام وعن المدينة كلها.

بعض الضباط برتبة مقدَّم ذوي الشوارب، يمكن للمرء أنْ يميّز بطوناً كبيرة تحت بزاتهم العسكرية. وفي مكان ما لابد أن يكون ثمة عقيد، وهو الأكثر أهمية وجديةَ.

كان ساشا في كل مرة يحاول أنْ يخمِّن أيّهم سيكون في هذه المرة - المُدَبِّر الأعلى لتجمع المعارضة، والمسؤول عن النظام. في بعض الأحيــان، كان هــذا الرجل النحيــف ذو الخدين الغائرين، الذي يطرد بنفور الناشــطين السريين السِّمان. وفي بعض الأحيان كان هو نفســه مثل الناشــطين السريين، لكنه أكبر وأثقل، وفي الوقت نفســه كان أكثــر قابلية على الحركة وأكثر قوة، مع ابتســامة دائمة على وجهه، وبأســنان جيدة. وصادف كذلك وجــود أنموذج ثالث - صغــير جداً، مثل الفطر، ولكنه يتحرك بسرعة خلــف صفوف رجال الشرطة على أرجل سريعة.

لم يلحظ ساشا حتى الآن شخصاً واحداً يمتلك رتبة عقيدٍ.

أبعد قليلاً، خلف الســياج، دندنت ســيارات وأصدرت أصواتاً، وتمايلت أبــواب المترو الثقيلة إلى مــا لا نهاية، وجمعَ مشرّدون مغبرون علبَ العصير، وهم ينظرون بجدية إلى أعناق الزجاجات. وكان رجل من القوقــاز يشرب عصير الليمون، وينظر إلى التجمع من خلف ظهور رجال الشرطة. انتبه ساشا صدفةً إلى نظرته. فاستدار القوقازي وابتعد.

رأى ساشــا حافلات قريبة خلف الســياج، تحمل شــعار وحــش مفترس ذي أســنان كبــيرة. كانت نوافــذ الحافلات منســدلة الستائر، وفي بعض الأحيان تهتزّ الستائر. كان ثمة مَن يجلس في الحافلات. وينتظر الفرصة لكي يخرج ويهرع ممســكاً

بعصا مطاطية قصيرة في قبضته القوية باحثاً عن شخص يضربه بحنق، ويصرعه على الفور.

- هل ترى؟ - توجَّه فينكا، الذي بقي مســتيقظاً ومخموراً ومنتفخ العينين مثل كــرات البيلميني[1] المفرطة الســلق، إلى ساشا متسائلاً.

أومأ ساشا برأسه.

لم يكن الأمل بألّا تأتي القوات الخاصة إلى المسيرة كبيراً، ولم يتحقق ذلك الأمل.

ابتسم فينكا، وكأنَّ الذين سيهرعون من الحافلة -في اللحظة المناسبة- ليسوا شياطين مموّهين في خوذات ثقيلة، بل مهرجون يحملون بالونات.

تحرك ساشا بلا هدف نحو الحشد المحشور خلف السور.

«كيف جُمعَ هؤلاء الملعونون..».

يتكون الســياج من أجزاء بطول متريــن، يقف على طولها أشخاص يرتدون الزي العسكري على مسافات متساوية.

ســار فينكا خلف ساشا. كان طابورهم على الجانب الآخر من الساحة، وقد سُمِعَ صوت يانا الواضح الذي ينظِّم وقوف الفتيان والفتيات.

---

(1) بيلميني - هي كرات مطهوة من عجينة الخبز. وعادة ما تعتمد على الطحين أو البطاطس أو الخبز وربما تحتوي على اللحم أو السمك أو الخضراوات أو الحلويات. بل وربما تطهى عن طريق الغليان أو التبخير أو الطهو ببطء أو القلي أو الخبز. (المترجم).

كثيرٌ من أولئك الذين نظر إليهم ساشا ولمسهم أثناء الحركة -عن غير قصد- بدت عليهم علامات الحماقة والفقر. وكان جميعهم تقريباً كهولاً من ناحية القوة والانفعال.

لوحِظَت في سلوكهم أَمارات انقطاع الأمل، كما لو أنهم جاؤوا إلى هنا بآخِر ما لديهم من قوة ويريدون الموت هنا. والصور التي حملوها على أيديهم وضمّوها إلى صدورهم تصوِّر الزعماء، وكان جلياً أنَّ الزعماء أصغر سناً من أكثرية الذين تجمعوا هنا. فقد لاح وجه لينين المبتسم بهدوء على صورة مكبَّرة رآها ساشا من زمان في كتاب القراءة للمبتدئين. وبانَ وجه خليفة إيليتش[1] الهادئ على أيدي الكهول المرتجفة. كان الخليفة يلبس قبعة وعلى كتفه رتبة قائد القوات المسلحة.

عُرضت عليهم صحف رقيقة مطبوعة على ورق رمادي، رفض ساشا، وكشَّر فينكا بمرح.

أثارَ فيهما ما حدث مزيجاً بسيطاً من الشفقة والحزن.

تجمع عدة مئات أو ربما عدة آلاف من الأشخاص مرتين أو ثلاث مرات في السنة في هذه الساحة - في شيء من الثقة التي لا يمكن تفسيرها بأنَّ اجتماعاتهم الحاشدة المحزنة ستتسبب في رحيل الحكومة البغيضة.

مع مرور السنين منذ الانقلاب البرجوازي، شاخ المتجمهرون بشكل نهائي ولم يعودوا يخيفون أحداً.

(1) إليتش - فلاديمير إيليتش لينين، أما خليفته فهو ستالين. (المترجم).

الحقيقة، منذ أربع سنوات، قاد كوستينكو الضابط السابق، وإن بدا هذا غريباً، والفيلسوف والذكي والغريب الأطوار إلى الساحة حشداً من الشباب الغاضب الذين لا يفهمون دائماً ما يفعلونه وسط اللافتات الحمراء والرجال الكهول. وقد كبر الأولاد خلال بضع سنوات وأصبحوا معروفين بأفعالهم القبيحة وعراكهم الصاخب. والآن يضم حزب كوستينكو الكثير من الشباب غير المتجانسين لدرجة اتُّخِذَ قرار بأنْ يسوَّر تجمُّع اليوم بسياج حديدي. لمنع حالة الانفلات...

في بعض الأحيان كان الرجال المسنون الأقوياء واليقظون ينظرون إلى ساشا وفينيا باهتمام وأمل وشك طفيف.

على المنصة، راوحَ نائبٌ من الجناح البرلماني الوطني على قدميه بخطوات موزونة. بدا حتى من مسافة بعيدة وجهُهُ المتورد الناعم الجيّد التغذية الذي ميَّز النائب عن جميع أولئك الكالحين والمتململين الذين يقفون بقربه.

كان النائب يرتدي معطفاً أسود باهظ الثمن. خلع قبعته الرسمية - ووقف أمام الناس برأس حاسر. واحدٌ من الحَشَم المحتشدين خلف النائب مسكَ هذه القبعة بيديه.

عُلِّقَت تحت المنصة لافتات تحمل كتابات سخيفة ما كانت لِتَقدَر في يوم من الأيام أنْ تحثَّ أحداً ما على فعل شيء.

عبس ساشا وهو يقرأها.

لم يُسمح لهم بالتحدث، وبعد أنْ اشتكوا من ضيق الوقت، طلبـــوا برفق عدم الوقوف على الـــدرج المؤدي إلى المنصة. نظر ساشا، الذي كان واقفاً على الدرجة قبل الأخيرة من السُّلم، إلى المنظِّم. كان المنظم يتخذ هيئة المنهمك بعمله جداً:

- هيّا، يا رفاق، هيّا. مرة أخرى.

- ما وضع كوســتينكو هناك؟ - سمع ساشــا وهو ينزل صوت النائب الجهير المميَّز. لقــد لاحظ النائب وجود شريط أحمر برموز عدوانية على يد ساشا ووجَّه هذا السؤال إلى المنظم الذي أعرضَ عن ساشا بارتياح.

- إنه في السجن، - ردَّ عليه المنظِّم وقد بدت في صوته نغمة ضَغينــة، لكنها اختفت على الفور عندمــا دوّى صوت النائب بغضب:

- أعرف أنه مسجون.

- يُقال ســيُحكَم عليه بخمس عشرة سنة، - أجاب المنظم على عجل وجدية، مع بعض الأسف على مصير كوستينكو.

في تلــك اللحظات القليلة التــي دار خلالها الحديث، كان ساشــا واقفاً لا يتحرك على درجات السُّــلَّم الضيق ويتنصت بشكل مكشوف تماماً. وكانت تنتظر على سُلَّمة إلى الأسفل منه امرأة مسنة صاعدة إلى المنصة.

- اسمع، هل ستنزل، أَم لا؟ - سألت المرأة بنبرة غير ودية.

قفز ساشا من الدرج إلى الأسفلت.

- اصرخ في الأســفل، - قالت لساشــا بعدها. - ما يزال مبكِّراً لك الحديث على المنصات...

خمَّنَ فينكا، الذي ينتظر ساشــا في الأســفل، ما حدثَ ولم يسأله عن شيء. يبدو أنه لا يبالي إذا ما سُمح لهما بصعود المنصة أم لا.

نقل فينــكا في جيوبه عشرات المفرقعات النارية. وفي بعض الأحيان كان يســحبها واحدةً تلو الأخرى ويقلبها أمام وجهه وكأنه لا يفهم ما هي.

- هل لديك سجائر؟ - سأل فينيا ساشا.

- لقد قلت لك...

- نعم؟ - ابتسم فينيا مرتبكاً. - ماذا قلت؟

خرجا مرة أخرى من الحشد إلى طابورهم المصطف.

مشــت يانا، ذات الشعر الأســود والتي ترتدي سترة أنيقة قصيرة ذات قلنســوة وأكمام بها حواشٍ مــن الفرو، على طول الصفوف، وهي تصرخ بالأوامر. بدت فاتنة في الجينز الأزرق العريض قليلاً من الأسفل.

علم ساشا أنَّ يانا كانت عشيقة كوستينكو.

نعم، أُودِعَ كوستينكو الســجن، قَيْد التحقيق، قُبِضَ عليه بتهمة شراء أســلحة، عدد قليل من البنادق الرشاشة فحسب، أما هُــم، عصابته، زمرتــه، جماعته - فقد وقفــوا في صفوف

مهتاجة، وجوههم معصوبة بأشرطة ســوداء وجباههم مبلّلة من العرق وعينوهم متوحشة.

شــباب غير مفهومين وغريبو الأطوار، تجمعوا واحداً تلو الآخر من جميع أنحاء البلاد، لا يُعـرَف ما يجمع بينهم، وبأيّ وشم أو علامة وِسِموا عند الولادة.

كَان هنــا في مكان ما ماتفي - الرجــل الذي قاد الحزب في غياب كوســتينكو. لكن ماتفي اليــوم لا يقف في الموكب، بل يراقب من الجانب.

رفعت يانا مكبر صوت نحو وجهها ولوحت بيدها. وذاب صوتها على الفــور في زعيق الموكب الموحَّد، ولم يعد يصدح إلا الحرف الأول، الصاخب الرنّان فحسب.

كان ساشـــا ما يزال يقف بالقرب من الصف، من دون أنْ يجد له مكاناً، لكن فمه الفتي فاغرٌ ويصرخ - ورأى بطرف عينه الحمام الذي طار عالياً عن الأسفلت من الفزع، والضابط الذي اختلــج من العصبية، و«المجنَّدين» الذين يقفون عند الســياج والذين بدؤوا على الفور بالتقــاط الهراوات بأيديهم المتراخية.

صرخ ساشــا مع الجميــع، وعينــاه مليئتان بالفــراغ اللازم للصراخ، الذي دائماً ما يســبق الهجوم. كان عددهم ســبعمائة شخص، وجميعهم هتفوا بكلمة «الثورة».

- يا تيشين! - لوَّح له أحدهم بيده. - تعال إلى هنا!

وقف في الطابور الأمامي، على أقصى اليسار، بجانب فينيا، الذي أحمَرَّت عيناه المخمورتان اللتان كانتا تبدوان حتى وقت قريب مثل كرات البيلميني المُفرَط السلق، وصارتا الآن شبه محترقتين، كأنّما وضِعتا في مقلاة حامية.

- ابتعدي، أيتها الجدّة! - ضحك فينيا.

وقفت المرأة العجوز بالقرب من الصف، وفي تلك اللحظة عندما صمت الصف لعدة لحظات، سمع ساشا صوتها الذي يكرر، على ما يبدو، الشيء نفسه ليس للمرة الأولى:

- أيها الحمقى! إنكم مستَفِزّون! ذهب صاحبكم كوستينكو إلى السجن عمداً لكي يصبح مشهوراً! اليهود قادوكم إلى هنا!

مرت يانا من جانب المرأة العجوز، من دون أنْ توليها انتباهاً، بشعرها الأسود ووجهها المشرق والحاسر مثل كسر مفتوح.

- أيتها الكافرة! - صاحت المرأة العجوز في وجهها، لكن يانا ابتعدت غير مبالية بصدق.

بحثت الجدّة بعيون حادة في الصف ووجدت ساشا.

- أحضركم اليهود! - كررت مرة أخرى. - إنك يهودي! أنت يهودي ومن جماعة «الأس أس» (اتحاد المبدعين)!

الواقفون في الخلف دفعوا ساشا قليلاً في ظهره، فقد تحرّك الصفّ.

- الثورة! - اهتزّت هذه الكلمة وارتجّت في الساحة كلها، وغطّت على الصوت الجهير على المنصة وعلى مكالمات الشرطة في أجهزة الاتصال اللاسلكية وعلى أصوات المتظاهرين الآخرين.

- «اتحاد المبدعين!» يا شباب! - توجَّه أحدهم إليهم من المنصة. - إنكم لم تأتوا إلى هنا لكي تصرخوا! لنكن محترمين ونتصرف بشكل لائق...

تحرك الصف، وهم يلوّحون بأعلام حمراء وسوداء، نحو السياجِ من جانب المنصة. ودوّت بقوةٍ صرخةٌ بعزيمة حتى ملأت أَصَونَةَ الآذان بألم شديد.

- الرئيس! - صاحت يانا بصوت رنّانٍ.

- ليُغرَق في الفولغا! - ردَّ الصف بسبعمائة حنجرة.

- المحافظ!

- ليُغرَق المحافظ في الفولغا!

- حسناً، أيها السادة، ليفعل أحدكم شيئاً ما... - ناشدهم المتكلم عاجزاً، وبدت كلمة «السادة» لساشا غير ملائمة، بل وحتى جعلته يبتسم لو لم يصرخ بصوتٍ أجشّ وبلا كلل إلى درجة أحسَّ معها بصرير أسنانه:

- إنّنا نكره الحكومة!

اندمج كل شيء من حوله مع إيقاع هذه الصرخة، فتمايلت مَن الصرخة أبواب المترو، واهتاجت على وقع الصرخة

الســترات العســكرية الرمادية، وأصدرت أجهــزة الاتصال اللاسلكي أصواتاً خفيفة، وزمَّرَت السيارات.

- الحب والحرب! الحب والحرب!

- الحب والحب! - غيَّر ساشــا بعد أنْ رأى مرة أخرى يانا التي اســتدارت بحدة أمام الصف الأول، واندفعت قلنسوتها وسقطت.

«يا لها من رائحة طيبة تفوح من هذه القلنسوة، في الداخل... رائحة رأسها...» - فكر ساشــا وسرعان ما نسي الفكرة التي خطرت بباله صدفــة. «... مثل رائحة كعك مدينة تولا...» - ثم جــاءت على أثرها فكرة أخرى، ولم يفهم ساشــا حتى بأيّ شيء كان يفكر، ولماذا.

- إنّكِ تُفشِــلينَ التجمّــع! - صرخت امــرأة، وهي تحاول الإمســاك بيانا من الكم، على ما يبــدو، جاءت هذه المرأة مسرعة إلى هنا من المنصة. - «الاتحاد»! خاطبت الصف الأمامي، متطلِّعَةً في عيون الشباب. - إنّكم تطلقون على أنفسكم «اتحاد المبدعين»! ماذا تبدعون؟ إنكم تبتدعون الفتنة!

- هل أتيتِ إلى هنا، من أجــل التجمّع؟ إلى هذه الحظيرة؟ - ســألتها يانا بعد أنْ أزاحت مكبر الصوت من وجهها بحدّة.

- هاكِ اعملي تجمعاً لنفسك. سنغادر المكان الآن.

كانوا واقفين عند السياج، فشاهد ساشا أعين الشرطة التي لاحت عليها علامات الاضطراب والضابط الذي شقَّ طريقه في الحشد وهو يصرخ بشيء ما في جهاز اللاسلكي.

- نعم! - صاح. - دع القوات الخاصة تأتي. هؤلاء، الفاسدين، جماعة «الأس أس»[1] يتسلّلون إلى هنا.

- نحن مجانين، وسنثبت ذلك! - صرخ الصف كلهم بصوت واحد بغيرة وانسجام تام وهم يدقّون بأرجلهم ويلوّحون بالأعلام.

التفتَ فينكا بوجهه نحو الصف وظهره للشرطة والسياج، ووزَّع بسرعة المفرقعات النارية على الصف التالي:

- اشعل النار!

حلَّ الصمت على المنصة، ونظر الجميع إلى المراهقين الذين يصيحون بأصوات عالية.

اندلعت المفرقعات النارية في وقت واحد تبعتها حشوة مفرقعات طارت إلى الشرطة - سقطت بجوار الضابط الذي أطلق النار من الخوف ثم دخَّنت بعتمة.

رأى ساشا كيف استدار شرطي، لم يفهم حقيقة الأمر، وركض في الشارع على غير هدى، ولم يبدُ منه سوى قبعته المندفعة.

- الثّورة! - صدحت هذه الكلمة بأعلى الأصوات وبحالة من الهستيريا، وضرب مَن في الصف الأرض بانسجام بأحذيتهم الرياضية والبساطير[2] المستهلَكة.

(1) الأس أس مختصر اتحاد المبدعين. (المترجم).

(2) بساطير - مفرد بسطار - وهو الجَزْمَة الرجالية بمعنى الحذاء عالي الساق، يستخدم بالأخص لتلك التي يلبسها العسكر. (المترجم).

اندلعت فوق الصف عدة شعلات.

أمسك ساشا بالسياج وسحبه إليه. فتشبَّث بالسياج من الجهة الأخرى رجال الشرطة الهائجون من شدة الانفعال.

ومن خلف ظهورهم لوَّح الضابط بالهراوة محاولاً أنْ يهوي بها على رأس ساشا بضربة. فراوغ ساشا تارة يترك السياج وتارة يمسك به من جديد بتوجّسٍ وكأنه ساخن.

حوَّلَ الضابط الهراوة إلى يده الأخرى، وبعد أن انتهز الفرصة صفعَ فينكا من الجانب بضربة، فظهر على الفور ندب قرمزي منتفخ على خده على الفور.

- الصارية! - بعد أنْ التفتَ إلى الوراء صاح فينيا وهو يبتسم بجانب واحد من وجهه. - الصارية، إلى هنا!

سلَّموه الراية. فانتزع فينيا القماش دفعةً واحدة وعلى الفور، وبعد أن بدأ يلوِّح بالصارية بقوة هوى بها على الضابط. فوخز هذا بحماس الهراوة المرنة في وجه أحدهم ولم يرَ الضربة.

انحسرت قبعة الضابط على قفاه، وتدفق على الفور نزيف مستقيم من الدم في منتصف جبهته وتوزّع عند جسر أنفه على حاجبيه وخديه وعينيه.

نظر الضابط إلى الأعلى، بعد أنْ أدار عينيه الغبيتين كما لو كان يحاول رؤية الجرح.

وقعت صارية أخرى، مثل الرمح، على كتف ساشا وانسدل قماش الراية إلى الأسـفل. فرأى من طرف عينه رايات أخرى موجهة أسـنّتها إلى الشرطة وإلى «المجنَّدين» الذين يمسـكون السياج.

ضُغِـطَ على ساشـا من الخلف مـرة أخرى بقـوة لدرجة أنه سـقط. وعندما سقط ساشا واسـتند بيديه إلى صدر أحد «المُجَنَّدين» الذي رمشَ خوفاً بعد أنْ رفعَ الهراوة أفقياً، إمّا لأنه لم يكن يعرف كيف يتأهب للضرب أو خاف أنْ يضرب.

وقف ساشـا على قدميه ودفع «المجند» بقـوة. وبعد أنْ أمسك بجزء من السياج الذي لم يكن أحد يمسكه رفعه فوق رأسه.

هرع جماعـة يصرخون بهمّة من الحظـيرة. وركض رجال الشرطة إلى الـوراء وهم ينظـرون بتردد إلى ما يجـري. وقاد أحدهم الضابطَ الذي فُجَّ رأسه إلى سيارة شرطة.

- يا شـباب، أتوسـل إليكم! - صاح أحدهم متأخراً على المنصة.

أغار رجال القوات الخاصة من مكان ما على الجانب: كانوا شـباباً أقوياء متماسـكين يرتدون بزات عسـكرية مموّهة.

«ثلاثة... حتى الآن، ثلاثة فقط»، - فكَّر ساشـا وأمسـك بعَينيه.

ولأنَّ ساشا لم يستطع انتزاع مفاصل السياج ألقاه باتجاههم. فقرقعَ على الأسفلت ولم يصل إلى رجال الشرطة الراكضين. رأى ساشا أنَّ رجال شرطة القوات الخاصة الذين توقَّفوا يصرخون عليه بعبارات غاضبة لكنه لم يستطع أن يميّز تلك الكلمات. وتحرّكوا مرة أخرى باتجاهه فأمسك ساشا بقطعة أخرى من السياج.

غطّت قطعة السياج التي ألقاها ساشا أحد رجال شرطة القوات الخاصة فسقط مائلاً تحت الحديد الذي انهار عليه. فبدأ اثنان آخران بمساعدته على الخروج من وضعه الحرج.

- لنحافظ على الهدوء! - صاح أحدهم من المنصة. - لنواصل التجمّع!

اندفع الشباب إلى الأمام على طول الشارع. وقف رجال الشرطة بلا حول ولا قوة، مثل حرس الشرف، وتركوا حشد الشباب يصوِّت في المدينة من السعادة.

أفضت الساحة إلى شارع المشاة، ولكنّ الذين افلتوا من الطوق اصطدموا أوّلاً بمواقف سيارات الأجرة على الطريق وبصفوف أكشاك بائعي الورود.

ركض الباعة إلى الوراء وهم يمسكون بالزهور في أحضانهم. وبسبب العَجَلة -ومن دون قصد وحتى عن طريق الصدفة- أسقَطَ الراكضون بصدمةٍ وعاءً أو سلة مليئة بالورود والخزامى والقرنفل - فقد أثارت الإعجاب

على الفور، وسرعان ما عَلِقوا بها. وعندما وصل ساشــكا إلى أكشاك البائعين، كان الشـــارع بأكمله مليئاً بالزهور القرمزية والصفراء والوردية والحمراء الغامقة. هذا كله سحقته الأقدام وكَسَّرَت سيقانه.

ولســبب ما، التقطَ ساشــا عدة باقات، ربما، ثلاثاً أو أربع باقــات، من دكّــة الزهور التــي لم يُلقَ بها بعــد على الأرض، وركض بها لمدة قصيرة وقد أدركَ على الفور عدم جدوى فعله. وعندما تجاوز موقف الســيارات رأى كيف زاد السرعة سائقُ ســيارةِ أجرةٍ خائف وكيف سحب معه لبضعة أمتار على طول الطريق الراكبة التي لم تســتطع الجلوس والتي تمسكت بالباب وهي تصرخ بأعلى صوتها. وتفرَّقت سيارات الأجرة الأخرى على وجه السرعة وهي تزَمِّر وتفرمِل في كل ثانية.

نثرَ ساشا الزهور على مشَرَّدة من منطقة نائية متسوِّلة كانت تجلس على الرصيف مع طفل ثابت على ذراعيها، وكاد يصطدم بفينيا الذي وقف عند واجهة العَرض باحثاً، على ما يبدو، عن سلاح مناسب.

لمحَ فينيا ســلّة القمامــة، وبعد لحظة ســقطت على الزجاج فدوَّت قرقعةٌ.

مــا زال عدد الناس قليلاً في هــذا الصباح من صباحات يوَم الأحد. تفــرق المارة القليلون بسرعة وحتى من دون أنْ

ينظروا مِن حولهم. اندفـــع رجلٌ يرتدي معطفاً مطريّاً أزرق من المتجر مسرعاً وبدأ يســـير بخطوات قصيرة في الشـــارع. وظهر حارس في سترة ســـوداء لوقت قصير ثم اختفى على الفور في المدخل وهو يصيح بشيء في هاتفه الخلوي.

على الجانب الآخر من الشـــارع رُكِنَت سيارة أجنبية الصنع جميلة - أحدهم أوقفها هنا اســـتخفافاً بشرطة المرور وبحقوق المشاة. كانت الســـيارة منذ مدة طويلة تُجلجل بجهاز الإنذار، وأكثر ما تسببت على الأرجح في إثارة الحشد الهائج. فقلبَ عدد من الشباب الســـيارة على جانبها بسهولة غريبة ثم قلبوها على سقفها.

وكانت بضع ســـيارات أخرى تقف في الشـــارع إلى الأمام منهـــا، - وسرعان ما قفـــز فتيان وصبايا فوق ســـقوفها بفرح وحشي كفرح الحيوانات تقريباً ولكنه صامت.

ســـاروا فـــي الشـــارع وهم يبحثون عـــن شيء لكي يكسروه، بـــل لكي يكسروه بضجيجٍ وبطقطقة وبشـــكل نهائي، فانطلقـــوا لأول مرة على انفـــراد، وجهاً لوجه مع المدينة.

فعلَ الشباب فعلتهم من دون صراخ، بضغينة هادئة.

وســـقطت عدة ماكينات قمار الشوارع على الأسفلت محدثةً رنيناً حديدياً شديداً.

انتهز أحدهم الفرصة لتفكيك وخلْعِ سياج مقهى صيفي - أزالَ عنه السلاسل السوداء الجميلة من السياج، وقذف السياج إلى نوافذ المقهى المطلية بألوان زاهية.

جرحَ شخص آخر نفسه ولف على يده المجروحة بالطول قطعة من ساتان الستارة التي انتزعها من المقهى.

كوستيا صولوفي، طويل القامة ذو جمال غريب وأنموذج مذهل - يرتدي سترة بيضاء وبنطلوناً أبيض وينتعل حذاء أبيض ضَيّق المقدَّم تلاءم بشكل مدهش مع أذنيه المدببتين اللتين تشبهان آذان مصاص الدماء - أمسك بسلسلة سوداء، ولوَّحَ بها ببراعة فأسقَط بالضرب جميع المصابيح التي صادفته.

لم يقترب منه أحد - لقد صنعت السلسلة دوائر جميلة وثقيلة، ولولا القعقعة الشنيعة في المكان حوله لكان بمقدور المرء أن يسمع الصوت الهادئ الذي أحدَثَته السلسلة في حركتها الدائرية.

خلف واجهة عَرض أحد متاجر بيع الملابس كانت ثمة دمى عَرض (مانيكان) رفيعة الأيدي وذات رؤوس صغيرة- تصوِّر حسناوات بتنانير قصيرة وبلوزات ذات ألوان زاهية.

وبعد تحطيم واجهة عرض المتجر أُخرِجَت الحسناوات ومُزِّقَت إلى قطع. وقد تعثّر آخر الفارّين بشيء من الخوف بالأجساد المشوَّهة الملقاة بلا أرجل أو بلا رؤوس على الأسفلت.

يبدو أنَّ الشرطة تمكنت على كل حال من قطع جزء من موكب «الاتحاد» وأبقت عليه خلف السياج - رأى ساشا أنه بقي عدد قليل من الشباب، ربما مائتي شخص فحسب. وقد ذهب الكثيرون منهم إلى الأفنية، مدركين أنَّ البهجة لن تدوم طويلاً.

«أيها الشرطة!» - دوَّت صرخات في مكان ما، واندفع الحشد إلى الشارع مُسقِطاً الأوعية وطارحاً كشكات عرض الهدايا التذكارية.

سُمع رنين مستمر من الزجاج المُكَسَّر. وصارت ألوان المدينة، التي اختلطت في هذا الصباح وطُحِنَت بشكلٍ دقيق، زاهيةً بشكلٍ غير متوَقَّع.

وسعى بين الحشد الراكض جيئة وذهاباً صحفيان يحملان كاميرا فيديو - كانا منشغلين بجدية بل وحتى سعيدَين على ما يبدو بما يحدث.

- إلى هناك! عجِّل! - قاد رجلٌ يحمل ميكروفوناً المصوِّرَ.

أدّى ساشا عمله بذهن متيقِّظ، متخلياً عن جميع المشاعر سوى الرغبة في أنْ يُكسِّر ويُحطِّم بأكثر ما يمكنه.

رأى ساشا ألعاباً محشّوة مطروحة على الإسفلت، كانت بمثابة جوائز في ماكنة ألعاب زجاجية ساقطة على الأرض ومُحَطَّمة - وردية وصفراء مثيرة للشفقة وكأنها تائهة.

لا أحد يعرف من أين جاء راكضاً، باتجاه الشباب، ضابطُ شرطة برتبة رائد قصير القامة وبسن التقاعد.

- قف! - صـــاح الرائد، وتبيَّن من صوته عــلى الفور أنه هو نفسه خائف، ولم يكن يريد حقاً أنْ يطيعه أحد ويقف.

ركض فينيــا نحوه. ومن دون أنْ يتوقف، قفز وركل الرائد بقدمه في صدره. فسقط الرائد ونشر ذراعيه.

وقف ساشـــا فجأة بالقرب من الرائد الكهل، متصارعاً مع رغبته في أنْ يرفعه ويساعده على النهوض، بل وحتى أنْ يعتذر منه.

أمسكَ الرائد بحركة متشنجة بقراب مسدسه، ولكن ليس من أجل استلال المسدس، بل خوفاً من فقدان السلاح.

صرخ بكلمات ســيئة فاحشة على ساشـــا، فغيّر ساشا رأيه بمساعدته وحتى قفز على طاقية الرائد التي سقطت على مسافة منه.

- هيه أنت، ماذا تفعل؟ - ســـأل الرائد بعد أنْ جلس على عجزه. بدا غبيــاً جداً - وهو يجلس على الإســفلت من دون طاقية، وبدا رجلاً عجوزاً بشعره الملتصق على يافوخه.

- أنت نفسك المسؤول عن كل شيء! - قال ساشا بغضب.

استدار لكي يهرب، فمسكه فينيا على الفور من كُمِّه ودفعه في الاتجاه المعاكس.

- هناك «رواد الفضاء». هيا... ينبغي إلى مكان ما...

أُطلِقَت تســمية «رواد الفضاء» على أفراد القوات الخاصة بسبب كُبرِ حجم خوذهم.

وبعـد أنْ ركضوا من أمام لافتة متجـر «هِبات الطبيعة» التي غابت عنها امتدادات الحروف المقطوعـة التي تدلَّت من جانب واجهة عَرض المتجر المكسـورة بتعرجات جميلة أسرعوا إلى فناء مشبّع بالبول ووصلوا على الفور إلى طريق مسدود.

- اللعنـة، أنا لا أعرف هـذه المنطقة! - قال فينيا وهو يبتسـم. وأضاف، مـن دون توقف وبمرح: - هناك يتبـول «رواد الفضاء» هؤلاء جميعهم تماماً. ويدوسون على القَرَف. لقد دفعوا بنا إلى الشارع المجاور، وهم الآن سيسوقوننا من الأعلى نحو الشرطة...

تفحَّصَ ساشـا الجدران على أمل العثور على فتحة للمرور من خلالها.

- الدرج، - قال ساشا.

أدّى سُلَّم للهروب من الحريق، إلى الأعلى، نحو مبنى مكون من أربعة طوابق، ولكن كان من المستحيل القفز إليه - فقد كان مرتَفِعاً.

- قِفْ أنت على كتفي، - اقترح فينيا.

نظر إليه ساشـا وهو يبتسم، بل وربما بشيء من الحنان. لأن فينيا لم يقل: «دعني أقف على كتفك».

- إنكَ تدفن نفسك هنا في التراب، - أجاب ساشا.

- سـأتظاهر بأنني خرطوم، - واصل فينيا الكلام وبدأ يقهقه ببـلادة. - أوه، يا عمة! - وفجأة قطـع الضحك، بعد أن لاحظ شيئاً.

ركض فينيا إلى نافذة الطابق الأرضي وقرع على الزجاج.

- يا عمة، لا تذهبي!

عادت المرأة إلى زجاج النافذة، ولوَّحت برأسها: «ماذا تريد؟»

- إنهم يطاردوننا! هناك! يضربوننا ويطاردوننا! افتحي النافذة! إنهم يلاحقوننا! - وبدأ فينيا يلوّح بيديه بجنون. من الواضح أنه لم يقرر بعد ما الدور الذي ينبغي عليه تمثيله: دور الصبي الأحمق الباكي الذي يُصِرّ «يا عمتي، ارحميني!»، أو دور الشاب الجاد الذي لديه مشاكل مع القانون: «ساعديني، أيتها المرأة! لا أعرف ماذا سيحدث لي!» ونتيجة لذلك، تبادلت هاتان الشخصيتان بشكل مُضحِك على وجه فينيا من دون إثارة أيّ شفقة لدى المرأة الواقفة خلف النافذة.

- اللعنة، لو كانت هناك جدّة. الجدّة حتماً لكانت ستشفق، - لعن فينيا عندما أسدلت المرأة الستائر من دون أنْ ترد على أي شيء، ومع ذلك، بقيت واقفة بجانب النافذة: فميَّز خيالها الثقيل.

- ربما لديها نوافذ أخرى تطلّ على الشارع... - قال ساشا وقطع عبارته في الوسط: وهكذا من الواضح أنَّ المرأة لو شاهدت ما فعلوه هناك فلن تسمح لهم بالدخول أبداً.

- لدينا دقيقتان أخريان... - قدر فينيا بعد أنْ استمع إلى الجواب بوضوح. - يا سانكا، امرح! - وتذكر، - «امرح» كانت كلمته المفضلة التي لها معانٍ كثيرة، وفي هذه المرة تعني: «الآن

ســأفاجئك!» - هناك أمامهم كان رياضي يركض، إنه عداء. إنه يمارس رياضة الجري الصباحيــة الخاصة بيوم الأحد. كان أول من اصطدم برجال القوات الخاصة. يرتدي سروالاً قصيراً أحمر. إيه، أشــبعوه ضرباً على الفور. المعتوهون، الحقراء. أراد الرجل أنْ يحسِّن صحته.

دوَّت خطــوات، فتجمد فينيا وبانت ابتســامة على وجهه، ولسبب ما أراد ساشا الجلوس أو حتى الاستلقاء.

هرع إلى الفناء ليوشا روغوف - وهو شاب من مكان ما في سيبيريا. من مدينة كراسنويارسك، على ما يبدو.

لقــد كانا يعرفــان بعضهما بعضــاً قليلاً، لكن ساشــا لمّح لليوشا- مقدِّراً هدوئه الراسخ غير المتكلّف.

- لماذا تقفان هنا؟ - سأل ليوشا بصوت متّزِن.

- هل رجال الشرطة ما يزالون هناك؟ - أجاب ساشا على السؤال بسؤال.

- يبعدون مائة متر تقريباً. هل الطريق هنا مسدود؟ يبدو أنَّ الفناء المجاور مُتاح للمرور. تمشيت هنا يوم أمس.

اهتاج الشارع مرة أخرى أمام عيونهم بكل ما فيه من فوضى واضطراب.

- أُحرِقَت إحدى السيارات! - صاح فينيا بفرح.

امتلأ الجو بضجيج نباح الكلاب وجلجلة صفارات الإنذار وبالصفير.

لمحَ ساشا سيارتين أخريين مقلوبتين، إحداهما - على بعد سبعين متراً أسفل الشارع، كانت تحترق فعلاً. لم يقترب منها أحد. لهذا، على ما يبدو، لم تأتِ الشرطة لحد الآن، لأنهم يخشون أنْ تنفجر.

السيارة الثانية كانت تتمايل على سقفها على بعد عشرة أمتار من الأولاد.

وقد رقصت حولها، على وقع أصوات الإشارة التي تطلقها، امرأة مدمنة ذات وجه قذر وشفتين رطبتين كأنهما خدّان مقلوبان. كانت المرأة تبتسم وهي فاغرة فمها الأدرد (من دون أسنان).

وقف غير بعيد شابٌّ يحمل حقيبة صغيرة مسطّحة (دبلوماسية،) ولسبب ما يحمل مفاتيح في يده.

«هذه سيارته»، خمَّن ساشا.

توقف فينيا للحظة:

- أنت، يا صاح! - نادى على الشاب الذي بان على وجهه الاستياء والازدراء.

فاستدار الرجل.

- أطفئ صفارة الإنذار، إنها مزعجة! - سأله فينيا وهو يبتسم ويشير بيده كيف يمكن إيقاف المنبه بالضغط على الزر الذي في سلسلة المفاتيح.

هرعوا إلـى الفناء واندفعوا، وهم يقفزون فوق المقاعد ويركضـون من جانـب التعريشـــات ومنحـدرات تزحلـق الأطفال. وقد حرّك ساشا -لسبب ما وهو يركض- سلســلة الأرجوحة الصدئة، وظل لعدة ثوانٍ يسمع صريرها الإيقاعي خلفه.

ركض ثلاثة من رجال الشرطة خلف الأولاد وهم يتعثرون بتثاقل، وينـادون عليهم مهددين بوجوب التوقف. أولهم، كما رآه ساشا عندما التفت إلـــى الصراخ، بالكاد يستطيع مواكبة الكلب الذي يمسك بحبله بصعوبة.

«هل سيُطلِقون الكلب أم لا؟» - فكَّرَ ساشا بلا مبالاة، كما لو أنَّ هذا لا يمسه. وقرر عدم النظر إلى الوراء.

ركض الأولاد من الفنــاء إلى محطة عربات الترام، ولم يكن هناك أي شـــخص تقريباً، بينما هم كانوا يريــدون أنْ يضيّعوا أنفسهم في الحشد.

تحرَّكَ الترام من المحطـــة. فركضوا خلفه، وبعد ثلاثين متراً استطاعوا التمسك ببدنه الحديدي.

صعد فينيا أولاً ولوح بيديه بفرح، وهو يصرخ بشيء شائن ويؤشِّر بغضب لسائقة الترام التي لاح وجهها المنزعج يرتعش في مرآة الرؤية الخلفية.

توقف الترام، وفُتِحَ الباب الأوســط للعربة، فقفز الأولاد إلى الترام، وركض ليوشا روغوف على الفور إلى قمرة القيادة. لاحظ ساشـــا كيف أنه عندما قال لها شيئاً دسَّ لها ورقة نقدية واعتذر وأغلق الباب. فتحرَّكت العربة.

وركض رجال الشرطة إلى خارج الفناء؛ وكان واضحاً أنهم خمنوا على الفور إلى أين ذهب الهاربون.

وعندما تحرك الترام فجأة، أشار لهم فينيا بإصبعَي الوسطى على كلتا يديه وهو يراوح على رجليه بانفعال.

فُتحــت الأبواب الأمامية، ودخل عدد مــن أفراد القوات الخاصة، خمسة أو ستة.

ضغــط فينيا على زر خروج الطــوارئ، لكنَّ الباب تحرّك ببطء ومصــدراً صوتاً خفيفاً، لكن هــؤلاء الضخام المعافين قــد صاروا بجانبه وأول شيء فعلوه أنْ ضربوا رأس فينيا على الدرابزين.

غطّى ساشــا على الفور رأسه بيديه وقوَّسَ رأسه. فسحبوه إلى الشارع وهم يسوقونه بركلات قوية.

وفي الشارع، بعد أن جرّوه من أذنه، ضربوا رأسه على الترام بشدة وبشــكل غير متوقّع. قدح الشرار في عينيه قليلاً. بشكل يمكن تحمله...

أوقَفوا الأولاد في حالة «الوِثاق» - بعد أنْ أجبروهم على أنْ يضعوا أيديهم خلف رؤوسهم، وإسناد جباههم إلى متن الترام الحديدي، وأنْ يُباعدوا بين ســيقانهم على أوسع نطاق ممكن. وحتى يكون التباعد واســعاً جداً ضربوهم على الساقين عدة مرات.

أراد أفـراد القـوات الخاصة، بالطبع، أكثر مـن هذا. فقد أخـذوا الراكضين بالحسـنى كثيراً - إذ كان الحماس الشـديد يغلي في كلٍ واحد منهم داعياً إلى أنْ يمزق المقبوض عليهم على الفور ويقطِّعهم إرباً إرباً. لكن بعض وجوه الركاب الفضوليين التي انحنت على زجـاج الترام منعتهم من فعل ذلك. فجعلوا يراوحـون في مكانهم بعصبية وهم يشـدّون عـلى هراواتهم ويعبّسون بوجوههم.

بعد أنْ أدار ساشا رأسه قليلاً رأى أن فينيا وروغوف يقفان مثله، فارجَين بين سيقانهما، على مسافة منه.

اشـتغل المحرك، واجتازت إلى الخلف الحافلة الصغيرة من ماركة «باز» التي كانت تمنع الحركة على القضبان.

- حسـناً، ما العمل، أنشحنهم؟ - قال أحدهم. - لابد أنْ نرتب لهم، الفاسدين، ثورة.

- ماذا، أيها الفاسـق؟ أتريد ثـورة؟ - صاح أحدهم في مكان ما بالقرب من ساشـا، ولكن ليـس عليه، بل، على ما يبدو، على فينيا. - سوف تبول الدم الثوري الأحمر بعد نصف ساعة!

دوّت ضربة أخرى. لم يصبر أحدهم، فانفجر...

أدار ساشا رأسـه نحو فينيا فتلقى على الفور ضربة شديدة عـلى قفاه، كما لـو أنَ أحدهم يقف خلفه وينتظر سـبباً لكي يضربه.

- ألم يقَل لك أنْ تضع يديك خلف رأسك ولا تتحرك؟

وفي هذه اللحظة وصل الكلب، وكان معه بعض الشرطة، كان يمكن تخمين اقترابهم من خلال تزايد الشتائم البذيئة.

ومن خلال النباح والضوضاء يمكـــن للمرء أنْ يعرف أنَّ الكلـــب أُوثِقَ بصعوبة. فتوقّعَ ساشـــا في كل ثانية أنَّ قطعة من فخذه ستُعَضُّ الآن.

- كلا، ماذا تفعل هذه المخلوقات الدنيئة...! - بدأ أحد أفراد الشرطة يلعن وهو ينفخ ويلهث. - لقد حطَّموا الشـــارع كله... المتاجر... والســـيارات... إنهم مخلوقات دنيئـــة... يجب أنْ يُعدَم هؤلاء المخلوقات الدنيئة بإطلاق النار عليهم الآن هنا! وأنت... ماذا تفعل، أيها الوغد؟ - التفت إلى فينيا، الذي يســـند رأســـه إلى الترام. - هيّا، قل؟ إني أســـألك، أنت، أيها الطفل، يا مَن لم يجف الحليب على فمك بعد! ماذا تفعل هنا؟

- أمســـكُ بالترام، - أجاب فينيا بصوت واضح، وبالتالي وقح بشكل لا يمكن تحمله.

ابتسم ساشا لمتن الترام الأحمر الذي برَّد جبينه المتعرق.

- أُفٍّ لك... - ســـمع ساشـــا صوت الشرطي، وأدرك أنَّ فينيا ســـيُضرَب، حدق مرة أخرى بطرف عينـــه. فرأى كيف هوت عصا طويلة، مثل الخرطوم، على ظهر رفيقه.

- هـــا؟ - صاح الشرطي وهو ما يـــزال يلهث. - قل، هل تريد مرة أخرى؟ ها؟ كلا، لا تجب؟ مرة أخرى؟

- اِسْتَمْتِعْ، - أجاب فينيا بصوت عالٍ، وبدت هذه الكلمة ليست بمعنى «نعم، مرة أخرى»، بل بمعنى «هيّا، هيّا، ثم سيأتي الوقت، وسنرى...».

وهنا برز أحد شياطين التمويه:

- كيف تتحدث مع العم الشرطي هكذا؟

ضرب برجله الكبيرة الثقيلة التي تنتعل البسطار فينيا تحت الركبة، وكأنه يهوي عليه بمحشّ، فسقط الولد على الفور بعد أنْ تأوَّه من هول المفاجأة. فداسَ الشرطي على الفور على وجهه بالبسطار بقوة.

- مهلاً، كفى! - صاح ساشا فجأةً من دون أنْ ينتبه إلى نفسه.

وكاد أنْ ينال مثل ما نال صاحبه من الضرب ولكن حالت من دون ذلك سائقة الترام:

- يا رفاق! خذوا الشباب بعيداً عن الترام. في العربة ثمة أطفال. وينبغي علينا أنْ نحرك الترام ونسير!

- يا سيمونيتش، هل نشحنهم أم لا؟ سأل أحدهم مرة أخرى.

- كلا. ها هم شرطة الدوريات سيأخذونهم إلى الساحة. فنحن ينبغي أنْ نبقى نجوب الأفنية بعد.

صعد أفراد القوات الخاصة في الحافلة «باز» الصغيرة وانطلقت بهم بسرعة.

رُفِعَ فينيا من تلابيبه. وأُمِرَ ساشا وليوشا أنْ يتراجعا خطوة إلى الخلف. «خطوة أخرى إلى الوراء». صرَّ الترام وتحرَّك.

نظر ساشا إلى السماء وهو يضيِّق عينيه من دوارٍ خفيف.

قُيِّدَت أيدي فينيا وليوشـكا بالأصفاد (بالكلبشـات) من خلف ظهورهما.

- اليدان إلى الخلف! - أُمِر ساشا.

ضغطت الحلقتان الباردتان على عظامه.

نزلوا إلى الشارع، تلاحقهم دفعات رجال الشرطة وشتائمهم. وفي بعض الأحيان ينبح عليهم الكلب بضغينة.

بقي فينيا رافعاً رأسـه باسـتمرار ويستنشق من خلال أنفه ببحة مرطوبة محاولاً منع تدفق الدم من أنفه الدامي.

نظر ساشا باهتمام إلى ما يُفعَل به وبرفيقيه.

قُلِّبَ الشارع كما لو أنه كيس مليء بالهدايا.

العديد من الأعلام الثلاثية الألوان[1] التي مُزِّقَت وديسَت كانت مُلقاة على الرصيف.

كان الطريق مليئـاً بالزجـاج المنثور، وأحيانـاً بالزهور، وكذلك بأنواع القمامة التي نُبِشَت من صناديق النفايات - وبدا وكأن المطر قد هطل على الشـارع كِسَراً زجاجية صغيرة وقمامة وبتلات أزهار.

(1) إشارة إلى علم روسيا الاتحادية الذي يتكون من ثلاثة خطوط أفقية متساوية: العلوي أبيض والوسط أزرق والأسفل أحمر. (المترجم).

وكانت ثمـــة كراسي ملقـــاة، ووجِدَت بعـــض القِطَع من الحواجز المتنقلة.

كُسِرَت جميع الأضواء.

«لقَد قُبِضَ على يانا»، - خمَّن ساشـــا فجأة، حينما رأى على الإسـفلت قلنسـوة فضفاضة الخيوط ذات حواشٍ من الفرو ممزقة. «قلنسوة يانا. قُبِضَ عليها من القلنسوة».

ينظر الناس المـــارون في الطريق إلى المعتقلـــين نظرة اهتمام ولكن أكثرهم ينظرون بغضب.

«أُخِذَت أسـيرة... - فكَّرَ ساشا سـاخِراً. - وأخذوني في الأسر...... ويمكن أن يضعوني في الســجن ويصدروا حكماً عليَّ»، - وختم تفكيره بجدية.

كان من الممكن رؤية السيارة المحترقة من بعيد. وقد اهتاج حولها رجال الإطفاء وتدفق الماء عليها من الخراطيم. وتصاعد الدخان اللزج منها.

- كلا، مـــا القرف الذي حصلتم عليه من فعلكم هذا؟ - لم يتوقف أحد رجال الشرطة، وهو الأكثر بدانة من بينهم، وبقي يتحدث بضيق في التنفس. - أيّ قذارة جنيتم؟ أفعلتم فعلتكم هذه من أجل التخريب؟

لم يستعجل أحد بالإجابة عليه.

نظر ليوشا بطمأنينة إلى الأمام، وقُرِئ على وجهه أنه لا يرى ضرورة للتحدث مع السائل.

كان بإمكان ساشـا أن يجيب، ولكن شفته المضروبة كانت تؤلمه كثيراً، وكان يلعق الدم باستمرار.

أما فينيا، على ما يبدو، حتى أنفه المكسور لم يُعقه فسأله:

- وماذا فعلنا؟

- هذا كله، ألستم مَن فعلتموه؟

- ومَن فعلَه؟ - كرر فينيا السؤال، كما لـو أنَّ هذا ما أثار قلقـه بجديّـة.

وهنا، فجـأة برزت كامـيرا مباشرة في وجـه فينيا، فطرد الشرطي مراسلي التلفزيون بالشتائم.

- اسـمع، حِل وثاقي، على الأقل حتى أمسح الدم، -استغل فينيا الموقف. - وإلا، فإنهم سوف يفضحونك لضربك فتى. أنفي مكسور. سأُقَدِّم شكوى ضدك.

- لا يهمني ذلك، وإني ابصق على شكواك، مفهوم؟ - ردّ عليه الشرطـي على الفور بغضـب. - قدِّم، لا يهمني. ثمّ إنّي سـأمزق مؤخرتك في القسم.

همهمَ فينيا متذمِّراً بصوت عالٍ، وبصق دماً وسكتَ.

أُخرِج صبيان «اتحاد المبدعين» من الفتحات بين الأفنية - تارة بدفعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وتارة على شكل عشرات.

تعرَّض جميع الذيـن قُبِضَ عليهم تقريبـاً للضرب وكانوا يعانـون من كدمات حمـراء دامية وعيـون منفوخة على الفور وَأنوف مفلطحة وشفاه مرضوضة.

طفل يبلغ من العمــر أربعة عشر عاماً، شــاحب كله، ذو شــفتين مرتجفتين، يقف على ســاقين منحنيَيْن، ويثير الرعب بجلطة دموية قذرة على قفاه. وقد أسنده أحدهم من متنه.

كانت ملابس الكثيرين منهم ممزقة. وبدوا للناظر أجســاداً فتية ونحيفة.

كان ساشا يعرفهم جميعاً - إن لم يكن بالاسم، فبالوجه.

حاول بعضهم أنْ يمزح، لكن الشرطة صاحوا عليهم بنفاد صبر، وأمروهم بإغلاق أفواههم.

وسرعان ما جُمِعَ من «الأسرى» حشــد كبير، ما يقارب من ستين إلى سبعين فرداً.

وكان معظمهم مقيَّدي اليدين.

- دعونا ننزع عن جماعتنا «الأساور» أيضاً. - قال الشرطي الذي يعاني من ضيق التنفس. كان هو الكبير في المفرزة.

- لماذا؟ - سأله أحد أفراد المفرزة.

- هكذا ينبغي.

فهزَّ رفيقه أكتافه حيرةً، فتوجَّبَ على الأكبر أن يشرح:

- لقد تعرضــوا للضرب على أيدي «رواد الفضاء»، ونحن الذين سنسلّمهم إلى القســم. انظر إلى هذا، ربما، أنفه مكسور - لابد أنْ نتخلص منه. لا حاجة لنا للقذارة بســببه. أفَهِمْت؟ سنقودهم إلى الساحة - وهناك نتركهم في حال سبيلهم.

سحبوا ساشا وليوشـــكا وفينيا من الحشد لينزعوا الكلبشات منهـــم. وأحدثوا جلبة لمدة طويلة، من دون أنْ يســتطيعوا معالجة المفاتيح، وهم يسبون بصوت منخفض.

لعق ساشا شـــفته. ولم يســـتطع فينيا أنْ يوقف نزف الدم بأي شـــكل من الأشـــكال؛ فقد جفَّ على لحيتـــه كالقشرة الســـوداء. نظر ليوشا بعناية مِن حوله وأعاق بشكل ملحوظ نزع الكلبشـــات عنه، وهو يدوس برجليه ويسحب يديه إلى الخلف.

- اللعنة، قف بهدوء! - صرخ عليه أحدهم.

فجمد ليوشا.

- انطلِقوا إلى الأمام! بسرعة، ركضاً! - أمروهم.

اندفـــع الأولاد بهرولة خفيفـــة إلى جماعتهـــم الذين كانوا يمشـــون أمامهم على بعـــد ثلاثـــين إلى أربعين مـــتراً. أحاط بالمحتجزين بكثافـــة ناس يرتدون معاطـــف طويلة من النوع الرخيص وقبعات (كاب).

- يجب أنْ نبتعد، - قال ليوشـــكا بصـــوت منخفض، فور انفصالهـــم عن أفـــراد «شرطـــة الدوريات»، الذيـــن وضعوا الكلبشات في الجيوب على الأحزمة.

- دعونا نجرب. - ردَّ عليه فينيا.

- لنلحـــق، - قال ساشـــا، وفعلاً دخلـــوا إلى أقرب زقاق بخفة وسلاســـة، وكأنَّ هذا ما يجب فعله وكما لو كانوا يمشون

إلى شغل يخصهم، في منتصف الطريق إلى المحتجَزين الذين حُشِدوا في صفّ.

شعر ساشا وهو يزيد من سرعة سيره، كما لو أنه رُفِعَ عالياً على الأكتاف وأُنزِلَ.

ومض العشب بالقرب (وما أنْ كاد يسقط، حتى اندفع بيديه كالقرد، بعد أنْ خدش راحَتَي يديه على الحصى، يا لهذا الحصى، من أين جاء؟)، وومضت نافذة، ثم نافذة أخرى (المنزل كان يتأرجح)، وعربة أطفال، والمرأة التي تدفعها (التي تنحَّت جانباً عن سحنة فينيا التي جفَّ عليها الدم)، وسيارة دورية الشرطة الخارجة من الفناء والتي استدارت خلف الركن («ألم ينتبهوا إلى وجودنا؟ كان بإمكانهم أنْ يقفزوا... علينا مباشرة...»)، والمسطبة (لسبب ما، وضِعَت في عرض الطريق)، والحاجز «لن آخذه - إنه عالٍ...»).

وبدا له، الآن في كل ثانية، أنَّ القوة الدافعة للتأرجح ستصل إلى ذروتها، وسيأخذه أحدهم من رقبته ويسحبه إلى الخلف سحباً جارفاً.

قفز ساشا من السياج وسقط، بعد أن تشقلب...

«فعلاً السياج عالٍ جداً، كيف دخلت..».

وقع فينيا بقربه مُحدِثاً جلبة، ولسبب ما على أطرافه الأربعة، بلحية سوداء متشققة ودامية.

روغوف فقط نهض على قدميه، بعد أنْ كان جالساً واستقام في مكانه.

أمسك روغوف بفينيا من تلابيبه، فدفعه فينيا بقدميه ووقف وركض.

اندفعــوا في الأفنية، وهم يصدرون أصواتاً خفيفة ويلهثون واللعــاب اللزج والمر يســيل منهم، إلى أنْ اســتُنفِدت قواهم واختبؤوا، وبعد أنْ انهكوا تماماً، عند مدخل إحدى البنيات.

وقفوا تقريبــاً على أطرافهم الأربعة، بعيــون خائفة وأفواه مفتوحة وهم يلهثون ويتنفســون بصعوبة. واللعاب يسيل من أفواههم. دخل شخص المدخل، لكنهم لم يشعروا...

- يا بني... هل كنتَ... في موســكو؟ - بدا صوت الأم في الهاتف يحمل نبرة تشاؤم وحزن.

عندما سمع ساشــا هذا الصوت بالكاد استطاع أن يمسك نفسه عن تمزيق وجهه.

- نعم، كنتُ. - ردَّ عليها بصوت خافـت، وهـو يرفـع شفته المرضوضة، لذا صدحت كلمة «كنتُ» وكأنها «أُنتُ».

-... إنكم جميعاً مطلوبون، - قالت الأم وفي صوتها ما زال قليل من الأمل بأنْ يثنيها ساشا عن اعتقادها ويقول لها إنَّ هذا كله غير صحيح وإنَّه لم يرتكب أي خطأ.

- هذا... هراء... - ردَّ عليها.

الفصل الثاني

افترق ساشـــا عن فينيا وليوشـــكا بالقرب من المترو – فقد توصلّوا إلى أنَّ الواحد منهم إذا بقي لوحده سيتســـبب في إثارة أقل قدر من الريبة.

سافر من موسكو إلى مدينته الريفية – التي تبعد 500 فيرست[1] من العاصمة – بقطار الضواحي، أو، كما يســـميه رفاقه – «قطار الكلاب المتغيّرة». جلس وحده في ركـــن العربة، وفي داخله كان يرتجـــف في بعض الأحيـــان مما حدث مؤخـــراً، وظهر من جديد هذا الإيقاع – عندما ينهار كل شيء ويرن. اســـتمع ساشا إلى هذا الإيقاع وفهم أنه كان يرتجف جيداً.

بدت المدينة ضعيفة وصغيرة – وكسرُها كان بلا معنى مثل كسر لعبة: لم يكن هناك شيء في الداخل – سوى فراغ بلاستيكي. ولكن لهذا السبب كان ثمة شـــعور طفولي بالنصر، شعور لاذع بالتغلب، وتبين أنَّ كل شيء كان أبسط بكثير مما بدا...

(1) فيرست – هي وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال، تساوي 1,0668 كيلومتر. (المترجم).

حضر المفتشــون فذهب ساشا إلى مدخل العربة، وتفحَّص أرديتهم الزرقاء ووجوههم الصارمة من خلف الزجاج المعتم. ثم، بعد أن انتظر حتى التوقــف، ركض حول رصيف العربة التي فيها المفتش وجلس مرة أخرى في الركن.

في بعض الأحيان كان يمتص شفته المرضوضة، لكنها لم تعد تؤلمه بعد الآن - لقد شفي مثل القط.

يبدو أنَّ قطار الضواحي كان يسير بصمت - لم يسمع ساشا أي شيء.

كان المنظر خارج النافذة بائساً وكئيباً. انعكست صورته في الزجاج - شعر قصير مع ناصية جموح ولحية غير حليقة وبشرة داكنة وجبهة بتجاعيد مبكرة... وجه عادي.

وصل ساشـــا إلى مدينته، وأُغلقت أبواب قطار الضواحي خلفه، وكأنه زائدة دودية وقُطِعَت.

وبعد أن طرد الأفكار السخيفة بأنَّ كميناً ينتظره عند المدخل («... فقد نُصِبَــت كمائن في جميع أنحاء البلاد...»)، ركض إلى المنزل.

أطلق القفل الأصوات الرخوة الناعمة المعتادة. وفُتِحَ الباب.

كانت أمه تعمل في النوبة الليلية، فكانت الشقة فارغة.

اتصل ساشـــا بأحد معارفه. وســـأل عـــن إمكانية نقله إلى القَرية. فرد الرجل بتجهم: « اليوم أنوي الذهاب إلى هناك».

ترك ملاحظة لأمه: «ماما، كل شيء على ما يرام».

وصل إلى القرية في ظل الاهتزاز المعتاد. تحركت السيارة «لادا» (كوبيكا) وقد عُلِّقَ على الزجاجة الأمامية بدلاً من وثيقة المعيار التقني تقويم بأرقام ثخينة للعام الحالي؛ كان من المفترض أن يُضلل التقويم حراس الطريق. في الطريق إلى القرية لم تكن هناك سوى سيطرة واحدة (نقطة تفتيش)، نظر الشرطي إلى السيارة «لادا» بازدراء واستدار.

كان الرجل صامتاً طوال الطريق، وأحياناً يستمع إلى السيارة التي كانت تطلِق مجموعة متنوعة من أصوات الضجيج. بدا تناوب الأصوات هذا لساشا اختيارياً. وبدا له أنَّ الرجل يميز جميع مكونات هذا التنافر في الأصوات.

وعندما اجتاز السائق السيطرة، توتَّر تقريباً وتراخت عيناه، وأخذ عجلة القيادة بقوة وحدق في الطريق، فقد خشي حتى من النظر إلى الشرطي بعينيه، كما لو كان روحاً شريرة. وبعد ذلك بلحظة، اطمأنّ السائق وهدأ. وربما ساشا، كذلك.

تحول الطريق الأسفلتي إلى طريق ريفي. ودخل الطريق الريفي في غابة صنوبرية بعد أن مرَّ ببساتين وقريتين هادئتين وحتى من دون كلاب. كان الظلام في الغابة شديداً. وقد تآكلَ الطريق الممتد على مكان خط السكة الحديد الضيق السابق، ودقّ للغاية، تاركاً للسيارة حافات متينة ومتقاربة.

كانت السيارة «لادا» كالممسوس تضيء بمصباح أمامي واحد، والمصباح الثاني بالكاد ينير نفسه. اِلتوَت الأغصان وتحركت في الضوء. زحف الخوف من مكان ما من الطفولة أمام الظلمة الآتية بهدوء وأمام الأشجار فأشعل ساشا سيجارة، فمرَّ كل شيء وتجاوز خوفه.

وقد تذكَّر كيف أنه ووالده كانا يحشّان الأدغال، آنذاك كان ساشا في التاسعة من عمره. الحقيقة، أنَّ الأب هو مَن كان يحشّ، أما ساشا فحاول وجرَّب فقط الحشّ أثناء تدخين والده. ومن ثم كوَّم العشب الذي حشَّه والده في صفوف. ازداد الغسق كثافة، وكان من المفترض أنْ يأتي إليهم أحدُهم في شاحنة، ولكنه لم يأتِ. فأشعل الأب ناراً. جمع ساشا الأغصان، وخاف من الابتعاد عن النار. خرج الأب من المرج إلى الغابة، واستمع ساشا بخوف إلى طقطقة الأغصان المكسورة، ولكن جاء والده وكان ما جمعه من الحطب كثيراً. فنشبت النار، وفرقعَ الحطب القشاش (المجمع من عدة أماكن).

سيصل الآن إلى ذلك المرج... ها هو ذا.

وقد وصلت الشاحنة. قال الأب للسائق: «سأقضي الليلة هنا». وعندما غادروا، نظر ساشا من نافذة الشاحنة. كان الأب يقف على مسافة النار. لم يميِّز ساشا ملامح وجهه.

«ماذا؟ ماذا سيحدث لو ميَّزتها؟.. ماذا كنت سترى؟»

كان الصوت ساخراً، وحتى مزعِجاً. لم يجب ساشا هذا الصوت ولم يرد عليه. أغمض عينيه للحظة وحاول أن يتشاغل عنه.

شغل نفسه بالزجاجة الأمامية القذرة. والتقويم. ورفرفة ماسحات الزجاج المتيبّسة. وجوف الدُرج (الصندوق الداخلي) المكسور الباب الذي وضع ساشا فيه أعواد الثقاب المنسدلة مرتين، ثم ألقى العلبة بالقرب من ذراع التروس. وشعر السائق القصير.

لدى السائق في القرية منزل متعفّن.

عاش في القرية جدُّ ساشا وجدّته، والدا والده. لم يرَهما من مدة عام. لا يمكن الوصول إلى القرية لا في الخريف ولا في الشتاء ولا في الربيع - إلا في شهر مايو الحار والجاف. ما لم يكن على جرار. نادراً ما يجرؤ أي شخص على الانطلاق في وسيلة نقل أخرى.

لم يعد يرغب في التدخين بعد، إذ لم تقلل السيجارة من الطريق - كالمعتاد - بل استطالت مع الطريق بلا طعم وعلى نحو يثير الغثيان، والرماد (عندما تضرب السيارة على حواف السكة الحديدية الضيقة) يسقط على البنطلون فكان السائق ينظر شزراً إلى الطريقة التي ينفض بها ساشا النقاط المتوهجة.

«أحمق!» - سبَّ ساشا نفسه، متأسفاً على البنطلون الذي تثقّب بالحروق، وألقى بالسيجارة غير المُدَخَّنة للأخير من النافذة.

مال ساشـــا جانباً على المقعد واستقرّ متكئاً تقريباً، بعد أنْ نشرَ ساقيه على شكل مِشبَك، وحاول على الأقل لمدة وجيزة أنْ يحافظ على حالة الاسترخاء لجســـمه الذي أتعبه الطريق. النتوء التالي دفع ساشـــا نحو الســـائق. أراد ساشا الاعتذار، لكنه غيَّـــر رأيه وجلس جلسة مرتفعة، وهو يحدق بثبات إلى الأمام.

... جـــال شيء في رأســـه بالكاد يمكن تمييـــزه. في لحظات أخرى فوجئ بنفســـه بملاحظة هذا الدبيب، على ما يبدو، من أفكاره، وهذه البلبلة المزعجة للملاحظات الخارجة عن إرادته تقريبـــاً، وارتباطات شيء مُلاحَظ عـــلى نحو غامض مع شيء منسي بالفعل.

الشـــعور بالوحدة، بدا لساشا، غير قابل للتحقيق على وجه التحديـــد لأنه لا يمكنك حقاً البقاء وحيداً مع نفســـك خارج هذه الانعكاســـات التي تركها الأشـــخاص الذين مروا بك، ومن دون الكم الوفير من الإهانات والأخطاء وخيبات الأمل. وكيـــف يمكن أنْ تكون الوحدة عندما توجد لدى الشـــخص ذاكرة - حاضرة دائماً، وصارمة وهادئة.

«أيّ وحدة، إذا كان كل ما مررت به - هو فيك ومعك، كما لو كنت بائع البوظة (الآيس كريم) الذي باع كل شيء، ولكن يمشي مع دُرجه وعندمـــا يذهب إلى الفـــراش يضعه بجانبه، بارَداً...» فكر ساشـــا قليلاً، وهو يبتسم بســـخرية متذمّراً من

نفسه. «هذيان. يا له من هذيان»، - صدح صوت. لم يَرُدّ ساشا ثانيةً، لكنه هذه المرة وافق.

مكثت القرية في الظلام، ولم تُشـعَل الأضواء في العديد من المنازل.

لم يشـعر ساشـا تقريباً بالانتعاش من حقيقـة أنه عاد إلى الأماكن التي نشأ فيها.

لقد بدا له منذ مدة طويلة أنه، عندما يعود إلى القرية، يصعب عليه أنْ يتأثّر بأي نوع من الفرح - لأن كل ما وقعت عليه عيناه كان كئيباً ومثيراً للغثيان.

توقف العديد من القرويين، الذين يمشون ببطء على جانبَي الطريق باتجاه السـيارة «لادا»، وينظرون في داخل السيارة: مَن هذا، ولِمَن أتى؟ لم يحاول ساشـا حتى النظـر إلى أولئك الذين توقفوا حتى لا يتعرف على أيّ واحد منهم. كان كل شيء غريباً بالنسبة إليه.

وصل السائق إلى منزله.

- ستمشي على قدميك؟ - إمَّا سأل، أو قال ببساطة من دون أي علامة استفهام.

- سـأمشي، - قال ساشا، محاولاً ألّا يبدو ردّه مهيناً إلى حد ما (ولكنه لم يُفلح)، وخرج من السيارة.

أعطى ساشا مبلغ الأجرة حينما كانوا في المدينة.

مد جســده وذهب على طول الشــارع الذي بدأت تغشاه عتمة المساء إلى منزل والده.

كان الدرب مشــوهاً وقذراً. فقــد أُلقِيَت من بعض المنازل القمامة الناعمة وفضلات الطعام والغُســالة وسُكِبَت مباشرة في الخنادق أمام المنــزل - وكان الدجاج ينقر ما أمكنه أنْ ينقره منها، والباقي يتعفن بهدوء. تجنب ساشــا المــرور من جانب الخنــادق - وقد خمَّن وجودها من خــلال الرائحة ومن خلال النعومة الكريهة للتربة الرطبة والمتعفنة من حولها.

قرر أنْ يختصر الطريق إلى المنزل الواقع في الشارع المجاور، مروراً بحديقة الخضراوات. بالإضافة إلى ذلك، حتى لا يشعر بالتقزز، فضّل المشي إلى المنزل بشكل اعتيادي من خلال الفناء الخلفي، منغمساً بشكل تدريجي في القباحة والخراب.

وقد انعطف إلى مســار ضيّق، فانزلَقت قدماه وتباعدتا في الوحل. فلوَّح ساشا بيديه وسبَّ بصوت منخفض...

عبثاً احترز ساشــا من الطين - لأنه عندما ســار في حديقة الخــضراوات، غاص على أي حال في الوحل وتلطَّخ ومشــى الأمتار الأخــيرة إلى البوابة بتثاقل يجر قدميه جرّاً، مُجبَراً على أنْ يدوس على الثفالة السوداء.

«هل نسيتَ كيف تفتح المزلاج؟» - حاول ساشا أن ينعش نفسه. دسَّ يده بصعوبة في شقّ البوابة الخشبية الخارجية (في مرحلة الطفولة، فَعل ذلك بسهولة - بيده النحيفة) وحرَّكَ المزلاج.

- لم أنسَ! - قال ساشا همساً، مصوِّراً لنفسه بتكلّف فرحته الخاصــة: في المرة الأخيرة هزَّ، مثل الأرجوحة، مزاجه الباطل، ولكن لم يكن ثمة فرح، البتّة.

- لم أنــسَ، - كرر بصوت عالٍ مرة أخــرى، ولم تشر هذه العبــارة إلى أي شيء، مجرد أنه أراد أنْ يقول شــيئاً، وهو يغلق البوابة ويتحــرك في الفناء، بين الســقيفتين الصغيرتين وعنبر التخزيــن التي تركها الجدُّ العاجز. والتــي تقع بعدها الحظيرة التــي لم تُرَبِّ الجدّة فيها ماعزاً منذ عــام، ولم تكن فيها خنازير من ثلاث سنوات، ومنذ عشر سنوات اقتيدت من هناك البقرة دومانكا إلى المســار الأخير. لم تأتِ من الحظــيرة روائح الحياة أو الروث، ولا توجد هنــاك روح ذات وبر وحوافر، ولم يكن ثمة حيوان يجتر أو يتنفس بصخب خائفاً من خطوات ساشــا. فاحت من الحظيرة رائحة الرطوبة والقذارة فقط.

نظر ساشــا نظرة حزينة إلى المنزل - النوافــذ الصغيرة كانت مظلمة. خطا بحذر واجتاز السياج المتصدع - العالي على اليمين، وجــدار المنزل المبني من الطــوب الأحمر - القاتم على اليســار، ولســبب ما توقــف عند ركن المنــزل - خلف الركــن ثمة باب المدخــل. وكان عند المدخل ثمة دكة، تذكرها ساشــا وعرف أنَّ جدّته كانت تجلس على الدكـة، وهـــي تطـوي يديهـا الناعمتيَن والمتعبتَيـن علـى ركبتيهـا.

على الطريق بالقـــرب من المنزل وقف طفـــل يحمل غصناً يابســـاً. كان يضرب البِركـــة بالغصن ويقول شـــيئاً وبصوت خفيف، مرتدياً عن الرذاذ.

اتخذ ساشا نصف خطوة أخرى.

نعم، كانت الجـــدَّة تجلس على الدكة - برصانة وبلا حراك، على ما يبدو، لم ترَ أي شيء. وسلوك الطفل ولعبه وصوته أعطت انطباعاً بأنه هو أيضاً لا يرى ولا يتذكر جدته وهي جالسة على الدكة. وكأنَّ الجدّة والطفل موجودان في أبعاد مختلفة.

كان الشـــارع مهجوراً ومظلماً وقذراً، مثل جميع الشـــوارع الأخرى في القريـــة. خلف حدائق الخضراوات التي نمت فيها الأعشاب الضارة الملتوية، تراءت البيوت المجاورة التي بالكاد يمكن تمييز النوافذ الصفراء القليلة فيها. كانت الشمس تغرب، بل غربت تقريباً.

بقي الطفل يلوِّح بالغصن الجاف ويراوح في مكانه.

كانت الجدَّة تنظر، مـــن دون أن ترمش، فوق الطفل وفوق حدائق الخضراوات وفوق الأشجار.

لقـــد اختفت القريـــة وماتت - هذا هو الشـــعور الذي في داخله. وأبحرت كقطعة جليد داكنة محفورة ومتيبســـة وطافت بهـــدوء. وبـــدت الحظائر المهجـــورة، التي نمـــت في الأرض وانتصبت عـــلى طول الطريق، ســـوداء بجوانب رطبة وألواح

متعفّنة. نما العشب على أسطح الحظائر وحتى التفَّت عليها الشجيرات الضعيفة، التي تأقلمت، لكنها لم تجد مكاناً لتمد جذورها - وامتدت تحت جذورها الأماكن الباردة المهجورة، التي تسللت لها حيّات الحفث غير السامة التي لم يعد أحد يزعجها بعد الآن، نحو الأواني الفخارية المكسورة والبراميل المثقبة. ونمت الشجيرات وزحفت على الطريق.

وسط كل هذا الانهيار البطيء وشبه الكامل، بدا الطفل غريباً وخجولاً وفي غير محله.

- سانكا... - تنهدت الجدَّة عندما كان ساشا يصرّ أسنانه حتى لا يستدير ويركض من الحديقة، وتقدم إلى الأمام وألقى حقيبته على الأرض ومد يديه إلى جدّته.

- كيف أتيتَ، ها، قل؟ - سألته. - بالسيارة، تعال؟ وحدك؟

ردَّ ساشا بالإيجاب بأنه - وحده، وبالسيارة، ونظر إلى وجه الجدَّة الداكن المستدير وإلى عينيها المغرورقتين بالدموع.

- لقد فكرتُ منذ أيام، كيف لا يأتي سانكا، - قالت الجدَّةُ فشعر ساشا بتوبيخ طفيف في صوتها. - ولا يكتب رسائل. سيموت جدِّه، وسانكا لا يعرف...

نطقت الجدَّة كلمة «سيموت» من خلال التركيز على حرف «الواو»، ولهذا صدحت الكلمة بشكل أكثر عجزاً وأكثر حتمية. ولم يكن فيها ثمة فظاظة ولا ذبول.

نظر الطفل في حيرة إلى ساشا، الذي احتضن جدَّته وقبَّلها، بعد أنْ ضغط على كتفيها الناعمين. ربما كان هذا مدهشاً للطفل كما لو احتضن ساشا الشجرة أو ركن الحظيرة.

حمل ساشا حقيبته ووقف متردِّداً. فتحت الجدَّة باب المنزل.

- الجدُّ حالته سيئة جداً، قد يعيش حتى سبتمبر (أيلول)، وقد لا يبقى، إنه لا ينهض ولا يريد أنْ يأكل أو يشرب سوى القليل من الماء، - قالت الجدَّة بهدوء وهي تدخل إلى سقيفة المدخل.

لم يجرؤ ساشا على دخول الكوخ الذي يرقد فيه جدُّه، ومشى إلى المطبخ خلف جدَّته - التي بدأت على الفور، وفقاً لعادة ريفية جيدة، في الطهي، من دون طرح الأسئلة التي سيأتي دورها.

اشتعل في المطبخ مصباح خافت واحد. وكان الذباب يجثم على كل شيء في المكان. وعندما جاءت الجدة حلَّقت عدة ذبابات بصمت. وبعد أنْ دارت الذبابات قليلاً وكَّرت بهدوء مرة أخرى - وكانت شبعى وخاملة.

تحدثت الجدَّة بهدوء عن أبنائها (كان لديها ثلاثة أبناء) والد ساشا واثنان من أعمامه، أحدهما كان عراب ساشا. مات جميع الأبناء.

مات أولاً الأصغر، سيريوجا - بحادث اصطدام دراجة نارية، كان في حالة سكر.

وقبل عامين، في الصيف، قُتِلَ في شـجار سُكْرٍ عرّاب ساشا، نيكولاي، كان الابن الأوسط. ودُفِنَ بجوار شقيقه الأصغر.

وقبـل عام ونصف العام، في المدينة التي جاء منها ساشـا، توفي والده، فاسيلي. كان الأكثر تعليماً في الأسرة، وكان يُدَرِّس في الجامعة، لكنه يشرب الكحول أيضـاً، وبالإضافة إلى ذلك قبيل وفاته كان يشرب بإلحاح ومن دون أنْ يصحو.

أحضر ساشـا والده (في تابوت) في الشتاء... كان الطريق مروعاً... وحتى إنه لا يطيق تذكّره.

- كنـت أنظف الفناء وأتيت إلى جدِّك. - تحدَّثت الجدَّة. - «يا جدُّ، هل حقاً، مات فاسـيا[1]؟» - سألته - أعتقد، أنّي رأيت ذلك في المنام. «طبعاً، لا، هذا ليس صحيحاً!» - قال لي... والحقيقة، إنه مات، يا سانكا...

جلس ساشـا خلف الطاولة المغطاة بقطعة قماش مشـمّع قديمة، ودحرج سيجارة في أصابعه.

قالت الجدَّة بهدوء:

- كنتُ أجلـس عند النافذة، وبقيتُ جالسـة لمدة طويلة. وأفكِّـر، لو يأتيني أحدهم ويقول: أمشـى ألـف يوم، حافية القدمين، في أيِّ شـتاء، وسـتتمكنين من رؤية أبنائك، لفعلتُ ذلك، ومشيت. من دون أنْ أقول أي شيء أو أنْ ألمس أحدهم، مجرد أنْ انظر كيف يتنفسون.

---

(1) فاسيا - صيغة التصغير والتحبب من اسم فاسيلي. (المترجم).

تحدثت الجدَّة بهدوء، وكان ثمة رعب أسـود وراء كلماتها، إنه تقريباً الشـعور بالوحدة التي لا يمكن إدراكها تقريباً والتي فكرت بها ساشـا قبل قليل - الوحدة التي كشفت عن جانبها الآخر - الوحدة الكبيـرة، ولكن الخالية من الصدى - التي لم تستجب بأي شكل من الأشكال لأي صوت من الأصوات.

- كيف تقـول إنك قرأتَ، يا سـانكا، الكثير من الكتب، ولم تجـد مكتوباً في كتاب واحد أنـه لا ينبغي تناول الشراب؟ - سألت الجدة ساشـا من دون أنْ تنتظر منه جواباً. - وكيف قـرأ هو ما لا يحصى من الكتب، ولم يجد فيها ما يقول إنَّ الناس يموتون من الشراب؟

بقي ساشا صامتاً ولم يَرُدّ.

- والآن، رقدوا جميعـاً وهَجَعَوا. لن ينهضوا إلى أي مكان آخـر، ولن يتناولوا الشراب، لن يسـافروا إلى أي مكان، ولن يقولوا كلمة لأي شـخص. لقد ثملوا. كنّا نعتقد أنا وجدّك - إننا سـنرقد بجوار الابن الأصغر، ولكن كوليا وفاسيا رقدا في قبورنا. الآن ليس لدينا مكان لنرقد فيه.

طهت الجدَّة في مقلاتَيْن في وقت واحد - في إحداهما كانت تسخِّن، البطاطا واللحم وتقلّبهما وفي المقلاة الأخرى أصدرت الأرغفة صوتاً خفيفاً وتكسرت وهي التي أحبَّها ساشـا - الفطائر الرقيقة والشفافة تقريبـاً ذات التخريم الحلو والمقرمش الداكن في الحواف. كانت الجدَّة تطبخ مـن دون ضجة، بوئـام وببراعة، ومـن دون أنْ تفكر في ماذا

وكيــف تطبخ، وربما يمكنها أن تغمض عينيها وحتى أنْ تبتعد بذهنها عمّا كانت تعدّه.

- في الشتاء الماضي ذبحنا البطات الأخيرات، - قالت الجدَّة وهي تقلِّب البطاطا واللحم في المقــلاة، - إذ لم تعد عندي قوة للذهاب إلى النهر. أســتطيع النزول إلى أسفل التل، ولكن أعود بصعوبة، البطّات تنتظرني وتنادي علــيّ.

انتقل خطاب الجدَّة بشكل غير ملحوظ من واحد إلى آخر، ولكــن كان الأمر يتعلق بشيء واحد - أنَّ الجميع ماتوا ولم يعد ثمة شيء آخر.

- الجدُّ أصابه الصمم تماماً، ولا يسمع أي شيء... نهض في المرة الأخيرة فــي يونيو (حزيران)، ذهب إلى المرحاض وسقط في الفناء. «لماذا نهضتَ؟ - قلتُ له. لقــد وضعتُ دلواً لك!» بالكاد استطعتُ أنْ أرفع الجدّ.

قلَّلَت الجدَّة النار تحت مقــلاة البطاطا واللحم، ووضعت الرغيف الأخير من المقلاة الأخرى وذهبت إلى الكوخ.

نهض ساشا، وراوح في المطبخ ثم ذهب ليدخن في الخارج. وهو يخرج، سمع الجدّة تقول بصوت عالٍ للجدِّ:

- لقد جاء سانكا! سانكا!

- ســانكا؟ لماذا لا يأتــي؟ ســمعتُك تهمهمين هناك مع شخص ما...

أظلمَ الجو تماماً. وكانت القرية صامتة.

ذهب الطفل. بالقرب من البركة تُرِكَ غصنه اليابس.

تصاعد الدخان من السيجارة. ولم يسقط الرماد.

مشـــى رجل مُنهَك ومخمور من جانب ساشـــا من دون أنْ يلتفت إليه.

- لماذا لا تأتي إلـيَّ، يا سانكا؟ - سأل الجدُّ عندما دخل ساشا الكوخ وجلس عند السرير.

في صوته، اختلجت ســخرية الرجل العجوز بشكل بالكاد يمكن سماعه - أنت تخاف، كما يُقال، مني - مِنْ جدُّك المحتضر. وإلى جانب السخرية، سُمِعَ الأسى، - حسناً، لا شيء، يا فتى، لن أمسك بك لمدة طويلة.

لقد هزل جســد الجـدِّ وبرز كتفــاه الحادَّان ونتــأت حنجرته الرمادية وغارت عيناه الضعيفتان. اســتعدَّ الجدُّ للموت. وعندما كان يتحــدث، بدا الصــوت في حنجرته بقبقة يصعب ســماعها، وخرجت الكلمات بأصوات غير واضحة المعالم تقريباً.

- الموت لا يخيفني، يا ســانكا... الحياة طويلة جداً. سئمت بالفعل. ها أنا ذا أرقد، لا يمكنني أن أموت. إيه، يا ســانكا، يا سانكا...

لم ينطق ساشا بشيء وظل صامتاً وهو ينظر إلى جدِّه.

- دعــه يأكل، فقد وصل للتو! - قالت الجدَّةُ التي دخلت.

- ستلحق على الكلام حتى تشــبع! لن تموت في الوقت الذي يأكل فيه!

- وهل منعته، - أجاب الجدُّ. - اذهب، يا سانكا، كُلْ...

ذهب ساشـــا طائعاً إلى المطبخ. همس الجدُّ شيئاً، تحدث مع شخص ما، بعد أنْ أغمض عينيه.

سألت الجدَّةُ ساشا عن والدته، عما إذا كانت ستتزوج، وما إذا كان هو نفسه يشرب وأين يعمل الآن. لم تعتزم الأم الزواج، وساشا لم يشرب بالمعنى الذي سألت عنه الجدَّة، وكذب بشأن العمل. قال إنـــه يعمل ولكنـــه تعاجز أنْ يقول مـــاذا يعمل. بالنسبة لكبار الســـن، العمل يعني حراثة الأرض أو في مصنع أو مستشـــفى أو مدرسة... وهم على حق. ولكن اليوم، أصبح مثـــل هذا العمل، في معظم الحالات، من نصيب الأشـــخاص غير الناجحين كثيراً، والذين سحقتهم الحياة.

الجدَّةُ، كما يُقال في القرية، «ضيّفته»، فشرب ســـانيا بسرور الساموغون[1] وأكل معه اللحم والبطاطا من أجل الاسترخاء على الأقل بطريقـــة أو بأخرى. وشرب كأســـاً بعد كأس عدة مرات.

كان الجدُّ يحتضر في الغرفة المجاورة. أكل ساشا بكل شهية. فقد كان جائعاً. وكانت الأرغفة كما هي في الطفولة، لذيذة.

تحدثت الجدَّةُ عما حدث في القرية.

عـــاش في البيـــت الواقـــع في نهاية الشـــارع رجـــل يلقّب خوموت[2]. كان ساشا يعرفه جيداً. خوموت أنقذ ساشا ذات

---

(1) الساموغون – مشروب كحولي قوي يُصَنَّع في المنزل. (المترجم).

(2) خوموت – تعني الطوق (لعنق الحيوان) والنير والعبء. (المترجم).

مرة. وكان الأب يعرف خوموت، فقد كانا صديقَين - نوع من الصداقة الهادئة والصامتة.

كان خوموت صحيح البنية ودقيق النظر وقوياً كالحصان. في الصيف الماضي انتحر خنقاً. جاء إليه أبناؤه من المدينة لكي يساعدوه في حديقة الخضراوات. وعندما كانوا يعملون في الحديقة تشاجر خوموت مع أبنائه. كانت علاقته سيئة معهم من مدة طويلة. تشاجر معهم وقال: «الآن سأريكم!» وذهب إلى المنزل. ولوح الأبناء بأيديهم واستمروا في العمل. وعندما جاؤوا، وجدوا والدهم في السقيفة - علق نفسه على العارضة، بعد أنْ ثنى ساقيه.

لم يعد خوموت الآن موجوداً.

عبر الفناء من منزل عائلة ساشا، عاش رجل يُلَقَّب القوميسار. وقد دُعي بالقوميسار لأنه على مدى السنوات الخمس الأخيرة لم يفعل أي شيء سوى مراقبة أهل القرية وهو يقف منذ الصباح عند السياج متكئاً عليه. طلَّق زوجته وعاش على تقاعد والدته. دائماً ما تراءى لساشا أنَّ ثمة شيئاً غير صحي فيه. بأيّ شيء يشغل نفسه رجل ضخم كالثور في الأربعين من العمر طوال اليوم من دون امرأة؟ ابنته نشأت وحدها في المدينة، وما زالت طفلة بعد... بإمكان المرء أن ينتحر خنقاً من مثل هذه الحياة. لكنه لم يخنق نفسه. في البداية، ماتت أمه الهادئة، وسرعان ما مات هو نفسه، فقد عانى من شيء ما في قلبه.

ومات ولـــدان من أولاد أقـــرب جـــارة، في الوقت الذي تعرَّض فيه عم ساشـــا الأصغر لحادث الارتطام، أولاد الجارة أيضاً تعرضوا لحادث ارتطام، وكذلك على الدراجات النارية. لقد حدث في الســنوات الأخيرة من النظام السابق أنْ انتعش الفلاحون أخــيراً وصاروا يجمعون بعض المــال. وأول شيء يفعله القروي، الذي يعمل بجـــدٍ ويبذل كل ما لديه من طاقة طوال حياتـــه، هو أنْ يدلل طفله، بغـــض النظر عن عمره. في تلك الســنوات كان صبيان القرية كلهم يرغبون بالانتقال من ركوب الدراجـــات الهوائية إلى الدراجـــات النارية. لم يقتصر الأمر في القرية على عـــدم وجود رجال شرطة المرور، بل حتى إنَّ الشرطي المســؤول عن المنطقة لم يره أحد لمدة ســتة أشهر، لذلـــك كان الجميع يركبون الدراجات وهم ســكارى. وعلى الفور يبدؤون في العراك. وتعرّضوا إلى حوادث ارتطام فظيعة، فكان أحدهم قبل الموت يطير مدفوعاً بضربة من السرج خمسين أو حتى سبعين متراً، فتحطمت رؤوسهم الغبية على الأشجار والأســوار وكُسِرَت جميع عظامهم حتى تحولت أجســادهم إلى خثـــارة ناعمة ورديـــة، وأحياناً حتى الفتيـــات الصغيرات الجالســـات في المقعد الثـــاني تعرضن للارتطـــام. وإذا لم تمُت الفتيات، فإنهن غالباً ما يكسر لديهن العمود الفقري ثم يرقدن غير قادرات على الحركة يندبنَ تلك الليلة المشؤومة في أذهانهنّ كل دقيقة.

وغالباً ما شاهد ساشا، عندما كان ما يزال طفلاً يركض إلى متجر القرية لشراء الخبز، في المتجر ثلاثاً من النساء وأحياناً خمساً وفي بعض الأوقات أكثر يرتدين الشالات السوداء - جميعهن لديهن أبناء تعرضوا لحوادث ارتطام. كانت النسوة يقفن ويتحدثن بهدوء كيف عاش أطفالهن وكيف ماتوا. وبعض الكلمات التي سمعها بشكل خاطف في طريقه من شفاه النساء السوداء بقيت لمدة طويلة في رأس ساشا تعذبه وتثير قلقه.

وحكت الجدَّةُ إنَّ بعض الناس غادروا القرية في السنوات الأخيرة وبعضهم توفي بهدوء من علة مبكرة، وبقي رجل واحد في الشارع - لم يتذكر أحد الآن لماذا أُطلق عليه اسم البلبل. كان الرجل يسكر في مكان غير معروف كل ليلة ويعود إلى المنزل يصرخ بحماقة على زوجته الصامتة والمنهكة واليائسة منذ زمن طويل. لم يكن لديهما أطفال. وكان صراخ البلبل يدوي في أول الليل في القرية الفارغة تقريباً.

وعندما كان في حالة السُكر لم يكن يستطيع التعرّف على الكثير من الأشخاص، ويجرّ رجليه متثاقلاً في الشارع من دون أنْ يلحظ شيئاً، ولم يعِده من سكره العميق إلى الواقع المشوَّش سوى مظهر زوجته الكئيب، فيوقظ فيه الرغبة الغريزية في الصراخ والسباب، من دون أنْ يدرك تمام الإدراك كلمة واحدة مَما يقول.

كان البلبـل هو الذي مرَّ من أمام المنزل عندما كان ساشـا يدخّن عند السياج.

نظَّفت الجدَّةُ المائدة وذهبت لتفرش لساشا في الغرفة المفصولة بحاجز عن مضجع الجدّ.

وعندمـا كانت تفرش السرير، تذكـرت كيف نام على هذا السرير فاسـيا، فلذة كبدها، الطفل الصغير الذي رعته بحبّ بعد سنوات الحرب، والذي نشـأ في ظل العمل الزراعي فتى نحيفاً طويل القامة، قد اصلَعَّ مبكراً والذي غادر منزل والديه وعاد رجلاً سـليم البنية ومع هذا بقيت ترى فيه بكل بسـاطة ذلك الطفل نفسـه. ولكن ها هو فاسيا قد جمد الدم في جسده، ولم يعد بين الأحياء.

عندما مرض فاسيا لأول مرة بقلبه، حلمت به. رأت ابنها في المنام يرقد على السرير ويقول: «ماما، ها هنا يؤلمني، لا أستطيع التنفس»، - وأشار إلى قلبه.

ذهبت على الفور إلى فاسـيا، وصلت بشكل غير متوقع إلى المدينة التي لم تذهب إليها منذ عشر سنوات، وبالفعل في المدينة علمت أن الحلم كان رؤية مُبينة.

وقد صحبها ساشا آنذاك إلى المستشفى التي رقد فيها والده على عجل.

كان الأب يرقد هادئاً ووجهه داكناً، يسـتمع إلى نفسه. كان قلبه المريض ينبض في الداخل. جلسـت الجـدّة بجانب ابنها ونظرت إلى وجهه.

أُجريت لــلأب عملية جراحية، وفُتِــح صدره لمدة نصف ساعة، وطوال المدة التي اشــتغل فيها الأطباء كان قلبه خارج جسده. وقد تعافى. ومُنِع من تناول المسكّرات. ولكن سرعان ما مات شــقيقه كوليا، فأقبل فاسيا على معاقرة الخمر. ثم أدمن الشرب، ودخل مرة أخرى إلى المستشفى وتوفي بسرعة، خلال يومين.

عرف ساشــا أنَّ جدَّتــه كانت تفرش السريــر وتفكر مرة أخــرى، لماذا، لماذا، عندما مرض فاســيا في المرة الثانية، لم يأتِها بالحلم، ولم يدعُها، ولم تتمكن من العثور على إجابة.

لم يأتها في الحلم ولم ينادِ عليها. واتصلوا في الشتاء بالجيران، على الهاتف الوحيد في القرية، وقالوا إن فاســيا مات، اِخبِروا: إننا نأخذه لندفنه. وبعد ثلاثة أسابيع من الدفن، وصلت رسالة ساشــا التي كتبها قبل أسبوع ونصف أســبوع من وفاة والده. بســبب العمل الضعيف للخدمة البريدية، فاتت الرسالة جميع المواعيد النهائية ووصلت تقريباً سيراً على الأقدام. كتب ساشا في الرسالة أنَّ صحة والده على ما يرام.

- كيف حدث كل هذا بين عشية وضحاها؟ - سألت الجدَّةُ ساشــا، الذي شرب من جديد ودخَّن مرة أخرى وذهب لكي ينام. - لقد كتبتَ في الرســالة ما مفاده أنَّ صحة والدك جيدة. قِــرأتُ ذلك، في الوقت الذي هو في القبر. لم يشــعر بالارتياح هناك. فقد تعذب طوال حياته...

نظرت الجدَّةُ إلى ساشـا بهدوء، من دون أنْ تنتظر إجابات منه.

«في بعض الأحيان يقـال إنَّ الأجداد يحبون أحفادهم أكثر من أبنائهم. ليس صحيحاً...» - فكَّر ساشا مع نفسه.

أحبَّت الجدَّةُ أبناءها. وكان ساشا بالنسبة للجدَّةِ ذكرى غير واضحة عـن الوقت الذي كانت فيه عائلتهـا كاملة وأبناؤها أحياءً. ولكنها لم تكن قادرة على أنْ تمنح ساشـا ميزات والده، وأنْ تحسَّ بـه، دمها الذي وهبته لابنها ونـما في حفيدها. كان ساشا شخصاً منفصلاً وغريباً عنها تقريباً...

نادراً جداً ما نظرت الجدّة إلى ساشـا على أمل أن يظهر ابنها المتوفى بملامح الحفيد، ويلمِّح، لكنها تتلعثم على الفور: «ليس هو، ليس هو..».

فهم ساشـا هذا وقبِل بهـدوء اغتراب الجـدَّةِ هذا الخفيّ والرقيق كالشـعرة والذي بالكاد يمكن الإحساس به. ولأنه لم يدرك ذلك بالعقل، شعر في قرارة نفسه، أنَّ في ظل هذا النوع من الاغتراب عن جدَّتِه سيكون من الأسهل له البقاء هنا. فعندما يكون لكل شخص مشاكله الخاصة في قلبه، قد لا يكون هناك سـبب للمسـاس بهذه القلوب. إذ ليس من الضروري تجاوز حدود ما لا يمكن تحمله.

الجدُّ جمع أمره عـلى ألّا يتأخر أكثر واسـتعجل للالتحاق بأولاده.

لقد تحمَّل برباطة جأش وفاة اثنــين من أولاده وحتى قبل عام من وفاة الثالث كان قوياً. أقوى من ساشــا - تذكر ساشا كيف تعجب من صحة جدّه عندما كانا يعملان في الفناء ذات مرة وكان جدّه يحمل مطرقة ضخمة بالكاد اســتطاع ساشا أنْ يحملها.

ولكن الابن الأخير رحل، فسَئِمَ الجدُّ الحياة ولم يعد يرغب بها.

لم تظهر ثمة انعكاســات للماضي في رأس الجدِّ. لم تكن ثمة ذكريات عن الزمن الذي كان فيه، وهو عامل طليعي شــاب، يعمل على الحاصدة، والذي كان فيه آمراً للمدفعية وهو ضابط شــاب. لم يتذكَّر الأَسْر الذي استمر لمدة ثلاث سنوات تقريباً، ولا حياة ما بعد الحرب. لم يكن هناك وضوح ولا ذاكرة جيدة. كانــت ثمة أصداء وإغفــال وبقايا ذكريــات، لم تكتمل فكرة واحدة، كل شيء تأرجح، كما لو كان في عربة قطار مظلمة ذات ضوء وامــض وخافت تقريباً ضجّت فيها في مكان ما أصوات رفاق الدرب غير المرئيين، والأطبــاق تصدر أصواتاً، والجابي (جامــع التذاكر) غير موجود، وشيء مــا غير واضح يومض خارج النافذة.

كان الجدُّ ينصت، لكنه لم يستطع عمل أي شيء.

مرِّت الجدَّةُ فـلاحظهــا الجــُّـد. ومرة أخرى، لم يســتطع التفكير في أي شيء لا بها ولا بنفســه ولا بأي شخص. لم يكن

ثمة شيء ليُقــرَّر، ولم يُحَل أي شيء من تلقاء نفســه. انتهى كل شيء واضمحَلّ. وتدحرج بلا لون. إذ من النادر أنْ يقطر الشيء المتبقّي في القاع.

كـان الجدُّ يشغّل الراديو دائماً بأعلى صوته - في تلك الأيام الغابرة. في الســاعة السادســة صباحاً يهتزّ الكوخ من صوت النشــيد الوطني. فتنهض الجدَّةُ في هذا الوقت. كان ساشا يمد ســاقيه الرقيقتين بكعبيهما الوســخين غاضباً على جدِّه. ولكنه سرعان ما يغفو - بُعَيْد انتهاء اللحن. ويستيقظ في مزاجٍ جيد. يتناول حســاء الحليب. في بعض الأحيان تقع ذبابة في الحساء، لكن ساشــا لم يتقزز - بعد أن يلتقط الذبابــة ويضعها بجوار الطبق، كان يأكل الحســاء كله. والذبابــة بجناحيها الملتصقين ترقــد في بركة بيضاء صغيرة. كان الحســاء لذيذاً للغاية، حلواً وساخناً. بعد الحســاء يتناول الأرغفة والشاي. كان كل شيء شهيّاً جداً.

في السادســة صباحاً، بدأ الراديو يدوّي بصوت أجشّ، كما لو كانت إســطوانة النشــيد قد انتهت أو لا يمكن أن تبدأ على الإطلاق، معرقَلةً ومكررة النغمة نفســها. كان الراديو يتنفس بكثافة برئته الســوداء المتربة، وهو يزعق في صفير. ولم يتوقف الصوت.

فتــح ساشا عينيه.

عُلِّقَت على الحائط فوق رأسه أيقونات.

انهمر الضوء من النافذة الصغيرة على يسار السرير.

لم تكن الجدَّةُ في الكوخ.

تصنَّـتَ ساشا، يريد أن يسمع نفَس جدِّه، لكنه لم يسمع. لم يرغب في النهوض. ولكنه لم يرغب أكثر بالنوم مع الجدِّ خلف الفاصل.

لامست قدماه الأرض بتقزز. واختلج كتفاه. انكمش فكّاه لكي يكبحا التثاؤب. واندفعت عيناه بشكل محموم في الغرفة، بحثاً عن شيء تتوقفان عليه، حتى يهدأ قلبه ويبدأ الصباح على خير.

عُلِّقَت في الزاوية المقابلة مــن الغرفة مجموعة صور العائلة الفوتوغرافية التي رآها ساشــا ألف مــرة. لكنه ما يزال يحب النظر إليها.

لبس ملابسه، مرتدياً على الفور البنطلون والقميص الداخلي والكنزة، من دون أنْ تخطر على باله فكرة «... انظر، كيف حال الجـــدِّ...» ومرّ في الزاوية البعيدة، محاولاً أن يمشي بهدوء، نحو الصور الفوتوغرافية التي ابيَضَّت بإبهام.

ها هي الصورة الكبيرة التي طالما أدهشت ساشا: العام 1933، تجِلس فتيات القرية في مجموعة، كان عددهنَّ يقارب العشرين. الفتيــات مُنعّمات، يمكنك أن تقــول - ضخمات الوجوه، كلّ

واحــدة أكثر حلاوة من الأخرى. ولكن بعد كل شيء - كانت حقبة تنشيط العمل التعاوني (إنشاء المزارع الجماعية التعاونية)، فكُنَّ يتظاهرن بالشغل (من أجل الحصول على علامات في دفتر العمل). نسي ساشـا أن يسـأل جدَّته كيف كان ذلك. ها هي الجدَّة، عمرها نحو ستة عشر عاماً أو أصغر (لم تكن تعرف عيد ميلادها ولم تحتفل به أبداً) - لكنها بالفعل حسـنة المظهر، ليس لديها عيوب واضحة. والعام 1933 على الأبواب.

وها هو الجدُّ مع صديقـه عام 1938. وجهاهما واضحان، والعيون مفتوحة كل الفتح، ويبتسمان ابتسامة رجالية خفيفة. سـاعة القادة على يد الجدِّ، ضخمة وبارزة للعيان. رفيقه ذو مظهر شـبه قوقازي، ولكنَّ هذا القوقـازي جدير ومشرق كله - وميض، كما لو عكس الفـلاش بطريقة غير معروفة. (1938).

كانا يشعران بالاسـترخاء. وبالرضا لأنهما يلتقطان صورة والحياة أمامهما.

رفيق الجدِّ، نسي ساشا ما اسـمه، مات بطلاً (استُشهِد) في الحرب الوطنيـة (العالمية الثانية) كان طيـاراً. تمثال نصفي له نُصِب قرب المتجر، مع زهور ذابلة قديمة في الأسفل.

كان لدى الجدِّ امتياز (حتى العام 42 لم يُسـتدعَ للذهاب إلى الجبهة) لأنه أفضل سـائق حاصـدة في المحافظة. كان الجدُّ قد تزوج من الجدَّةِ، لكن لم يكن لديهما أطفال بَعدُ آنذاك.

ولكن في الخريف من عـــام 1942، اضطر الجدُّ للذهاب إلى الجبهـــة. وسرعان ما وقـــع في الأسر. وقضى الحـــرب كلها في الأسر. تحدث عن هذا على مضـــض. كان يحب فقط أن يتذكر كيف تنبأ له عجوز صربي وأكَّد للجدِّ أنه ســـيعيش حتى ســـن الثمانين.

- كان الناس يموتون باستمرار، كل يوم، عدة أشخاص. - قال الجدُّ. - وناموا جنب بعضهم بعضاً ليشعروا بالدفء أكثر، كلهم في صفّ على التوالي. وكان الجميع دفعةً واحدة يستديرون معاً من جانب إلى آخر، عدة مرات في الليل. وأحياناً تســـتدير، فتجـــد جارك الذي بجانبك قد مات ويرقد بارداً... لقد تنبؤوا لي بأني سأعيش طويلاً، لكنني لم أصدق ذلك: لم يعتقد أحد أنه ســـيكون بإمكانه أن يعيش يوماً آخر - بينما يُقال لي: «ستعيش ثمانين سنة». ولكنني فعلاً عشتُ، بل وحتى أكثر من ذلك.

عندما مات والد ساشـــا، كان الجدُّ يبلغ مـــن العمر أربعة وثمانين عاماً.

روى الجدُّ فـــي مراســـم الجنازة هذه القصـــة مرة أخرى، وأضاف:

- كان ينبغـــي أن أموت في الثمانين. عندمـــا كان أبنائي ما يزالون على قيد الحياة. كنت سأموت سعيداً. والآن، يا سانكا، لا أفهم إلى أين ســـأصل - لا يوجـــد شيء، ولن يكون لي أحد مهماَ عشت.

قالت الجدَّةُ: في الأسر نجا الجدُّ وبقي على قيد الحياة لأنه لم يكن يدخن. أعطى الألمان السجناء التبغ والخبز. فكان الجدُّ يبدّل تبغه بالخبز مع السجناء الآخرين. بالكمية التي يعطونها.

كان ساشا يفكر أحياناً: أيلوم جدَّه على ذلك؟ لم يكن ساشا ليأتي إلى هذه الدنيا، لو لم يحصل الجدُّ على قطعة خبز إضافية مقابل التبغ. فكيف يلومه؟ إذا كنت تريد اللوم، فاذهب إلى ذلك الأسر، وعِش هناك لمدة ثلاث سنوات، وبادل التبغ بما يعطيك الآخرون، وعُد حيّاً - وآنذاك بإمكانك أنْ تقول ما تشاء.

عندما عاد الجدُّ من الأسر، كان يزن سبعة وأربعين كيلوغراماً - بينما كان طوله متراً وثلاثة وثمانين سنتيمتراً.

وحدثه الجدُّ كذلك: عندما أطلق سراحهم (الحلفاء الأمريكيون)، كان عليه وبعض رفاقه أنْ يذهبوا سيراً على الأقدام إلى جماعتهم. وعندما كانوا يسيرون في قرية ألمانية سكانها مختبئون، فتّشوا في أحد الأفنية عمّا يمكن أنْ يؤكل فوجدوا برميلاً من العسل الأبيض. كان عددهم خمسة - والجميع، باستثناء الجدِّ، هرعوا لتناول العسل بأيديهم مباشرة من البرميل. حذر جدِّي أصحابه ذوي الأجساد الهزيلة أنهم عبثاً هكذا يفعلون - لكنهم لم يطيعوا. وأكلوا حتى شبعوا، وبدؤوا على الفور تقريباً يتقيَّؤون ويتلوّون ويتضوّرون

مــن الألم. وهكذا مات الجميع، بالقرب من برميل العســل الأبيض.

في بعض الأحيان يتراءى لساشا هذا البرميل المليء بالسائل الأبيض الثخين. وكيف تنــدسّ الأصابع القذرة المرتجفة ذات الأظافر الطويلة في العسل. وكيف تلتهم العسلَ الأفواهُ الخالية من الأســنان والمغطاة بالشــعر القذر. وكيف يخدش العسل الحنجرة ويزحف بصعوبة إلى البلعوم. والجدُّ يجلس على مسافة، مقوِّساً ظهره ومشيحاً بوجهه. ربما كان رفاق الجدِّ يضحكون، منشرحين لعدة دقائق. ولكن سرعان ما جلس أحدهم فجأة أو سقط على الفور، فاغراً عينيه من الألم...

وسار الجدُّ وحده.

طُرِد من صفوف الشيوعيين لأنه كان أسيراً: فالزمن القاسي - له قوانينه القاسية. عاد إلى القرية نحيفاً، ولكنه استعاد عافيته: مرحباً، يا زوجة. فأنجبا ثلاثة أبناء خلال الخطة الخمسية لحقبة ما بعد الحرب.

ها هــم أبنــاؤه - في الصــورة الفوتوغرافيــة الأخرى. والد ساشا، فاســيا، يقف بين الجدِّ والجدَّةِ، أشقر الشعر، أو كتّاني، كما يُقال هنا في القرية، أي بمعنى أنَّ لون شــعره فاتح مثــل الكتان، قد لفحت وجهه الشــمس. ويحمل الجدُّ الابنَ الأوَســط بين ذراعيه والجدّةُ تحمل الابن الصغير. يبدو الجدَّ

- نحيلاً وطويل القامة وصارمــاً قد أنهكه العمل. والجدَّةُ - داكنة الوجه ونحيفة ولا تشـــبه نفسها. كان من الصعب تربية الأطفال.

وها هو ساشـــا نفســـه - بعمر أربعة عشر عامــاً، متورد الخدين وفاتح البشرة وشـــعره مائل إلى أحد الجانبين. عندما غــادر القرية، كان هو أيضاً، مثل جميع أبناء القرية، أشــقر - وفي المدينة فقدَ هذا اللون الساطع النادر، وأصبح أشقر مائلاً للسمرة.

بقي هو، ساشـــا، وحده الذي يحمل القليل من المعرفة عن الحياة التي عاشـــها الأشـــخاص الموجـودون في تلك الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأســود، كان على الأقل شاهداً على وجودهـــم. وعندما ترحل الجدَّة - لـــن يبقى مَن يشرح ماهية الناس المطبوعة ملامحهم في الصور، وأيَّ نوع من الناس كانوا - وأيّ صمتٍ. أجل، ليس ثمة مَن يســـأل عنهم، ولماذا يسأل. ســـيلقي المالكون الجـــدد مجموعة الصور في أجمة الشـــجيرات المتشابكة عبر الطريق، وستُمحى الوجوه التي في الصور، وهذا كل شيء. وكأنَّ شيئاً لم يكن.

وحتى الآن، لم يعرف ساشـــا أي نوع من الأشـــخاص كانـــوا في العديد من الصور - بعض أقارب الجدّة أو الجدّ، وربما من الجيران الذين كانوا أصدقاء معهم، وربما كانوا من غيرهم. والحقيقة، إنَّ جميع الأقـــارب انقرضوا، وانقرض

الأصدقـــاء في المنطقـــة كلهـــا، ولم يعد هناك أي شـــخص يتذكر ما كان عليه الجدّ والجدّة في ســـنوات ما بعد الحرب – ناهيك عن الـــكلام عما حدث قبل الحرب. فقد كان ثمة حفل زفاف، وتبادل فيه الشـــباب القُبُلات بارتباك، وضجَّ الضيوف وشربوا، وكلهم ابتســـموا، أو تقريباً كلهم، ربما، كان أحدهـم يجلس في الزاوية كئيبـــاً ويشرب بهدوء، عادة ما يوجد مثل هؤلاء الأشخاص في أي حفل زفاف، ولكن مع ذلك كان الجميع سعداء وصاخبين... ربما لم يبق شاهد واحد على هذا الزفاف.

تذكر ساشـــا فجأة كيف قال جدُّه ذات مرة إنه متزوج من جدّتـــه بزواج ثانٍ. فقد ترك زوجته الأولى في صباح اليوم التالي بعد الزفاف. لم يقل الجدّ مـــاذا اقترفت المرأة حتى تركها. ألقى بفظاظة بضع كلمات نســـيها ساشا عن زفافه الأول، وهذا كل شيء.

حقيقة كون الجدّ متزوجاً مرتين أدهشـــت ساشـــا أكثر من حقيقة السنوات الرهيبة التي قضاها الجدّ في الأسر. أيَّ زوجة، وأيّ نوع من الفتيـــات كانت؟ وماذا فعلت؟ هل وجدها الجدّ مع أحدهم؟ أو ثملت وتكلمت بكلام وقـــح مـع الجدّ؟ «أو ربما، لُطِّخت البوابـــة الخارجية بالقطران؟[1]» - فكّر ساشـــا،

(1)- وفقاً للأعراف الريفية القديمة في روسيا، كانت بوابات المنازل التي فيها فتيات من ذوات السلوك الأخلاقي الشائن تطلى بالقطران. (المترجم).

متناسياً أنه لم يكن ثمة بيت واحد في القرية متوارياً خلف بوابة خارجية (على بعد خطوة من الطريق) تجد الباب أمامك، وحتى غالباً ما لم يكن مغلقاً. وحتّى أنَّ أحداً من سكان القرية لم يُجنِ الكلاب للحراسة.

«لُطِّخَت... البوابة... - سخرَ ساشا من نفسه. - متأثّراً بقراءة الكتب..».

لا أحد يعرف كيف كان ذلك. لكن كل شيء حدث.

كيف حدث ذلك؟ أين ذهب الجميع؟

هل من المفيد معرفة كيف عاش الجدّ والجدّة حياتهما؟ أم أنها غير مجدية وغير ضرورية؟

ذهب ساشا بهدوء إلى جدّه.

كانت المداخل (كوّات الأبواب) في الكوخ منخفضة، فانحنى ساشا لجدّه لا إرادياً، لكنَّ الجدّ لم يره - استلقى وعيناه مغمضتان. سمع ساشا على الفور أنفاس جدّه المبحوحة والمرتجفة، ونظر لحظات قليلة إلى جبهته الشاحبة ذات العروق الرقيقة الداكنة.

فتح الجدّ عينيه الدامعتين، ولم يكن بالإمكان رؤية الحدقتَين تحت جفنيه.

«هل يرى؟ لا يرى؟ أأقول له شيئاً؟»

- سانكا... - قال الجدّ بصوت منخفض. - استيقظتَ. هلّا نمتَ...

لم يردّ ساشـــا عليه، ونظر إلى جدّه من دون أنْ يرمش. كان الجد يتنفس.

أخذ ساشا كرســياً من دون مســاند ووضعه بالقرب من سرير جـــدِّه - ربما، فعل كل هذا حتى بصــوت أعلى قليلاً مما ينبغي - وكأنَّ الحركــة ذاتها والضوضاء الناتجــة عنها، تمحو الشعور بالوجع الكئيب لما يحدث.

ألقى الجدُّ نظرة خاطفة بالكاد يمكن ملاحظتها على ساشـــا الـــذي جلس إلى جــواره - رفّ جفنه، وتحركــت بقعة مقلته الذابلـــة، وأغمض جفنه من جديد، بعــد أن ترك دمعة ضئيلة ضاعت على الفور في التجاعيد.

- هل ســتذهب عاجلاً؟ -هلّا بقيتَ قليلاً... انتظر حتى أموت... ســأموت قريباً... تدفنّي عــلى الأقل. لا تترك ذلك للجدّة وحدها... ستدفنني النساء. لم يبقَ من الرجال أحد...

«على الأرجح، في مثل هذه الحالات يُقال: «كيف ستموت، يا جدّي، دعكَ من هذا! تمدد وستنهض معافى عن قريب!»» - فكر ساشا ولم يقل شيئاً.

- طوال سنوات عمري التي عشتها، لا أتذكر مرة أنَّ النساء دفنَّ أحداً... ألا يزال في المدينة رجال؟

ابتسم ساشا ابتسامة خفيفة.

- نعم، ما زالوا، - قال بصوت عالٍ على الأقل ليقول شيئاً.

- ولكــن عندنا كلهم ماتــوا. أنا الأخــير. الجميع ولدوا

بحضوري، ونشـؤوا جميعهـم بحضوري، وماتـوا جميعهم كذلك. لقد دفنتهم كلهم... القريب منهم والغريب.

صمت الجدّ وظل صامتاً لمدة طويلة.

- إنّي لا آكل أي شيء، لكننـي مـع ذلك لا أسـتطيع أن أموت...

ثم صمتَ من جديد.

- هل تذكر ملعقتي الفضية؟ - خذها عندما أموت. أعطاني إياها والدي. الآن ستكون لك.

تذكَّرَ ساشا هذه الملعقة - إنها ثقيلة وجميلة. قالت الجدّة إنَّ الجدَّ كان يضرب بالملعقة أولاده الصغار على جباههم الوردية إذا ما عبثوا على المائدة. لم يصدّق ساشا كلامها. إذ يمكن بمثل هذه الملعقة أنْ يُقتل المرء. ثمَّ إنَّ هذا الفعل ليس من طبع الجدّ. ساشا واثقٌ من أنه لم يسمع جدّه يصرخ في حياته أبداً - لم يرفع صوته مطلقاً ولم يسـبّ بكلمات بذيئة أبداً. كان يُظهر استياءه بلفتة. في أحد الأيام، وصل ساشا مع والده إلى القرية، حدث ذلك قبل نحو خمس سـنوات. كان عمر الجدّ آنذاك ما يقارب الثمانـين. جاء العم كوليا، وشربوا طوال المسـاء، وثملوا عند منتصف الليل. وفي الصباح جلسوا لتناول الفطور، وليشربوا قليلاً من الكحول لإزالة آثار السُّـكْر الصباحية. الجدّة، التي سـمعت الجدَّ يتنفس بصعوبة أثناء النوم، قـررت أن تعتني بصحتـه، وعندما صبّت الـشراب، ملأت للأبنـاء الأقداح

كاملة، وللجد أكثر بقليل من النصف. لم تتحرك عضلة واحدة على وجه الجدّ - بل بكل بساطة دفع القدح بحركة كسولة من حافة يده اليمنى، ليس بشكل حاد، ولكن إلى حد يكفي لإسقاطه؛ فانسكب الساموغون على المائدة وفاح برائحة نفاذة. ثم نهض الجدُّ ودفع كرسيه للخلف، كما لو كان على وشك المغادرة.

- اجلس، يا عفريت الغابة! اجلس! - صرخت الجدة. وفي الحال مسحت الطاولة ووضعت قدحاً وملأته إلى الحافة وغادرت وهي تسبّ - ولكنها كانت تشتم باعتدال وهدوء، لا بصوتٍ عالٍ ولا بحنق، فهي من وقت سحيق لديها حد معيّن لا يمكنها تجاوزه في لوم زوجها.

جلس الجدّ، وشرب بهدوء، ولم تحاول الجدّة مرة أخرى أن تملي إرادتها عليه، ولم يتذكر أحد هذه القضية بعد ذلك جهاراً.

نظر ساشا إلى جدّه، فبدا كأنما غفا. فدفع ساشا الكرسي ونهض.

في الشارع كان الجو غائماً وثمة رطوبة زرقاء مزعجة لا سيما في الصيف.

لم تبدُ في القرية أيّ علامة على الحياة.

بالقرب من بِرْكة الأمس نفسها وقف الصبي نفسه ويحمل في يده الغصن. وكان يتكلم بصوت خافت ويضرب على انعكَاسه القذر ويرتد عن البركة.

ربما كان سيشعر بألم في قلبه من رؤية الطفل لو لم يتجمد هناك الفراغ الصامت.

- نهضتَ، يا سانكا، لماذا نهضت، - قالت الجدّة وهي تمشي من الفناء. - دعنا نذهب لنتناول الإفطار.

بيض مخفوق مع شحم الخنزير المقدد والطماطم والكوسة، مشرق بشكل غير طبيعي، مثل رسم الطفل، اختلج وتناثرَ وفاحت منه رائحة حيوية ومبهِجَة.

«طيِّب، ولكن ماذا لو أُجبِر العجوزان على أنْ يرسما، فهل ستكون رسوماتهما مشرقة مثل رسومات الأطفال؟» - فكَّرَ ساشا.

صار الساموغون ضبابياً، والخبز داكناً على نحو قاسٍ وهادئ. الخبز هو دائماً الأقسى على المائدة، يعرف قيمة نفسه.

أكل ساشا كل شيء بسرعة وقال إنه سيذهب في نزهة على الأقدام. انطلق من المنزل قرب التلة إلى النهر. وتذكر كيف مشى عندما كان طفلاً في هذا الدرب نفسه، وصادف إوزات الجارة وبقي مدة طويلة لا يستطيع المرور - فقد مدَّ ذكر إوز عنقه وجعل يدوس برجليه قاطعاً الطريق، إنه طائر خبيث. فارتد ساشا واستدار مرعوباً وهرب مسرعاً. ثم وقف مرهَقاً مدة طويلة بعيداً، يراوح برجليه الصغيرتين الداكنتين، مثل مهر صغير. وإذا ما مرَّ أحدهم في الطريق، كان ساشكا يجلس ويتظاهر بأنه يلعب بالحصى - كان يخجل أن يبدو

خائفـــاً من إوزة. حتـــى جاء رجل يمـــشي بجانبه وصاح على الإوزات وطردها، فركضت إلى الوراء ونشرت أجنحتها، مثل البلهاوات.

عندما يتذكر ساشا نفسه وحياته، كان يحب ذلك الصبي فقط، الداكن والمليء بالخدوش. ولكن بعد ذلك كبر هذا الطفل وابيَضّتَ رقبته ولاحت منه حماقة الجســـد الأبيض المائل الظهر وابتسامات الســـخرية البلهاء وعلامات المراهقة الأخرى. لم يحب ساشـــا أنْ يتذكـــر أيام المراهقة، ودائـــماً ما كان يتجنّبها. وهـــل يحب المرء أنْ يستذكر نفسه صاخباً ومشاكساً ومكروهاً؟

الآن لم يعد ذكر الإوز موجوداً.

الجسور الصغيرة على النهر انحنت محطَّمةً.

«أمِن المعقول ألّا أحد يذهب إلى تلك الضفة؟» - فكَّر ساشـــا، وهو يمســـك على الفور عبارة «أمن المعقول» التي تستعملها الجدّة قد علقت على لســـانه. ولكن، أغلب الظن، أنـــه لفظ هذه العبارة، وهو يتملق لســـلالته القروية الخيالية، التي تلاشت منذ مدة طويلة وأصبحـــت أثراً بعد عين. حتى إنه لم يســـتطع نطق «أمن المعقول»، وسرعان ما أمسك نفسه بلسانٍ كاذب.

سار ساشا على طول الضفة إلى الشاطئ البعيد. صادفته في بعض الأحيان على الشاطئ ثمة قوارب قديمة مثبَّتة من خلال سلاسل بالأشجار. نظر ساشا إلى كل واحد منها، في دواخلها سوَاءً الرطبة أو الجافة.

بقيت القرية على جهة يده اليمنى.

كانت الطريق منحنية بالحفر، كما لو أنها مُضِغَت وبُصِقَت، جفَّت المُضغَة، بعد أنْ احتفظت بآثار الأسنان الخشنة أو اللثة المزعجة.

ازداد عرض النهر تدريجياً. وكان في بعض الأحيان يُسَمع في منتصف التيار صوت طرطشة خفيفة.

حامَ البرغش فوق العشب بشكل محموم.

مشى ساشا إلى مكان يُسمى «ركن تيموخا». قال له أبوه إنَّ الناسك تيموخا في وقت ما عاش هنا - بالقرب من النهر الذي استدار فعلاً بشكل حاد مشكلاً زاوية. غرق تيموخا ذات مرة، لكن السكان أعطوا اسمه للشاطئ الهادئ الجميل ذي الرمال البيضاء والقرمزية.

عندما كان ساشا صبياً صغيراً يتشمَّس على الشاطئ غالباً ما كان يفكر في مصير تيموخا، ولكن بسبب غياب حتى القليل من المعرفة حول: مَن يكون تيموخا هذا ولماذا عاش في مكان مهجور؟ لم يؤدِّ تفكيره إلى أي شيء. فكان الصبي ساشا يتوقف عن التفكير في ذلك ويذهب لكي يسبح.

في بعض الأحيان يأتي شباب وصبايا حسناوات إلى الشاطئ (أثناء استراحة الغداء، يُعرَف ذلك اعتماداً على وقت مجيئهم). فقد كانت تجري في مكان ما قريب جداً أعمال حراثة الخث، وفي ساعات الفراغ من العمل كان العاملون يسيرون وهم يقهقهون.

في ذلـك الوقت بالذات، رأى ساشـا الصغير لأول مرة كيف أنَّ شـابّاً قوي الجسـم، في سروال السـباحة، أمسك حسـناء رشـيقة القوام ومسَّـدَ على جنبيهـا ودعك نهديها الأبيضـين، مـن دون أنْ يتحرَّج من الطفـل الصغير. لكنَّ البنت التي كانت مسـتلقية على ظهرها بقيت مدة وجيزة لا تسمح له بتقبيل شـفتيها، ثم دفعت الفتى في صدره. فتركها على مضض ورفع يديه الساخنتين والمتعطشتين ونهض بقوة وقفـز في الماء من الضفة المرتفعة، وبعـد أنْ غاص تحت الماء لمدة دقيقـة تقريباً - قلقت البنـت المدعوكة، بعد أن نهضت وعدّلت حمالة صدرها، جعلـت تنظر إلى الماء من تحت يدها التي وضعتها فوق عينيها إلى أنْ خرج فارسها، مثل الشيطان، من الجانب الآخر.

لم يعرف ساشـا حتى ما الذي أثار الحسد الكبير فيه - قدرة الفتى على السـباحة بعيداً تحت الماء أو هذا التعامل الطليق مع أشـخاص من الجنس الآخر. ومع ذلك، فـإنَّ الاحتمال الثاني أرعبَ ساشـا إلى حد ما وأثار فيه مزيجـاً غريباً من الاندهاش والاشمئزاز.

قاد الأب ابنه ساشـا، ليبعده عن الزعيق والشُّباب البذيء المدوي بشـكل متواصل، إلى مكان آخر عـلى النهر، فقد كان لديهما مـكان آخر مخفي - بلاطـة خرسـانية لا يُعرَف كيف وَصلت إلى الشاطئ، ونمت عليها شجيرات كثيرة الأغصان.

انزلق أحد طرفي البلاطة من الشـــاطئ إلى النهر. كانت البلاطة تســـخن في الصيف، فكان ساشا ووالده يســـتلقيان عليها لمدة طويلة يتشمسان. وعندما تصبح الشمس لا تطاق، كان ساشا والأب، بعد أنْ يهبطا في النهر في عمق الركبة، يرشّـــان الماء على البلاطة ليبرداها فتصبح ملائمة تماماً لمزيد من الاسترخاء.

بعد اختصار الطريق وعدم تمييز المســـارات بســـبب تقادم العهد، لم يذهب ساشا إلى زاوية تيموخا، بل إلى الأسفل بكثير على طول النهر. فكان عليه أن يعود.

الطريق، الذي داسه الصيادون والعاملون ذات مرة، نمت عليه الحشـــائش فسار ساشـــا إلى الأعلى، خوفاً من أنْ يدوس على أفعى الحِفْث. منذ الطفولة، كان يخاف بشدة من كل أنواع الزواحف.

بعد أن كبر ساشا علِمَ أنه اختنق تقريباً بالحبل السري وكاد أنْ يموت أثناء الولادة - ويُقال إنَّ الأشـــخاص الذين عانوا من مثل هذه الصدمة في اللحظات الأولى من الحياة في هذا العالم يخافون من الثعابين طوال حياتهم. على الأقل هذا هو بالضبط ما برر به ساشا خوفه غير اللائق من الثعابين غير الضارة.

لقـــد صادف أفعى الحِفْـــث، بالطبع - وحتـــى ليس أفعى واحدة، بـــل عائلة بأكملها زحفت في الشـــمس لتتدفّأ. صرخ ساشـــا وقفز ووقف على الأرض مباعداً بين ساقيه عريضاً. لم تعد ثمة أفاعي الحفث بعد.

بعد أنْ شتم واختلج قليلاً وقفز من خلال الشجيرات، ركض ساشا إلى تلك البلاطة التي كان يستريح عليها مع والده.

تــوارى الجزء العلوي من البلاطة في الشــجيرات القبيحة والشــائكة المنبســطة إلى الأســفل. وانزلق الجزء السفلي منها في المــاء ونمت عليه النباتات المائيــة الخضراء المخاطية. والآن بالكاد يمكن الاستلقاء على البلاطة.

وعندما شاهد ساشا هذا، شعرَ بتقلّص حزين في قلبه - كما لو أنها لم تكن بلاطة ملقاة في الماء، بل شاهِد قبرٍ ساقطاً.

نظر ساشــا من حوله، واختار مكانــاً يمكن أنْ يمكث فيه ويبث حزنه بهدوء. فجلس على العشــب القصير بالقرب من الشاطئ وأشعل سيجارة.

التدخين في الريــف، في الهواء النقي دائماً ما يكون أســوأ - إنَّ الســيجارة في حقارة المدينة الخانقة تُناغم الــروح عن طيب خاطر وبكل سرور، أمــا في الريف، عندما تحصل الرئتان على فيض كامل من النضارة، يصبح النيكوتين غير مناسب على الفور.

أراد ساشــا أنْ يســحب أكثر حزنَه الهــادئ قليلاً الممزوج بدخان الســيجارة، لكنه شــعر بدوارٍ من الدخان، ولم يتجمع الحزن في كتلة حلوة تحت قلبه، بل انتشر في جميع أجزاء جســده بخمول. فكان عليه أن يدوســها بكعبه على العشب. وسرعان ما زحف الكثير من النمل إلى التبغ غير المحترق الممزوج بالطين الجاف.

امتلأ ركـــن «تيموخا»، الذي وصل إليه ساشـــا بعد بضع دقائق، بعشبةٍ حشيشة السعال. لم يعد هناك شاطئ، ودبَّت إلى مكانه أنواع الحشرات والزواحف.

خلع ساشـــا حذاءه ودخل الماء. كان الماء بارداً ولزجاً، مثل حلوى الهلام الخفيــف. كان من المزعج لمس الطين الذي تحت الماء - الموحل، مثل لثة عجوز، والبارد برودة فظيعة.

خرج ساشـــا بصعوبة من الماء وجلس منهَــكاً على الرمل المتُسخ. نظر حوله وبصق ثم وقف مرة أخرى. بدأ يقلع جذور حشيشة السعال، وهذه العسالج الخبيثة والعنيدة ذات الجذور الطويلة. وقطَّعَها (أوراقها حمراء وجافة وقبيحة) وألقى بها في الماء. فجرفها التيار.

بعد ساعة ونصف تقريباً، لم يبق برعم واحد على الشاطئ. برزت بعض الجذور الخشـــنة هنا وهناك فقط. لم يعد الشاطئ لطيفـــاً ونظيفاً، كما في الطفولة، كلا. على العكس من ذلك، بدا أنـــه مريض بنوع ما من العدوى، الجدري، ورقد كالحاً، مغطى بالمزالق والفجوات.

عاد ساشـــا إلى المنزل، ولم يتناول العشاء. وقف بالقرب من جده النائم، ثم خرج إلى جدته وقال إنه ســيغادر. الآن، ينبغي عليه.

صمتت الجدَّةُ للحظة.

- هل ذهبت إلى قبر والدك؟ - سألَته.

- كنتُ، - كذب ساشا.

- كيف هو، ألم ينهض؟

أخرج ساشا سيجارة وبدأ يدعكها في أصابعه، ولا يعرف ماذا يقول.

- سأجمع لك قليلاً من البصل. وبعض البيضات... - قالت الجدة بصوت منخفض.

الفصل الثالث

في المنزل على الطاولة ما تزال الملاحظة (الرسالة التي تركها لأمه).

الأم، التـــي لم تكـــن تعرف إلى أين ذهب وكـــم من الوقت ســـيبقى، كتبت عليها الجواب: «جاؤوا إليك في ملابس مدنية وهويات حمراء وضابط شرطة المنطقة ماذا فعلت يا بني».

كانت الكتابة خاليـــة من علامات التنقيـــط، وبالتالي خمَّن ساشا بشـــكل أكثر حدة نغمة المرارة التي عانت منها أمه. أخذ الملاحظة بعيداً عن الأنظار.

حمل ساشـــا إبريق الشـــاي بحركة ميكانيكية إلى النار وهو يمسك بعود الثقاب المشـــتعل فوق فتحة الموقد، وكان قد قدَّر من خلال الوزن امتلاء الإبريق الكافي بالماء. وحاول ساشا أن يقرر ما يجب فعله الآن، ولكنه تجمد في الحال وإبريق الشاي في يده عندما رنَّ جرس الباب.

اســـتولى على جسده خمول وخيم، وامتلأ فمه بالحال بلعاب حامض وبارد لا يُعرَف من أين جاء، وانغرزت من جديد شفته التي التأمَت.

تقع الشـــقة في الطابــق الرابع، لذلك كان من المســـتحيل الهروب من النافذة.

«وماذا لو لم أفتح لهم الباب؟ - ومضت فكرة في رأســـه. - كلا، إنهم يعرفون أنني هنا... ربـــما رأوني قادماً... وماذا، هل سيكسرون الباب؟ - لكي يفعلوا ذلك يحتاجون إلى إذن... أو ربما ضابط شرطة المنطقة لديه هذا الحق؟ إذا ما جاء مع ضابط شرطة المنطقة أحد من جهاز الأمن الفيدرالي، فإنهم سيكسرون الباب الآن... ولكن لماذا لم يأخذوني وأنا في الشارع؟»

وأخيراً، وضع ساشا إبريق الشـــاي بعناية على النار وتقدم نحو الباب على أطراف أصابعه.

وقف قربه وجعل يتنصَّت. لا شيء، هدوء.

رن جرس آخر -مســـبوقاً بصوت خفيـــف- بصوت عالٍ لدرجة أنه بدا يرن في الأطباق في المطبخ.

اتخذ ساشـــا خطوة حازمة والتصق بثقب المراقبة في الباب (العين السحرية).

على الجانب الآخر من الباب، وقف نيغاتيف، وهو شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً من الفرع المحلي لـ«اتحاد المبدعين».

- مرحباً... - قال هو، بمجرد أنْ التصق ساشا على ثقب الباب.

- هل أنت وحدك؟ - سأله ساشا بصوت مهموس.

- وحدي.

فتح ساشا الباب، ودخل نيغاتيف وصافح يده، كالمعتاد، وهو ينظر إلى مكان ما في الجانب وإلى الأعلى، كما لو كان يبحث عن شيء أو يستجلي أمره - وهذه المرة، على ما يبدو، الشيء هو المصباح الموجود على السقف، الذي سلَّط عليه نظرته العدوانية.

- عليك أن تطفئ الضوء في الرواق. - قال مقطِّباً. - لأنه يمكن رؤيتك وأنت تنظر في ثقب الباب.

كان نيغاتيف أصغر بخمس سنوات من ساشكا، لكن هذا الفرق في العمر قد مُحِيَ تقريباً، ربما لأن نيغاتيف الذي نشأ في المدرسة الداخلية كان ذكياً وصارماً في السلوك، وقوي الجسم بما لا يتناسب مع عمره على الرغم من أنه ليس طويل القامة.

كُسرت سنه الأمامية، وهذا أضفى المزيد من الصرامة إلى وجه نيغاتيف وذي العينين المتباعدتين والجبهة المنخفضة والعابس حتى من دون ذلك.

أطلِقَ عليه اسم نيغاتيف[1] لعدم رضاه الأبدي عن كل شيء وعن كل شخص. كلا، إنه لم يكن متذمِّراً، بل، الأرجح، كان عنيداً، بتصوّراته القطعية عن الحياة. لم يكن سخطه كئيباً وصامتاً كسخط الأطفال، ربما، كان في بعض الأحيان يبدو لا مبالياً بشكل ليس له مثيل.

(1) كلمة نيغاتيف باللغة الروسية تعني - السلبي والصورة السلبية والأمور المزعجة وغير المرغوب فيها. (المترجم).

كما إنه لم يبتســـم، ناهيك عن الضحك. لم يُرَ ضاحكاً أبداً، تقريباً، إلّا نادراً.

- كيف عرفتَ أنني في المنزل؟ - سأل ساشا.

- لم أكن أعرف، مررتُ عليك بكل بساطة.

- كيف هي أحوالكم؟ - سأل ساشا بصوت عالٍ وهو يسير نحو المطبخ.

- حســـنٌ ما فعلتموه هناك في موسكو، - لم يجِب نيغاتيف عن الســـؤال. - كان علـــيَّ أنْ أذهب أيضاً. رائع. هل رأيت نفسك في التلفزيون؟

- رأيتُ نفسي؟ - أطفأ ساشـــا إبريق الشاي الذي كان يهتز بشـــكل مزعج، والتفتَ إلى نيغاتيف الذي خلع حذاءه ودخل إلى المطبخ.

- ألم ترَ؟ أولاً، في البداية أنرتَ أنتَ في الطابور الأول هناك، وأحدكـــم ضرب شرطيّاً بعصا، ثم ركض الجميع إلى مكان ما، وكسروا واجهات المَتاجِر، وكان ثمة شرطي يرقد على الأرض، وقفزتَ أنتَ على قبعته. مشـــهد رائع. لقد فكّرتُ، لماذا قفزتَ على القبعـــة؟ أليس من الأجـــدر أنْ تقفز على رأســـه؟ أليس كذلك؟

اختلج ساشـــا. إذ ليس لطيفاً جداً عندما يشاهد ألاعيبك بضعة آلاف، وربما، مئات الآلاف من الناس...

- وماذا... هل أبدو بوضوحٍ هناك؟ - سأل ساشا بصوت منخفض، لسبب ما، أجش قليلاً.

- الحقيقة، ليس بوضوح... لكنّني عرفتُك... هل يمكنني التدخين؟

نظر ساشا إلى نيغاتيف لبعض الوقت.

- دخِّن، واعطني سيجارة أيضاً...

- هنا، باختصار، جاء أصدقاؤك. - تابعَ نيغاتيف كلامه وهو يجرُّ نفَساً من السيجارة.

- أيّ أصدقاء أولئك؟ - أشعل ساشا سيجارة وحدق في نيغاتيف مرة أخرى.

- فينيا الذي من موسكو وروغوف الذي من سيبيريا.

اختلج ساشا من جديد، وكانت هذه المرة بشكل أخفّ.

- من أجل ماذا؟

- يقال إنَّ الجميع الآن يختبئون في موسكو، وعمليات البحث مستمرة في أكواخنا. فينيا، بلا مأوى بشكل عام، وليس لديه مكان يسكن فيه، وقال روغوف إنَّ السفر إلى سيبيريا بالقطار محفوف بالمخاطِر - إذ يجب عليه أنْ يظهر وثيقته الشخصية عند شراء تذكرة، أما في قطارات الضواحي... فأنت نفسك تعرف: تتوحَّش حتى تصل إلى مبتغاك. لذلك، جاؤوا إلينا، - قال نيغاتيف وجرَّ نفَساً عميقاً، ونفث الدخان وتابع مساره بعينيه، - جاؤوا إلينا. لماذا أنت خائف هكذا؟

- لقد جاء رجال الشرطة القذرون إليَّ مرتين.

- ألم تسمح لهم بالدخول؟

- كلا، لم أكن في البيت. جاؤوا إلى أمي.

- وجاؤوا إلـيَّ، - قال نيغاتيف.

- وماذا؟

- لم أفتح لهم الباب. طرقوا لمدة ساعتين وغادروا.

- وكنتَ جالساً في ذلك الوقت، تُتمتم.

- كلا، لقد تبادلنا الكلام معهم بمَـودَّة من خلال الباب. وعدوا أنهم سوف يعذبونني وينهكونني.

نظر ساشـا إلى نيغاتيـف وثمَّنَ فيه مرة أخرى شـجاعته الشـديدة والشـفافة وغير المتكلّفة. نيغاتيف فعلاً لا يخشـى الضرب، بل وحتى الضرب المُبَرِّح ولا يبالي تماماً بالتهديدات. تعرض للضرب الشـديد عدة مرات بالهراوات بسـبب كتابة عبارات مُسـيئة بالطلاء الأسود على جدران مبنى الإدارة مثل «الموت للمحافظ!»، ولصفعه كعكـةً على وجه ذلك المحافظ نفسـه. وقبل نحو سـتة أشـهر اعتُقِلَ نيغاتيف وضُرِبَ لمدة يومين من أجل الحصول على شهادات منه ضد رفاقه على وجه التحديد - قبل أسبوع من ذلك قام الفرع المحلي لـ «الاتحاد..» بإطـلاق عبوات المولوتوف على مكتب السـينتولوجيين[1]: لم يحب الأولاد أيَّ نوع من الطائفيين. وصلت سيارات الإطفاء

(1) السيَنتولوجيا - هي مجموعة من المعتقدات والممارسات الدينية التي أنشأها كاتب الخيال العلمي الأميركي رون هوبارد، الذي عاش في المدة من عام 1911 حتى 1986. تستند السينتولوجيا إلى فلسفة علمانية تأسست عام 1952 من قبل هوبارد، ثم أعاد صياغتها باعتبارها «فلسفة دينية تطبيقية». بالنسبة لهوبارد فإن السيَنتولوجيا هي كما يمكن أن تُفهم من الأصل اللاتيني لوجيا بمعنى خطاب أو دراسة وسيَنس أي علم بالتالي تكون «دراسة العلم أو دراسة المعرفة». (المترجم من ويكيبيديا).

في الوقت المناسب، ولكن كانت الفضيحة كبيرة. وبعد يومين من التعذيب أُفرِجَ عن نيغاتيف. وبقي أخوه الصغير، بوزيك (الإيجابي)، لمدة شهر ونصف شهر يساعده في تناول الطعام وارتداء الملابس وشدّ أربطة الحذاء. وكان بوزيك (الإيجابي) هذا - عكس نيغاتيف تماماً - فتى محبَطاً يبلغ من العمر أحد عشر عاماً، صاحب ابتسامة أبدية على وجهه الوقح، وهو أصغر فرد بين جماعة «الاتحاديين» المحليين...

أجل، أطلقوا على أنفسهم «الاتحاديين». كانت هذه الكلمة في البداية لا معنى لها ولكن مع مرور الوقت اكتسبت تجسيداً وصوتاً ومعنى.

ومع ذلك، كان يُطلَق عليهم غالباً جماعة «الأس أس»[1] أول حرفين من اسم الحزب، وأحياناً، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم الصحفيون، وعندما يراد الحط من شأنهم أو الإشارة إلى السن الصغيرة للأولاد المنضمين إلى «اتحاد المبدعين»، - يُقال لهم «المصّاصون».

نيغاتيف لم يخُن أحداً من «جماعة الاتحاد» بمن فيهم هو نفسه. فهو أيضاً ألقى زجاجات حارقة. على الرغم من أنه ليس وحده، بالطبع.

(1) هذا لعب بالكلمات - الأس أس هنا من الحروف الأولى من اتحاد المبدعين (سيوز سوزيدايوشيخ) على الرغم أنها تشير إلى الوحدة الوقائية أو قوات الأمن الخاصة أو وحدات إس إس - منظمة شبه عسكرية كبرى بقيادة أدولف هتلر والحزب النازي في ألمانيا النازية، وبعد ذلك في جميع أنحاء أوروبا التي احتلتها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

- ولكن رجال الشرطة لم يكسروا الباب؟ - سـأل ساشا، وهو ينظر إلى سن نيغاتيف العلوية التي كُسرت في عراك تافه.

- لم يفعلوا.

- لماذا لم تفتحه؟

نظر نيغاتيف بغضب على ساشا.

- لم تُـضرب بأي شيء في موسـكو، أليـس كذلك؟ لقد قلت لـكَ، أنَّ فينيا وروغوف كانا عندي. في البداية اسـتلقيا تحت الأريكـة. ثم قمنا بلـف فينيا بسـجادة، ووضعناها في الزاوية، ودخل روغوف في الخزانة... باختصار، استمتعنا لمدة ساعتين...

شرب ساشا الشاي بسرعة.

يبدو أنه أراد أنْ يأكل. ثم فقدَ رغبته في الأكل.

- أين هما الآن؟ - سأل ساشا.

- في المقهى المقابل جالسـان. يشربان فنجانـاً واحداً من القهوة لشخصين. هيا نذهب؟

أخذ ساشـا نقوداً من المَخبَأ وقطعة مـن الجبن وقليلاً من بصل القرية وقطعـة من الخبز وعلبة من الطعام المعلب، وأراد أنْ يرجع لكي يكتب بضع كلـمات إلى والدته، ولكن لم يفعل ولوَّح بيده. أيكتب مرة أخرى أنَّ «كل شيء على ما يرام»؟ بينما لا وجود لما يرام.

- أجل، ها هما هناك! - أدرك ساشـــا فجأة أنه سعيد للغاية برؤية فينيا الذي يستنشـــق الهواء بأنفه الذي لم يبرأ بعد وليوشا الحسن المظهر. عانقهما كلاهما.

الآن ينبغي القيام بشيء ما، يجب نقل الأولاد إلى مكان ما.

لم يجرؤ ساشـــا على الاتصال بالأصدقاء من هاتف المنزل - فالهاتف مُراقَب، ولهذا السبب أهمل ذات مرة إحدى فعاليّات الحزب.

ولم يكن لديه ذلك النـــوع من المعارف الذين يمكن أنْ ينام الثلاثة عندهم.

«بل لـــن أجد حتى مكاناً لي وحدي»، - فكر ساشـــا فجأة وهو مندهش، ولكن من دون أيٍّ حزن.

حدث في السنوات الأخيرة أنَّ دائرة تواصل ساشا اقتصرت على أعضاء الحزب. ليس بمعنى أنه لم يكن لديه الوقت الكافي للصداقـــات الأخرى، على الرغم من أنـــه بالفعل لم يكن لدية وقت، ولكن الشيء الرئيس هو أنه لم تعد ثمة حاجة للتواصل ولا سبب له ولا مصلحة.

كـــما إنَّ الأمر لم يســـتحق الذهاب إلى شـــقق «الاتحاديين» المحليين، لأســـباب معروفة: إذ يمكن أنْ يباغتهم هناك رجال الشرطة ذوو الملابس المدنية.

بدأ المطر يهطل رذاذاً في الشـــارع، لكنهـــم، بعد أنْ غادروا المقهى المليء بالدخان والموســـيقى الصاخبة وبطاقات الأسعار

غير الودية، ساروا بخطى واسعة، متذكرين العربدة الطائشة في موسكو بسرور ومقاطعين بعضهم بعضاً...

استمع نيغاتيف باهتمام، وأحياناً ينظر بعناية في وجه الشخص الذي يتحدث.

وبعد أن توقَّفوا عند أحد الأكشاك، اشترى ساشا زجاجة من الشراب وثلاثة أقداح بلاستيكية. نيغاتيف لم يشرب، لأنه بطبعه يستوحش من الكحول.

لم يحتج روغوف على الشراء؛ وأبدى فينيا بهجةً.

انعطفوا نحو حديقة للعب الأطفال التي أمضى فيها ساشا ساعات طويلة في سنوات صباه المبكرة، وهو يتناول الكحول بمختلف درجات التركيز ويستكشف أقرانه الذين يخفِّفون والذين لا يخفِّفون.

جلسوا في بيوت لعب الأطفال، واستلَّ ساشا الجبن والخبز من جيوبه.

- ولكن لا يوجد سكين، - قال وهو ينظر إلى علبة الطعام المعلب في يده.

أخرجَ روغوف بصمت سكين جيب (مِطواة) من حقيبة ظهره. وفتح العلبة ببراعة.

ملؤوا الأقداح وقرعوها...

سرعان ما شعروا بالارتياح، لكنَّ أردافهم تجمَّدَت على المصطبة الرطبة. وكان ساشا في بعض الأحيان ينهض ويتمشّى، وفرش روغوف تحته حقيبة الظهر، أما فينيا فكان الأمر عنده سيان.

نيغاتيف لم يجلس - كان يستمع. وأخذ قشرة جبن (القشور عادة تُرمى) ومضغها ببطء قاضماً إياها قطعاً صغيرة.

- هاكَ... خذ... - أعطاه ساشا شريحة رفيعة من الجبن.

أخذها نيغاتيف. انتظر إلى أنْ واصل الجميع الكلام ووضعها في مكانها من دون أنْ يشعر به أحد.

- كم عدد الأشخاص على العموم الذين احتُجِزوا، هل يعرف أحد بالتأكيد؟ - سأل ساشا.

- قيل في الأخبار ثلاثة وتسعون، - أجاب نيغاتيف بعد أنْ هزَّ فينيا وروغوف متونهما علامة على عدم معرفتهما بالعدد. لم يتسرع نيغاتيف أبداً في الإجابة.

- هل رُفِعَت ضدهم اتهامات؟

- تقريباً وجِّهَت للجميع مخالفة إدارية. وأوقفوا لمدة خمسة عشر يوماً.

- هكذا، إذاً، تعاملوا معهم... بالرحمة...- اندهش فينيا، لأنه انتزع كلمة «الرحمة» من مكان ما، خارج نطاق قاموسه تماماً.

- وتخيل كيف يمكن أنْ تكون محاكمة تسعين شخصاً؟ سيسلط العالم كله الضوء عليها. وهم ليسوا بحاجة إلى القذارة... - افترض ساشا.

- على أي حال، سيسجنون خمسة أشخاص للتخويف والتحذير. - قال روغوف

في «الاتحاد...» توقفوا منذ مدة طويلة عن الدهشـــة لظهور مســاجين جدد - فقد انتمى لديهم أكثر من أربعين شـــخصاً وأصبحوا خلف القضبان. لم تَقِــل هذه القائمة تقريباً، فعندما يخرج بعضهم، يُسجَن آخرون. ومن الغريب أنَّ جميع السجناء تقريبــاً كانوا «إرهابيــين ناعمين» - لقد قذفوا الشــخصيات الكريهة والمشهورة بالبيض ودهنوهم بالمايونيز. ومع ذلك، فقد حُكِمَ عليهم بالســجن لعدة شــهور أو حتى لسنة في السجن، بسبب تلطيخ السترات.

كان الحُكم الجاد الوحيد هو مــن نصيب أحد الأوكرانيين المبتهجــين الذي كان يمارس مصادرة الملكيات، وسُــجِنَ لمدة عشر سنوات من الحبس الشديد.

لقد صمتوا لبعض الوقت، متأســفين على الأولاد، - على الأقل كان ساشا يعرف على وجه اليقين أنه يُشفِق، وفي طبيعة ليوشــا روغوف يُلتَمس كذلك مقدار قليل من حب الإخوة والشــفقة. أما بالنســبة إلى نيغاتيف وفينيا، فالأمــر هنا أكثر تعقيداً.

من المرجَّح أنَّ نيغاتيف كان يشعر بانزعاج يمكن أنْ يتحول إلى ضغينة حميدة وغير هســتيرية - وكان هذا الانزعاج موجهاً من دون استثناء لجميع الذين يمثلون السلطات في بلاده - من الشرَطي عند مفترق الطريق إلى السيد الرئيس.

لم يهتم فينيا للأمر، هكذا اعتقد ساشا. وإنَّ فينيا لا يهتم، ربما، ليس لأنه لم يشعر أبداً بالأسى على نفسه. بل، على الأرجح، لأنَّ فينيا هوَّن من مسألة السجن، وقد كان دائماً على استعداد لدخوله، على الرغم من أنه لم يتعمد الوقوع فيه. بالإضافة إلى ذلك، إذا ما حسبنا عدد المرات التي توقَّفَ فيها فينيا لمدة خمسة عشر يوماً، فيمكن أنْ يكون المجموع مدة محكومية لا بأس بها.

غير أنَّ الجميع ظلوا صامتين لبعض الوقت...

وملؤوا الأقداح حتى آخر قطرة وقرعوها.

- لقد فعلناها مرة وسنفعلها مرة أخرى! - قال ساشا، ولم يكن في كلماته أيَّ انفعال مصطَنَع على الإطلاق، فأومأ روغوف برأسه وضحك فينيا ولم يرَ ساشا وجه نيغاتيف.

شربوا شرباً خفيفاً، واستنشقوا أكمامهم وتحرَّكوا إلى الأمام. وفي غضون عدة ثوانٍ جمع روغوف القمامة التي بقيت في كيس بلاستيكي ووضعها في الحاوية.

فكَّر ساشا في المكان الذي يمكن قضاء ثلاث ساعات أخرى فيه.

جاؤوا يجرون أقدامهم، هادئين ووديعين، إلى مبنى الجامعة. أمر ساشا الجميع بالتخلي عن ابتسامات الهامشيين الساخرة وأنْ يضفوا على وجوههم سمة التأمل الخاصة بالزوار الدائمين لمؤسسة التعليم العالي - إما كوجوه طلاب الصفوف المتقدمة أو طلاب الدراسات العليا. وهكذا مروا بالبواب المناوب الذي

زمَّ شـفتيه بصرامة: كان روغوف هادئاً بشكل طبيعي، لأنه لم يُضفِ على وجهه أيَّ سـمة، بل بقي بوجهه المعتاد، ونيغاتيف الذي اسـتدار جانباً وضع ذقنه في طوق سترته، أما فينيا فتبلَّد بشدة من توتر عضلات وجهه.

تعرَّف ساشـا من مدة طويلة على أسـتاذ الفلسفة أليكسي كونستانتينوفيتش بيزليتوف. يمكن تفسير تعارف ساشا، الذي لم يدرس كما ينبغي أبداً، والأسـتاذ المساعد في العلوم الإنسانية بشكل بسيط: كان بيزليتوف أحد تلامذة والده.

ربما كان ساشا يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً تقريباً عندما رأى بيزليتوف لأول مرة: شـاباً نحيفاً شـعره طويل يصل إلى كتفيه، الآن غيَّر تسريحته.

جاء بيزليتوف لزيارتهم عدة مرات، وكان ينشغل لمدة طويلة بترتيب وشاحه الصوفي الموبِر، والذي، على ما يبدو، تمكن من لفه على عنقه مرات عديدة. كان يشرب الشاي، منحنياً بخجل على الفنجان، يكاد شـعره أنْ يلامـس الطاولة. وكان يناقش أموراً مع والده: الوالد - متعَباً، وبيزليتوف، في بعض الأحيان يهز كتفيه، كما لو أنَّ نُشـاراً ناعماً قد انهال تحت قميصه. الأب لم ينتبه لذلك. لم يتحدثا أبداً عن السياسة، على الرغم من أنَّ ذلك الزمـن الغامض أو الغبي إلى حد ما، وبالتالي الأكثر قبحاً، كان يساعد على ذلك.

عرف ساشـــا متأخراً جداً أنَّ بيزليتوف لديه وجهات نظر ليبرالية متطرفة. وما يزال لا يستطيع أن يقرر كيف يتعامل مع حقيقـــة أنَّ والده لم يدخل في جدال قط حـــول «الانعطافات» و«الأقدار»، مع إنَّ ذلك نابع، طبعاً، ليس من اللامبالاة...

كان بيزليتوف هو الوحيد من أصدقاء والده ومعارفه الذين ذهبوا لدفنه في القرية...

خلال الجنازة، تحـول ساشا وبيزليتوف إلـى التخاطب برفع الكلفة (من دون استخدام صيغة الجمع للاحترام)، لكنهما لم يلتقيا لعدة سنوات، وخلال هذا الوقت زال تقاربهما القصير المدّة.

اســتمرت علاقتهما عندما اتضح فجأة أنَّ صديقة ساشـــا تدرس عند أليكسي كونستانتينوفيتش. وقد سألته عندما التقى بها ساشا صدفة بالقرب من القاعة بعد المحاضرة:

- هل تعرف أليكسي كونستانتينوفيتش؟

في هذا الوقت صافح ساشا يد بيزليتوف، وتقديراً لصلابة مصافحته القوية، وكذلك وضعيته التدريســـية، قرر بفطنة أن يتناسى أنهما يتخاطبان برفع الكلفة:

- نعم، نحن معارف... مع أليكسي كونستانتينوفيتش.

وقد التقيا عـــدة مرات في ممر الجامعة وتبادلا المصافحة على عجَلٍ، إلى أنْ تشاجر ساشا مع صديقته لسبب تافه نسيه الآن، وبعدها لم يعد يرى بيزليتوف مرة أخرى.

ولكن قبل أقل من شهر نُظِّمَ تجمّع جماهيري محلي لـ«الاتحاد...»، وقد التقى ساشا مع بيزليتوف مباشرة بعد انتهاء الفعالية الصاخبة على النحو المألوف والمذهلة للكثيرين.

- لقد لاحظتك هناك... كيف كنتَ تصرخ... - قال بيزليتوف بهدوء، وهو يبتسم على طريقة أساتذة الجامعات.

لم يعد ساشا منذ زمن طويل يشعر بالحرج من ميوله السياسية، إذا جاز التعبير. (في الواقع، لم تكن تلك الميول سياسية أبداً، لكنها سرعان ما صارت المعنى الوحيد الذي شكَّل حياة ساشا). غير أنه في هذه المرة أحسَّ بشيء خفيف من الإحراج. ربما بسبب حنجرته ذات الصوت الأجش التي هتفت للتو، «أيها الرئيس، ارحل!». وربما، بسبب ذلك التعبير عن الغضب الطائش الذي حمله على وجهه من دون أن يُمحى، بعد أن تحدَّث بما فيه الكفاية مع رجال الشرطة السيئين الذين للغرابة لم يلوموهم هذه المرة: عادة في نهاية المسيرة ما يسحبون «الاتحاديين» إلى قسم الشرطة حيث يصوِّرونهم للمرة المائة ويأخذون بصمات «أصابعهم».

باختصار، لم يكن لدى ساشا الوقت لإعادة ترتيب أموره ونظر إلى بيزليتوف بعد أنْ اصطنع بصعوبة ابتسامة على وجهه.

فانفجر الرجل ضاحكاً بشكل غير متوقَّع - ضحكة لطيفة لأنها صادقة وصادرة عن شاب - وقال:

- ستتعرّض لصعوبات.

دعا بيزليتوف ساشا لأنْ يأتي إلى القسم في الكلية للتحدث («يمكنك مع الأصدقاء...»). وزيادة على ذلك دعاه بشــكل جعل ساشا يود الذهاب على الفور.

كانت ثمة أســباب أخرى للزيارة - إلى جانب البشاشــة الصادقة في لهجة بيزليتوف.

كان والد ساشــا رجلاً متعلماً - على وشك أنْ ينال درجة الأستاذية. وعلى الرغم من هذه الرابطة، كان ساشا دائماً يشعر وكأنه كلب مهجّــن مطلق. ربما لأنه ناقــص التعليم ولم يبدأ قــراءة الكتب الضرورية إلّا بعدما أكمل الخدمة العســكرية، التي لم تستطع والدته، وهي امرأة بسيطة في الأساس، أنْ تعفيه منها.

وربما لأنَّ ساشا حتى الآن يعتقد أنَّ والده لم ينشغل به أبداً، ونادراً ما تحدث مع ابنه. حدث ذلك: لأن الأب لم يكن بحاجة للتواصل، وساشــا لم يفرض التواصل على الأب؛ ومع ذلك، ربما، العكس صحيح - الأب لم يفرض التواصل، وساشــا لم يكن بحاجة إليه في ذلك الوقت.

ولكنَّ إحســاس ساشــا الذاتي بالهُجُنِ جعلــه ينجذب في الآونــة الأخيرة إلى الأشــخاص الذين، على مــا يبدو، فهموا بشــكل أفضل بُنية العــالم، على الأقل من خــلال إتقان تلك المصادر المطبوعة التي لم تصلها يدا ساشا.

رفع بيزليتوف حاجبيه - الأول ومن ثم الثاني.

«يا ترى، هل يقدر أنْ يحرك أذنيه أيضاً؟» - فكَّر ساشا وهو شارد البال.

بالتأكيد، أصبح بيزليتوف يشبه في العادات ممثلاً مسرحياً موقَّراً.

- ساشا؟ - سأله.

- لقد أحببنا أنْ نمرَّ بك.

- نعم، أنا دعوتُك، أتذكَّر...

وقفوا في الرواق. صافح بيزليتوف أيدي الجميع، وتطلَّع في وجوه الضيوف بسرعة من دون أنْ يبتسم. بدا معتدل القامة، وذا أكتاف مستديرة، وذا شعر داكن ناعم بتسريحة قصيرة. في السابق، تذكر ساشا، كان بيزليتوف يعتني بوجهه دائماً، كما لو كان في بحث لا هوادة فيه عن العاطفة الصحيحة والكلمة الرقيقة. والآن أصبح رزيناً بشكل ملحوظ، وحتى خداه تدلَّيا قليلاً، ما جعل وجهه مقرفاً بعض الشيء.

- الحقيقة، أنا على وشك أنْ أُغلق القسم. - قال لهم. - يوجد في الجهة المقابلة مقهى رخيص وهادئ. ربما، نجلس هناك؟ نشرب قدحاً من الشاي؟

- هيّا بنا... - وافق ساشا، على الرغم من أنه لم يبقَ لديه الكثير من المال.

- سأذهب على السريع إلى مكتب العميد... وسوف آتي... - وعد بيزليتوف.

مر الأولاد مرة أخـــرى من أمام البواب المناوب المتشـدد وبعـــد دقيقتين انتهى بهـــم المطاف في المقهى. كان شـــبه فارغ، والموســـيقى تصدح فيه بهدوء. وكان جهاز تلفزيون يومِض في الزاوية. تعرض الشاشة سائقي دراجات نارية يقودون بزمجرة على شكل دوائر وهم يرفعون الأوساخ في المنعطفات وغالباً ما تسقط.

أحضروا قائمة الطعام، رفع ساشا الورقة الأولى من الكُتَيِّب المغطى بالجلد بإصبعه السبابة، وهو يعرف مسبقاً أنه لن يطلب أي شيء.

- ما يزال لديَّ مال... - قال روغوف. لم يســـأله أحد عن ذلك، ولكن السؤال ظلّ يحوم في الهواء. انتعش الأولاد طبعاً.

- شراب للجميع؟ - سأل روغوف.

- أنا لن أشرب، - قال نيغاتيف.

- شاي؟

- لن أشرب أي شيء... - كان نيغاتيف يجيد الرفض لهذا لم يقترح عليه أحد بعد ذلك.

دخَّن الجميع، وهم ينظرون من حولهم.

وسرعان ما جاء بيزليتوف، حاســـماً، في سترة قصيرة داكنة، ويحمل حقيبة أوراق.

عندما خلع بيزليتوف السترة لاحظ ساشا بطنه البارزة.

جلس بيزليتوف بصمـــت، ووضع حقيبته بالقرب من الكرسي، وأخرج السجائر أيضاً.

«لا ينمو الهلب (الشـــعر الصلب) على جســـده، - لاحظ ساشا فجأة. - وجهه أبيـــض. ذكي وربما جميل... كيـــف حرَّك حاجبيه، كيف..».

جاءت النادلة من دون أنْ تُحـــدث صوتاً، طلب بيزليتوف قهوة.

استطال الصمت.

ساشا صمت عمداً، لم يعجبه اللقاء في الجامعة.

«مـــا له متجهّم؟ فكَّر وهو ينظـــر في وجه بيزليتوف. - هل اقترضتُ منه مالاً؟»

- ما لكم تصخبون؟ - سأل بيزليتوف، وهو يدخنّ وشعر بنظرة ساشا الموجَّهة إليه.

- وماذا يبقى؟ - أجاب ساشا بلهجة خطابية، وأدرك على الفور أنَّ الكلام يدور حول الفوضى التي جرت في موسكو.

أخذ بيزليتوف نفَساً عميقـاً من السيجارة وحبـس الدخان فـي صدره ولهذا شكر النادلة بصوت مختنق قليلاً على القهوة التي جلبتها.

- هل تعتقدون أنَّ ما بدأتم تفعلونه جيد؟ وصحيح؟

- جيد وصحيح. - أجاب ساشا.

هزّ بيزليتوف متنه تجاهلاً.

- ما هو المغزى؟

- هذا سؤال طويل جداً.

- السؤال قصير تماماً... حسناً، ها أنتم أولاء تطلبون: «أعطونا فكرة وطنية..».

«هكذا كان يتحدث...» - فكر ساشا بسرعة وقاطع بيزليتوف على الفور:

- نحن لا نطلب. أنا لا أطلب. أنا روسي. هذا يكفي. لست بحاجة إلى أي فكرة.

- «أنا روسي»، - سخر بيزليتوف سخرية قاتمة. - وأين ستضعون غير الروس؟

- اسمع، يا أليكسي كونستانتينوفيتش، لا تحرّف الكلام... لا أحد يريد أنْ يضع غير الروس في أي مكان، وأنت تعرف ذلك جيداً.

- ولماذا تبدأ يا ساشا فوراً بعبارة «أنا روسي»؟

«هكذا هو الأمر، - فكر ساشا مرة أخرى، - إنه يخاطبني بـ «أنت» من دون تكليف، وأنا معه..».

- أنا لا أبدأ، - أجاب ساشا. - أنا قلت إنني لست بحاجة إلى أيّ أفكار وطنية. هل تفهم؟ لا أحتاج إلى مبادئ جمالية أو أخلاقية لأحب أمي أو لأتذكر والدي...

- إني أفهم. ولكن لماذا إذاً انضممت بعد ذلك إلى حزبكم هذا...؟

- إنه أيضاً لا يحتاج إلى أفكار. إنه بحاجة إلى وطنه.

- حســـناً، لســـت بحاجة إلى كل هذه الكلمات - ســـواء «الروسي» أو «الوطن». لا حاجة بها.

- عبثاً تذكر هـــذا، أليس كذلك؟ - قال ساشـــا على نحو تصالحي. - أنا موافق.

- أيّ «عبـــث»، ليذهب إلى الجحيم، أيـــن هذا العبث؟ - ارتفع بيزليتوف. - ليـــس لك أيّ علاقة بالوطن. ولا للوطن علاقـــة بك. ولم يعد الوطن موجوداً. لقـــد تحلّلَ تماماً! علاوة على ذلك، لا تســـتحق أن تستفز أيَّ شـــخص سفالتكم هذه كلها وتكسيركم للزجاج وضربكم الوجوه وكل ما حطّمتموه هناك...

- الأفضل التراجع بهدوء، - أجاب ساشا بلهجة بيزليتوف، لكن مع انخفاض بمقدار النصف.

- من الأفضل التراجع بهدوء إلى الجانب بدلاً من ممارســـة السفالة.

- من الأفضل التراجع بهدوء إلى عالم آخر. - قال ساشا.

- نعـــم، تخيل. من المفضَّـــل. أمام الله هـــذا - أفضل. كل إيماءاتكم، وارتجافاتكم - كل هـــذا فقد معناه منذ مدة طويلة. لن تصلحوا أيَّ شيء. ولكن إذا مـــا بدأتم تهرقون الدم، إذا لم تكونوا قد بدأتم بالفعل، - وهنا زاد بيزليتوف من حدة صوته مرةَ أخرى، - فإنَّ...

أخذ بيزليتوف نفساً عميقاً من سيجارته وأخمدها بعنفٍ، كما لو كان قد سحق دودة قبيحة.

جلس الجميع في صمت. فينيا كان يثقِّب في علبة السجائر، ونيغاتيف يحملق في التلفزيون. وروغوف ينظر في الطاولة وهو يهزّ برجله تحتها.

- وهذا كله لا يناسبك؟ - سأل ساشا، الذي هدأ تماماً وأدرك إيقاع المحادثة وجعل ينظر إلى بيزليتوف باهتمام.

- لن تفهم أبداً، يا ساشا، - لا يوجد هنا ما يمكن أنْ يناسب. هذا مكان فارغ. لا توجد حتى تربة. لا من النوع الأبوي، ولا حتى ذلك النوع الذي تهتم به الدولة، كما يُقال الآن، من الناحية الجيوسياسية. وحتى الدولة لا وجود لها.

- على هذه التربة يعيش الشعب...- قال ساشا، الذي لم يرغب في نزاع على الإطلاق، بل يريد أن يفهم ما يتحدث عنه بيزليتوف.

- شعبك، - قال كلمة «شعب» مِلءَ فمه ومدَّ حرف «العين» مضاعفاً في الوسط، - مخبول. ولتتحقق من ذلك، يكفي الإصغاء لأيِّ حوار في وسائل النقل العام... هل تعتقد أنَّ هذا الشعب، الذي يتكون نصفه من المتقاعدين والنصف الآخر من مدمني الكحول، يحتاج إلى تربة؟

- التربة يحتاجها الأحياء.

- الأحياء على هذه التربة لا يكْفُون.

- يكفون.

نظر بيزليتوف إلى ساشا نظرة ساخرة، ولم يتزحزح للسماح لفينيا الذي أراد التوجه، على ما يبدو إلى المرحاض، وبمجرد أن شقَّ فينيا طريقه، قال:

- القضية لا تكمن في هذا، يا عزيزي ساشا.

لاحظَ ساشا أنَّ نغمة خطاب بيزليتوف تتغير باستمرار - من التهيج إلى الهدوء المتعمد والمتساهل إلى حد ما. ومع ذلك، كانت هذه التغييرات سلسة للغاية وحتى ذات حسٍّ فنّي بارع.

- الحقيقة هي أنه - لا حاجة لذلك. لا حاجة للقيام بأي شيء. لأنه طالما أنَّ سكان روسيا يسكَرون بهدوء ويتجاهلون كل شيء، ستسير أمورهم كلها كما ينبغي. فالشراب موجود لديهم والبطاطا المقلية. ولكن بمجرد أن يتذكر سكان روسيا عظَمتهم التي انهارت وولّت جانباً، ويتذكَّروا مصير الوطن... وما كنتم تتحدثون عنه طوال الوقت؟.. عند ذاك تبدؤون تهرقون دماء بعضكم بعضاً. وستنزفون كثيراً من الدماء لدرجة أنكم ستغمرون نصف اليابسة. وهذا أمر حتمي، يا ساشا. والحقيقة، إنّي أعتقد أنكم ستُقتَلون أولاً. ولو قيسَ ذلك باستخفاف وفق حجم لترات الدم، فهذا بالطبع خيار أكثرَ صحة. أكثر صحة وأقل دموية.

- لكــن هذا البلد لن يعد موجــوداً في القريب العاجل، يا أليكسي...- اقتطع ساشا اسم الأب[1] عن بيزليتوف، فقد أراد ببساطة أنْ ينطق «كونستانتينوفيتش».

- لقد قلت لك: إنه الآن غير موجود. - ردَّ عليه بيزليتوف بسرعة. - دع الناس يعيشون بهدوء في زواياهم. بالنسبة لهؤلاء الــروس الذين تكترث لهــم كثيراً، أعطهم هــذه الفرصة: أنْ يعيشــوا بهدوء. إنكم لن تجلبوا لهم الخير، افهم هذا جيداً. بل تتســببون لهم بالكثير من المصائــب. بالإضافة إلى ذلك، إنكم عبثاً تعوِّلون عليهم. إنهم روســيون مثل... مثلما أنَّ اليونانيين جديــدون مقارنة بالإغريــق القدماء. مثل علاقــة المحاربين الأشوريين بالآثوريين[2] - صبّاغي الأحذية.

شرب ساشــا العصير وبدأ أيضاً ينظر إلى شاشة التلفزيون التــي جلبت الصورة الظاهــرة فيها انتباه نيغاتيــف أيضاً. ما يزال ســائقو الدراجات النارية يقــودون في دوائر. ثم نظر إلى روغوف، الذي كان يهز رأسه على وقع شيء ما بداخله.

- الحقيقــة، يا ساشــا، - خفف بيزليتوف مــن لهجته مرة أخرى. - أحببــتُ ما قمتم به. لقد كان مشروعــاً جمالياً مثيراً للاهتــمام على خلفية الحزن الســائد. لكنكــم بدأتم تتخطون الحدود. وها أنتم على وشك أنْ تبدؤوا ما لا رجعة فيه. توقفوا

(1) عند التخاطب الرسمي وعند عدم رفع الكلفة يذكر الروس في الخطاب الاسم واسم الأب. (المترجم).

(2) الكثيرون من أبناء الجالية الآثورية في روسيا يعملون إسكافيين. (المترجم).

الآن. افعلوا ما كنتم تفعلونه من قبل. إنه مشرق للغاية - منشوراتكم وخطاباتكم وصرخاتكم في الساحة والأعلام التي ترفعونها. وفتياتكم ذوات الوجوه النحيلة... هذا ليس على الطريقة الروسية مطلَقاً، وليس من تقاليدنا، ولكنه مشرق على أي حال. وبشكل عام، - انتعش بيزليتوف لتدفق أفكاره، - إنَّ الخصوصية الشخصية للفرد الروسي في هذه الأيام ليست في متناول الجميع، لقد أضاع سكان روسيا الخصوصية الروسية. وإنها ما تزال محفوظة في أشخاص محدَّدين، كمبدأ روحي محدد للغاية، وإنْ شاء الله ستبقى بعض الوقت. ربما، على مدى بضعة قرون.

- أين محفوظة؟ - اندهش ساشا فعلاً. - في بلد سيموت خلال ثلاثين عاماً وسيستوطنه الصينيون والشيشان؟

- كلا، بالطبع. ولكن بطريقة أو بأخرى حافظ اليهود على يهوديتهم لمدة ألفي سنة. تعيش الجاليات الروسية في جميع أنحاء العالم، ولا يزعجهم أحد. ما تزال الثقافة الحية هي المكون الرئيس، وللأسف، المكون الوحيد للروح الروسية. لم تعد الروح تعيش في أي مكان آخر تقريباً - سوى في بعض الأفراد الذين يحملونها والذين يرسمون اللوحات أو يؤلِّفون الكتب أو... ليس مهماً. لم يعد الشعب حاملاً للروح، وبالتالي لم يعد قادراً على فعل أيّ شيء. وكل ما يمكننا تقديمه للعالم هو أنْ نصوِّر حياة روحنا.

- في لحظة انهيار هذه الروح... - قال ساشا بتعب.

- يا ساشـــا، هذا كله يتوقف عليكم أنفسكم. إذا ما بدأتم الفوضى الدموية المتوقعة منكم، فسيتسارع الانهيار ليس إلّا. لا تستدعوا الشياطين. بل ادعوا الملائكة، - ابتسم بيزليتوف برفق لحماسة أقواله، وبذلك أخذ طابع الحماسة. - الأحداث الحقيقية تجري في عالم الروح، يا ساشا. الإنسان الروسي الحقيقي - هو حامل الروح المميَّزة والمُفتقِر للروح، - كثيراً ما كان بيزليتوف يكرر عن عمد كلمة «روح»، وفي كل مرة يعزز التكرار بصوته، - وهو الإنســان الذي يبحث عن الحقيقة. ينبغي على روســيا أن تتوجه إلى البعد العقلي... - وقال مختصِراً. - وهذا سيكون أفضل.

- إلى أيــن نذهب؟ - ســأل فجأة فينيا الــذي عاد ووقف خلف كتف بيزليتوف.

استـــدار بيزليتوف نصف اســتدارة، من دون أنْ يوجِّه إلى فينيــا نظرة كاملة، ثم عاد إلى فنجــان القهوة. شربه كله، ونظر إلى القعر، وهزَّه لســبب ما ووضعه عــلى الطاولة، ترك ورقة نقدية ملساء على الطاولة (ثمن القهوة بالإضافة إلى البقشيش) وودَّعَهم بسرعة وخرج.

لم ينبــس أحد منهــم بكلمــة. نيغاتيف مــا زال ينظر إلى التلفزيون.

- ما رأيكم... بحديثه؟ - سأل ساشا في الشارع.

كان نيغاتيف يسير أقرب منهم إلى جانب ساشا، فكان عليه أن يجيب أولاً.

- الأمر بالنسبة لي سيان، - ردَّ نيغاتيف. - لكنني لا أفهم لماذا جئتَ بنا إلى هنا؟

- أفٍّ له، - قال فينيا رأيه أيضاً.

وظلَّ روغوف صامتاً.

- ليوشا! - نادى ساشا.

- وهل سمعت أنت أي شيء جديد؟ - ردَّ روغوف، وكأنه مشغول الفكر بشيء ما.

هزَّ ساشا كتفيه متجاهلاً.

- ربما، كان قبل عشر سنوات ليبرالياً ومتطلِّباً...، - قال روغوف، - وكل ما كانوا يطلبونه آنذاك...أنْ يحسّوا بشيء من احترام الذات... والتوبة، وأشياء أخرى...

- نعم، - ردَّ ساشا بالإيجاب، وشعر بفرح داخلي من حقيقة أنَّ كلمات بيزليتوف لم تمسَّ روغوف الهادئ على الإطلاق كالسابق.

- وآنذاك، ربما، لم يسترشد بالأفكار التي يعبر عنها الآن. والتي يجب تجنّبها. فالتدخل بوسائل الجراحة الصارمة ليس إلهياً. وكيف أنهم يحبون عموماً أن يذكروا اسم الله، لأتفه الأسباب. وحتى عندما يقطّعون بسكين مثلوم جسماً حياً، هو معهم وفي متناول أيديهم، والآن هنا. مهما فعلوا... هل هو

ملازم لهم كالغلام المكلَّف بأداء خدمات لسيده ورهن إشارته؟

توقف روغوف وأشعل سيجارة.

- ومن ثم، يا ساشـــا، ألم تلحظ أنه يحسبك ويحسبنا جميعنا آثوريـــين ننظف الأحذيـــة، ويعدّ نفســـه وصياً عـــلى الروح الروسية... دعه يحسبنا هكذا.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ - ســـأل فينيا الذي شعر بالملل من هذا كله.

- إننا ذاهبـــون إلى الناس. - قال روغوف. - الشروط كالآتي: يجب أن يكون المكان دافئاً والـــشراب رخيص. أين يوجد لديكم شراب أرخص؟

- عند محطة القطارات، - أجاب ساشا. - ليس بعيداً.

يمكن الحكم من خلال المذاق أنَّ حشوة اللحم في البيلميني قد اســـتُبدلت بورق ممضوغ بعناية، على الأرجح ورق نشاف. المايونيز حامض - على شـــكل لطخة رمادية تلتصق على حافة الطبق.

- الخبز... مبلل... - قال روغوف متقزِّزاً وقام بحركة لأن يضع جانباً شريحة من خبز الشيلم، شبه شفافة مثل بتلة سمكة غالية الثمن (ويبدو أنَّ رائحة السمك تفوح منها)، لكنَّ نيغاتيف أمسك قطعة الخبز ووضعها على طبقه، مباشرة على المايونيز.

كانت شهية ساشـــا ممتازة، وبعد مائة ميليلتر من الشراب، بدت البيلميني صالحة للأكل تماماً.

كان مقصـــف الأكلات السريعـــة في محطـــة القطـــار مليئاً بالأشخاص الصاخبين الذين يرتدون ملابس رديئة، ومعظمهم مـــن الذكور. لم يكن ثمة طعام على طاولاتهم، الشراب فقط في الأقداح. وكانوا يكرعونها على الفور وهم يحرّكون حناجرهم الزرقاء شـــبه الملتهبة. وفي بعض الأحيان ينظر الذي كرع مائة ملليلتر قبل دقيقة إلى قدحه الفارغ وهو بين الأمل والشك.

ظهر رجل غـــير حليق وكئيب عمره غـــير واضح في بدلة عسكرية قذرة، وبدا من دون سلاح.

لم يلحظ ساشـــا وفينيا نفســـيهما كيف بـــدأا، بعد الكأس الثالـــث، في التحدث بصوت عالٍ وأومـــأا بأيديهما بعنف في الوقت نفســـه. ونيغاتيف، كما هو شـــأنه مِن قبل ظلَّ صامتاً، يمضغ الخبز والبيلميني بعناية. وقد لاحظ ساشا قبل هذا: إذا ما كان هو ينظر، عندما يدخـــل إلى مقهى، عدة مرات ليتأكَّد أيَّ نوع من الناس من حوله - فإنَّ نيغاتيف، على العكس من ذلـــك، لم يهتم حتى بمعرفة أيّ نوع مـــن الناس هؤلاء الذين يشربون ولا يأكلون. وقد بدا نيغاتيف كأنها جاء إلى منزله الذي يعرف فيه الجميع منـــذ مدة طويلة. أما روغوف فلم يصخب ولم يســـكر، لكن بانت بقع ورديـــة ذات حدود واضحة على وجهه. نظر ساشا إلى روغوف وقد لاحظ باندهاشِ السكرانِ

أنه إذا ما قام بتدوير البقعة على الخد الأيسر، فسيحصل على خريطة أفريقيا. مدَّ ساشا رقبته عدة مرات، محاولاً تمييز شكل البقعة على خد روغوف الأيمن، إلى أنْ أومأ ليوشا برأسه مستفسراً: ما هو؟

أدار ساشا رأسه بحركة تشبه حركة الجرو: لا شيء.

ابتسم روغوف بهدوء.

- يا ليوشا، أخبرني مرة أخرى عن هذه المحادثة. إنك تتحدث بشكل جيد للغاية. - طلبَ منه ساشا.

- ماذا يمكنني أن أقول... - اندهش روغوف بصدق مرة أخرى. - الإصغاء لهذا النوع من الناس معناه الانبطاح والموت بكل سهولة. عموماً، كان على الروس، وفقاً لمنطقه، أنْ ينبطحوا ويموتوا كل مائة عام. بمجرد أن يكونوا على وشك «أنْ يُهرِقوا الدم». إني لا أرى فرقاً بين اليوم وما حدث... منذ زمن طويل جداً. وإنّي لا أرى حتى فرقاً بيني وبين جدّي.

تحدث روغوف ببطء، كما لو كان يقلِّب كل كلمة في مفرمة اللحم.

- كلا، يا ليوشا، انتظر، ولكن ماذا عن «أنْ يُهرِقوا الدم»؟ هل سيكون هذا حقاً؟

- الجميع يُهرِقون...

- سيقول بيزليتوف إنَّ الجميع يُهرِقون دم الأغراب، أما نحن - فنهرق دم أهلنا.

- هل بيزليتوف لقب عائلته؟ - سأل روغوف، ومن دون أنْ ينتظر الجواب، قال: - وهل هذا قَبِيح؟ الأشرف أنْ تذبح خاصّتك بدلاً من أنْ تسعى بقدميك إلى البلدان المجاورة.

- وإنّنا لم نسعَ، أليس كذلك؟

- لا بأس، شيءٌ أنْ تنقل بعربة شحن إلى كامتشاتكا[1] سكان البلطيق الذين لولا جنود الجيش الأحمر بخوذهم الصوفية لرزحوا تحت نير هتلر، وشيء آخر أنْ تُلقي قنبلة على مدينة فيها أطفال وتقتل الجميع على الفور. ألا يوجد فرق؟

- يوجد.

- إننا نذبح بعضنا بعضاً، لأن بعضنا في روسيا يفهم الحقيقة بهذه الطريقة، أما الآخرون فيفهمونها بشكل مختلف. إنه ذَبحٌ وفِهمٌ في وقت واحد.

- أجل، إنه فهم، - وكرر ساشا، - وهذا الفهم الذي...

- هذا، نعم.

خرج الأولاد لقضاء الحاجة، وظل نيغاتيف يحرس الشراب المتبقي والبيلميني الباردة الزائدة.

يقع المرحاض مباشرة خلف المقهى ويمكن اكتشافه بسهولة من خلال الرائحة النفاذة.

---

(1) كامشاتكا هي شبه جزيرة في الجزء الشمالي الشرقي من روسيا. يحدها من الغرب بحر أوخوتسك، ومن الشرق بحر بيرنغ والمحيط الهادئ. (المترجم).

لم يدخلوا إلى هــذا العَفَن المُبَقبِق ووقــف الثلاثة عند جدار مبنى رمادي بجوار المقهى. اتضح أنَّ الأولاد وقفوا على مرتَفَع ونتيجة لذلك تدفقت الســوائل التي طرحوهــا على الفور إلى الخلف. اندمج بول الأولاد وتغطّى بالفقاقيع.

عادوا خفيفين ومنتعشين.

- المزيد من الشراب؟ - اقترح ساشا.

- ولِمَ لا.... - أجاب فينيا. وأومأ روغوف برأسه.

عندما عاد ساشــا حاملاً الزجاجــات كان الرجل غير الحليق الذي يرتدي البدلة العســكرية واقفاً عنــد الطاولة، وعلاوة على ذلك، في صمت. كان كُمّ السترة الأيمن يتدلى، لم تكن لديه يد فعلاً.

- سمعتكم تقولون...- قال بصعوبة وصمتَ بعد أنْ تلعثم.

- رصدتَ بمهارة، - أوحى إليه ساشا أنْ يواصل. فأصبح شكله في ظل الثَمَل مائلاً للمُشاكَسة.

ضحــك فينيا. وابتســم روغوف بأطراف شــفتيه. وبقي نيغاتيف لا يُختَرَق.

- لقد قلتم إننا لم نذهب إلى أي مكان، أيها الإخوة الشباب اليافعون. ولكن ماذا عن أفغانستان؟

اتخذ وضعية الوقار والجلال وقال ببطء:

- أنا قائد فوج المشــاة الآلي الجبلي المائة الســادس والسبعين. تعرضــتُ أربع عشرة مرة للقصف. ونلــتُ إصابتين أيها الإخوة الشباب اليافعون.

ونطقَ «أيها الإخوة الشباب اليافعون» من دون تشديد صلف - تماماً مثل «يا أولاد».

نظر الأفغاني[1] في عيني ساشا الواقف أمامه مباشرة وزجاجة شراب مفتوحة في يده. أدرك ساشا فجأة أنَّ الرجل لم يكن ثملاً تقريباً.

- سمعتكم، تتحدثون عن حزب ما. عن السياسة. ما حاجتكم أيها الإخوة الشباب اليافعون إلى السياسة؟ هؤلاء القرود في السترات يريدون فحسب أن يزجوا بنا إلى... اللعنة، هل لدى أحدكم سيجارة؟

فكر ساشا وأعطى سيجارة للأفغاني.

- هنا التدخين ممنوع، - حذره مبتسماً.

- أنا أدخن في كل مكان. أنتم من حزبٍ ما، أليس كذلك؟ - حاول أنْ يستكشف أغوارهم.

- من حزب «اتحاد المبدعين». - أجاب ساشا.

- آه، «الاتحاديين». السيد كوستينكو ورفاقه... - ابتسم الأفغاني ابتسامة وحش. - هل اندهشتم ممّا أعرفه؟ اعتقدتم أني متشرد من متشردي المحطات جاء يستعطي الشراب؟ إنّي لا أشرب على الإطلاق. أتفرَّج على الناس هنا. إنهم يمشون

---

(1) الأفغاني - كلمة يستعملها الروس للإشارة إلى المقاتل من الاتحاد السوفييتي الذي اشترك في التدخل السوفييتي في أفغانستان في المدة من عام 1979 إلى عام 1989. (المترجم).

أياماً كاملةً، ولا أحد يعرف كيف... - وفجأةً أجال النظر على الجميع بعينيه اللتين اســودَّتا، - كيف تتقلص الأرداف عندما تطير قذيفــة الهاون. لا أحد يعرف أنّها بســبب الخوف ربما لا تهتزَّ بل تتقيأ. إنهم لا يعرفون، لكنّي في بعض الأحيان أشــعر بالراحة من هذا، وأحياناً أشعر بالانزعاج.

- اســمع، يا هذا، امضِ إلى حال ســبيلك، أنا وأصدقائي نرتاح هنا. - قال فينيا.

- لا، انتظــر، الآن أريد أنْ أقول... - دفع الأفغاني بحركة غير ودية يــد فينيا من على كتفه. - أنــا لا أعتبركم من جماعة «الأس أس». لا بأس، عَلَمكم يشــبه عَلم الفاشــيين، وهذا كله هراء. إنكم تريدون الإطاحــة بالحكومة، أنا أيضاً أودّ أن أســحقهم برجلَيَّ. أولئك الذين أدخَلوا القوات إلى أفغانستان وأولئك الذين انســحبوا منها على حدٍ سواء. والذين أدخلوا القوات إلى الشيشــان. وأولئك الذيــن أخرجوها. وأولئك الذيــن أدخلوها مرة أخرى. وكذلك الشيشــانيين في الوقت نفســه. بيد إنّنــي لا أفهم وضعكــم هذا كله الــذي ترمون أنفســكم فيه، يا ترى هذا مُجدٍ؟ عــلى الرغم من أنني لا أملك يداً، فأنا مســتعد على الفــور لأن أذهب وأنصب علمكم على الكرملين... يمكننــي بيد واحدة أنْ أخنق بل وحتى أنْ أطلِق النار. ولكنني لن أذهب، لأنكم مهرجون. مفهوم، أيها الإخوة الشباب اليافعون؟

أكل روغـوف في ذلـك الوقـت البيلميني كلـه. وتلفَّتَ نيغاتيف برأسـه، يبدو أنه ينقصه جهاز التلفزيون. فينيا وحده نظر بمرح إلى الأولاد وفي وسط مونولوج الأفغاني سأل ساشا في همس وبابتسامة ناعمة:

- ربما، نرتِّب انتسابه؟

- انتظر... - أجاب ساشا في همس.

- لماذا انتم صامتون؟ - ارتفع صوت الأفغاني.

- ماذا سـألت؟ - أجاب روغوف وهو يبتلع آخر ما تبقى على الطبق، وشرب فضلة شراب معتصراً وجهه بألم.

- إنّي، أيها الأخ الشاب اليافع...

- لا تناديـني هكذا، - طلب منه روغـوف بلطف تقريباً. اكتسب شكل أفريقيا على خده ظلالاً وردية مشرقة وساخنة.

- أتسـاءل: ماذا يمكنكم أنْ تقترحوا عليَّ؟ - ركَّز الأفغاني نظره على روغوف. - عليَّ بالذات؟ أنتم، «الاتحاديّون»؟

جفَّ اللعاب الأبيض في أركان فم الأفغاني.

- على مشـارف هرات حشرتُ مصاريـن الجندي خازين ميخائيل، الذي كان على وشـك التسريح، في بطنه. وبعد ذلك أذهب معكـم لأرمي البيـض؟ هل حدثَ لـك أنْ حشرتَ المصارين لأحد؟

نظر روغوف إلى الأفغاني. ونظر ساشا إلى روغوف.

- لن تصدقني، - قال روغوف ببطء، - ولكن رمي البيض أسوأ من حشر المصارين.

لوى الأفغاني شفتيه بابتسامة وقال:

- هل حشرتَها؟

- نعـــم، ومرات عديدة. ســـحبتها وحشرتهـــا. المصارين والرئتين والكبد والمعدة.

- أتمزح؟ - قال الأفغاني مقطِّعاً الكلمة.

- لا أمزح. أنا مختص بالتشريح المَرَضي.

فغر الأفغاني فمه ليجيب بكلام وقح وسيئ، لكن روغوف من دون أن يرفع صوته قاطعه:

- لم أكن على مشـــارف هرات، لكنني تعرضت للنيران في أماكن أخرى، وأكرر لك مرة أخرى: إلقاء الطماطم على رئيس الوزراء أمر مخيف عـــلى الأقل مثل إلقاء قنبلة يدوية. أفهمت؟ بعد أنْ تلقي قنبلة يدوية ربما ســـتُقتَل. ولكن ما إنْ تقذف رمي الطماطـــم، فمن المحتمل أن يُكسَر لك الفـــك أو الضلع وبعد ذلـــك بقليل يمكن أن يرموا بك في زنزانة. ما الذي يثير فزعكَ أكثر، أن تُترَك أو تُقتل؟

- أنت يا أخي...

- وهاكَ شيئاً آخر: إذا كنت ترغب في إلقاء قنبلة يدوية بدلاً من الطماطم، تفضل. ســـنقدر هذا الإجراء. ســـأقدر لك هذا العمل. وإذا كنت لا تريد ذلـــك الآن، فلا تفعل. ربما، أنك ما

تزال ترغب، كما أفهم، أنْ يطلق جميع مَن حولك النار - آنذاك من الأسهل أنْ تبدأ أنت بنفسك. في الحشد، أليس كذلك؟ آمل أن تتاح لك هذه الفرصة في المستقبل.

وهنا ابتسم روغوف.

- هيــا، يا أخ! - ربَّتَ ليوشــكا على متــن الأفغاني. - مع السلامة. أراك لاحقاً. إلى اللقاء، إلى اللقاء. هيّا.

أشاح الجميع بوجوههم عن الأفغاني، على الرغم من أنه ما زال واقفاً، بعد أنْ خطا خطوة فقط من الطاولة.

- ما رأيكم، أنْ نخرج لندخِّن؟ - سأل فينيا.

خرجوا إلى الشــارع، مروراً بالأفغاني الــذي كان ينظر إلى الأرض ويهز برأسه.

أخرج ساشــا آخر ســيجارة وألقى العلبة الفارغة. أشعل سيجارة وشعر على الفور أنه ثملٌ جداً.

- هل بقي لدينا هناك شيء آخر؟ - ســأل ساشــا، بشكل أساسي من أجل سماع صوته، وتقييم مدى وضوحه.

- أخذت الــشراب، - رفع فينيا يديه بزجاجتين مفتوحتين من الشراب. وقد شربنا بقية الزجاجات.

سُرَّ ساشا لأنَّ سؤاله مفهوم.

حرك شفتيه وأمر مبتسماً:

- لنتحرّك!

أخذوا شراباً مرة أخرى ومعها بعض الأكل الرديء. انتقل ساشــا إلى المرحلة التي لا يشرب في ظلها بل يصب فحسب. وجعلوا يملؤون بطونهم بسائل لا طعم له.

جيء بالشراب من مــكان ما، ولكن توافَق أنْ تكون المزة معها الحبّار المجفف، ذيل واحد مملَّح للثلاثــة. قطَّعَ الأولاد هذا الذيل بدقة، بمظهر جديّ للغاية، وإنْ كان بليداً إلى حد ما.

نزلوا إلى رصيف المحطة، واستمعوا إلى قطار الشحن كيف يقعقع، وقد خدر ساشا تماماً من هذه القعقعة.

انحسرت أمامهم مناظر المحطة، ولم تظهر أمام العيان إلا من حين لآخر بشكل حاد وغير متوقع - إما لافتة ساطعة أو وجه شخص ما أو سياج ثابت ينبغي تجاوزه، ما عذب أجهزتهم الدهليزية[1] كلها.

لم يتمكنــوا من متابعة المحادثة، وبدلاً عــن ذلك أحَبوا أنْ يصرخوا بشيء من وقت لآخر.

وبعــد أنْ رأى الأولاد دورية الشرطة فرّوا وهم يضحكون إلى جانب صفوف الســوق الفارغة، التي جــرت فيها خلال النهار المتاجرة بأنواع الخردوات المفيدة للمنزل.

سقط ساشا على أطرافه الأربعة، بل وحتى شرب قليلاً من البِركة التي انعكس فيها على ضــوء المصباح وجهه الموحل. لم يتنبه الأولاد، الذين تسكعوا إلى الأمام، إلى سقوط ساشا.

---

(1) الجهاز الدهليزي – هو جهاز إحساس يسهم في الحركة والإحساس بالتوازن، وهو الجزء المسؤول عن التوازن في أغلب الثدييات والإحساس بالاتجاه المكاني. الجهاز الدهليزي والقوقعة (وهي جزء من الجهاز السمعي) يشكلان التيه العظمي الذي يوجد في الدهليز الأذني في الأذن الداخلية. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

كانت صفوف السـوق عبارة عن مناضد من الحديد، تالفة في بعض الأماكن. وكان لكل منضدة سقف من صفيحة واحدة صدئة ملحومة على ماسورتين.

لسـبب ما، بينما كان الأولاد يمشـون في صفوف السوق دوّت قعقعة واهتزّت المناضد، بل وحتى تمايل بعضهم بشكل خطير وكادت المناضد تسقط. على ما يبدو أنَّ أحدهم اصطدم بالمناضد، وربما ركلها.

التقى الأولاد برجل قوقازي المظهر، مشى نحوهم، بعد أن رفع كتفيه وانحنى. وقد استقبلوه بفرح كبير بكلمات «السلام عليكم»، وكذلك «الله أكبر».

عرف ساشـا أنَّ القوقازيين «أمسكوا» بهذا السوق. ولكن الآن، في هذا الوقـت القريب إلى الليل، كان عليهم جميعاً، بعد أنْ جمعوا الإيرادات، أنْ يتفرقوا. ومع ذلك، يوجد بالقرب من هنا العديد من الحانات وكازينو، التي يسـتريح فيها الشباب، القصار القامة الذين يتحدثون بأصوات حلقية عالية، ويرتدون سترات جلدية وأحذية مدببة سوداء تغطي الرسغ.

خلف أحـد المناضد، مثَّل الأولاد مشـهد «بيع ابن الجبال زجاجة شراب لم يُشرَب كل ما فيها إلى الروس الغشيمين».

قام روغوف الذي ابتهـج واحمرَّ من الخجل بأداء دور بائع قوقازي بشكل مضحِك، مدح محاسن الشراب والشكل النادر للَزجاجة. وماكسـه (سـاومه) فينكا مماكسـة خرقاء وبليدة.

وساعد ساشـــا (الذي حتى في حالة السكر لاحظ وجود حس فكاهي جيد عند روغوف الذي بدا كأنه لا يميل إلى المزاح) فينيا في المساومة – وهو يلوِّح بذراعيه ويصرخ بشيء ما وفي كل ثانية يسقط من فمه السيجارة التي يسحبها من أحدهم ولا يتذكره. وحتى نيغاتيف، الذي ســـمح لنفســـه بنصف زجاجة شراب، لوى شفتيه محاولاً الابتســـام. وكان يمكن على ضوء الإشارة الوامضة في الحانة القريبة رؤية الدفء في عيني نيغاتيف.

- إنها... إنها... نصف فارغـــة... – قال فينيا، وهو يطرق بإصبعه الملتوي على الزجاجة.

- أ، أ، مـــا أنت، هـــا؟ أ، أ، أ... – أجاب روغوف وهو يهز رأسه. – أنا آخذ منك الإناء فقط.

- ولا توجد فلينة سدادة...

- وما حاجتك بالفلين، ها؟ هل ستشرب أو تنغمس في الفلين؟

لم يلحظ أحد كيف ظهر ستة أشـــخاص تقريباً ذوو شعور سوداء، وهم يضحكون مكشرين عن أســـنانهم البيضاء. لقد كانوا، بالتأكيد، يدخنون على درجات الحانة، فأثارت «المتاجرة» اهتمامهم وشعروا بالإهانة فعلاً عندما سمعوا الحوار. أحدهم كان يحمل زجاجة شراب مفتوحة في يده. فهزَّها لسبب ما.

جميع القادمين كانوا شباباً، لاحظ ساشا ذلك حتى في حالة الهذيان الثمل التي كان فيهـــا، ولكن لم تكن لديه القوة الكافية للانزعاج من هذا الظرف.

مع البالغين يمكن الاتفاق بسهولة. أما مع الشباب - فليس سوى الاعتذار والتذلل؛ أدرك جميع الأولاد ذلك على الفور.

وقفوا بصمت لعدة ثوانٍ.

هز ساشا رأســه، وشــعر فجأة أنه صحا قليلاً من الإثارة الشديدة.

اعتاد أنْ يقول بضع كلمات على الأقل في بداية أي شجار.

- ماذا تريدون؟ - ســأل وألقى بلطف عقب الســيجارة المدخَّنــة كلها تقريباً ولكن الدخان مــا زال يُنفَث منها في عنق زجاجة الــشراب - تلك التي كان يمســكها أحد القوقازيين في يده. حتى إنَّ ساشــا تمكــن من ملاحظة أصابعــه البيضاء ولكن المكسوة بشعر أسود كثيف. نظر القوقازي في حيرة بعد إلقاء عقب الســيجارة في عنق الزجاجة. سقط العُقب في قعر الزجاجة وأصدر صوتاً خفيفاً.

وبعد ذلك حدث كل شيء بشكل أسرع.

أطلق ساشا زفرة ورمى رأسه إلى الخلف وانهال بخفقة من جبهته على جسر أنف القوقازي. وقع شيء بشــدة، فقد هوت الزجاجة من الأيدي البيضاء وتدحرجت، وانسكب السائل. ســقط القوقازي عــلى ركبتيه وغطى وجهــه بيديه ولم ينهض بعدها.

أراد ساشا أن يتناسب بشــكل جميل مع القوقازي الثاني - وتلقى هو نفســه صفعة لاذعة على فكه ولكنهــا لم تكن قوية

جداً. فترنَّح وقفـــز إلى الوراء بضع خطوات ورأى كيف اندفع فينيا وهـــوى بالزجاجة التي كانت موضوع المُماكســة في وجه أحد الخصوم.

... سقط ساشا وســبَّ كثيراً بكلمات بذيئة، ونادراً ما كان يضرب في الهدف، لكنه أيضاً لم يتلقَّ سوى القليل من الضربات - لأنه كان يبتعد راكضاً من المهاجم ويقف على مســافة متخذاً وضعية قتالية، كما يعتقد، مفعَمَة بالنشاط...

لاحظ بطرف عينه أنَّ فينيا كان يتعارك مع اثنين على طريق المرور وأنَّ السيارات كانت تزمِّر للمتشاجرين وهي تحاول أنْ تجتازهم.

... ثم لاحظ نيغاتيف الذي كان جالساً فوق خصمه المطروح على الأرض وقد ألحقَ به ضربات قوية ومؤلمة للغاية على وجهه.

واللقطة التالية كانت السيارة التي فرملت بالقرب من فينيا. واندفع منها خمســة شباب رشــيقو القِوام وصاحوا على الفور بلغتهم بصوت عالٍ وكأنهم يطاردون فريســة لهم. تراجع فينيا وتأهَّب ممسكاً بقطعة من الحديد.

هرع عدة أشــخاص آخرين من الحانة، وكان بإمكانهم أنْ يتجاسروا على الجميع لو لم يُسقِط روغوف منضدة في طريقهم ثم منضدة ثانية وثالثة.

كانت المناضــد ملتصقة من جانب بالجــدار ومن الجانب الآخر بسياج منخفض، أعلى قليلاً من الحزام، يحيط بالطريق.

وفي الوقت الذي تسلق فيه القوقازيون الذين جاؤوا يركضون من الحانة فوق السياج، حتى يتجنبوا الحاجز الذي رتَّبَه روغوف، تمكن ليوشا من أنْ يجرّ نيغاتيف من قفاه من الرجل الذي كان يضربه وركل برجله الشخص الذي اشتبك معه ساشكا من دون جدوى.

- فينيا! تعال إلى هنا! - صاح روغوف في الوقت نفسه.

رمى فينيا الحديدة على الذين طاردوه واندفع عبر السياج. انطلقت على الطريق سيارتان للشرطة من مكان ما، فهرع جميع الذين كانوا في السوق، على وقْعِ صراخ الشرطة وصوت صفارات الإنذار، في اتجاهات مختلفة.

بدا لساشا أنه كان يركض أمام الجميع. وشعر ببقبقة غريبة في حلقه.

سمع دبدبة أقدام وراءه وكان على يقين أنَّ هذين ليوشا ونيغاتيف أما فينيا ففي مكان قريب.

كان من غير المجدي الالتفاف - فقد كان ساشا يتحرك في هذا الظلام الذي لا يمكن فيه تمييز وجوه الذين يركضون خلفه وهو يلعن ويخاطر أنْ يصطدم بشيء ما. كان يمكن أن يصطدم بالسياج الخرساني لو لم يسمع شخصاً يجرّ قدميه بسرعة على طول الجدار محاولاً اجتيازه.

لمسه بيديه - أجل، إنه سياج.

وثبَ ساشا وتسلَّق السياج.

«إنه الســـوق! - حدسَ ساشا، وهو يقفز من السياج. - أنا في السوق!»

بعد العــراك والجري امتلأ فم ساشـــا باللعاب فبدأ يبصق طويلاً ويدير رأسه نافضاً ما علق بوجهه. ومسح بكُمِّه ما علق بذقنه.

ارتفعت في المكان سقائف، ولم تكن هناك أيّ إضاءة تقريباً.

سار ساشـــا على غير هدى في الظلام، وهو يتنفس بتثاقل، ورأى، كما بدا له، صناديق أو حاويات فارغة، إما مكدسة فوق بعضها بعضاً، أو متروكة بالقرب من جدار أقرب سقيفة.

هرع ساشـــا إلى هنـــاك، باحثاً عـــن مكان يلـــوذ به خلف الصناديق وهو يلهث واللعاب الكثيف يسيل من فمه.

دخل بين الصناديق، مُرهقـــاً تماماً مما حدث ومن الكحول أيضاً، محاولاً الاقتراب من الجدار، وداس على شيء ناعم. على شخص جالس.

- مهلاً! - قال ساشا بهدوء وجلس القرفصاء، ثم على جميع أطرافه الأربعة حتى لا يسقط... ومرة أخرى بصق لمدة طويلة وضيَّـــق عينيه ونظر إلى الرجل الجالـــس. - من هذا؟... ارفع يدك، اللعنة.

رفع الشـــخص الذي أمامه يديه عن وجهه. رأى ساشا أنه قوقازي - شاب، كأنه ما يزال صبياً، لكنه يرتدي سترة جلدية وحذاءً مدبباً وسروالَ جينزٍ.

- لأيّ قذارة أنت هنا؟ - سأل ساشا بصوت مبحوح ومن دون ضغينة.

نظر الصبي جاحظاً عينيه، إما نظرة خوف أو وقاحة.

ظلّ ساشا يلهث بعض الوقت وقد مدّ لسانه.

- تحرَّك... - قال ساشا وجلس بجانبه، بعد أنْ عانق الصبي من متنه. - لا تَخَف، سـنجلس الآن لمدة من الزمن ونتفرق... أين رفاقي، اللعنة علـيّ... هل تعرف أين الأولاد؟

- كلّا.

- كلّا... - حاكى ساشا صوته ساخراً.

- ما اسمك؟ سأل بعد توقّفٍ.

- ساشا.

- وأنا ساشـا. لكنك لست ساشا (الكسـاندر)، بل ربما، ساها أو ألخو أو أصلهان. أليس كذلك؟

لم يتلقَّ جواباً.

اكتسـب ساشـا عادة روسـية خالصة متمثلة في الحديث المشوش الثمل.

- من أين أنت؟

- من يريفان.

- أوه... - قال ساشا بشكل غامض. - لماذا بدأتم ضربنا، قِل؟ يا ساها!

- لا أدري، لا أعرف. جئت في وقت لاحق.

- لم تلحَق، أليس كذلك؟ - لسعه ساشا بالسؤال. - حسناً، لا تبتئس...- قال بعد توقفٍ قليل. -... سنرتب ثورة، سنسحق جميع الزواحف، وسآتي إليك في ألما آتا، سنشرب الشاي في الشرفة الأرضية.

- أنا من يريفان.

- سوف نأتي إليك في طهران، - تحامق ساشا، على الرغم من أنه سمع كل شيء، سنشرب الشاي في الشرفة الأرضية. هل لديك شرفة أرضية؟

- هدوء... أحدهم قادم...

بعد دقيقة سُلِّطَ على وجهيهما ضوء مصباح يدوي.

- قم، - قال الشرطي.

كانوا شرطيين اثنين من جهاز الدوريات والسيطرات بالإضافة إلى حارس السوق، وهو رجل عجوز.

قيدوا يدَي ساشا وساها أيضاً.

على الرغم من أنَّ الشرطيَّين كانا مترددينْ بشأن الأخير.

- وهذا أيضاً نأخذه؟ - سأل أحدهما.

- وماذا، إذاً؟ - ردّ عليه الثاني بصوتٍ مشوبٍ بالريبة. - إلى أين سنأخذه؟ دعنا نأخذه أيضاً.

اقتيدَ المُحتجزان إلى سيارة الدورية التي جاءت إلى أبواب السوق مباشرة.

فُتِحَت الأبواب الخلفية لسيارة «واز» وأُجلِسا وجهاً لوجه في المكان المحصور خلف المقاعد الثانية، ثم صُفِقَ الباب خمس مرات ولكن لم يُغلق بأي شكل من الأشكال.

وعندما لامس جبينه تنجيد قماش السـيارة، وهو يثب على الحُفَـر في الطريق ويترنّح جانباً عند المنعطَفات فكَّر ساشـا أنَّ حياته الحرة قد انتهت.

سـيُنقَل الآن وسرعان ما ستتضح -من خلال التحقق من شـخصيته- الفوضى التي أثارها في موسـكو، وبهذا ستكون النهاية.

ولكن لسبب ما لم يخشَ خشية جدية من هذا كله.

أحضروهما إلى القسم. خرج رقيبٌ نعسان، على ما يبدو مساعد الضابط الخفر، من قسم المناوبة الزجاجي الذي كان فيه نقيب ذو شوارب يتحدث بالهاتف ويحرك الشاي بالملعقة وهو يتمطّى.

أجال ساشـا بصره على جدران القسم الأرجوانية والطاولات القديمة والمقشورة، وهو يفكر من جديد أنه سيتذكر هذا كله مدى الحياة.

وفكَّرَ أيضاً أنَّ بإمكانـه الآن أنْ يفلت، مثل آخر مرة، وأنْ يهرب إلى باب القسـم المفتوح ويتوغَّل بسرعة إلى أحد الأفنية، في أي مكان... ولكن لسبب ما لم يكن لديه قوة ولا رغبة.

نُزعَت الكلبشات من يدَي ساشا، وبدأ يفرك معصميه، كما يحدَث عادة مع أي شخص تُزالُ عنه الكلبشات.

- أيضاً من محطة القطارات؟ - سأل مساعد الخفر شرطة الدوريات بهدوء كما لو كان متعَباً جداً.

- من المحطة... - أجاباه.

- هل لديكما أسلحة نارية، مخدرات، أدوات طعن، آلات جارحة؟ - سأل مساعد الخفر ساشا والصبي القوقازي.

هزَّ القوقازي رأسه نافياً.

- لقد ألقيتُ بكل شيء أثناء اعتقالي... - قال ساشا وأدرك من خلال وجه مساعد الخفر المتجهِّم أنه سمع مثل هذه النكتة مائة مرة.

وأُمرا بأنْ يضعا محتويات جيوبهما على الطاولة. لم يكن لدى ساشا أي شيء معه؛ كان القوقازي لديه هاتف خلوي وحافظة نقود مكتَنِزة.

ربَّتوا لساشا على الجانبين والساقين والردفَين وتحقّقوا من أكمامه وطلبوا منه أنْ يرفع سرواله لكي يعرفوا ما إذا كان ثمة أشياء ممنوعة في الحذاء.

صلصل المِزلاج، ودُفِعَ ساشا إلى غرفة صغيرة، محاطة بجدار حجري من ثلاثة جوانب والجانب الرابع قضبان.

فرأى على الفور فينيا ونيغاتيف وروغوف.

كان فينيا ونيغاتيف يجلسان القرفصاء - لم تكن ثمة كراسي أو مقاعد في الغرفة. ووقف روغوف متكئاً على القضبان

المطلية بطلاء أخضر. ومن خـلال القضبان، ظهرت الطاولة والخزنة التي وضع فيها مساعد الخفر محفظة القوقازي وهاتفه الخلوي.

- أوه، وحتى ساشـا قُيِّد! - قال فينيا وهو يبتسم. فابتسم روغوف أيضاً. ورفع نيغاتيف رأسـه وهزَّه - لم يفهم ساشا ما أراد أنْ يقول.

- «وماذا تفعل هنا أنت، يا حبّوب؟» - سـأل فينيا شخصاً يقف خلف ظهر ساشا.

استدار ساشا ورأى أنَّ الشاب القوقازي دُفِعَ كذلك بعده.

نظر الفتى من حوله باحثاً عـن مكان ينزوي فيه بعيداً عن كل من في الزنزانة.

بالإضافـة إلى رفاق ساشـا كان هنا كذلـك رجل برأس أشـعث وقذر يجلس مباشرة عـلى الأرض ووجهه مدفون في ركبتيه ويبدو من هيأته أنه مفرِط في الشراب.

بقي القوقازي واقفاً عند الباب الذي أُغلِقَ بصرير مزعِج.

- لمـاذا وحدنا أُلقي القبض علينا؟ - سـأل ساشـا الذي ارتفعت معنوياته بشكل ما عندما رأى رفاقه.

- بالضبط، لماذا؟ - قال فينيا.

- مهلاً، ليخرس الجميع، كم يجب أن أقول! - فجأة صاح مسـاعد الضابط الخفـر، ومن صرخته رفـع الرجل المخمور وجهه المنتفخ ذا العينين الداميتين من أثر اللكمات.

دفع ظهره عن الجدار ونهــض متثاقلاً، وهو يحاول الحفاظ عــلى توازنه بصعوبة، ركض تقريباً إلى القضبان التي يمكنه من خلالها رؤية الطاولة ومساعد الضابط الخفر الشرير.

- إني هنا، يا مدير؟ افتح البوابة أيها الوغد! صاح الرجل.

قذف مساعد الضابط الخفر أنواع الشتائم البذيئة بفظاظة، وبعد أن أغلــق الباب بعنف ذهب إلى الغرفــة المجاورة، على الأرجح، إلى حجرة المُناوبة.

- هاك، انظر، يا ســانيا، - قال فينيا بعد أنْ أومأ برأسه نحو مســاعد الخفر المــاشي، - إنه إما يهمس أو يــصرخ، لا يمكنه التحدث بشكل طبيعي. هذا المتخلف عقلياً.

صاح الرجل المخمور لمدة قصيرة وهو يركل القضبان.

- اجلس، يا أبي. - طلب منه نيغاتيف.

- كلا، ولكن أين هم إخواننا الجنوبيون؟ - لم يسكت ساشا.

- أُطلق سراحهم على الفور، - أجاب روغوف.

لم يجد ساشا حتى ما يمكن أنْ يقوله.

عاد مســاعد الضابط الخفر وهو يحمل سجل المحتَجَزين، وبــدا من مكان ما في مجال الرؤية شرطة الدوريات أيضاً الذين احتجزوا ساشــا - على ما يبدو، كانوا سيقومون بكتابة تقرير عنه... ثم شــتتَ انتباهَ الثلاثة كلهم جرسُ باب حجرة المناوبة (الخفر).

في البداية غادر مســاعد الضابط الخفــر، ربما لفتح الباب. وبعد دقيقة، سمع ساشا بوضوح أصواتاً بلعومية بلكنة مميزة.

- ساها، جاؤوا لإنقاذك! خمّن ساشا بصوت عال.

وفعلاً، سرعان ما فُتح باب الموقف واقتِيدَ القوقازي بعيداً.

ضحــك الأولاد قليلاً على ما حــدث. وكلمة بعد كلمة - تذكروا المشــاجَرة، وتحدّث فينيا بطريقة مضحكة كيف وجد قطعة حديــد طويلة على الطريق وجعل يُلَــوِّح بها مثلما يلوّح الأحمق عن البعوض.

- وإلا لنقرتْك الأنوف الحدبــاء... - مزح فجأة نيغاتيف المتجهّم الذي لم يكن من عادته المزاح على العموم.

- كلا، دعونــا نتأمّل! - عاد ساشــا إلى الموضوع الذي لم يستوعبه بعد. - لقد احتجزونا بسبب العراك؟ ولكن أين...

- مــادة كراهيتنا العنصرية. - واصل روغوف بنبرة توحي بأنَّ ذلك مُزاح.

- نعم أين هم؟ - ســأل ساشــا. - اتضح أننا تشاجرنا مع أنفسنا؟

- يا فينيا، لماذا كنت تلوِّح بقطعة الحديد في منتصف الطريق؟ - سأله روغوف الذي انتابته سخرية غنائية. - مَن رَوَّعتَ هناك؟

- لقد كانت تعيق مرور الســيارات فــأردتُ أن أرمِيها. - أَجاب فينيا.

كان من الممكن أن يثرثِروا هكذا حتى الصباح، لكن الباب صرَّ من جديـــد، أولاً بالقفل ومن ثم بمفصلات غير مدهونة، وقال بهدوء مساعد الضابط الخفر الذي جاء:

- هيا، انصرِفوا إلى القذارة.

- هل أوقِظ أبي؟ - ســأل نيغاتيف وهو يشــير إلى الرجل السكران.

- من أينَ صار أباك، قاطع الطريق هذا.

لم يتحرك الرجل. فبعد أن تمدد على الأرض مباشرة غفا.

توقف الأولاد بتردد في بهو قسم الشرطة.

- كنت بنفسي ســأضرب هؤلاء الحقــراء ذوي المؤخرات الســوداء[1]... - قال مســاعد الضابط الخفر وهو يفتح الباب الخارجي.

- نحن لم نضربهم... - قال ساشا - هم أنفسهم ضربونا.

- أه، لا ضير لم تضربوهم، - ضحك مساعد الضابط الخفر بشكل غير متوقع، ورفع صوته وإن كان بإيقاع ودّي. - هناك، أحدهم وجهه مســحوق مثل الطماطم المعصورة... لكنهم لم يقدّموا شكوى عليكم. وكذلك لم يُكتب تقرير عنكم. هيّا إذاً، انقلعوا من هنا، أيها المقاتلون...

شعر ساشـــا بعدم الارتياح من نبرة الشرطي غير المُتَكَلَّفة، من ثقته بأنَّ الأولاد هم مَن تسـبب بالشـجار. وأيضاً شــعر

(1) ذوو المؤخرات السوداء - صفة تُطلق على القوقازيين وغير الروس من ذوي البشرة السمراء للسخرية والاستهزاء والاحتقار. (المترجم).

بالاشمئزاز قليلاً لأن الشرطي اعتقد بأنَّ الأولاد يقفون معه ضد أولئك الذين وصفهم بـ«ذوي المؤخرات السوداء». لكنهم في الحقيقة ليسوا معه...

في الشارع بالقرب من قسم الشرطة كانت ثمة سيارة للشرطة - فيها منتسبو «شرطة الدوريات والسيطرات» أنفسهم الذين احتجزوا ساشا. وبمجرد أنْ خرج الأولاد، انطفأت الأضواء في السيارة.

- سأنظر، إنهم يحسبون النقود هناك... - قال فينيا.

تحرَّك الأولاد في الشارع وهم يدخنون. وقرروا أنْ يذهبوا مع ساشا ليقضوا الليل هناك.

- وإذا ما داهمونا، يا سانيا؟ - سأل نيغاتيف.

- آه؟ - كرر ساشا السؤال، وهو يرتعد من القشعريرة. - وإذا ما داهمونا؟... إنهم الآن أطلقوا سراحنا.

- أنا أسأل بجد.

- لا يداهموننا. يجب أنْ نقضي الليل في مكان ما. ماذا تقولون، يا رفاق؟

- طبعاً، يجب أنْ نقضي الليل في مكان ما. - قال روغوف.

- أشعر بالرغبة في الأكل... - قال فينيا.

الفصل الرابع

في ذلك الشـتاء طلبوا حافلة صغيرة - قررت الأم أن يُدفن الأب في القرية. في مكان ولادته.

ساشا لم يجادل.

- ما رأيك يا بني؟ - سـألت الأم بنغمة جديدة تماماً. فقبل الآن، كان بجانبها ثمة شـخص آخر صوته حاسـم. وها، قد مات هذا الرجل.

- سـنصل بطريقة ما، - أجاب ساشـا، على الرغم من أنه كان شبه متأكد من أنهم لن يتمكنوا من الوصول.

وعلى أي حال، لم يكن بمقدور ساشا أن يدفن والده في هذه المدينة الحقيرة التي كانت تثير اشمئزازه دائماً.

كان من غير المجدي عموماً إخبار الجدّ والجدّة أنَّ والده قد مات، مع علمه بأنهما لا يسـتطيعان حضور الجنازة فحسب بل حتى لن يتمكنا من الوصول إلى قبر ابنهما قبل الربيع أيضاً.

لم يشرحا للسائق أي شيء - فلو كان يعرف إلى أين يذهب، سيرفض على الفور. لكنهما قالا له: «إلى منطقة... وسنبيّن لك الطريق...» ولم يسأل إلى أين بالضبط - في المنطقة. وفعلاً كان الرجل البسيط ذا أعصاب هادئة كما بدا في البداية.

جاء أصدقاء الأب والعديد من المدرسين والطلاب ليُلقوا عليه نظرة الوداع. ودَّ ساشا لو يطرد من البيت كلَّ من جاء للتعبير عن تعازيه. اللعنة، ما هذه التعازي التي تفهمونها... تجنب ساشا الجميع، ولم يرغب في رؤية أي شخص. وسمع والدته صدفةً تسأل:

- ربما، يودّ أحدكم أنْ يذهب معنا للدفن؟

فشعر بالألم عندما لم يرد عليها أحد منهم.

قال أحدهم بنبرة اعتذار:

- يمنعنا العمل...

- سأذهب معكم، قال شخص واحد. هو بيزليتوف.

جاء في صباح اليوم التالي، ووقف في الرواق مرتدياً معطفاً قصيراً من الفرو وحذاء، ولم يرغب في خلع ملابسه. خلع وارتدى القفازات عدة مرات.

لم يُلقِ ساشا التحية عليه.

- يا أليكسي، - قالت الأم بصوتٍ باكٍ لا يكاد يُفهَم، - سوفَ تجمد في هذا الحذاء.

فصعَّر الرجل وجهه بشكل غريب، وكأنه انزعج للغاية.

- لا شيء، - أجاب همساً وخرج على الفور.

وقف في الشارع. لم يدخّن.

نظر ساشـــا من النافذة فــرأى بيزليتــوف وتفحّص ظهره ببلاهة.

لازمت الأم الجلوس خلف طاولة المطبخ وبدأت تبكي.

- كيف ســأوصِله؟ - تســاءلت. - وماذا سيقول لي أبوه وأمه؟... هل اتصلت بهم، يا ساشا؟ بالجيران؟

- اتصلت.

- ماذا قالوا؟

- قالوا إنهم سيُخبِرونهم.

بكت الأم مرة أخرى.

دخل السائق ووقف صامتاً عند الباب.

- لنذهب، - قال ساشا لوالدته بانزعاج تقريباً. - ما الذي ننتظره؟

حملوا التابوت - بيزليتوف وساشــا والســائق وساعدهم الجيران.

وضعوا التابوت أمام المنزل.

واحتشد بالجوار الأطفال الذين نزلوا من الأراجيح الشتوية التي تصرّ بصوت قبيح. وبدؤوا ينظرون بفضول وهدوء. أراد ساشا أنْ يطردهم.

- دعونا الآن نشحن... - قال بحنق. - ماذا ننتظر هنا...

- يجب أنْ ندع الناس يودعونه... - قالت الأم.

- من هم الناس؟ - سأل ساشا وتفوَّه بشتائم.

بالإضافة إلى الأطفال احتشدت بعض الجارات - من المعارف البعيدين وحتى غريبات، ولكنهنَّ يهززنَ برؤوسهنَّ.

- اذهبي إلى السيارة، - قال لوالدته. - هيّا بنا؟ - التفت إلى الرجال مشيراً إلى التابوت.

جلس ساشا إلى جانب السائق. وجلس بيزليتوف في صالون السيارة.

وأُغلقَ التابوت.

ذكر ساشا للسائق الوجهة الوسطى - «... من هناك أكثر قليلاً...» - تمتم بشكل غير واضح.

وعندما كان ساشا يلتفت يرى أمه الجالسة عند رأس والده أحياناً ترفع غطاء التابوت وتمسّد على رأس المتوفى المتجمد.

كان هذا لا يُطاق.

هطل ثلج رمادي. فكانت الماسحات تعمل من دون توقّف.

عند منفّذ الخروج من المدينة علِقوا في زحمة سير.

انحنى ساشا من النافذة وأشعل سيجارة وبدأ يدخّن.

وسرعان ما تراكم الثلج بسرعة على أسطح السيارات.

طال الانتظار.

«إلى أيـــن أنت تتعجّل... - فكَّر ساشـــا باشـــمئزاز، وهو يسحب نفسه. - هل تتعجّل لتدفن والدك في أسرع وقت؟ ثم ماذا؟ وإذا دفنته، إلى أين ستركض؟»

وقفوا لمدة لا تزيد على نصف ســاعة. وكان السائق أحياناً يوقِف تشغيل المحرك فتبدأ القمّرة تتجمد بسرعة.

- ربما، برد المكان هناك، في الصالون؟ - ســأل ساشا. بدا صوته أجش.

-... التدفئة لا تعمل هناك. ويجب أنْ لا يُدفَّأ المكان الآن.

- قال السائق بحذر وهو مائل على ساشا.

«لا بـــد أنَّ أمّي قـــد جمدت...» - فكَّر ساشـــا من دون أنْ يجيب.

نظر إليها ورآها تفرك ساقيها. ورأى أيضاً بيزليتوف، عابس الوجه، وينظر من النافذة.

ضيّق ساشا عينيه، وعض شفته.

أراد أن يجبر نفسه على ألّا يفتح عينيه عندما تتحرك السيارة، ولم يستطع ذلك.

حملق بعينيه، رأى الســيارات ناعمة وتزحف بعصبية. عبرَ الطريقَ على مهلٍ شرطيٌّ مرور يرتدي ملابس دافئة. سمحت له السيارات بالمرور، بعد أنْ فرملت.

تكوّن الازدحام بســبب حادث مروري: اصطدام حافلتين. وقف الركاب على الطريق. وقد تناثر الزجاج على الأسفلت.

«لا أرى سيارة الإسعاف»، - نوَّه ساشا.

لم يمت أحد، وحتى، على ما يبدو، لم يصب أحد بأذى. كاد ساشا أنْ يأسف لأنه لم يُقتل أحد في الحادث.

خرجوا ببطء وبألم من تدفق السيارات.

قاموا بتبديل تروس السرعة، وانطلقوا، ومرة أخرى نشأ هذا الشعور الغبي بالراحة - إننا نسير، ها نحن نسير.

«إلى أين؟»

... الطريق الشتوي دائماً أكثر كآبة من الطريق الصيفي.

وعندما مروا ببلدة صغيرة، فيها إشارتا مرور اثنتان فقط، قال ساشا: «سر للأمام مباشرة»، وبعد سبع دقائق انكشف سهل على جانبي الطريق السريع.

كان مشهد الحقل الأبيض إلى الأفق مُضجِراً. فهذا المدى والفراغ - سوى من خطوط أعمدة التلغراف على الطريق - يسبب الانكماش.

- قَفْر... - همس ساشا بهدوء. - جليد في بيداء... ثلج وجليد...

وعندما كان ساشا ينظر في بعض الأحيان إلى ساعته لاحظ أنَّ ساعة قد مرت بالفعل، وأنه، على ما يبدو، لم يفكر في أي شيء طوال هذا الوقت - لم تخطر له فكرة واحدة.

- هل سنصل قريباً؟ - سأل السائق، مع ذلك، بهدوء.

- قريباً. - أجاب ساشا.

أومضت قرية بجوانبها الخشـــبية الرمادية والرطبة في آخر المدى من الطريق الأسفلتي - في منازلها التسعة. أحصى ساشا عددها منذ مدة طويلة، ربما، في مرحلة الطفولة. هُجِرَت ثلاثة منازل في السنوات الأخيرة، وبدأت تنهار.

- ثُمَّ نسير على الطريق الترابي؟ - قال السائق مندهشاً.

أومأ ساشا برأسه.

- قد نَعلَق... - قال السائق متذمِّراً، وحوَّل التروس إلى نمرة السرعة الثانية. زمجرت الحافلة وبدأت تترنَّح على الحُفَر.

التفتَ ساشـــا إلى الصالون: تلفَّتـــت والدته مِن حولها مذعورة تقريباً.

- هل مقصدنا بعيد من هنا؟ - ســـأل السائق مرة ثانية أثناء مرورهم في قرية أخرى. في القريـــة فقط تمكن من التحول إلى النمرة الثالثة وزاد السرعة قليلاً.

- قرية أخرى بعد، والتالية ستكون قريتنا، - أجاب ساشا بصدق حقيقي، ولم يقل إنَّ من القرية «التالية» إلى «قريتهم» - سبعة عشر كيلومتراً عبر الغابة.

- الحمد لله، الطرق مليئة بالزلاجات قليلاً، - قال الســـائق متبادلاً اكتشافه هذا مع ساشـــا، - ما زالوا يركبون الزلاجات إلى الآن. هذا حصان أطلَّ. لم أشاهد الخيول منذ ثلاثين عاماً... ومع ذلك يقولون: إننا نعيش عيشة رثّة! - قال السائق وابتسم ابتسامة متصنَّعة.

«ينبغـــي أن تُجــبرَ، أيها الفاســق، على الاســتيطان هنا مع الحصان...»، - فكَّر ساشا.

ســـاروا عبر قرية أخرى - وهنا للمرة الأولى خلال الساعتين الأخيرتين صادفهم شــخص، عجوز في معطف من جلد الغنم. نظــر في أثر الحافلة في دهشـــة. وحتى إنَّه لوَّح بيـــده عندما مرت الحافلة من جنبه - وكأنه يقول: إلى أين، أيها الحمقى، لا يوجد ثمة مكان تذهبون إليه.

- غابة، - قال السائق بعد نصف ساعة، عندما رأى إلى أين يتجه الطريق. كأنه لم يصدق عينيه.

- غابة، - أجاب ساشا.

- هل ينبغي علينا أنْ نســير في الغابة؟ - قال السائق، وهو منزعج.

- ينبغي علينا أنْ نسير في الطريق، - أجاب ساشا.

هز السائق رأسه متجهماً.

ضغط ساشا على فكيّه.

دوَّت الحافلـــة. انتصبت في المكان الأشـــجارُ المثقلة بالثلج الذي كان يتساقط أحياناً من الأغصان المضطربة.

كان أحدهـــم بالفعل يركب زلاجة تســير على الطريق. لا بأس، ربما، حتى يركب جراراً، منذ نحو أسبوعين. ويجلب معه البقالة والمعاشات والرسائل - إلى القرية...

لكن الحافلة ربما كانت غير قادرة على اتخاذ مثل هذا المسار. عـــلاوة على ذلـــك، كان الطريق يزداد ســـوءاً - والحقيقة، أنَّ

الناس كانوا يسـيرون على الزلاجات مـن أجل الحطب - ولم يتوغّلوا بعيداً في الغابة.

وبعد عدة دقائق، لم يتحمل السائق وبدأ يسب. جلس ساشا بلا مبالاة، مدركاً أنه يمكن أنْ يقتل هذا الرجل. لولا أنه لم يرد أنْ يزعج أمه.

- من سـيخرجنا من هنا؟ هل فكَّرتَ بهذا؟ - كان السائق يبدِّل ذراع تحويل السرعات، حيثما أمكن ذلك، من التسـارع، وأينما لم يكن كذلـك. كان يعرف كيف يقود بالطبع. - اللعنة، لقد شلَّتكم المصيبة تماماً...

- لا بـأس، قُد السـيارة، وتوقف عن الـصراخ... - قال ساشا بنبرة متعَبة.

- أعرف ماذا أفعل من دونك. هل تفهم؟ الآن سـأخرجكم من السـيارة... - وفي هـذا الحال اهتزوا، فقـد انزلقت الحافلة بالعجلات الأمامية في حفرة وتوقفت.

كان الثلـج الكثيـف يجثم في الأمام. وثمـة علامة واحدة توحي للمرء أنْ يخمِّـن حقيقة وجود طريق تحت الثلج هي: لم تكن أشـجار تنمو على هذا الشريط الضيق المتعرج بين أشجار التنوب والأشجار التي أسقطتها الريح.

قفز السائق إلى الشارع، وترك الباب مفتوحاً. ومشى قليلاً على الطريق، وسرعان ما انغمس في الثلج بعمق الركبة، وشتم وتسلق عائداً إلى الحافلة.

شــغَّل المحرك، وعشَّــقَ السرعة العكســية. فانطلق هدير واهتزاز وصلصلة تحت العجلات.

خرجت الحافلة. وضع السائق ذراع التروس على الوضعية المحايدة، وأخرج سيجارة وقال:

- لن أواصل السير بعد.

- أفٍّ لك، اذهب إلى الجحيم، - قال ساشا.

خرج، بعــد أنْ لاحظ أنَّ الثلج قد توقــف. ووقف قليلاً، ينظر بغباء إلى الغابة. ثم فتح باب صالون السيارة بشدة.

- اخرجي، يا أمي، لن يذهب أبعد من ذلك.

- كيف ذلك؟ يا بُنَــي... - قالت الأم. - إلى أين نذهب؟ وماذا عن أبيك؟

- سنحمله، ليس بعيداً من هنا.

- ولكن المكان بعيد...

- قلتُ سنحمله.

اقترب الســائق نحو ساشــا من الخلف ونظر عبر كتفه إلى مقصورة الركاب.

- حســناً، هل ســتذهبون إلى المدينة؟ بالنسبة لي لن أذهب أبعد من ذلك.

- ســوف ندفع لك، - قالت الأم وهي تنظر إلى الســائق مَرعوبةً تقريباً. - كيف سنذهب والنعش معنا؟

- أقول، لنذهب إلى المدينة. ولست بحاجة لمزيد من النقود. فبكل الأحوال لن تدفعوا لي ثمن حافلة جديدة. ولن أقضي الليل في الغابة مع ميّتِكم. واضح؟ ألا تذهبون معي إلى المدينة؟

- ماذا، هل نبقى ندحرج أباك من مكان إلى آخر... - قالت الأم.

- حسناً، إذاً، سأذهب...

فتح السائق بصرير الأبواب الخلفية لصالون الركاب وأشار لهم أنْ يفرغوا السيارة. ودخل إلى المقصورة. وأشعل سيجارة مرة أخرى هناك، وهو يشتم.

بكت الأم.

- لماذا تنتحبين؟ - كاد ساشا أنْ يصيح بأعلى صوته. - لقد حدث الأسوأ! فلماذا تنتحبين الآن؟ هل ستأكلنا الذئاب، أم ماذا؟ سنُوصِله، لا مناص من ذلك.

- لن تقدرا على حمله أنتما الاثنان! - صرخت الأم وهي تبكي.

- قلتُ لكِ: سنحمله! سنجرّه جرّاً. المكان ليس بعيداً، - كرر ساشا مرة أخرى، على الأرجح من أجل أنْ يُسمِع بيزليتوف، - لقد عرف السائق نفسه أنَّ القرية على بعد 15 كيلومتراً من هنا.

زحزح ساشا النعش حتى نهاية الكابينة.

- ولدينا طعام هنا أيضاً طعام المأتمية (مجلس العزاء)... - قالت الأم متذمرةً.

- خذي ما تستطيعين حمله، واتركي الباقي لهذا الـــ...

قفز ساشا إلى أسفل.

- هيا، سأســحب القدمــين على جهتي... - قال ساشــا بعنف. - ومن ثم... بطريقة ما...

- لو نجد كرســياً، قــال بيزليتوف. - لكــي نضعه فوق التابوت. لن نستطيع الإمساك به.

- هيا، لا يوجد كرسي، - استحثّه ساشا.

ســحب التابوت نحو نفســه، مع مرور كل لحظة يشــعر بالتابوت أثقــل وأثقل، فتراجع للخلف عــلى الثلج، وأحسَّ بثقل شديد وألم في عضلات يديه.

- أسرِع! - قال بصوت منخنِق.

قفز بيزليتوف، ونزلت والدته نزولاً خاطئاً ومشــوَّهاً على طريقة النساء.

أخــذوا الجزء العلوي من التابوت، وســحبوه للخارج، لكن الأم لم تســتطع حمله فأســقطت حافته وهــي تلهث. وبالطبع، لم يتمسك به ساشا وبيزليتوف. فسقط التابوت على أحد جانبيه.

فُتِحَ الغطاء غير المُحكم بالمســامير، وكاد والده المتجمّد أنْ يسقط في الثلج.

ومنــذ أنْ كانوا في المدينة لاحظــت الأم أنَّ التابوت يضيق بالأب - وهذا بالذات ما ســاعد المتوفى عــلى البقاء في مكانه.

ولكن في تلــك اللحظة الصغيرة، عندما مكــث التابوت على الجانب، كانت الصورة رهيبة - مشـــهد الأب الميت والأيقونة الصغيرة التي ســقطت من صدره في الثلج ويــداه البيضاوان اللتان فُتحَتا تحت الفرشة...

وضعَ ساشـــا وبيزليتوف بسرعة التابوت بشــكل مستقيم وحطّا الغطاء عليه.

وقفت الأم مذهولة.

- ماما، ألم يســقط على قدميك؟ - سأل ساشا، وهو يضع الغطاء بشكل متعادل.

هزت رأسها بالنفي.

ظلّوا واقفين قليلاً.

- يجــب أنْ نزيحه عن الطريــق حتى يتمكن الســائق من المغادرة. - قال ساشا.

دفعوا النعش إلى جانب الطريق، فغرق في الثلج.

أخذت الأم حقيبة واحدة من صالون السيارة.

انتظر ساشا عشر ثوانٍ وضرب الحافلة بقبضته وصاح على السائق:

- هيّا، انصرف من هنا إلى الجحيم!

ضغط السائق على دواسة الوقود، فانطلقت الحافلة بعد أنْ نثرت الثلج على غطاء التابوت من تحت العجلة الخلفية. جلس ساشا القرفصاء وبدأ يمسح الغطاء بكمّه.

- هل سيبقى هكذا يسير إلـى الخلف؟ - سأل بيزليتوف وهو ينظر خلف الحافلة.

كان بالإمكان ملاحظة كيف يتلفت السائق برأسه، محاولاً بمســاعدة مرايا الرؤية الخلفية ألّا يخطئ، ويزحف إلى جانب الطريق.

توقفت الحافلة ونزل السائق.

دار متثاقــلاً حول الحافلة، ونظــر في مقصورة الركاب ثم صعد إلى هناك وبعد دقيقة صفــع الباب وظهر وهو يحمل في يده حبلاً طويلاً مجموعاً على شــكل طوية. أشــار به من بعيد للواقفين عند التابوت - هذا لكم، امسكوه، وألقى بالحبل على الطريق.

دخل إلى المقصورة وتحركت الحافلة مرة أخرى.

- شكراً له على ذلك، - قال ساشا. - الحقيقة، لم أكن أعرف بماذا نسحب.

مشى ساشا إلى الحبل الملقى في الثلج. تحركت الحافلة، التي كانت تــدوي وتصخب بصوت أجش، إلى الــوراء - وكأنها تتراجع عن ساشا.

... ربطوا التابوت بالحبل.

- هكــذا إذاً، - تنهد ساشــا، وهو ينظر شــزراً إلى حذاء بيزليتــوف الذي ربما تكون الرطوبة قد دخلته. بينما هو نفســه ينتعل حذاءً طويلاً دافئاً.

- يا ساشا، ربما، يجب أن نذهب إلى القرية؟ التي اجتزناها قبل قليل. ونطلب جراراً. أو زلاجة؟ - سألت الأم بلا هوادة.

- «التي اجتزناها قبل قليل...» - حاكى ساشا صوت الأم من دون أيّ خبث. - الذهاب إلى هناك يستغرق مدة ساعتين. وليس ثمة جرار في القرية.

- وزلاجة؟

- وما شأن الزلاجة؟ من غير المحتمل أنْ تسير الزلاجة إلى أي مكان. أربع ساعات تذهب سدى... توقفي عن هذا، يا أمي... - قاطعها ساشا. - هيّا لنجرّ. ساعدوني، عجّلوا.

أخذ هو وبيزليتوف بأطراف الحبل وجرّا.

كان الأمر صعباً في الحال، ولكن ما تزال ثمة شحنة من الحنق واحتياطي من القوة. جرّا مدة قصيرة وهما غارقان في الثلج ويلعنان ويزمجران. وسرعان ما تصببا عرقاً.

كانت الأم تسير خلفهما. لم يلتفت ساشا.

- اللعنة! - لعن ساشا، بعد أنْ توقف.

- ساشا، لا تلعن... ما لك تشتم طوال الوقت... - قالت الأم بصوت متعَب. - هل هو ثقيل؟

- لو كانت ثمة زَحاليق... - قال ساشا ونظر إلى بيزليتوف مرة أخرى.

- أو حذاء تزلّج... - أضاف ساشا ولسبب ما وهو يحملق بحنق في شريكه.

«لماذا لم تحضر حذاء تزلج معك يا بيزليتوف؟ - قال ساشا بوقاحة مع نفسه، - ألا تحب أنْ تتزحلق على الزلاجات في القرية في فصل الشتاء... ليتكَ أتيتَ إلى منزلنا في حذاء تزلج هذا الصباح. ولَقلتَ آنذاك: «سأستغل المناسبة لأتزحلق هناك عندكم... هل لديكم منزلق هناك؟» ولكانت زلاجاتك مفيدة للغاية الآن..».

- دعنا نتحرك قليلاً بعد، - قال بيزليتوف. - الآن صعب لأننا نصعد. ولكن ها هو الطريق هناك يسير نحو الأسفل. سيكون الجر أسهل.

- سيكون أسهل، - كرر ساشا من دون معنى.

وجرّوا مرة أخرى.

كانوا يصطدمون بالحفر ويتوقفون ويرفعون التابوت ويزحفون بصعوبة.

واعترضت طريقهم أيضاً أغصان مكسورة. فاستلوّها من تحت التابوت بصرير وألقوا بها في حنقٍ على الشجيرات.

وبالفعل كان النزول من التلة أسهل قليلاً. فقد تدحرج التابوت من تلقاء نفسه لعدة ثوانٍ. ولكن بعد ذلك، مال بحدة إلى الجانب - وهرع ساشا لكي يعدّله فسقط في الثلج وأمسك بجانب النعش وأوقفه. استلقى بعد أنْ احتضن خشب التابوت المنجد بالقماش.

بدأت الأم تبكي فجأة بصوت عالٍ.

- ماذا نفعل، يا رب... - صاحت.

- هيّا ببطء... - قال بيزليتوف بصوت خافت من دون أن ينتبه إلى البكاء.

عدّلوا وضعية التابوت. سحبوه إلى أسفل التل، وقد أمسك به ساشا من الخلف.

- ربما يكون الأمر أسهل لو وضعنا الطرف الضيق في الأمام؟ - سأل بيزليتوف.

- لا أعرف... - قال ساشا. - سنشدّه من جديد؟

- حسناً، هيا بنا.

خلع ساشا قبعته ووضعها في جيبه. وسرعان ما وقعت.

- سانيا، - قالت الأم بتوسل تقريباً. - اعتمر قبعتك. ستصاب بالبرد، يا سانيا

لم يرد ساشا عليها. بل إنه حتى حلّ أزراره.

بدأ يحلّ الظلام.

طلبت الأم في بعض الأحيان أن يعطيها أحدهما محله، أرادت استبدال أحد الرجلين. لكنهما لم يستجيبا لها.

مشوا ببطء وهم يلهثون. ومع الوقت كان مشيهم يتباطأ ويزداد لهاثهم. وكانوا يبصقون مراراً وبكثرة.

وفي بعض الأحيان كانوا يغيّرون الأماكن، عندما يتعب كتف «الجر».

قلبوا التابـوت وجعلوا نهايته الصغـيرة في الأمام، لكنه طُمِرَ في الثلج بشكل أسرع. فاضطروا لإعادة ربط الحبل مرة أخرى.

وهطل من جديد الثلـج الناعم بهدوء. وبدأ برد أول الليل يسفع خدودهم وجباههم. فخدرت آذانهم المتجمدة.

كانت أغصان الأشجار الطويلة الممتدة فوق الطريق، والتي يمكن رؤيتها من بعيد، تتأرجح بشكل قبيح. فانتابتهم الرغبة بأن يمسكوا بها بأسنانهم.

شعر ساشا بالألم والبرد إلى حد ما، وكأنَّ أحدهم يتنفس في أحشائه بفم بارد صدئ.

- ماما، لا تُبالي، لن يبقى شيء لنخسره! - قال ساشا.

كانت الأم تجـر قدميها خلفهـم صامتةً. وبـدأت تختلج وانتابتها رعشة.

بدأت الأشجار تعتم.

«ربما، يبدو منظرنا حسـناً في وسط الغابة... مع نعش...»، - فكر ساشا.

- جنازة روسـية حقيقية... - قال بيزليتوف بشـكل غير متوقع تقريباً حول الشيء نفسه الذي استولى على تفكير ساشا،

-... تشييع روسي... - صحح بيزليتوف لنفسه وهو يلهث.

صمتوا طـوال الطريق تقريباً، وأحياناً نسي ساشـا أنَّ هذا الرَجل بجانبه. وعلاوة على ذلك لم تكن ثمة قوة للتحدث.

وربــما كان الضوء موجــوداً، حاول ساشـــا تخمين تلك الأماكن التي يذكرها منذ الطفولة. ففي فصل الشتاء، يصعب التعرف على المروج والمحطات الصغيرة الصيفية، ولكنه تعرف عليها في بعض الأحيان. لا يوجد شيء خاص - هناك، على ما يبــدو... أجل، هناك، توقفوا ذات يــوم، ذهبوا مع العم كوليا في ســيارته، وأمه، بابتســامة رائعة وعينين ســعيدتين للغاية، دخلت الغابة وعادت على الفور مع الفطر، وجدته بســـهولة، لكنها كانت خائفة جداً من أفاعي الحفث غير السامة... وكان الرجال يدخنون في ذلك الوقت.

قال العم كوليا «آه، يا غالينكا. يا لكِ من مضيفة؟» - وألقى على الأم نظرة استثنائية إلى حد ما.

الآن فقط، أدرك ساشا أنَّ العم كان مغرماً بوالدته. وتذكّر شيئاً آخر على الفور، مشهداً على الشاطئ... قد نسيه. كان عمر ساشا حينذاك ست سنوات.

ولكـــن في مكان ما هنا... جاؤوا يمشـــون من مكان ما... «لماذا جئنا، لا أتذكر...» كان ساشا متعَباً في ذلك الوقت. حمله الأب على رقبته. كان يضعه ويحمله. أحب ساشـــا أنْ يكون في الأعـــلى. «لماذا كنا نمشي على الأقدام؟ وهل وصلنا بسرعة؟ لا أتذكر شيئاً..».

ســـار ساشـــا يجر قدميه مرة أخرى برأس فارغ، محاولاً في بعض الأحيان أنْ يدفّئ بأنفاســـه يديه اللتين كانتا ســـاخنتين ومتجمدتَين في الوقت نفسه. ولم يُجدِه ذلك نفعاً.

لقد حـــل الظلام، وبصفة عامة لم يعـــد ثمة شيء يمكن أنْ يتشبَّث به بأفكاره.

في بعض الأحيان بدأ بيزليتوف يســـعل بشكل حاد، بزعيق تقريباً.

- يا شباب، ربما تريدون أن تأكلوا شيئاً ما؟ - سألت الأم.

«أثار هذا الســـعال خوف الأم بسبب كآبتها السوداوية...»

- خمَّن ساشا.

- كلا، لا نريد، - أجاب.

- كلا، نريـــد، - قال بيزليتوف بصـــوت ضعيف. - لم يعد بإمكاني التحمل، - وتنهّد.

بدأت الأم تحرك الحقيبة بسرعة واهتياج مرتبكةً من دون أنْ تعرف أين تضعها.

- ضعيها على التابـوت، لا بـأس، - قال سـاشا. - لن يسـتاء والدي.

جلس ساشا عند التابوت وبصق لعابه.

«الآن سوف يتقيأ...» - فكر بخمول. ونهض.

اختلجت يداه قليلاً. وبدأت الدموع في عينيه تتجمد.

أشعل ساشا سيجارة ورأى على ضوء القداحة أنَّ بيزليتوف شاحب.

«وماذا لو كان قلبه يعبث؟..».

لاحظت الأم ذلك أيضاً.

- يا أليكسي كونستانتينوفيتش! ربما، تحتاج حبة دواء؟

هزَّ بيزليتوف رأسه بشكل ضعيف.

أعطته الأم شريحة خبز مفروشة باللحم المقدد، فبدأ يمضغها مضغاً ضعيفاً.

- ربما، برد الشاي،... - قالت الأم وهي تُخرِج الترمس.

- أجل، إنه بارد، - أكدت، بعد أنْ دارت لنفسها. - هل تشرب؟ - سألت بيزليتوف.

- ربما لديكِ شيء أكثر حرارة؟ - سألها ساشا وهو يمتص سيجارته باشمئزاز.

- لقد برد، قلتُ لكم... - لم تفهم الأم في البداية. - آه، يوجد على ما يبدو. نعم... الشراب. هل تريدان الشراب؟

- نريد، نريد، - قال ساشا بتجهّم وأخذ الزجاجة. - أعطني السكين.

ضرب التابوت برفق بالزجاجة المفتوحة وهو يقرع النخب. وشربَ مباشرة من حلق الزجاجة. وسكب لبيزليتوف في قدح. فشرب الرجل نصف القدح وبدأ يسعل. ونفث بقايا الطعام.

صاروا يشعرون بالغثيان والبرد أكثر.

تمسكوا بالحبل البارد، كالأموات.

«إنه ثقيل، يا إلهي...» اعترف ساشا فجأة لنفسه وكاد أنْ ينفجر في البكاء.

لقد زحفوا قليلاً، ربما لمدة سبع دقائق تقريباً، ووقفوا مرة أخرى.

- لقد خارت قوانا، - قال ساشا بصوت عالٍ. ونظر مِن حوله وأدرك أنهم ساروا ثلاثين متراً، لا أكثر، من المكان الذي تناولوا فيه الشراب.

- سوف نتجمد هنا... - قال بيزليتوف بصوت منخفض.

- يجب أن نذهب إلى القرية.

- وإلّا سننفق هنا، - كرر قوله وصمت وجعل يتنفس بشخير. فقد جفّ حلقه وضايقه من الألم ولكنَّ قوته لم تسعفه حتى لأنْ يسعل.

- لولا نشعل ناراً، - همس ساشا. واختلج بشدة. انحنى إلى أسفل وأخذ الثلج في راحة يده ورفعه إلى شفتيه لكنه لم يجرؤ على وضع الثلج الأبيض المقرمش البارد في فمه.

ارتجفت الأم. وجلست على التابوت، ونكَّست رأسها.

- ماما، هل تشعرين بتوعّك في قلبك؟ - سألها ساشا.

أوقفته بيدها. وجلست لمدة دقيقة.

- ساشا، أَخرِج لي... - لم تُنهِ كلامها.

فتحت فمها، وجعلت تلهث وتتنفس بكثافة.

- أمي؟ - سألها ساشا مرة أخرى بعناية.

ظلت صامتة لمدة دقيقة أخرى. وقف الابن بقربها، حانقاً على نفسه وعلى الثلج والزرقة والغسق.

ولكن حسب أنفاس والدته، شعر ساشا أنها تحسنت قليلاً.

- افترضوا أنني الآن مع الأب... - قالت بصوت انتعش بعض الشيء.

وبعد أنْ قلَّبَت حقيبتها بيديها الضعيفتين أخذت حبة وألقت بها في فمها وغرزت حفنة من الثلج وعضتها وابتلعتها بصعوبة.

لم يعد أحد منهم يستطيع التحدث.

أناخ الجميع على النعش وجلسوا ظهراً إلى ظهر. الأم، بلا حراك، وساشا، يهزّ برأسه. وارتجف بيزليتوف بعنف تارة بيده اليسرى وتارة بكتفه الأيمن وتارة بظهرة كله دفعة واحدة.

ظهرت عدة نجوم في السماء، صغيرة جداً.

وفجأة فهم ساشا تعبير «النجوم الشائكة». جاء هذا الفهم من مكان ما، لكن ساشا لم يستطع هضمه وتفسيره داخل نفسه، إذ لم تكن لديه لا إرادة ولا رغبة كافيتَين.

أكل البرد آخر ما لديه من قوة. وانتابته الرغبة في النوم... وأنْ يتجعّد على التابوت كالكعك الدائري...

زحف بيزليتوف من التابوت، ووقف على أطرافه الأربعة وتقيأ. ثم بصق لمدة طويلة.

صرخت الأم بصوت منخفض.

- دعونا نزهق كلنا هنا، - قال ساشا.

بقـي بيزليتوف واقفاً على أطرافـه الأربعة لمدة طويلة وهو يتمايل ثم جلس على الثلج مباشرة.

أخرج ساشـا الولاعة وأضاء ساعته. السـاعة الثانية بعد منتصف الليل. لقد مشوا أكثر من عشر ساعات.

لا بأس، لم يمشـوا. لقد أمضوا الساعة والنصف الأخيرة بهذه المائة من الأمتار وهم ينبشون في الثلج...

- من سيذهب إلى القرية؟ - سأل ساشا.

- أنت، يا سانيا، - قالت الأم. - سنحاول إشعال النار هنا. أو من الأفضل اذهبا أنتما معاً. وسأحرسُ أنا.

- وإلّا سوف يسرقونه... - قال ساشا همساً.

لم يستطع ترك والدته. ولم يستطع الذهاب. لم يستطع إرسال بيزليتوف وحده.

«يا لهذا الغباء كله، يا رب!» - أراد أنْ يصرخ.

«لقد خلطت كل شيء. اختلط لديَّ كل شيء. ولكن أين؟ أين أخطأتُ؟»

- ساشا...

- ماذا يا أمي؟ سأذهب الآن.

- هدوءاً!

أرهفت الأم سمعها.

نهض بيزليتوف، وقف متمايلاً وينظر إلى مكان ما في الظلام.

وبعد دقيقة، بدأ يُسمَع وقع حوافرٍ وجِلٍ ومتنافر وضجيجِ زحافات وشتائم بذيئة واضحة لرجل قوي وصحيح البنيةِ يطارد حصاناً.

- هذا خوموت، - قال ساشا بعد أنْ عرف من الصوت أنه الجار الذي يسكن في المنزل الذي يلي المنزل المجاور لبيت جدّه وجدّته.

- يا هذا، نحن هنا! - صرخ ساشا بشكل غير متوقع، على الرغم من أنهم كانوا واقفين على الطريق.

- إرررر! - أصبح الحصان على بعد أمتار قليلة منهم.

خرج خوموت من الزلاجة، واقترب منهم.

- سانيا، هذا أنت؟ - سأل بصوت بانت فيه الصرامة المختلطة بشدة مع اللهفة. ولكن خلف الصرامة واللهفة المرحة يُحسّ خيط دقيق من حزن الموت الذي بالكاد يمكن إدراكه.

- وهذه غاليا هنا، غالينكا، - قال خوموت وصافح بيزليتوف.

- لا بأس، يا فاسيا، ألم يتجمد ظهرك؟ - جلس خوموت بجانب التابوت وربَّتَ الغطاء. - سنذهب إلى المنزل الآن.

لم يوجه أيَّ أسئلة ولم يُحدِث جلبة، قرَّب الزلاجة ووجّهها ببراعة وعلى أكمل وجه. طقطق الحصان بحوافره، وشم الثلج، ثم نظر شزراً إلى التابوت وأدار رأسه. أمرَ خوموت الرجال (إنَّ نداءه لهم بكلمة «الرجال» وهم منهكون تماماً، جعل ساشا

يزداد عزماً بطريقة ما) أنْ يمسكا الطرف الضيق من التابوت، والتقط هو الطرف الثقيل وألقاه ومدَّده على القش.

- ولكن أمْسِكْه! - أمر خوموت بهدوء وطلب من بيزليتوف مشيراً إلى التابوت، - وإلّا سنخسر أحداً.

ثم سأل ساشا:

- منذ متى وأنتم متجمدون هنا؟

- من مدة طويلة. غادر السائق إلى المدينة. لم يوافق على الذهاب أبعد من ذلك.

- طبعاً، هكذا هم... - ردَّ خوموت وقال بعد صمت قليل. - لقد استيقظت وفكرت: يجب أنْ أذهب إلى الغابة. فقد قالت لي الجدّة قبل أيام: سيأتون به. وجاءت اليوم في المساء، وكلها في السواد وقالت: يبدو أنهم قد غيّروا رأيهم. وقالت: «ربما، قررت غاليا أنْ تبقيه أقرب إليها. حتى وإنْ هلك والداه وحدهما هنا في الوحشة». فكرتُ على الفور: يا جدة، ربما، حدث شيء ما غير متوقَّع. وفي الليل كأنّ أحدهم حثّني. فلبستُ كنزتي الصوفية وشددتُ الحصان وانطلقت. استيقظت زوجتي وضجَّت وصرخت قائلةً اخلع ثيابك وفكّ الحصان فقلت لها: «إنَّ فاسيا متجمد هناك. سأذهب». وصفعتها صفعة خفيفة. فقالت: «لابد أنك ذاهب إلى امرأة». بينما أنا ليس لي وقت لأذهب إلى امرأة... الآن، يا فاسيا، سنكون في المنزل.

استلقى ساشـــا في الزلاجة على الجنب، كما في أيام طفولته، وانطلقت الزلاجة بخفة ونعومة، وهرع الحصان للمنزل، فقد استشعر الطريق إلى القرية.

وعندما نظر ساشا إلى خوموت لاحظ أنه بالفعل - ارتدى الكنزة على جسده العاري - أثناء وضع النعش، فُتحت الكنزة وبدا صدره العـــاري. كانت الرياح الشـــديدة والمُزعِجة تهبّ أحياناً بمواجهة الزلاجة ولكنها سرعـــان ما اختفت في الغابة من دون أي أثر. كان الأمر ســـيّان بالنســـبة لخوموت. فقد قاد الزلاجة بسهولة وعنف وهو يقف على ركبتيه.

كانت النوافذ مضيئة في منزل العجوزين. استقبلتهم الجدة على عتبة الباب. وسألت خوموت:

- هل ناداك فاسيا؟ دائماً ما كان يستحثّك لأي حماقة. اليوم ابني يحتاجك للمرة الأولى...

انتحبـــت الأم. بدأت الجـــدّة تندب وتنـــوح بصوت عالٍ وثاقب ومرير مثل الأرض السوداء.

خرج الجدّ، طويل القامة، في قميص بأكمام غير مربوطة.

- وصلتم، يا سانكا؟ حسناً، تعال.

الفصل الخامس

بدت في دماغه الذي أفاق حكمةُ خمار أثبتت الأيام صحتها: نوم السكران عميق ولكنه قصير.

عميق. لكنه قصير.

فتح ساشا عينه اليسرى. أجل، كان الظلام ما يزال يعم في الخارج.

«الأَرَق» - لفظ ساشا الكلمة همساً وبالمقاطع.

استيقظ على فراشه.

فُرِشَت مرتبتان على الأرض. كان يرقد على المرتبتين فينيا وليوشا متغطيين ببطانية. لم يتبيَّن ساشا وجهيهما.

«ونيغاتيف؟ أين هو؟ يبدو أنه ذهب إلى المنزل... أجل، أجل، غادر..».

التفت ساشا إلى الحائط، وتغطى بالبطانية حتى رأسه. لم يرغب في النهوض. ولكن لم يكن بمقدوره النوم كذلك.

أحست عيناه تحت الجفنين المغمضتين بعدم الارتياح. وأرادتا أنْ تنفتحا وتنظرا.

أرخى ساشا رأســه من تحت البطانية وشاهد ورق الحائط المصفرّ من اللمس المتكرر والذي بدا في الظلام. كانت نقوشه لا يمكن تمييزها تقريباً.

لم تكن لديه ثمة رغبة في التفكير باليوم المرتقَب.

وكذلك لم يرغب أنْ يتذكر ما حدث بالأمس.

تذكر ساشا نفسه، مخموراً وصاخباً، وغضَّن (تكشَّر) وجهه باشمئزاز.

«أيّ نوع من الناس أنا؟» - فكر ساشا فجأة.

مَن هو وكيف؟ هل هو ســيئ؟ طيب القلب؟ موثوق به؟ غير موثوق؟

لم تكـــن ثمة مرآة يمكن أنْ تعكس تفكيره. كما لو ديس على هذه المرآة بالحذاء وسُــحقَت. ولو تجرّأ على النظر إلى نفســه في الشظايا لرأى ملامح غير مفهومة فقط لا يمكن للمرء أن يجعل منها وجهاً.

لم يرهق ساشا نفسه أبداً في البحث المفرط عن الذات.

نادراً، ما عانى من القلق لســبب ما بعمق وألم. إلا إذا كان لشيء يستحق القلق. بخصوص أبيه، أجل، عانى من القلق.

لم يرتكـــب ســفاهة واحدةً مكشــوفة في حياتــه. ولا غير مكشوفة أيضاً...

لم يعِش كذلك حالة تذلل واحدة، باســتثناء تلك الحالات الحَمقاء عندما كان تلامذة الصفوف المتقدمة يسلبونه نقوده.

وعندما كان يزحف على أطرافه الأربعة في ساحة العرضات في الجيش، كجزء مــن حماقات السريــة المتتالية تحت إشراف ضابــط مخمور، على ما يبدو، كان ساشــا -أغلب الظن- غير مبال. لقد كانت تلك لعبة ذات قواعــد جدية للغاية. وقبِلها ساشــا على الفور. ولهذا كانت الخدمة العســكرية بالنسبة له سهلة تقريباً.

كان دائماً ما يعثر على أصدقاء. وكانت دائماً إلى جانبه فتيات. وإذا ما رحلت صديقة، ظهــرت صديقة جديدة من مكان ما. وفي كل مرة بالصدفة. لم يبحث عنها ساشــا. على الرغم من أنه لم يكن وسيماً، مطلقاً.

عبث ساشا بنفسه، وخلط شظايا المرآة. لم يكن ثمة ما يدعو إلى الدهشة أو الانزعاج. لا شيء على الإطلاق.

منذ أن نضج، في سن الخدمة العســكرية، أصبح كل شيء واضحاً له. لم تعد تنشأ مســائل غير قابلة للحل. الله موجود. من دون الأب الوضع سيئ. أمه طيبة القلب وعزيزة. والوطن واحد.

«نهر الفولغا يصب في بحر قزوين...» - قال ساشــا مازحاً مع نفسه ولم يبتسم في داخله. أجل، إنه يصب.

كل فعلٍ من أفعاله كانت تسببه مقدمات أساسية واضحة. بيد أنَّ ما يدعو إلى الدهشــة هو ســبب امتناع الآخرين من التصرف بالطريقة نفسها.

التحق ساشـــا بـــ «الاتحاديين» (جماعة «اتحـــاد المبدعين») بسهولة، لأنَّ كل ما سواه فقد في ذلك الوقت أهميته.

«ينبغـــي العمل...» - قالوا لـــه في بعض الأحيان بصرامة. فكان ساشـــا يجيب: «أنا أعمل...» لقـــد عمل حقاً - كان مرة يحمِّل ومرة يفرِّغ... مرة يعمل في مصنع... واشـــتغل حارســـاً وكنّاساً. وكل ذلك بضمير حي. ولكن هل هذه هي القضية؟

لم يعـــد يرغـــب في أنْ يتجادل مع أي شـــخص، لأن ذلك لا معنى له. جادل فحســـب عندما أراد ســـماع حجج جديدة ومختلفة. لكن كل الحجج كانت بلا قيمة في كل مرة.

والدولة الســـيئة وغير الشريفة والغبية التي تُهلِك الضعفاء والتي تُطلِق العنان للسفلة والمبتذلين - لماذا يتسامح معها؟ لماذا يعيش في هذه الدولة التي تخون في كل لحظة نفسها وكل مواطن فيها؟

حتـــى الآن لم يغضب ساشـــا ولم يحنق على أحـــد، بل فعل فحسب ما اعتبره ضرورياً.

لم يفكر بجدية قط في بلوغ الســـلطة، ولم يهتم بالسلطة، ولم يكن يعرف كيف يتعامل معها. علاقته بالمال بســـيطة. ينفقه إنْ وجِد.

ومع ذلك: ما هي صفاته؟ كيف يبدو ساشـــا؟ دائماً ما كان ثمة شيء لا يظهر في وجهه وفي صورته.

«أنا عطشان»، - قاطع ساشا نفسه بشكل غير متوقع.

«يوم أمس شربتَ شرباً رائعاً مـن البركة، يا منافق...»، - أوحى له صوتٌ ساخراً.

فلوَّح ساشا ونهض بهدوء.

- لا أعرف إلى أين أنت ذاهب بالضبط، لكني أريد الشاي، - قال روغوف.

- صباح الخير يا ليوشا، - قال ساشا.

- ماذا تنوي أنْ تفعل؟ - سـأل روغوف في المطبخ. وكان الشاي ينفث الدخان: فقد وضع ليوشا الشاي في كوبين، أسود وثخين. خرج ساشا من الحمام بمنشفة على كتفه.

- وأنتم؟

- نحن سـنواصل المسـير أبعد. في أراضي روسيا، - قال روغوف بابتسامة عريضة. فقد كان قادراً على أنْ يبتسم بشفته العليا وحدهـا. - عندكم هنا ربما يمسـكون بنا. وكما فهمت بالأمس، إنهم هنا يراقبونكم جيداً. آمل ألّا يكون هذا هو الحال في كل مكان.

- وسأذهب أنا إلى العاصمة، - قرر ساشا فجأة.

- لماذا؟

- أنا أعرف كيف هو الحال هناك. ولا أرى فائدة من التسـكع هنا. وبشكل عام، من السهل للمرء أنْ يغيب عن الأنظار هناك.

لقد سُرَّ ساشـا نفسـه بفكرته غير المتوقعة وأجمع أمره على أسرع وجه، لم يرغب بأنْ يلتقي بوالدته ويشرح لها شيئاً.

قال هذا بصراحة لروغوف، الذي أيده وقال:

- هـذا صحيح، دعنـا نذهب عاجلاً. سـنلحق قطارات الضواحي.

أيقظوا فينيا، وشربوا الشـاي ودخنوا، وسـلق لهم ساشا النقانق ليأخذوها معهم، وأسرعوا إلى محطة السكك الحديدية.

غفوا في الحافلة الصغيرة وجباههـم على الزجاج، وعندما يفتحون عيونهم النعسة والكئيبة والمتهيجة في الحفر يتمتمون: إننا نسير، اللعنة، نسير... متى سنصل...

- أليس هنا عربدنا بالأمس؟ - قال فينيا متعجباً في المحطة.

- إني لا أرى بعض الأشياء.

وبعد أنْ احتضنـوا في الممر تحـت الأرضي بعضهم بعضاً تو ادعوا، وذهبوا في اتجاهات مختلفة.

... كان ساشا ينام فعلاً في قطارات الضواحي حتى يستعيد قواه. ويشـتري لنفسه التذاكر بنزاهة، لم يحدث له أنْ تهرّب من التفتيش. مرة واحدة أيقظوه وتركوه.

كان يجلـس في أحـد الأركان، بعد أنْ يغـرق في النوم من الإرهاق أو السُّكْر، فجسد الشاب يستلقي حيثما اتفق. وكيفما يمده يكون هذا هو المطلوب.

صحيح، في نهاية الرحلة التي تسـتغرق عدة ساعات، يبدأ الرعـاش الخفيـف في أعضائه الداخلية كلها. وبشـكل عام،

كانت الســاعة الأخيرة قبل الوصول إلى موســكو متعبة دائماً. خاصة إذا كانت من دون سجائر.

ولكن إذا كانت ثمة سجائر. فيحتمل.

«اخرج، هيا!» - قال لنفسه وخرج. واندفع برضا.

العاصمة صاخبة وكثيرة الضجيج. ومزدحمة بالناس الذين يصدمونك بأكتافهم بلا كلل وفي الوقت نفســه لا يرونك على الإطلاق.

إذا انقطعت بك السبل ولم يكن لديك مكان تلتجئ إليه - فإن العاصمة مغتصبة. إنك تتســكع طوال اليوم، ولا تلحظ كيف تأخذك، مُتعَباً وغير مبالٍ، مثلما تأخذك امرأة جشعة إلى سريــر ضخم مغطى بالبطانيات، تدحرجك وتقلّبك رأســاً على عقب، وبعد ذلك تجد نفسك وحيداً ورأسك يؤلمك، لا تعرف أين، في وسط مدينة لا نهاية لها، غبياً وتافهاً. إذ لم تكن هذه المــرأة، كما اتضح، بحاجة إليك. «يــا ترى، ماذا فعلت بي؟»

العاصمة جيدة في الدقائق الأولى فقط عندما تنزل من قطار المســافات الطويلــة أو تقفز من قطار الضواحــي، وثمة نقود إضافية في جيبك. وتشــتري لنفســك بعض الفطائر المخبوزة مع النقانــق اللزجة وزجاجة شراب معها وتقف عند كشــك المحطة، مثل أي وافد من المحافظات، تنتظر شــيئاً ما... شابّاً وحيداً في مدينة كبيرة. لا بأس.

وفي مترو الأنفاق، تنزل سيراً على الأقدام، إلى القطارات التي تندفع عاصفةً وتختفي بسرعة، تمشي بمفردك على السلم الثابت ولا تتزاحم مع الحشود المتجمهرة عند السلم المتحرك. لذلك يمكن للمرء دائماً أنْ يميز ساكن العاصمة عن الوافد. أبناء العاصمة لا يسيرون مطلقاً على الأقدام. أما نحن المتوحشون فالأمر لدينا سيان.

توجد الفتيات الجميلات بكثرة في مترو الأنفاق، يمكن للمرء مشاهدتهن. إنهنَّ دائماً تقريباً منعزلات وغير مباليات بالتعارف. إنهنَّ يستشعرن النظرة ولا يكشفن عن نواياهنّ. ومع ذلك، في بعض الأحيان يلتفتن بانزعاج. ماذا بك؟ لا شيء، أنظر فقط.

وفي هذه المرة واجهته تلك التي أراد أنْ ينظر إليها قليلاً. كانت تجلس في الجهة المقابلة له، وهي تبتسم له ابتسامة ناعمة ولا تكاد تُلاحَظ، فأثارته أسنانها الرطبة البيضاء وفمها المُبهِر. لاحظ ساشا أنها كانت تضيق عينيها في بعض الأحيان من دون تبصّر، لهذا كان يمكنه التفرج عليها من دون عقاب. لكن الأمر بدا مخزياً على الفور، كما لو أنك تختلس النظر. إنها لا تعرف أنه ينظر إليها. فأشاح ساشا بوجهه عنها.

غادر مترو الأنفاق سعيداً لسبب يجهله واتجه إلى المخبأ. هكذا دعا «الاتحاديّون» مقر الحزب. إنه في الواقع، قبو عادي، حصَل عليه كوستينكو صدفة.

حاولت السلطات عدة مرات إرغامهم على ترك القبو من دون جدوى. فقد غارت الشرطة بشـكل غير متوقع، والتي كانت تنـوي، على ما يبدو، أنْ ترمي أثنـاء «تفتيش المكان»، على سـبيل المثـال، في مرحـاض القبو ثلاثـة كيلوغرامات مـن المخـدرات، وعلى هذا الأسـاس يمكن إغـلاق «مخبأ المخدرات».

ولكـن لم يسـمح أحـد للشرطـة بالدخول. فقـد غلّق «الاتحاديـون» الأبـواب والنوافذ بإحـكام، وبمجرد ظهور السـيارات ذات الأضواء الوامضة، اتصلوا بجميع وسـائل الإعلام الجماهيري. ووصل الإعلاميون بسرعة وأزعجوا ذوي الملابس العسـكرية عندما سـألوهم عما يحدث. وبدأ العقداء ذوو الوجوه الحمر يشتمون وغادروا من دون أنْ يحققوا شيئاً. من الواضح أنَّ اقتحام المخبأ تحت كاميرات الصحفيين الروس العجيبـين والأجانب المُضجِرين لم يكن جـزءاً من خططهم. كان من الضروري إيجاد سـبب مشروع لطرد «الاتحاديين» إلى الشـارع، لكن آلة الدولة البطيئة الحركة لم تستطع التوصل إلى هذا السبب.

بعد أعمال الشغب في موسـكو، توجهت القوات الخاصة إلى المخبأ، وقُطِع الباب بجهاز القطع بالأوكسجين، وأُحدِثَت فوضى في المكان وكُسِرَت جميع المعـدات وديسَ عليها ورُكِلَ أولئك الذين كانوا في المخبأ ورُبِطوا. ثم أُخلِيَ سبيلهم.

لم يعرف ساشا ما حدث بعد ذلك. من المحتمل أنّ القبو قد خُتِمَ عليه. وربما، لا. وقيل إنَّ «أصدقاء كوستينكو الكبار» (إذ كان لديه أصدقاء كبار) أقنعوا شـــخصاً من الجهات العليا أنْ يعطي الأوامر بترك المكان لـ«الاتحاديين».

سار ساشا في الشـــارع الطويل نحو المخبأ ورأى يانا تجلس على مصطبة. كانت تدخن وتنظر مستغرقةً بالتفكير إلى المصطبة الفارغة المقابلة لها.

تريّث ساشـــا ووقف لبضع لحظات، من دون أنْ يتجرأ على الاقتراب، وأنْ يجتاز هــذه النظرة أو يجلس إلى جانبها، بعد أن يُفسد مزاج يانا الهادئ، أو ربما الحزين.

لكنها نظرت بنفســها عن غير قصد إلى ساشا الواقف على مســافة منها، وهزت رأسها هزّاً خفيفاً، كما لو أنها تركت عملاً مضجِراً، وابتسمت. حتى أرَقّ قليلاً مما يتوقعه المرء، فقد كانت معرفتهما سطحية، التقيا مرتين فقط.

- ساشـــا! - قالت يانا ببشاشـــة. من الواضـــح أنها كانت سعيدة لرؤيته.

وقد خفق شيء في داخل ساشا خفقاناً حلواً من تأثير حدس هادئ لم يخدعه أبداً.

جلس إلى جانبها مبتسماً، وأشعل سيجارة على الفور، فهكذا يكون الحديث أسهل. والصمت أيضاً.

سأل عن المخبأ.

قالت يانا إنَّ المخبأ تُرِكَ لـ«الاتحاديين»، لكن رجال الشرطة السريين يحومون حوله باستمرار، وثمة سيارتان تُناوِبان من الصباح حتى الليل. وقد قُبِضَ على هذا أو ذاك من «الاتحاديين» في الأفنية بحجج تافهة، على سبيل المثال، للتثبّت من الهوية. وأُخذ بعضهم وعُرِّضوا للضرب في محاولة، كما يُقال، لترهيبهم وإجبارهم على الوشاية.

- حالة من الفوضى لليوم الرابع، - قالت يانا بغضب.

نظر ساشا إلى يديها النحيفتين، وكيف تمسك بالسيجارة، وإلى أصابعها... كانت أصابعها رشيقة ورقيقة. كانت يانا تأخذ نفَساً عميقاً من السيجارة وتتحدث بصوت منخفض، وكان صوتها عميقاً ونابعاً من الصدر، كما أنها ضحكت ضحكاً مليحاً في بعض الأحيان، على سبيل المثال، إذا ما مزح ساشا مزحة حمقاء.

لقد تذكرا الاختراق والشغب وكيف كان ذلك ممتعاً وصاخِباً. وتحدث ساشا عن جريهم في أفنية العمارات. واتضح أنَّ الأمر مضحك جداً. فكانت يانا تضحك.

- ولكنهم قبضوا عليكِ! - تذكر ساشا فجأة.

- لقد أخلوا سبيلي، - قالت يانا بلهجة غريبة، فتردد ساشا في أنْ يسألها كيف ومَن أخلى سبيلها. فجأة اتضح من نبرتها أنَّ الأمر لا يستحق السؤال. وحتى إنها بدأت تدخّن بسرعة.

صمتَ ساشا، مندهشـــاً، لا يعرف ما يقول، لكن يانا، بعد أنْ أخذت نفَســاً عميقاً من السيجارة ونفثت الدخان بسرعة، حولت الحديث بنفسها إلى مسار آخر.

- هل تحتاج إلى أي شيء في المخبأ؟ - سألته بسرعة.

- كلا، - أجاب ساشا بثقة، مسترشداً بحدسه.

نهضا وذهبا إلى رصيف النهر الذي كان قريباً. اشترى ساشا علبتين من المشروبات الكحولية، وشربا، وشـــيئاً فشيئاً ابتهجا من جديد.

تحدث ساشا ذاكراً أنواع الترهات عن السيارات التي كانت تســير من جانبهم وعن الســابلة الذين كانوا يمرون أمامهم، وعن الأطفال وراكبــي الدراجات والكلاب - كان ثمة شيء مضحك في كل شيء.

والأكثــر طرافة هم الأطفــال. أحب ساشـــا أن ينظر إلى الأطفال. في بعــض الأحيان كان يخيف الأمهات، عندما يقف على أطراف أصابعه وينظــر في عربة الطفل - فلربما، اعتقدت الأمهات أنَّ هذا الصنف الغريب من الناس سيصيبهم بالعين. بينما هو ينظر إليهم ويبتسم.

- انظـــري، يا له من بربري صغير، - قال ساشـــا عن طفل يبلغ من العمر سنة ونصف ســـنة وهو يتعثر مع والدته ممسكاً إصبعها بيده الصغيرة. الطفل ما يزال يعبّر في الغالب بأصوات لا معنى لها تماماً.

- كلا، إنــه بُرَيــبرَي! - قالت يانا، مبتســمة، مركزةً على صيغة التصغير، البربري الصغير - عندما يبلغ من العمر خمس أو ست سنوات بأســنان صغيرة حادة ونظرة سريعة وملطَّخاً بالقذارة ويعرف كيف يراوغ وحتى يحتال قليلاً.

- نعــم، نعم، - قال ساشــا موافقاً، إنه بُرَيْــبرَي. بُرَيْبرَي صغير، ذو مخلب.

كانت المياه في النهر وسخة، فألقيا فيها أعقاب السجائر. أيهما يرمي بنقرة إصبعه أبعد. لم تنجح يانا، فكانت تبتســم بصمت، وأحياناً تضحك فجأة بصوت غير مرتفع وبنبرة سريعة.

كان الجو يزداد عتمةً، وهبَّ تيار هواء بغيض من النهر.

- أين ســتقضي الليل؟ - ســألت يانا وهــي تضغط علبة الكحول الفارغة بمقدمة حذائها الأســود. فتدحرجت العلبة وهي ترنّ بقشرتها الرقيقة رنيناً خفيفاً.

- في المخبأ، على الأرجح. وإلّا أين.

- أما أنا فسأذهب إلى المنزل. أنا وصديقتي نستأجر شقة.

- أليست هي من «الاتحاديين»؟

- كلا، - قالت يانا، ولسبب ما ضحكت مرة أخرى.

- سترافقني؟ ثم تعود... - نظرت يانا بجدية إلى ساشا، لجزء من لحظة أطول من اللازم. لم يبدُ على وجهها انتظار الإجابة عن السؤال، بل محاولة اتخاذ قرار أو تأكيد لما قُرِّرَ مسبقاً.

- بالطبع، - أجاب ساشا من دون تردد وهو ينظر في عينَي يانا.

إنه بشـــكل عام، في مثل هذه اللحظات، لم يحاول أن يتخذ قراراً وأنْ يمعن في التفكير وأنْ يُخطئ في حساب شيء ما - بل كان يفعل ما هو طبيعي، وما يحصل بشكل بدهي بتأثير دوافع بسيطة وواضحة.

بالقرب من محطة المترو داهمهما المطر فأسرعا الخُطى. وعند النزول في الممر هطل المطر بغزارة أكثر، إلى درجة أنهما لم يتمكنا لعـــدة ثوانٍ من اختراق جَلبة الناس الذين كانوا يسرعون أيضاً للدخول في محطة المترو لتجنب المطر. وهنا مدّ ساشا يده بشكل طبيعي تماماً نحو يانا لأول مرة، ولامس ظهرها النحيف - أو بالأحرى، لامس ســترة الجينز القصيرة، لكي يساعد يانا على اختيار الطريق الأكثر ملاءمة للاختباء من المطر بشكل أسرع، ولتجاوز الرجال والنســاء المتمهلــين والمتثاقلين، الذين كانوا يطوون المظلات التي لا يُعرَف من أين أتوا بها أو الذين ببساطة يتحركون بتردد وبطء.

وسارت يانا إلى حيث وجهتها يد ساشا، مشت أمامه - لأنه كان من المســتحيل أنْ تمشي بجانبه في مثل هذا الحشد. لامسها ساشـــا قليلاً، لكنه لم يرغب في أنْ يرفع يديه، على الرغم من أنه لَم تعد ثمة حاجة لذلك.

تزحزحت يانا بعيداً عنه قليلاً، كما لو أنها امتُصَّت في دوامة، ولم يتبق سوى القليل جداً حتى يضيع قوامها الممشوق وشعرها الداكن الفوّاح وجيدها الرشـيق بين ظهور الآخرين وأيديهم ورؤوسهم غير المرغوب بها.

التفتت يانا، وكانت عيناهـا دافئتين، يُقرأ فيهما الوعد بأن كل شيء سـيكون على ما يرام، لأن كل شيء على ما يرام الآن - «عـلى الأقل اختبأنا من المطر» - وبعـد ذلك، من دون أنْ تنظر إلى ساشـا، مدت يدها، حتى يتمسـك بها، ولن يضيع، فأخذ بسهولة أصابعها الباردة النحيفة، ولكن القوية، وضغط عليها.

وبعد دقيقة سارا جنباً إلى جنب ويداً بيد.

- عندي بطاقة ركوب... - قالت يانا عندما تحرك ساشـا نحو الطابور أمام شباك التذاكر.

مرّا من خلال البوابة الدوارة. أعاد ساشـا بطاقة الركوب ليانا، فنظرت إلى عدد الرحلات وقالت مبتسمة:

- انتهت.

قلَّبـت البطاقة بأصابعها المرنة وهي تنظر إلى ساشـا، - وكانا قد ركبا على السـلَّم المتحرك - مدت يدها بشـكل غير متوقع إلى الجانب، من دون أنْ ترفع عينيها عن ساشـا، وأسـقطت البطاقة على السطح بين السلَّمَيْن المتحركين. فتدحرجت البطاقة في البداية بسرعة، ولكن سرعان ما لحقا بها بعد أنْ توقَّفت.

وفي عربة المترو وضع ساشا بهدوء يده الخفيفة على كتفَي يانا المرنتين، وجعلا يتحدثان عن شيء جدّي. لأنه - صار من الممكن الآن الحديث عن أشياء جدية. سألته يانا أنْ يتحدث عن نفسه. ولكن بما أنَّ ساشا لم يكن مهتماً بالحديث عن نفسه فقد تحول على الفور إلى مواضيع أخرى وتحدث عن الوقت الذي عاش فيه والذي رآه بأم عينه.

كان الوقت سيئاً وجائراً وخدّاعاً - لم يشك ساشا أبداً في ذلك، ولم تشكك يانا في ذلك أيضاً، لذا كان من السهل التحدث.

وعندما خرجا من مترو الأنفاق، كان المطر قد انتهى، ولكن عمَّ الظلام تماماً. كانت هذه المحطة الأخيرة لخط مترو طويل، واحدة من مناطق العاصمة النائية. سارا بنشاط، وهما يتبادلان النكات مثل الكرة الصغيرة التي يمكن الإمساك بها بسهولة. وكانا يناوران بين البِرَك، فسخطت يانا بمرح بسبب كثرة الماء. وعند أكبر بركة أخذ ساشا يانا التي توقفت مترددةً بيديه وحملها.

- ماذا فعلت؟ - قالت بصوت منخفض، ولكن بوضوح؛ ولامست خصلات شعرها خدَّي ساشا، فأدرك فجأة أنَّ يانا تخجل، وأدرك أيضاً أنه فاز، وأنَّ كل شيء سيستمر كما يريد، لأنه الآن أقوى.

«أو أنها أرادتني أنْ أكون أقوى، لكن هذا ليس صعباً بالنسبة لي..».

وفي أحد الأكشــاك في الشــارع، اشــترى زجاجة شراب وكعكة صغيرة.

ركضا إلى الطابــق الثالث فتحت يانا الباب وقالت بصوتها الذي برد فجأة:

- ادخل. هنا فوضى، لا تلُمني.

خلعت حذاءهــا ودخلت الغرفة وســقطت بظهرها على الأريكــة غير المنفرجــة. نقرت على جهاز التحكــم عن بُعد، وشغلت التلفزيون.

- اجلس، - قالت لساشا من دون أن تنظر إليه.

بالطبع، لم يعجبه جداً هذا كله.

- ســأجلس لمدة قصيرة ثم سأطهو شــيئاً ما. من المحتمل أنكَ جائع. لن تأتي صديقتي اليوم، ســأفرش لك فراشــاً على الأرض، ابقَ.

قالت يانا هذا بصوت تشــوبه نبرة الاغــتراب، وكأنهما لم يضحكا قبل قليل في الشارع.

ظلَّ ساشا صامتاً. جلس على كرسي في زاوية الغرفة، وأحياناً ينظر نظرة امتعاض إلى يانا التي تتمتع بتقليب قنوات التلفزيون التي كل واحدة منها تشبه كيساً بلاســتيكياً مليئاً بالقمامة وقد مُزِّقَ فجأة - هوب، وســقط عليك شيء كثير ومتعدد الألوان ونتن.

كانت يانا صامتة.

لاحظ ساشا كتاب كوستينكو على طاولة صغيرة فتصفحه، على الرغم من أنه كان يعرف تقريباً عن ظهر قلب كل شيء كتبه زعيم «الاتحاديين».

وحتى لا يبدو الصمت الذي وجم عليهما مُرهِقاً للغاية سألها ساشا:

- هل تعبتِ؟

ولكن هذا السؤال نفسه احتوى من البداية على درجة من الحميمية أعلى بقليل مما كانت ترغب به يانا، على ما يبدو، ولهذا أجابت من دون انفعال عاطفي:

- لا بأس.

ابتسم ساشا.

«لا بأس، سأذهب لأنام على الأرض... - فكر بهدوء من دون أي تهيج. - ولكنني لم أخمّن هذا»، - قال من دون شعور بالانزعاج، على الرغم من أنَّ في مكان ما في أحشائه كان ثمة وريد وقح يدق، إنه - كلا، كلا، لقد خمن.

وبعد عشر دقائق، ذهبت يانا إلى المطبخ من دون أنْ تنظر إلى ساشا، وسرعان ما سألته من هناك:

- هل ستأكل عصيدة الحنطة السوداء؟ بشيء يشبه اللحم؟

«لقد بدأت على الأقل تمزح»، - نوّه ساشا لنفسه عاطفياً. ونَهض ودخل المطبخ وراء يانا.

نظــرت يانا بحزن في المقلاة الصغــيرة الموضوعة على النار والتي تسخّن فيها الحنطة السوداء مع صلصة داكنة.

كانت طاولــة المطبخ مغطاة بقماش مشــمّع بهُت لونه في بعــض الأماكن. ووضِعَت في الحوض عــدة أكواب. لم تكن ثمة ســتائر على النافذة، ووضِع على حافة النافذة وعاء يسع لتراً من الماء.

جلس ساشــا على الطاولة وجعل ينظر إلى يانا: رأس مائل وخصلات شعر داكنة ووجه كامل.

«إنها تستشعر النظرة..».

وفعلاً التفتت إليه. وحتى إنها ابتسمت ابتسامة خافتة.

- دعنا نأكل الآن، - قالت يانا.

- ســنشرب الشراب على كل حال. هكذا تمامــاً، من دون أي معنى. - قال ساشا.

وذهب ليجلب الزجاجة التي تُرِكَت في المدخل بالقرب من رف الأحذية. شــطف قدحين، ببطء، وفتح زجاجة الشراب بلا صوت، وسكب منها في القدحين بهدوء. أعطى يانا قدحاً، ومن دون أن يقرع الكؤوس، شرب ما في قدحه.

نظرت يانــا لبضع ثوانٍ إلى الــشراب والفقاعات تتطاير منه، وارتشــفت ما في قدحها أيضاً وهي واقفة بجانب موقد الطبخ.

- شراب مع عصيدة الحنطة السوداء، - قالت أخيراً.

- رائع، - قال ساشا.

وضعت يانا طبقين من الطعام على الطاولة. وجلست إلى الطاولة وظهرها نحو النافذة. وقطَّعــت حافّة خبز الجاودار (الشــيلم) المتيبِّــس في شرائح رقيقة. وطلبت من ساشــا أنْ يتناول الطعام وبدأت هي نفســها تــأكل على الفور وتنظر في الطبق.

ما زال الشــعور بالاغتراب ينتاب يانا، بــلى، - فجأة فهم ساشــا هذا بوضوح، لكنها بدت وكأنها سقطت في كآبة رزينة لا يثقلها وجود ساشا.

هذا هو السبب الذي جعل الصمت يغيّر النغمة، بل وحتى أصبح مناســباً، وإنْ خرقته همهمة التلفزيــون غير الواضحة خلف الجدار والبقبقة الواهنة التي لا تكاد تُســمع من الشراب الذي صبَّــه ساشا مرة أخرى لنفسه وليانا.

لقــد نكَّشَ قليلاً في العصيدة - ولكن لم تكن لديه شــهية. فعوَّضَ ذلك بالشرب. وشربت يانا بجشع غير متوقع. وطلبت أنْ تشرب بعد.

نهض ساشا، ونظر من النافذة. كان الجو كئيباً وكالحاً.

كان وعاء الماء على رف النافذة.

بعد أن شربت يانا، التي كانت جالســة وظهرها إلى ساشا، الشراب وضعت القــدح الفارغ على الطاولــة ونحَّت الطبق الفارغ عنها.

نظر ساشـــا إلى ظهر يانا وحمل في يده إنـــاء الماء الذي أخذه قبل لحظة من حافة النافذة من أجل تعزيز سؤال غبي على نحو واضح: «لماذا هذا الإناء موجود هنا؟» ولكن بشكل غير متوقع لنفسه، خطا نصف خطوة نحو يانا وسكب الماء من الإناء على رأسها.

ربما، كان هذا تصرّفاً أحمق. لكنها نهضت من كرســيها وهي تبتسم ابتســامة أكثر إشراقاً بكثير مما كانت عليه قبل دقيقة واحدة، وهي تضع يديها المرتجفتين قليلاً، كما لو كان من الضحك، تحت خصلات شــعرها الذي يتســاقط منه الماء.

- يا لك من وغد، - قالت يانا بابتسامة. - آه، أيها الوغد...

ذهبت إلى الغرفة. وعادت من هناك بمنشفة على رأسها ولم تزل تبتسم.

- سأذهب إلى الحمام، أتفهم؟ - قالت بمرح.

حاول ساشا أن يأتي بنكتة أو حتى برد فعل مرح على الأقل جواباً لهـــا. «لم أفهم» - نبذها؛ «ســأفكر في الأمر» - نبذها، لم يأت بأي شيء، فأومأ فقط بالرد، إيماءة عريضة كجرو.

جلس عنـــد التلفزيـــون وقلَّـــب القنوات حســـب عادته بالاســتيعاب غير المؤلم لعدة جرعات مـــن الابتذال والجهل. وكالعادة لم يفلح ساشا في ذلك، فأطفأ الصوت. هكذا أفضل.

دوّى ضجيج الماء في الحمام.

«ليحدث ما يحدث، الأمر سيان...المتنزهات... أيّ متنزهات هناك؟ أنسى طوال الوقت... «أيتها المتنزهات المتداعية، تسكعي...» «وأنت أيها المغزل، اصْخَبْ»»[1]...

وفعلاً، كان الأمر سيان بالنسبة إليه.

خرجت يانا من الحمام في رداء منزلي (روب) ونعالٍ وهي تمسح رأسها مسحاً عنيفاً بمنشفة وبرةٍ حمراء بخطوط بيضاء.

من دون المكياج، أصبحت أبسط وأجمل، رقيقةً ونظيفة. وأصابعها النحيفة التي ابيضَّت من الماء...

ذهب ساشا إلى الحمام. ونظر إلى نفسه في المرآة، مضيِّقاً عينيه.

«لقد نظرت هذا الصباح إلى وجهي في المرآة. على بعد خمسمائة كيلومتر من هنا. وفكرت: أيّ نوع من الناس أنا؟ موثوق به أم غير موثوق..».

فتح صنبور الماء ومرَّرَ كفَّه المُبلَّل على وجهه.

---

(1) هذا مقطع من قصيدة دمتري ميرجكوفسكي (1866 – 1941) – هو روائي وشاعر ومفكر ديني وناقد أدبي روسي. أحد الشخصيات البارزة في العصر الفضي للشعر الروسي، وأحد مؤسسي الحركة الرمزية الروسية، تجمع رواياته التاريخية الفلسفية بين المثالية الشديدة والابتكار الأدبي. والقصيدة هي:

ليحدث ما يحدث – الأمر سيان

أيتها المتنزهات المتداعية،

يا خيوط الحياة المتشابكة، تسكعي

وأنت، أيها المغزل، اصْخَب.

(المترجم).

... فرشـــت له يانا فراشاً على الأرض وفرشت لنفسها على الأريكة. انتهت من الفَرش عندما خرج ساشا. نظر إليها مبتسماً ابتسامة خفيفة وهي تنحني وتعدِّل الشرشف.

كان المصباح الليلي فقط قيد التشغيل والضوء العلوي مطفأ. بالقرب مـــن الأريكة وضِعَت زجاجة الشراب - أحضرتها يانا. وحتى إنها، على ما يبدو، قد شربت شيئاً منها.

أطفــأت المصباح الليلي. وجلســـت في الظـلام على الأريكة وظهرها إلى ساشا، وخلعت بسرعة الرداء المنزلي (الروب)... نظر ساشا إلى ظهرها النحيف الذي يشبه ظهر صبي؛ لم تكن يانا تشدّ حمالة صدر. ألقت الـــروب على كرسي بجانب الأريكة بلا مبالاة وتمددت تحت البطانية متغطيةً إلى حد ذقنها.

رفعت عينيها - رأت خيال ساشــا المعتم واقفاً فاستدارت إلى الحائــط، وكأنها تســمح له أنْ يخلع مـــن دون خجل. وأن يستلقي بجانب الأريكة.

لكنه جلس على الأريكة ووضع يده على ظهرها. ومرَّرَ عليه راحة كفه، وعندما وصل إلى الأسفل قليلاً من عظام كتفَي يانا شعر بالقشعريرة تسري في جسدها.

- هل تشعرين بالبرد؟ - سألها.

بدلاً من الإجابة، التفتت بحدة - ولكن ليس إلى ساشـــا، بـــل إلى زجاجة الشراب التي كانت على الأرض. وشربت من الزجاجة مباشرة بضع رشفات كما يشرب الأخرق. وأعادت

الزجاجة إلى الأرض، واستلقت على ظهرها، فرأى ساشا عينيها الذاهلتين المفتوحتين كل الفتح وصدرها الصغير المكشوف. فأخذ يانا برفق بيده من تحت رقبتها وانحنى عليها وقبَّلها في شفتيها برفق ولامسها لمساً خفيفاً. فأحسَّ برائحة الشراب ثم بلسان يانا السريع الذي يشبه لسان القط وبأسنانها الصغيرة.

تبادلا القُبلات بهدوء وبتروٍّ وحتى بدقة، كما لو كانا أعميين - يدرسان بعضهما بعضاً بالشفاه.

مسَّد على جسد يانا، كانت نحيفة، كلها نحيفة ورقيقة، وما زالت مُبَلَّلَة قليلاً بعد الاستحمام برطوبة خفيفة وباردة.

خلع ساشا قميصه ونزع سرواله ورمى ملابسه على الأرض. وكانت يانا تنظر إليه مندهشة - ورأسها البارز على وسادة صغيرة.

استلقى على جنبه بجانب يانا واحتضنها من كتفيها بعد أنْ أدارها نحوه.

نظرا إلى بعضهما بعضاً في الظلام ولم يغمضا أعينهما. بدا لساشا أنَّ عينَي يانا تنفتحان أكثر وأكثر. كما لو أنه صدمها، ثم استمر يدهشها أشدّ الدهشة.

- هل تريدين المزيد من الشراب؟ - سألها ساشا في الظلام، ولسَبب ما بصوت أجش.

- كلا، - قالت بنبرة كما لو أنها لم تتذوق الشراب أبداً.

- ولكنكِ شربتِ.

- كان علـيَّ أنْ أقرر... كنت خائفة.

شرب ساشـا الشراب كله ووضـع الزجاجة. ثم أغمض عينيه، عـلى الرغم من أنه يعلم أنه لـن يغفو. فقد حدث مثل ذلك معه.

أما يانا فغفت على الفور. نامت نوماً مضطرباً، وهي ترتجف أو تتنفَّس بكثافة. فكان ساشـا يمسـد على ظهرها بين الحين والحين مهدئاً إياها.

- يا كوستيا، لماذا لا تنام؟ - سألت يانا بغتة، ربما، بعد نصف سـاعة، على الرغم من أنها كانـت نائمة قبل ثانية فعلاً.

ابتسـم ساشـا. ويبدو أنَّ يانا، حتى من دون أنْ تستيقظ، استدارت بجلبة نحو الجدار. فاحتضنها من بطنها.

- كوستيا... - كرر مع نفسه بسخرية. ولثم يانا من رقبتها.

في بعض الأحيان كان يغلبـه النعاس، لكنه لم ينجح أبداً في النوم على الفور وبسـهولة مع شـخص كان، في الحقيقة، قبل نصف سـاعة غريباً تماماً بالنسـبة إليـه. وفجأة أصبح قريباً. ربما، ليس لمدة طويلة، ولكن... كيف عدّ ساشـا هذا الشـخص قريباً بهذه السرعة. وهـل يمكن له النوم مباشرة بعد ذلك؟

استيقظ ساشا في الساعة السادسة تقريباً وذهب إلى الحمام. فتح الصنبور - فانسكب الماء مطرطشاً بصوت عالٍ. ثم ذهب إلـــى المطبخ وســـخَّن الغلاية وتذكر الكعكة التي اشـــتراها بالأمس. فوجدها في المدخل على منضدة الأحذية. وسُرَّ لذلك بالطبع. مثل الطفل.

شرب الشـــاي، واقفاً بالقرب من موقد الطبـــخ - متلذِّذاً بقضم الكعكـــة الحلوة والدبقـــة. وفكَّر: «هل ســـلوكي هذا صحيح؟» - ولوَّح بيده ذهنيّاً تـــاركاً التفكير في هذا الموضوع وأشعل سيجارة، وفتحَ كوة التهوية قليلاً.

كلا، إنه مجرد صباح رائع. يحملك، يا ساشا، في اليوم الرابع لا أحد يدري إلى أين. وهذا جيد لك، يا غبي.

«وربما، سيئ..».

وذهـــب يتنعّم بالمـــاء الصاخب، الذي صُبَّ ســـاخناً وفوّاراً. وكانت الجدران، بالطبع، رطبة ومقشـــورة بشكل يثير الانزعاج، وانتصب قريباً منه حوض التشطيف بشكل محزن، وحتى حوض الحمام نفسه كان صدئاً، ولكن هذا لم يزعج ساشا.

جعل يحدّق في السقف. كان المصباح يومض على السقف.

«يانا كذلك، ربما، تنظر إلى هذا الســـقف... ربما في مكان ما ثمة شيء عالق من نظراتها، خشـــونة مـــا... إذ انهال الجص في مكاَن كانت تطيل النظر إليه بعناية خاصة..».

وفي الغرفــة كانت تنام الصبيــة التي أحبَّها ساشــا كثيراً. الصبية ذات البشرة الداكنة والأثــداء الصغيرة والتي في الليلة الماضية...

«هذه الليلة، يا ساشــا، وليس ليلة الأمس»، - قال صوت لساشا.

«نعم، بالتأكيد... أنت أيضاً، بالمناسبة، أحببتها جداً، لذا لا تسخر!» - أجاب ساشا ظافراً.

«إني أود أن أنام فحسب».

«أنــت تكذب! في داخلــك أنت أيضــاً، كل شيء يرتجف بسببها..».

صمتَ الصوت.

بقي ساشــا خدِراً في الرطوبة الســاخنة إلى درجة التكدّر الخفيف.

ثم نظَّف أســنانه بمرح، وغســل وجهه مــرة أخرى بالماء الجليدي، وفتح الباب، وبعد أنْ سحب سروال الجينز في ساقيه اللتين ما زالتا مبلَّلتَين، وهو عارٍ إلى وسطه. كانت يانا تقف عند الباب في قميصها التحتي ونعال.

- يانا، يا حبيبتي، - قال ساشا.

فقبَّلته بهدوء.

فكَّر ساشــا إلى أين يذهب - أيذهــب ليدخن في المطبخ أو يذهــب ينام تحت البطانية، ليبقى مســترخياً لمدة أخرى قليلاً.

واختـــار الأريكة، لأنه ربـــما ما تزال تفوح برائحـــة يانا الليلية ورائحة جسدها الخفيف الدافئ.

صخب صوت الماء في الحمام.

دفن ساشـــا نفسه في الوســـادة، وجمع الشرشف إلى وجهه. نعم، كما خمـــن، كانت الأريكـــة تفوح برائحـــة خفيفة ودافئة ولاذعة، من نوع خاص، مثل رائحة الشـــيح المشوبة بقليل من المرارة - في المناطق التي لامســـت جلدهـــا وظهرها وجنبيها. وحلوة - حيث استلقت برأسها الأسود الصغير.

ومرة أخرى جعل ينظر في الغرفة وهو يحسّ بتعب لطيف. فرأى فيها الحد الأدنى من الأثاث: خزانة ومرآة.

حدّق ببلادة لبعـــض الوقت في شاشـــة التلفزيون: الغبار عليها وتحدّب في أنبوب الصورة.

نُقِرَ مزلاج باب الحمام - فعضَّ ساشا على شفتيه عضة خفيفة.

لم يلتفت ساشـــا إلى يانا - فقد خاف قليـــلاً من أنْ يصيب بالعين رقّتها وشـــفّافيتها اللتين يمكن أنْ يستحيلا إلى شيء غير متوقع تماماً. وفي تلك اللحظة خفق قلبه فرحاً - لأن يانا قفزت بخفة إلى الأريكة ودخلت على الفور تحت البطانية، واستلقت إلى جانبه على بعد بضعة ســـنتيمترات منه، وفي بعض الأماكن عِلى بعد مليمـــترات - إلى درجة، على ما يبـــدو، تلامس فيها الزغب الأبيض الذي لا يكاد يُرى في جســـديهما. اضطجعت،

وهــي تتنفس بسرعــة، وتهتز مثل عضاءة ناعمــة الملمس من سلالة ملكية غير معروفة. ربما، عضاءة هابطة من القمر. فانتابه إحســاس أنها كانت تبتسم - ولكن ليس بوجهها ولا بشفتيها بل بجسدها النحيف والمرن.

قبَّلها ساشا وابتعد عنها ليستمتع بالنظر إليها.

أدرك أنها لن تهرب الآن فاحتضنها.

- عيناكَ متغطرستان، - قالت يانا بسرور.

- أريد أن أتذوق... - قالــت بعد ذلك بدقيقة، ولم تكمل العبارة، - وقد أحب ساشــا أنَّ العبــارة لم تكتمل، كما أحبَّ صوت يانا العنيد المغترب الذي نطق تلك العبارة.

تجمد، مذعوراً تقريباً. بعد دقيقة فتح عينيه ورآها.

أزاحت خصلاتها الساقطة خلف أذنها. كان وجهها متوتراً وجديّاً، كما لو كانت تؤدي مهمة جسيمة تتطلب يقظة. كانت تنظر إلى ما اشتغلت به بانتباه شديد بعينين خامدتين بل وحتى جسورتين.

بعد ثانية، ســقطت الخصلات مرة أخرى، لكن يانا لم تعد تشتت انتباهها نحوها. ولم يعد وجه يانا يُرى خلف شعرها.

شعر ساشا، من دون أن يغمض عينيه وحتى، على ما يبدو، من دون أن تســتولي عليه حالة شــبه هذيان، كيف أُسقِطَ من رجليه وضُرب عدة مرات بهراوات مرنة للغاية على الرأس وفي مــكان آخر - في تلك الأعضاء التي تــورّد الهواء. ولم يعد ثمة

هواء، ولكن لسبب ما كان الهواء كافياً داخل الجسم - لدرجة من الوفرة أنَّ بإمكانه ألّا يتنفس من خلال الفم.

لقد ضُرِبَ على مهل، بإيقاع عنيف ومتسارع باستمرار، وهو نفسه جلبَ الضرب لنفسه وسعى لاستقبال الضربات بجسده كله. تقبَّل الإذلال بسهولة، وشعر أنه يريد أن يصرخ، ولكن لم يكن لديه صوت. ومع هذا لم يحتَج إلى الصوت.

مدَّ رجليه. أجل، مدّ رجليه وطلب أن يُضرَب عليهما. وبدا أنه كلما ضُرِب بقوة أشد، كلما تخلّصت العضلات الملتفّة على شكل جديلة من الألم بشكل أسرع، واسترخت أكثر.

من مكان ما، لمجرد ثانية، تراءى له مشهد حاد ومؤلم. فقد رأى: ذقنها الحاد كله رطِباً.

أفقدته ضربة جديدة الوعي، ولكنه خمن لماذا ضُرِبَ: بمجرد أن فقد الاتصال بعقله، بدأ يصوره في وقت واحد عدد من المصورين الفوتوغرافيين المستترين وراء ومضات كاميراتهم. هذه الومضات انتزعته من العدم الذي يمتصه ثلاث أو أربع مرات بشكل حاد ولكن من دون ألم. أنارت كل ومضة حدقَتَي عينيه المتوسعتين وفمه المفتوح ذا الأسنان الجافّة جفافاً مرَضِيّاً والمتلاصقة بسبب التنفس السريع والتي صفَّرَت خلفها وصخبت صرخةٌ وهي تفلت إلى الخارج.

من الواضح أنهم أرادوا تسجيل لحظة موته. لكن الومضات الأخيرة بدت باهتة وضبابية كما لو صُوِّرَ من الضباب...

وتلاشى كل شيء.

غمر عينيه سقف مستشفى خفيف.

لم يسعف الوقت ساشـــا حتى ليستوضح أمره ويُدرك لون السقف، وإذا بيانا تعود، وما أنْ رمش حتى رأى وجهها فجأة فوقه، قريباً جداً.

يبدو أنها فقط قبَّلته. فاســتمتع بأنفاسها الحارة وكان ذلك أكثر من كافٍ له.

... أكثر... من...

كانت يانا تشبه العضاءة فعلاً - بجسدها المراوغ والسريع. وفي بعض الأحيان بدا أنها، مثل العضاءة، لا تستطيع الاستلقاء على ظهرهـــا وتريد التدحرج مـــن أجل الاختفـــاء والتوغل والهروب. أخذ ساشا يانا بقوة من ذراعيها ومن كتفيها - لكي يستمتع برؤيتها ويلتقط أنفاســها ونظرتها المراوغة باستمرار: ناظراً في عينيها الداكنتين الساخرتين.

مسَّـــد عليها، مـــدرِكاً فجأة أنَّ بشرتهـــا، كلا، لم تكن حريرية على الإطلاق وليســت ناعمة الملمس بل على العكس - خشـــنة. وبالكاد دافئـــة... كيف... حاول ساشـــا أنْ يتذكر ما هو الشيء الذي يشبه الشعور المتأتي من ملامسة جسد يانا، وفجأة رأى نفسه على شاطئ صيفي، صبياً، مستلقياً بصدره وبطنه على قرص إطار داخلي أسود لعجلة سيارة تفوح منه رائحة كريهة وحلوة - رائحة الماء والشمس وشيء آخر يثير الخدَر.

اندهش ساشا من جمال يانا ورقة جسدها.

... وعمودها الفقري كان إما يختفي أو يظهر بشـــكل حاد، لأن يانـــا، التي تملّصَت من تحت ساشـــا، قد حنت ظهرها على نحو شرهٍ واسترخت استرخاء عجز على الفور.

وقد أفلتت من ساشا بحركة خفيفة من وركها.

اعتقـــد أنَّ ذلك - بالصدفـــة، وحاول العـــودة، لكن يانا تراجعت مرة أخرى وجلست.

لم تقل يانا كلمـــة واحدة، وعندما خمن ساشـــا، تجمدت - كما يتجمد الحيوان الذكي عندما يُحقَن بإبرة أو يُنتَزع مســـمار من براثنه - وهو ينظر شـــزراً بعين متوترة وخائفة قليلاً ويهزّ جسمه الخفيف الرطب بالكامل هزاً خفيفاً بالكاد يمكن ملاحظته.

«صه، صه...» - قالت يانا وأمســـكت ساشا قليلاً بيدها، بأصابعها النحيفة والمقوسة برشاقة من رجله. ولكن بعد لحظة تقدّمت هي بنفسها لملاقاته.

مع كل حركة كان ساشـــا يشـــعر كيف ينصَع قلبه بياضاً - ولهذا السبب ينساب الدم من القلب. ينساب جارياً تدفقاً بعد تدفق.

ارتجف ساشا وهو يمسك يانا بكفه.

«صرخت يانا» - أدرك ساشا. صرخت للتو.

حرر نفســـه منها واســـتقر برفق على جانبه، واستلقت يانا على ظهرها، بعـــد أنْ ضمّت ســـاقيها حتى التصقتا. وتنفســـت وهي

مغمِضةً عينيها. كان جفناها متوترين ويرتعشان، مثل جفنَي إنسانٍ يحاول ألّا يفتح عينيه، ويخشى أنْ يرى النور أو يخجل.

- انظر... هل عندك... كل شيء على ما يرام؟ - سألته يانا.

نظر ساشا إليها.

- كل شيء على ما يرام، - ردَّ عليها ومسَّدَ على يدها. - يانا، أنتِ إنســانة غير عادية. تفوق التصوّر. حلوة وساخنة، - قال ساشا، وفجأة شعر أنه يختنق قليلاً.

- وأنت قطٌّ فاحش، - قالت بعد توقف قصير. كان صوتها عابثاً ومُضحِكاً.

- كلا.

- إذاً... إذاً أنت كلب ضامر ونهم.

- كــلا، أنا لســتُ... - أجـاب ســاشا من دون صـلة بالموضوع.

- لمــاذا أنت فاحــش، أيها القط؟ - ســألت يانا، من دون أن تفتح عينيها، وهي تبتســم بأطراف شفتيها. - لماذا تفركني ببطنك الضامرة التي تشبه بطن الكلب؟ وتفعل ما هو سيئ؟

- آه، هــل هذا أنا؟ وكنــت أظن أنكِ أنــتِ... أناكِ أنتِ بنفسكِ...

- حدث هذا من دون إدراك.

- ولكني أعتقد أنه حدث عن إدراك.

فكرت يانا للحظة. ولحست شفتيها بلسانها السريع.

فتحت يانا بشكل غير متوقع عينيها المرحتين والضاحكتين، وبدا لساشا أنه كـان يسير طويلاً فـي حقل، بين عشب رمادي متماثل، وفجأة رأى زهرتين طبيعيتين، كما لو أنهما تعكسان الشمس. وهما تنظران إليه.

فانحنى وقبّل تلكما الزهرتين وشعرَ بدغدغة.

نهضـــت يانا وركضت في الغرفة عاريـــة، تبحث عن شيء، وتمسك في يدها ملابسها.

نظر ساشـــا إليها باندهاش وحنان، وهـــو يفكّر - ها هو ذا الجســـد المُدهِش والدافئ الذي تتدفق رطوبته في داخله، في كل مكان حيثما أمكن، وتنزلق على الجدران الناعمة لأحشاء يانا.

تطلَّع ساشـــا إلى ظهر يانا وإلى بطنهـــا الضامرة، كما لو كان يحاول أنْ ينظر إلى يانا من جانب إلى آخر، مثل الأشعة السينية.

لقد كانت صلة قرابة - شعر ساشا بهذا على أنه قرابة مطلقة وربّانية.

الفصل السادس

- ساشا، أحتاج إلى شخص موثوق به على وجه السرعة. ولكن غيرك.

سحبت يانا نَفَساً من السيجارة بعمق ونفثت الدخان ببطء.

جلسا على مقعد بالقرب من منزلها.

كان ساشا حسب العادة يشيّع المارة ببصره - من أي جنس وعمر. أحب أن ينظر إلى الناس.

- لماذا غيري؟ - سألها.

- لأن ثمة عملاً لك هنا. هل لديك مثل هذا الشخص؟

«شامان، بايالا، بوري... دالنوبويشيك[1]؟ أوليغ فرد القوات الخاصة؟» - عدد ساشكا في ذهنه رجاله الأكثر تهوّراً.

«نيغاتيف» - قرر ساشا.

(1) شامان، بايالا، بوري، دالنوبويشيك - هذه كُنى وأسماء مستعارة تعني: شامان - كاهن يستعمل السحر في معالجة المرض؛ بايالا - اللحام؛ بوري - البني، الأسمر الداكن؛ دالنوبويشيك - سائق شاحنة النقل البعيد. (المترجم).

- نعم، يوجد.
- هل يستطيع الذهاب إلى مكان ما؟ لمدة طويلة؟
- يستطيع. كم المدة الطويلة؟
- إذا قُبِضَ عليه، وفعلاً سيُقبَض عليه، فمن المرجح أنْ... يُحكم عليه بالسجن. لمدة عام، اثنين، لا أعرف... سيكون هذا ليس في روسيا.

ظلَّ ساشا صامتاً.

- إذاً؟ - أدارت يانا وجهها الصارم.
- سوف أساله.
- ليس بالهاتف.
- متى تحتاجين إليه؟
- منذ الأمس.
- إذاً، ينبغي عليَّ أنْ أغادر إلى المنزل، - قال ساشا بصيغة التأكيد، وليس السؤال. - سأذهب. اليوم.
- حسناً، - قالت يانا، - أنا في المخبأ. هل تريد أي شيء من هناك؟
- كلا، - أجاب ساشا، مرة أخرى خلال الصباح وهو ينظر إلى يانا باهتمام، أو بالأحرى، وهو يسجِّل التغيير في مزاجها.

لقد تعمَّد أنْ يقول - لا. لم يُرِد أنْ يكون الآن معها لأنها تصرفت باغتراب مرة أخرى. وهيئتها كلها كانت تقول: «لم يكَن ثمة شيء. لا تعطِ أهمية لأيّ شيء».

دخَّن ساشا وهز رأسه، كما لو كان يسقط عنه شيئاً مُضجِراً ومزعجاً.

- لنذهـــب إلى محطة المترو ؟ - قالت يانا. - هل ســـتذهب بواسطة المترو؟

نهض ساشا، وألقى عقب السيجارة في سلة المهملات - لم يحب التدخين أثناء السير.

وسرعان ما افترقا في محطة المترو. لم يستطع ساشا أنْ يضبط نفســه والتصق بزجاج الأبواب في عربتــه - في محاولة لمعرفة مكان يانا - فربما كانت تنظر إليه هي أيضاً.

«وتلوِّح بيدها لك...» - تهكم ساشا قليلاً بقسوة على نفسه.

لم يلمح يانا. فقد انطلق القطار داخل النفق، فرأى ساشـــا انعكاس صورته، وشعره الداكن، ومظهره الضبابي الغامض، وامتقع وجهه الذي بدا لسبب ما شائباً، بشُعَيرات شائبة.

شرب في محطـــة القطارات العصير، على الرغم من أنه كان يرغب بشيء أقوى، وفي انتظار القطار دخَّنَ عدة سجائر واحدة بعد الأخرى.

وفي القطـــار، صعد إلى الـــرف العلوي. ونام بســـهولة في منتصف النهار، غفا ونام من دون أن يرى أحلاماً. مرة واحدة أيقظته جامعـــة التذاكر (الجابي) - بعد أنْ فتـــح عينيه أعطاها هويته الثبوتية والتذكرة. ولكي تعيد وثائق ساشا إليه بعد دقيقة تحتم عليها أن توقظه مرة أخرى.

وصـــل إلى مدينته في وقت متأخر من المســـاء، ولكن الترام ما يزال يســـير. كان يحب ركوب الترام، إذ كان فيه سحر مثير لا يســـتفزّ الروح، مثل الحافلات، وبطء عند التســـلق صعوداً وقعقعة عند الانحـــدار مرحة ولكن بشـــعور يوحي باحترام الذات.

ذهب ساشا إلى نيغاتيف.

بدا له أنَّ يانا في مكان ما قريب، فكان ساشا أحياناً يحدق في أجساد الفتيات القليلات في الشوارع، وأحياناً يتلمَّس بإبهامه باطن سبّابته ويمسِّـــد عليه، وكأنه يحاول أنْ يتذكَّر الإحساس ببشرتها على يديه ويســـتثيره. ولكنه لم يفلح في ذلك. فالأصابع هي أصابع.

«إنها لا تحتاجني»، - أدرك ساشـــا فجأة واستمع إلى نفسه. كان ثمة شـــعور بالهدوء في داخله، وبالمـــرارة، كذلك. أجل، ولكن تلك المرارة كانت خفيفة، مثـــل حثالة الدواء المتبقية في قاع القدح.

وإضافة لذلك كان ثمة حرقة في فم المعدة خفيفة ومزعجة.

«يانا... أنتِ - ضفيرة قلبي»، قال ساشـــا ما لم يستطع هو نفسه فهمه.

«لماذا تفعلين هذا؟» - سألها.

«إنكَ ذاهب إلى نيغاتيف»، - زجر نفسه. وهزَّ أصابعه.

«أعرف. إني ذاهب».

«ربما، يُسجَن نيغاتيف».

«أعرف. ربما يُسجَن».

عرف ساشـــا أنَّ نيغاتيف سوف يوافق. لطالما استولت على نيغاتيف الرغبة في أنْ ينتمي إلى تشـــكيل ما وأنْ يقوم بغرائب الأفعال الفاحشة.

نيغاتيف بالذات كان يفتقد تماماً لرومانســـية الشباب تلك غـــير المعقولة دائماً، وكان يتصوّر بشـــكل جيد أنها... لا بأس، دعنا نسميها - الاسترقاق. ولنسميها أيضاً - الحرمان.

ساشـــا أيضاً لـــم يَخَف الســـجن: لقد عرف ذلك بشـــكل شبه مؤكد.

في كل مـــكان كان ثمة أنـــاس، وفي كل مكان عاش أناس، وكان ساشـــا دائماً ما يجد لغة مشتركة معهم، على الرغم من أنه لم يفهمهم في بعض الأحيان. ومع ذلك، عبارة «لم يفهمهم» - ليســـت صحيحة تماماً. فقد بدوا له غريبي الأطوار أو حمقى أو غير مناسبين، وفي أغلب الأحيان - كانت مسوغات الكثير من أفعال الناس تافهةً. ولكن ساشـــا اعتاد على عدم إبداء دهشته وانفعاله ولم يتطلب من الناس الكثير.

كان هادئاً إلى حد مـــا وعدوانياً بقدر مـــا، محروماً من رقة المشاعر وغير مُدَلَّل.

«سأصمد في السجن»، - قال ساشا لنفسه بهدوء.

وهو يصعد إلى شــقة نيغاتيف، قرر أنْ يتحدث مع ماتفي، الذي شغل الآن محل كوســتينكو في الحزب، ويقترح عليه أن يذهب هو، ساشا، مهما يكن الأمر. ربما، يعرف ماتفي ما الذي يجب أنْ يُفعَل. ويدع ماتفي يقرر.

رنَّ ساشــا جرس الباب. على الرغم مــن حقيقة أن المنزل كان متداعياً وقديماً وآيلاً إلى السقوط، ومعظمهم الناس الذين يعيشــون فيه هم مِن المدمنين والذين لا يراعون أيَّ شيء فيه، إلّا أنَّ نيغاتيــف كان لديه باب متين والجرس فيه شــغال. وفي الشقة نفسها، بالطبع، تبدو الفاقة واضحة، وساشا يعرف هذا، ولكنها فاقة نظيفة.

- مَن؟ - سأل صوت شاب.

«إنه بوزاتيف»، - عرف ساشــكا من خــلال الصوت أنه أخو نيغاتيف الأصغــر. النَّصاب المرح، حصل على لقبه مقابل شــقيقه الأكبر. يناديه «الاتحاديون» باسم بوزيك.

- أنا، تيشين.

فُتِح الباب، فرأى ساشا وجهاً مبتسماً خبيثاً.

- الله أكبر، - رحَّب بوزيك بساشا.

- مرحباً، يا بوزيك. هــل نيغاتيف في المنزل؟ هل يمكنني الدخول إلى منزلكم؟

خلع ساشا حذاءه، ونظر إلى أقرب غرفة، ولم ير أحداً.

- وأمك؟ - سأل ساشا لسبب ما بهمس.

- هي في المناوبة الليلة... - أجـاب بوزيك. - وهو في الغرفة الثانية، اذهب إليه.

كان نيغاتيف يسقي الزهور.

عرف ساشـا بحب نيغاتيف الكئيب للزهـور، ولكن ما يـزال، في كل مرة يندهش مـن ذلك. كان لديـه العديد من الزهور، وضِعَت في سـنادين (أُصـص) في كلتا الغرفتين وفي الشرفة أيضـاً. نمت جميع الزهور نمواً وافـراً. تلك التي كان من المفترض أن تُزهِر أزهرت في الوقت المناسب، وإذا كان ثمة تأخير، فذلك يحدث لمجرد أنَّ بوزيك يرغب أن يزعج شـقيقه فيسـقي بعض الزهور بشكل دوري بالشـامبو الممزوج، على سبيل المثال، مع البول والخل والساموغون.

لم يتذكر نيغاتيف أسماء الزهور الحقيقية، بما في ذلك الأسماء باللغة اللاتينية، أو بالأحرى، لم يعرفها أبداً، لذلك، اسـتعمل الأسـماء المسـتعارة التي أطلقها على الأزهار شقيقه الأصغر الفخور بالاختراعات.

أجل، كان نيغاتيف يسكب الماء على أُصص الزهور ومن ثم يضغط الأزهار بلطف بإصبعين على سيقانها الخضراء والخشنة، المنتفخة أو الرقيقة ويهمس بشيء.

- مرحبـاً، يا نيغاتيف! ما زلت تزرع الحشـيش؟ - حاول ساشا بالمزاح أن يلطّف حميمية ما رآه بالصدفة.

التفتَ نيغاتيف مكتئباً كالعادة. لم يقل شيئاً واستمر بالسقي ولكن الآن بصمت.

جلس ساشا على الأريكة. كانت رؤية نيغاتيف دائماً تسعده. كان نيغاتيف ثابتاً مثـــل الزلط. على الرغم من أنَّ الآن لا شيء يسر ساشا. ألقى نظرة خاطفة على ظهر نيغاتيف الثقيل مشوبة بنوع من الشفقة عليه.

- أريد أنْ أتحدث معك، - قال ساشا.

- بمسألة جدية؟

- نعم.

- ولماذا جلست؟ هل ستتحدث هنا؟

تأهّبا بسرعة وخرجا إلى الشارع. أراد بوزيك أنْ يصاحبهما، ولكـــن نيغاتيف أبعـــده - بصوت منخفــض، ببضع كلمات محتشمة واضحة.

- إلى أين ذهب الجميع؟ - ســـأل نيغاتيف، وهو يعني، كما فهم ساشا، روغوف وفينيا.

- لقـــد غـــادرا في اتجاه، وأنـــا في الاتجاه الآخـــر. كنتُ في موسكو. إنهم يبحثون هناك عن رجل للعمل. وقد يُسجَن المرء من جرّاء هذا العمل. الســـجن شـــبه مؤكد. علاوة على ذلك، يبدو أنَّ العمل يُدار ليس هنا. ليس في روسيا، - قال ساشا على الفور، حتى لا يُطيل، ولا يحتاج إلى أنْ يجبر نفسه على الأقل على التحدث ببطء.

- لا بأس، أخيراً، - قال نيغاتيف ببساطة.

كان يحمل غُصَيْناً وسكين مطواة. ويبري الغصين بالسكين بحركات قصيرة ودقيقة. لاحظ ساشا أنّ الغصن جافٌّ ومُلتَقَطٌ من الأرض. فنيغاتيف لن يكسر غصن شجرة حية.

- ماذا تقصد بـ «أخيراً»؟ - سأل ساشا.

- أخيراً، قرروا أنْ يبدؤوا العمل. متى سنذهب؟

- متى تستطيع أنت؟

- أنا أستطيع بعد ثلاث دقائق.

بدأ ساشا يتردد. كان على وشك العودة إلى المنزل. ربما، يرى والدته. لم يقصد الذهاب بهذه السرعة. غداً، أراد صباح الغد.

«ولماذا العودة إلى المنزل؟ هل تريد أنْ تسمم أعصاب أمك؟»

نظر ساشا إلى ساعته.

«إذا ذهبنا سيراً على الأقدام إلى المحطة، يمكننا اللحاق بسهولة بقطار الساعة الثانية»، - فكر ساشا وكرر تفكيره بصوت عالٍ. فأومأ نيغاتيف برأسه.

بعد ثلاث دقائق تقريباً خرج نيغاتيف مع بوزيك. كان بوزيك جدياً ليس كعادته.

- أخبر والدتي أنني ذاهب إلى موسكو للعمل وكسب المال، - قال نيغاتيف.

- والحقيقة؟ - قال بوزيك مرتاباً.

- الحقيقة، أنّني ســأذهب إلى العمل في بطرســبرغ... هل تفهــم كل شيء؟ يجب أنْ تدرس - هــذه واحدة. ولا تدخن - هذه الثانية. وتســقي النباتات - الثالثــة. إذا دمرت نباتاتي فسأقطع أذنك عندما أعود.

- حسناً! لقد فهمت. يعيش الناس حتى من دون آذان.

- هذا صحيح، ستكون مثل الناس.

لقد تحدثا بجدية شديدة ومن دون أنْ يبتسما بأعينهما، وحتى ساشا لم يرغب بالابتسام.

- هيا، يا بوزيك، إلى هنا يكفي. اذهب إلى المنزل! - صافح نيغاتيف يد أخيه، وربَّتَ على كتفه، وبعد أنْ استدار فجأة مشى مشية خفيفة وقوية.

مدّ ساشــا يده إلى بوزيك، فقبِل بوزيك المصافحة من دون أنْ ينظر إلى ساشــا، بل صوَّب بصره إلى ظهر شــقيقه الأكبر. فالتفت ساشا وركض ليلحق بنيغاتيف.

«الآن ســأجلس في القطار مرة أخــرى. كم سرتُ في هذا الطريق..».

- ربما، إنني في أسبوع، طرقتُ هذا الدرب بما يعادل مسافة الســفر إلى جميع أنحاء أوروبــا ذهاباً وإياباً... - قال ساشــا لنيغاتيف. لمجرد الرغبة في أنْ يقول شيئاً ما على الأقل.

لم يردَّ عليه نيغاتيف.

- الذهاب إلى موسكو بالنسبة لي صار مثل الذهاب إلى متجر بيع الخبز، - قال ساشا كما لو كان لنفسه. - لا أتذكر عدد الرحلات هذا الأسبوع. لقد دفعتُ جميع ما لديَّ من نقود ثمناً لتذاكر السفر.

- لقد أخذتُ ما في حصالة بوزيك من نقود، - ردَّ عليه نيغاتيف، - كان يدّخر النقود ليشتري لنفسه سترة وحذاءً عسكرياً رياضياً.

- سنجد حلاً ما، يا نيغا. سنحصل على نقود لبوزيك.

أراد ساشا أن يلمس نيغاتيف من كتفه، لكنه غير رأيه. قام بحركة صغيرة بيده وقطع الإيماءة. لكن نيغاتيف لاحظ ذلك.

أدرك ساشا ذلك عن طريق تغيير نغمة صمت رفيقه. فقد انتابَ الصمتَ وجومٌ.

- لا تتعاطف معي، وإلا سأشعر حتى أنا بالأسف على نفسي، - قال نيغاتيف، بعد مدة من الصمت.

كان صوت نيغاتيف يوحي بأنه من الصعب تصديق ما إنْ يعرف كيف يأسى على نفسه بشكل جدي وحسّاس. إنه صوت نيغاتيف المعتاد.

استقبلهما في المحطة شرطيّان بنظراتهما الثقيلة. أوقفاهما وطلبا وثائقهما الثبوتية. ونظرا طويلاً إلى هوياتهما الشخصية، وهما يرفعان أعينهما للتحقق من الصورة والأصل.

- إلى أين تذهبان؟ - سأل أحدهما بنبرة غير ودية - بالنغمة التي يتحدث بها أفراد الشرطة الروسية، كما لو كان كل شخص يصادفونه وغداً عن سابق تعمّدٍ وإصرار.

أراد ساشا أن يجيب: «وماذا يعني هذا الأمر بالنسبة لك؟»

- لقد اشتقتُ إلى جدّتي فجأة، فقررت أنْ أسافر لها، - قال ساشا. - مع صديقي.

ثبّت الشرطي نظره إلى ساشا، وكان وجه حارس النظام والقانون حالكاً، وبالمناسبة، لم يكن غبياً على الإطلاق، سوى أنه لم تختلج فيه عضلة واحدة، وهذا كل شيء. أعطى ساشا أوراقه الثبوتية واستدار. والثاني أيضاً أعطى وثائق نيغاتيف.

اشتريا التذاكر. وجعلا يدخّنان على رصيف المحطة. ثم دخّنا مرة أخرى. لقد دخّنا لمدة طويلة وهما صامتين. ومع ذلك، كان نيغاتيف صامتاً في كثير من الأحيان. وهذا لم يكن يعني أي شيء.

- كيف هي موسكو هناك؟ - سأل أخيراً.

ودارَ الكلام، بالطبع، عن الحزب.

كان ساشا هو الذي يتحدث.

في القطار، استقرّا على الرفوف العلوية، التي طلباها لنفسيهما عند شراء التذاكر. وبالطبع، لم يأخذا شراشف. فحتى مِن دونها المكان رائع جداً. استدار نيغاتيف، وعلى ما يبدو، قد نام.

عانى ساشا من الأرق. اضطجع بعينَينِ مغمضَتَين وفكَّر - مثل أي شخص، يقاطع نفسه بنفســه، ويقفز من موضوع إلى آخر.

«نيغاتيف ليس لديه أب. ستضطر والدته وحدها إلى تربية بوزيك...

أما بوزيك فهو سيد نفسه.

وبشكل عام، ماذا تفعل أنت، أتدفن نيغاتيف. أنت نفسك، تستطيع الذهاب بدلاً عنه...

أنت أيضاً ليس لديك أب. ولكن ليس لديك بوزيك أيضاً. ولا أيّ قذارة...

... الأولاد الذين ينمون بلا أب، يبحثون عن أولئك الذين يحتاجون إليهم كأبناء. ونحن - الذين بلا آباء نبحث عمّا يحتاجنا كأبناء...

أنت تكذب. يوجد كذلك «اتحاديون» لديهم آباء. لكنهم لا يحتاجون إلى الآباء... لأنَّ - أيّ نوع من الآباء... هؤلاء ليسوا آباء. لذلك، أنا لا أكذب.

وماذا عن الأمهات؟

ومــاذا عن الأمهــات؟ إنهنَّ يعرفن فقط أنهــن بحاجة إلى الأبناء في المنزل..».

«إذا كنتِ تحبينني - لا تتدخّلي...» - قال لوالدته ذات مرة. لكنها تدخلت. فكفَّ عن إخبارها بأي شيء، وأخفى كل شيء عنها تقريباً. لكنها كانت بالطبع تخمِّن.

«لم أذهب إلى والدتي، اللعنة، كان علـــيّ أن أذهب على أيّ حال. فهي هناك بمفردها... من دون أبي.

ولكن، يا ترى، هل لدى يانا أب؟

ما الفرق بالنسبة لك، يا عفريت الغابة؟

كلا، الفرق مهم. إنها جاءت من مكان ما في إحدى المحافظات. تزعم أنها جاءت من أجل الدراســة. والآن، هاك، انظر... فلربما، يُحكَم عليها وتُسجَن. كيف لا تخاف؟ إنها... رقيقة. من أين جاءها هذا كله، هذا الشغف للمشي في التظاهرات، في مقدمة الصفوف، وأعلامنا هذه، وحَنَقنا هذا...

إن حنقَنا أزعج بيزليتوف للغاية.

لقد ضحيتم بروسيا من أجل خيبة أملكم، يا أليكسي..».

بدأ ساشـــا يتحدَّث ذهنياً مع بيزليتوف، وطالما فعل ذلك، فإذا لم يتمكن من النوم كان يتجادل مع شخص ما. ومع ذلك، ليس بحماس. حتى في الحلم كان كسولاً في الجدال.

«لقد ضحيتم ببلدي من أجل خيبة أملكم...

... بالنســبة لكم، لم يعد لروســيا معنى عرقي، ناهيك عن المعنى المكاني... لقــد جُنِنتم وتمرَّغتم في «تجربتكم الروحية» - ولا تتحدثون ســوى عنها. لكن الشيء الأساسي في سلوككم ليس عمليات البحث الخاصة بكم ولا فهمكم القاصر للخير، الذي تخونونه بكل ســهولة، ما أنْ يبدأ الكلام عن فهم مختلف

للوجود - ومع ذلك، الأولوية لخيبة أملكم، التي داهمتكم منذ وقت ليس ببعيد وسحقتكم.

والآن أنتم تطالبون الشعب كله أنْ يتوب من فعلته ويطلب الغفـــران، وكأنَّ هذا سيشـــفي كآبتكم الجهنمية بســـبب ما لم تفعلوه.

ولكن، ربما، لا يميل الإنسان الروسي على الإطلاق إلى التوبة... وحسنٌ أنه لا يميل إلى ذلك، وإلا لكان قد حطّم كل شيء.

... ولكن هلّا كنّا على الأقل قادرين على الاعتراف بأصغر أخطائنا؟»

«وأنت؟»

«وأنا؟»

ضجَّ القطار ضجيجاً خفيفاً وجعله يتمايل.

غفا ساشا قرب حلول الصباح، عندما بدأ الركاب المتورمون قليلاً يجـــررّون أرجلهـــم ببـــطء إلى المرحاض ويعـــودون منه ملامسين ســـاقَيه. فحاول ساشا أنْ يجرّ ركبتيه إلى بطنه، ولكن لم يسعه المكان لكي يلتوي.

دفعه نيغاتيف في كتفه وقال له:

- انهض.

كان المخبأ دائماً صاخباً وممتعاً. إنه يشـــبه في الوقت نفســـه مدرســـة داخلية ومرســـم فنان مجنون ومقر أركان عســـكرياً للبرابرة الذين قرروا أن يذهبوا إلى الحرب في أي مكان.

أقامت هنا فتيات اقترن في وجوههن الاشـمئزاز من العالم المحيط مع الإحساس المرهف بذلك العالم نفسه. ومن الغريب أنَّ هذا كان طبيعيّاً.

بدت الفتيات لساشا إما جميلات جداً أو قبيحات تماماً.

كان ثمـة العديد من الشـبّان الذين حلقوا شـعرهم بكل طريقة ممكنة - إما لا يتركـون أيّ شيء ينمو على الإطلاق، أو يتركون كشـة نازلة على الجبين أو عرفاً، أو أحياناً حتى أقراط غريبة على أذنيهم. ومع ذلك، يوجد شـباب غير متوقعين تماماً بتصفيفات شعر لا تشوبها شائبة، وفي سترات ممتازة، وكذلك فتيان عاملون بسيطون ذوو وجوه بسيطة.

اعتادوا جميعهم على العيش معاً بسرعة ولم يعودوا يُدهِشون بعضهم بعضاً بأي شيء. لا بالشَّعر ولا بالسترات ولا باللهجة المحلية.

عرف ساشـا الكثيرين منهم ورأى الجميع تقريباً سـابقاً، ولم يعد يسـيئه شيء مـن مدة طويلـة: أدرك بسرعة أنَّ جميع «الاتحاديين» تقريباً - أولاد طيبون. في البداية وقبل كل شيء، بحقيقة أنهم يمكن أنْ يتعرضوا بسـهولة إلى المشاكل، بل إلى الكثير من المشـاكل، وفي النهاية - لابد أنْ يضحوا بأنفسهم ويخرجـوا بأضلاع مكـسرة وكُلْيات مرضوضـة ورؤوس محطمة.

لقد تعهدوا كلهم بتحمّل المسؤولية عن الجميع - في الوقت الذي أصبح فيه هذا الأمر مثالاً سيئاً: أن تكون مسؤولاً عن شخص ما إلى جانب مسؤوليتك عن نفسك.

«هؤلاء هم أفضل الناس على وجه الأرض»، - قال ساشا لنفسه منذ مدة طويلة وأغلق الموضوع. والحقيقة أنه حاول أنْ يثبت ذلك لوالدته بطريقة أو بأخرى، لكنها لم تصدق ذلك.

عندما دخل المخبأ، صافح عدداً من المعارف، وعانق بعضاً منهم. نظر نيغاتيف نظرة كئيبة إلى قاطني المخبأ - إنهم، بالطبع، قد أثاروا انزعاجه. كان يفضل أن يسير «الاتحاديون» كلهم صامتين، أو على الأقل من دون أنْ يصرخوا أو يقهقهوا - وأنْ يرتدوا الملابس العادية بلا هذه السترات المبرومة أو البدلات السوداء وحتى ألّا يدخنوا في الغرفة، وأن يكنسوا الأرضية ويصلحوا المقاعد... ولو كان الأمر بيده لأصلحها بنفسه على الفور...

جاء كوستيا صولوفي - وهو الشخص الذي كان يلوح بسلسلة في وسط موسكو، ذو العينين الشرهتين والفم الساطع، وعلاوة على ذلك ترافقه «اتحادية» مليحة كان يمسِّد على ظهرها من دون خجل.

- يجب أن يكون لدى عضو الحزب أكبر عدد ممكن من النساء، - أوضح لها بنغمة ناعمة ولكن مُقنِعَة. - يجب على عضو الحزب أولاً أن يقدم نفسه لأفضل النساء. يجب على

عضو الحزب التحرش بجميع النســاء، لأنه، ربما، غداً يُقتَل في الجبهة. إذا ما قابل عضو الحزب امرأة مرتين أو أكثر، يجب عليه أن يضربها. من الناحية المثالية - حالة ضرب واحدة لكل عشر حالات جماع. يحق لعضـــو الحزب أن يقتل المرأة التي لا تفهمه والتي تريد منه شيئاً معيَّناً باستمرار.

كانت الفتاة تضحك. غمز صولوفي لساشـــا بعينه ومر من جانبه ولكن في اللحظة الأخيرة دفع الفتاة بمكر إلى ساشا قائلاً بصوت واضح:

- يُشترَط على عضو الحزب أن يطلب من المرأة القيام بأفعال فاسدة مع رفاقه في الحزب.

- أحمق على الإطــلاق! - تظاهرت الفتــاة بالانزعاج من صولوفي وابتعدت عن ساشا، الذي تمكن من أنْ يجسّ جسدها المرن واللين.

خـــرج من المرحـــاض، الذي يقـــع مباشرة مقابـــل الباب الأمامي، فتى طويل القامة ذو عينين ســاخرتَين. ومسح يديه المبللتين، للتو على ما يبدو، بسرواله.

- المرحـــاض ينقّع. المرحاض ينقّع[1]. بـــولي نقع (قُتِلَ) في المرحاض. إنـــه مليء بالرطوبة، - قال بصوت قريب إلى حد ما من صوت الإنسان الذي يســـير في نومه، ويشبه صوت رئيس البلاد إلى درجة تثير الدهشة.

(1) هنا لعب بالكلمات، لأنَّ الفعل موتشيت يعني بلَّلَ ونقَّع وله استعمال عامّي بمعنى قتل. (المترجم).

- هل ماتفي موجود هنا؟ - ســأل ساشا الشخصَ المناوب في المخبأ.

فردّوا عليه، بنعم هنا.

خرج ماتفي من الغرفة التي أطلق عليها «الاتحاديّون» اسم «المقدسة» - وهي الغرفة التي كان يعمل فيها كوستينكو الذي لا يعرف الكلل. والآن يثابر فيها ماتفي من الصباح حتى الليل لصالح الحزب.

إنه قصير ونحيف ذو لحية صغيرة، وعينان جميلتان شبيهتان بالعيون المرسومة في الأيقونات وابتسامة جذّابة كابتسامة كاهن شابّ ودود.

أحبه «الاتحاديّون» وقلّده الكثــيرون منهم - وعَلُقَت بهم بشــكل غير ملحوظ كلمات ماتفي وإيماءاتــه الهادئة ونغمات صوته الناعمة - والآن ها هو ساشــا يلحظ في هذا أو ذاك من «الاتحاديين» عادة التحدث مثل ماتفي بسحر لا يمكن تفسيره عندما يوافق على شيء: «لا بأس، نعم، حسناً...»، - أو ارتداء معطف قصير أسود أو رمادياً دائماً تقريباً مفكوك الأزرار...

عندما رأى ماتفي الأولاد أومأ برأســه لهم - إيماءة جدية، كما لو كان يقول: «لا بأس، نعم، نعم، أفهم، لماذا أتيتم. حسنٌ، أنكم هنا».

- ساشا، مرحباً، - صافح ماتفي ساشا بيده القوية والجافة. ورحَّب بنيغاتيف عندما قدَّمه ساشا.

- لنخرج إلى الشارع، - اقترح ماتفي.

سلَّم ماتفي هاتفه الخلوي للمناوب وسأل عمّا إذا كان لدى ساشا ونيغاتيف أيَّ هواتف جوالة - فلم يكن لديهما. الهواتف «المفقودة» يستخدمها ضبّاط المتابعة للتنصت - الجميع على علم بذلك.

- تعرفون أنَّ الكثيرين مهتمون جداً بما نتحدث عنه... - قال ماتفي، وهو يفحص شيئاً في جيوبه. - دعونا نخرج إلى الشارع، أليس كذلك؟ سنتشاور هناك. الآن، سنأخذ فقط يانا.

كانت يانا أيضاً في «الغرفة المقدسة»، خرجت من دون أنْ تبتسم، وحتى لم تنظر إلى نيغاتيف، أومأت برأسها لساشا، فردَّ عليها، بعد أنْ أغمض عينيه جزئيّاً فحسب وأبقاهما هكذا لمدة أطول قليلاً مما يفعل المرء عندما يغمز بعينيه. وحاول ألّا يفكر في أي شيء وفعلاً لم يفكر في أي شيء.

ساروا لمدة طويلة عبر الأفنية - إلى مكان معروف لماتفي، ربما هو نفسه عثر عليه مؤخراً، وهو يسير في الطريق إلى المخبأ من خلال أفنية العاصمة. وصلوا إلى تعريشة في حديقة، وجلسوا الأربعة كلهم، اثنين مقابل اثنين، وبدؤوا يدخنون - كلهم ما عدا نيغاتيف.

- هكذا نبقى ندعوك - نيغاتيف؟ - سأل ماتفي.

أومأ نيغاتيف برأسه.

أشعل ماتفي سيجارة وقال إنَّ نيغاتيف سيُسجَن.

- هل أنت مستعد؟ - سأل.

- أنا مستعد، - رد نيغاتيف ببساطة.

سيتوجب عليك الذهاب إلى دول البلطيق. وتقوم بسحب مكبح الطوارئ في قطار بطرسبورغ - كالينينغراد. إنه يمر عبر لاتفيا. وبعد أن تسحب مكبح الطوارئ تقفز من القطار في أراضي ذلك البلد. في مكان ما في داوغافبيلس[1]. وتسير في طريقك إلى ريغا. «ستكون لديك النقود اللازمة للمواصلات. وهناك تسير قطارات الضواحي الصباحية. سيلتقي بك أحدهم في ريغا. على هذا العنوان». أعطى ماتفي ورقة إلى نيغاتيف وقال إنه يجب أنْ يرمي هذه الورقة بعد خمس دقائق تقريباً. «هل ذاكرتك جيدة؟»

- سوف أتذكر، - أجاب نيغاتيف وهو ينظر إلى العنوان على ضوء ولاعة ساشا التي أخذها من الطاولة.

في ريغا سيكون من الضروري القيام بكل شيء بسرعة كبيرة. الهدف: الاستيلاء على شرفة المشاهدة لبرج الساحة المركزية للمدينة. والتحصّن هناك. فقريباً سيحل يوم 9 مايو (أيار) (عيد النصر)، حرّكت شرطتهم السرية القذرة أكثر من مائة قضية جنائية ضد قدامى المحاربين الروس في الحرب العالمية الثانية الذين يعيشون في هذه الدولة البلطيقية

(1) داوغافبيلس - ثاني أكبر مدينة في لاتفيا. تبعد 230 كم جنوب شرق العاصمة اللاتفية ريغا على ضفاف نهر داوغافا. (المترجم).

المغرورة. «يسعون لذلك قرب حلول العيد»، - قال ماتفي. وقد سُجِن عدد كبير منهم بوصفهم «محتلين سابقين». توفي بعض المسنين في السجن. من الضروري إثارة جلبة وهرج ومرج هناك، مباشرة في وسط ريغا، وانتظار وصول الصحفيين، ويفضل الصحفيون الأوروبيون، المطالبة بإيقاف هذه الفوضى. لن يفعل أحد شيئاً سوى «الاتحاديين».

«سيعيَّن كل شيء في محله - التوقيتات والأساليب وغيرها»، - قال ماتفي. ونظر إلى نيغاتيف، وكأنه يسأل: «ماذا، هل كل شيء واضح، يا عزيزي؟ - فأومأ نيغاتيف برأسه رداً عليه: «كل شيء واضح».

- يا ماتفي، ألا أنفع أنا بأي شكل من الأشكال في هذه القضية؟ كان بودي... - قال ساشا عندما أدرك فجأة أنه كان عليه أن يسأل قبل هذا الوقت، أما بعد أنْ جاؤوا إلى هنا، فبدا الأمر سخيفاً: لماذا التخبط السابق لأوانه.

عندما بدأ ساشا يتحدث، التفت إليه نيغاتيف وحدق فيه بقسوة. لم يستجب ساشا له لأنه كان ينظر إلى ماتفي.

- ليس ثمة حاجة لك في هذه القضية، - أجاب ماتفي من دون عاطفة. - نحتاج إليك في مسألة أخرى. هيا نذهب، لشرب بعض الشاي؟ - سأل من دون توقّف، وبنغمة أكثر لطَفاً.

وصلوا إلى المقهى مبتهجين بشكل غير متوقع - وفي الطريق بدأ ماتفي يتحدث بشيء ما عـن حيلة جديدة لـ«الاتحاديين»، كان الحديث مضحكاً للغاية، وقـد ضحكت يانا عدة مرات، وحتى نيغاتيف ابتسم.

حـول كيفية لصـق «الاتحاديـون» المنشـورات المناهضة للحكومة على الأعمـدة، بعد أنْ وقفوا عـلى أكتاف بعضهم بعضـاً - اتضح أنهـم لصقوها عالياً جداً فـكان من الصعب جـداً تمزيقها. وفي الصبـاح، تراكض رجـال شرطة خائفين حول الأعمدة لا يعرفون ماذا يفعلـون. فهُم على كل حال لا يستطيعون أنْ يقفوا على أكتاف بعضهم بعضاً بالزي الرسمي. حتـى عثروا على درج... وسـاروا مع هذا الـدرج على طول الطريق السريع بأكمله... إلى أنْ اسـتقدموا بعد سـاعة بعض البطالين المتسكعين من موقف الاحتجاز المؤقّت - وأجبروهم على تمزيقها.

في البداية، لم يرُق لساشـا هذا المرح، ثـم فكّر: «ربما، هذا أفضل. ماذا جرى لـك، هل كان عليـك الذهاب مع وجوه مملة؟.».

من الواضح أنَّ ماتفي أحبَّ الطريقة التي تفاعل بها نيغاتيف مع الحديث، كما أُعجِبَ ماتفي بنيغاتيف.

لم يسـتطع ساشـا أنْ يخمِّن كيف بدا نيغاتيـف ليانا. وفجأة اعتقد أنَّ الأمر بالنسـبة لها سـيان وأنّها لا تشعر بالأسى على أي

شـخص. «ربما هكذا حتى أفضل، - وكـرر مرة أخرى، - فعلاً هكذا أفضل. إنها ليسـت ممرضة من أخوات الرحمة... ربما، هي تنام مع ماتفي؟ - فكر ساشـا. ولكن بدت له الفكرة مسـتبعَدة بشكل غريب، وقاسية. - تنام أو لا تنام - الأمر بالنسبة لي سيان، فأنا أريد رؤيتها فحسب. وأنْ أُمسِّد على أصابعها الرقيقة في بعض الأحيان... كلا، في أغلب الأحيان».

لم يكن ثمة أحد تقريباً في المقهى، سوى رجل يجلس وظهره باتجاه المخرَج. فنظر ماتفـي بعناية إلى هذا الظهر وبدا كأنَّه سُرَّ لذلك.

أمر ماتفي للجميع شـاياً وسندويشات. فجلسوا، وجعلوا يمضغون بشـهية، وتحدث ماتفي عن الكيفية التي يعيش فيها «الاتحاديّون» في جميع أنحاء البلاد.

اعتاد أعضاء الحزب على أنْ يعيشوا ويتكاثروا مثل البكتيريا في كل مكان - في التايغا وفي التندرا وفي السـهوب... كان من بين «الاتحاديـين» مَنْ هم ضيقو العيون للغاية وسـود البشرة وكان بينهم شيشانيون ويهود.

- لدينا المتحدث الجديد باسـم الحزب - يهودي، اسـمه ياشـا، - قال ماتفي. - أمه تتصل به طوال الوقت، وتقول له شـيئاً، فيجيبها، - وهنا قلَّدَ ماتفي الخطـاب اليهودي تقليداً جيِداً، -... فيجيبها: «ماما، أي يهودي أنا. لو كنت يهودياً، هل قبعتُ هنا؟»

... ومن بــين «الاتحاديين» كان هناك أفــراد رائعون مثل: قباطين البحر وأتباع الكريشناوية[1] السابقون، وأليفو السجون من أصحاب السوابق وحتى أحد رواد الفضاء كان حاضراً.

سأل ساشا عن كوســتينكو، وعن كيفية سير قضيته، فقال ماتفي إنَّ القائد غاضب ويكتب رسائل غاضبة، ولكن عزيمته لم تنكــسر، يُنَظِّم الجميع هناك في الزنزانة، تأقلم بسرعة ويحظى بالاحترام في السجن... «الأخبار لا تأتي من القائد فحسب، - قال ماتفي، - الوسط الإجرامي يعامله معاملة حسنة..».

كان ساشــا يفكر أحياناً في كوستينكو، محاولاً أنْ يفهم هذا الشخص الغريب والعدواني والذكي جداً.

كوستينكو (لاحظ ساشا ذلك منذ زمن طويل) يحب كلمة «رائع» وكلمة «فظيع». وغالباً ما يســتخدمها. وكأنه يرسم - بلطخات زاهية. العالم يسكنه أناس رائعون أو رعاع فظيعون. يجب اســتبدال السياســة الفظيعة بدولة رائعــة بهيجة - حرة وقوية.

لا يــتردد في التحدث بهذه البســاطة - لأنه لا يمكن لأي شــخص آخــر أنْ يتحدث بطريقــة معقــدة مثلــه: إذا لــزم الأمــر.

أَلَّفَ كوســتينكو عشرةً كاملةً من الكتــب الممتازة - تُرجِمَت وقُرِئت في أوروبا وفي أمريكا، وقد استشــهد بها ماركوس نائب

(1) الكريشناوية - مذهب من أبرز مذاهب الهندوسية. (المترجم).

القائد[1]، ولكنهـما لم يريا بعضهما بعضاً أبداً، هذان الشـخصان اللذان عكّرا الهرج والمرج الثوري على جانبي المحيط.

... وهكـذا، على الرغم من كل ذخيرتـه الثقافية الممتازة، التي يعترف بها الجميع، حتى أعداؤه، باسـتثناء البلهاء تماماً، - وعلى الرغم من سـعة معرفته واطلاعـه وقاموس مفرداته الضخم، كان كوستينكو يميل إلى الكلمات الواضحة والبسيطة التي تحدد على الفور ماهية الشيء.

فكّرَ ساشا في أنَّ كوستينكو يكمن هو وشخصيته في مكان ما بين هذين النعتين - «رائع»، و«فظيع». رجل رائع قادر على القيام بأعمال فظيعة. أجل، هكذا... وقاحة كوستينكو الرائعة وقدرته الفظيعة على العمل. صحيح، هنا كلمة «فظيعة» بالمعنى المجازي... لكنها مناسِبة.

وتذكر ساشا فجأة كم اندهش عندما عثر فجأة (بعد أنْ قرأ كتب كوسـتينكو العدوانية - في بعـض الأحيان عدوانية على نحو ظريف، وفي أحيان أخرى عدوانية بشـكل غير لائق) في المكتبة على قصائد كوسـتينكو الطفولية والعبثية المطبوعة مرة أو مرتين منذ زمن بعيد، ربما قبـل عشرين عاماً. وقد احتوت على رؤية بدائية غير واقعية وبسـيطة للعـالم - كما لو أنَّه طفل

(1) ماركوس نائب القائد والمتحدث الرسمي باسم حركة زاباتيستا. ويشتهر بلقب «المندوب رقم صفر». ولكن بسبب ظهوره القوي يُعَدّ واحداً من أهم قيادات الحركة. هويته الأصلية غير معروفة لكن الحكومة المكسيكية تظن أنَّ اسمه الأصلي رافييل سباستيان بيستا. ماركوس أحد رموز الحركة التحررية في العالم وهناك كثير من الشباب يتخذونه مثلاً أعلى لهم. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

يبلــغ من العمر عاماً واحداً وتعرف عــلى العالم وتعلّم الكلام وإدراك كل ما يراه لأول مرة. وبدا العالم في قصائد كوســتينكو وللدهشة صحيحاً وبدائياً - بالطريقة التي يجب أن يكون بها، أو بالأحرى، كما هو في الحقيقة، - ولكنَّ الآخرين علّمونا عن هذا العالم وقدموه لنا وفسّروه بشــكل غير صحيح. ومنذ ذلك الحين، ونحن ننظر إلى أشياء كثيرة، ولم نفهم معناها أو الغرض منها...

أظهر كوســتينكو في كتبه الفلســفية القدرة الحسنة نفسها لرؤية كل شيء كما لــو كان لأول مرة، ولكن في هذه الكتب لم يتبق سوى القليل من مزاج الطفل... لم يكن فيها ثمة لطف على الإطلاق. وتــراءى فيها في بعض الأحيان شيء ما مثالي، وكأنَّ أمل كوستينكو قد خاب إلى الأبد في لحم البشر، وخاب أمله بما استحقه. كان قادراً على إثبات خيبة أمله.

وربما كان «الاتحاديّون» يحلمون فحســب بتغيير الســلطة القبيحة وغير الأخلاقية والمضللة في البلاد، حاول كوستينكو التفكير في المســتقبل بمائتي عام على الأقل إلى الأمام. وتراءى له هناك شيء مدهِش. أوه، نعم، كدتُ أنســى - ليس مدهشاً، بل - رائعاً وفظيعاً. فقد حاول فهم الخطوط العريضة لهذا.

ماتفي (بنظر ساشــا) كان دنيوياً نوعاً ما أكثر من كوســتينكو - لهذا الســبب التعامل معه أسهل. وهكذا جلسوا جلسة سعيدة وشربوا الشاي، وأمرَ ماتفي للجميع بالطعام.

ثم اعتذر وتأهَّب للمغادر.

وتذكر: «اللعنة، نسيت، أنهم ينتظرونني في المخبأ»، فصدَّقوا بأنَّ أحدهم ينتظره بالفعل.

- ماتفي، هل يمكنني أن أكون معك؟ - سأله نيغاتيف. - لديّ ثمة سؤال بعد.

فأومأ ماتفي برأسه.

- يمكنك بالتأكيد. فأنا أيضاً لم أخبرك بكل شيء بعد.

بقي ساشا ويانا وحدهما.

شعر ساشا أنَّ يانا أرادت أنْ تنهض على أثر ماتفي - لكنها لم ترغب في ترك ساشـا مع كدس كامل من السندويشات، في وضعيه سخيفة للغاية... أو البدء في وضع هذه السندويشات في الجيوب... أو تركها على الطاولة - بعدما أمر بها ماتفي للتو ودفع ثمنها على الفور... وبشكل عام، ارتعشت بشكل لا يكاد يُلاحَظ، بعد أنْ قطعت الحركة، وبقيت جالسـة. قطعت قطعة من لحم الخنزير ومضغتها.

نظر ساشا إلى يديها الممسكَتَين بالكأس، وحتى من دون أنْ يحاول البحث في رأسه ليجد موضوعاً مناسباً، بدأ يتحدث عن كوسـتينكو وعن قدرته على رؤية كل شيء في تباين وفي ألوان زاهية، التي حتى لدى الشباب قد مُحِيَت وبهُتَت.

في البداية اسـتمعت له يانـا بهدوء، ثم انتعشـت لبعض الوقـت، بدا شيء مـرح وطائش وفضـولي في عينيها، ولكن سرعان ما تلاشى.

ربما أراد ساشا أنْ يطرح هذا السؤال - مَن يكون كوستينكو بالنسبة لها، ليانا. وكيف تراءى في عينيها، عيني القطة. فهي قد رأته عن كثب عندما كان يضغط كتفيها الهشين... ثم قالا شيئاً بعد الذي حدث بينهما... بالنسبة للرجال، غالباً ما تعني هذه الكلمات الأولى الكثير... ومع ذلك، في كثير من الأحيان لا معنى لتلك الكلمات تماماً.

لم يستطع ساشا طرح سؤاله. ولهذا جعل يتحدث كثيراً، مقلّباً أفكاره هنا وهناك، ولاحظ أنَّ يانا، على ما يبدو، لم تعد تتابع تماماً تقدم استنتاجاته، ولكن عندما نطق ساشا بكلمات حول رؤية كوستينكو الطفولية قالت فجأة:

- لا أحب الأطفال.

فصمت ساشا.

أخذت يانا شريحة الليمون الموضوعة في قدح الشاي، وبعد أنْ لعقتها، وضيّقت عينيها، امتصتها من دون أنْ تغضّن وجهها.

- لقد سألتَ... - قالت يانا، - كيف أُطلق سراحي بعد المسيرة. لقد رأيتَ قلنسوتي الممزقة. واندهشت... قبضَ عليَّ واحد من شرطة القوات الخاصة. فاقترحت عليه أنْ يتركني. فوافق، هل يمكنك أن تتخيل؟ تسلَّلنا ببساطة إلى مدخل إحدى البنايات لمدة عشر دقائق، ثم عدت إلى المنزل.

نهضت يانا مــن على الطاولة، جلســت وظهرها إلى البار. فوقف ساشــا مقابلها. خطت هي خطوة، وهكذا حدث أنهما صارا وجها لوجه. أخذها ساشــا مــن ذراعيها، من المرفقين، بســهولة، من دون أنْ يعرف بعد ما يمكــن أن يقوله أو يفعله الآن، فاقتربت منه يانا للحظة، وقبّلته بسرعة.

ثم ابتعدا عن بعضهما بعضاً.

- هل يمكنني أنْ أذهب وحدي؟ - طلبت منه بلين تقريباً.

أومأ ساشا برأسه، من دون تفكير، متأثراً ببساطة بصوتها.

خرجت بسرعة وهي تطقطق بكعبيها، فجلس ساشــا إلى الطاولة. كان الليمون ساخناً جداً وحلواً، طعم الليمون مازال في فمه.

لعق ساشا شفتيه ونظر إلى قدح يانا الفارغ، سوى من أوراق الشاي الأسود وحُبَيْبات الليمون.

الفصل السابع

غادر نيغاتيف في الصباح الباكر من اليوم التالي.

- هيا يا نيغا! - قال ساشا.

وقفا بالقرب من المخبأ.

أومأ نيغاتيف برأسه بهدوء وذهب. نظر ساشا إلى الرصيف.

- إلى أين هو ذاهب؟ - سأل أحد «الاتحاديين» باهتمام.

- سوف يعود الآن، - أجاب ساشا من دون أنْ يرفع عينيه.

خرج الخفر المناوب من المخبأ، ونادى على ساشـا، وسلمه هاتفاً محمولاً.

- خذ. أمرت يانا بإعطائه لـك. حتى تكون على تواصل. طلبوا عدم مغادرة موسكو الآن.

هزَّ ساشا كتفيه تجاهلاً وردّ عليه:

- لا بأس.

قضى مدة يومين في المخبأ، اسـتلقى خلالهما طويلاً في غرفة فسـيحة كانت بمثابة غرفة نوم لعـشرات من الناس، ينظر إلى السقف من دون عمل.

رقد «الاتحاديون» جنباً إلى جنب على الأرض مباشرة. وقد عُلِّقَت في الغرفة على الحائط صورة كبيرة لكوستينكو يرتدي فيها الزي العسكري.

كان ساشا أحياناً يسحب الهاتف من جيبه وينظر إليه. أراد، بالطبع، أن يصدق أنَّ يانا هي التي أعطت الهاتف خصيصاً - للاتصال بساشا... ولكي تدعوه إلى مكان ما...

لم يتصل أحد به. لا يانا ولا ماتفي. ولم يسمع شيئاً عن نيغاتيف. لا أحد يعرف أين هو.

وفي الليلة الثالثة استيقظ من قشعريرة غريبة. مشى ليشرب بعض الماء من الصنبور واغتسل ودخَّن سيجارة مع الخفر.

من مكان ما، من داخل «الغرفة المقدسة» خرج كوستيا صولوفي يجّر قدميه جرّاً، عارياً حدّ الخصر، في سروال تحتي أبيض ونظيف، رقيق ولكنه نافر العروق، ولسبب ما بحلمات سوداء وخدش طويل على ظهره الجميل.

- يحق لعضو الحزب استخدام المساحات المكتبية لممارسة الجنس إذا كان يمكن لذلك أن ينتج أطفالاً، - قال للخفر.

وبعد ما يقرب من عشر دقائق طلَّ كوستيا صولوفي مرتدياً ملابسه ويفرّ مفاتيح السيارة في يديه. وقال بثقة:

- يحق لعضو الحزب أنْ يأخذ النساء في نزهة في سيارات الحَزب الحمراء ذات التجميع اليدوي وفي السيارات

الأخرى، ويحق لعضو الحزب عدم العمل والاعتماد على المرأة في إعالتـــه. - وأضاف بعد أنْ فكَّـــر. - إذا كان أحد أعضاء الحزب يعيش مع امــرأة لديها أطفال، يحق له تناول الأطعمة المعَدة للأطفال.

وغادر. فأغلق الخفر الباب خلف كوستيا، وهو يضحك.

وتحدثا عن شيء - ساشا نفسه بدأ الكلام، حتى لا يفكر في نيغاتيف.

حضَّرا الشـــاي. وتبيَّن أنَّ الخفر شـــابّ من بيلاروس جاء إلى موسكو للانضمام إلى «اتحاد المبدعين» - ذو عينين حنونتَين وســـمات وجه صحيحـــة وذو لهجة عذبة وأصواتهـــا بلعومية نوعاً ما. بشـــكل عام، التقى ساشـــا في كثير مـــن الأحيان بين «الاتحاديين» شـــبّاناً طيبين وودودين - بأبسط معنى للكلمة. وبشكل عام، بدوا للناظر، ليسوا ميالين للعدوان...

لماذا كانوا جميعاً غاضبين؟

«كلا، مفهـــوم لماذا» - فكّر ساشـــا. فقـــد كانت للغضب أســـباب عديدة. لكن ما بدا مدهشـــاً هو أنَّ لقاء الأرواح التي تبحث عن الخير استحال إلى زوبعة عنيفة.

فكَّرَ هل يســـتوجِب إخبار الولد البيلاروسي بهذا الأمر، أم لا، لكنه كَسلَ.

لقد تبادلا الكلمات بصوت هادئ، وهما يمزحان ويحتسيان الشاي.

وعندما توجه ساشـــا، قُبَيْل انبــلاج الصباح، إلى النوم مرة أخرى، بقي في رأسه إحســاس دافئ وخفيف من هذا الحوار البسيط، وبهذا الإحساس غفا.

اســتيقظ في مزاج جيد، خرج من الجو الخانق إلى الشارع. وقــف مضيّقاً عينيه. ومدَّ يده إلى جيبه ليُخرِج علبة الســجائر المدعوكة.

فجأة وبسرعة، في بضع دقائق فقط - لم يُسعِف الوقت ساشا حتى لإنهاء السيجارة - هطل المطر، هادئاً ومُخَشخِشَاً بسلاسة، مبهجاً ورقيقاً، وكأنّه صبي يبلغ من العمر أربع سنوات قد مر من أمامه على دراجة.

نقل ساشـــا مقدَّم حذائه في بركة جديدة وتجول وسار على غير هدى.

أفلتَ من الســيارة التي بها الشرطة السرية - أشــار لساشا «الاتحاديون» عليها. فقد شعر ضبّاط المتابعة بالملل.

- يا ترى، هل قضوا الليل كله هنا؟ - فكَّر ساشــا، - إنهم يراقبون، هــل يخرج «الاتحاديون» في الظــلام، أو يذهبون إلى الكرملين على شكل حشد متجهم، مسلحين بالحصى...

سار ساشا لمدة من الوقت من دون أن ينظر إلى أولئك الذين يلاقونه.

انعطــف إلى أحد الأفنية الوثيرة، جلــس على مقعد بعد أنْ نفضَ ذرات المطر من الألواح المصبوغة باللون الأخضر.

بالقرب منه اقتيدت للتجوال ثمة كلاب مُعتنى بها ومهذّبة بشكل غير عادي، من المفترض أن تكون، أفضل من سانكا.

حتى خلال النهار، في ساعات التجوال، كان عدد الكلاب هنا أكثر من عدد الأطفال.

في هذه المدينة، بدا لساشـــا، ثمة عـــدة آلاف من الحيوانات الأليفة التي تعيش بشـــكل أفضل من عدة ملايين من الناس، ليس أفضل مـــن أولئك الكادحـــين الذين يبحثـــون بأيديهم الضخمـــة والصدئة والثقيلـــة في علب القمامـــة، بل حتى من العديد من الآخرين الذين يصادفهم المرء في ضواحي موسكو، ولاســـيما خارج حدودها - من النســـاء اللاتي أنهكهنَّ العمل والرجال الذين شوَّه أجسادهم نمط الحياة والأطفال القذرين الذين يرتدون الأسمال.

دسَّ ساشـــا بصعوبة يده في جيـــب سرواله الجينز، وأخرج مـــا بقي لديه من نقود معدنية. عدّها، فتبيَّن أنها قليلة. لا بأس. مشـــى إلى مقهى ليلي، حيث كانت شـــابة لم تنَم بما فيه الكفاية تقـــف خلف صندوق الدفع، وثمة نادلة جالســـة عند النافذة، متعَبة جداً.

طلب ساشا لنفسه الشاي والليمون. ليمونة كاملة.

وبعد أنْ جلس خلـــف الطاولة، وجعل يدحـــرج الثمرة بيديه وأحياناً يرفعها إلى وجهه. الرائحة جافـــة جداً وحادّة. ليس كتلك التي كانت في قدح يانا. تلك كانت ناعمة ورطبة وساخنة.

رن الهاتف المحمول، الموضوع على الطاولة. لم يسمع ساشا الرنين ولا مرة - لهذا جفلَ. كان رنين الهاتف مثيراً للأعصاب ومقلِّــداً لنمط رنين الهواتف المنزلية الثقيلــة الرجّاجة القديمة التي كانت تُستَعمَل في السنين الغابرة.

التفتت النادلة. فالتقط ساشا الهاتف، وسمع صوت يانا.

- ساشا؟

- نعم، يانا.

- استولى جماعتنا على البرج في ريغا. نيغاتيف هناك. اتصل حالاً. إنهم داخل البرج، وينشرون المنشورات.

بقي ساشا صامتاً.

لم يســتطع أنْ يفرح - كان من الصعب تصور ماذا سيحل بنيغاتيــف لاحقاً، فعاجلاً ســيُعتقَلون كلّهــم. بينما يانا بدت راضية. وإنْ كانت صامتة أيضاً.

قُطِعَت الإشارة.

شرب ساشا الشاي برشفة واحدة وخرج.

ســار على طول الرصيف وهو يمسك الليمونة بإحكام في يده، كما لو كان يرغب في عصرها.

تسكَّع على الجسر، وتوقف لينظر إلى الماء، غير قادرٍ على أنْ يحدِّد مــا إذا كان يجب عليه أنْ يفــرح أو أنْ ينزعج مما حدث. سمع صوت المكابح، ولكن لم يسعفه الوقت أنْ يلحظ بوضوح الرجِلين الضخمين القويَّين بشكل غير طبيعي اللذين لوَيا على الفور يديه ودفعاه في السيارة.

نظر ساشا من النافذة، على أمل أنْ يراه شخص ما، يرى كيف سُحِبَ هو الرجل الطليق، من الشارع الصباحي، بعد أنْ انتُزِعَ من الهواء الدافئ ومن ضجيج حافلات الترولي وتدفق المياه القذرة في النهر. لكنه لم يَرَ سوى الليمونة تتدحرج على الأسفلت.

السيارة، «لادا» العادية، انطلقت بحدّة من مكانها. أدار ساشا رأسه، ونظر من حوله - كلا، فعلاً، لم يلحظ أحد أي شيء، لم يكن ثمة أحد يلاحقهم ببصره.

جلس على الجانبين من ساشا رجلان متجهّمان ذوا جباه متغضِّنَة وكلاهما صغير العينين، ومتشابهان بمظهرهما الكئيب كأنهما أخَوان. كل واحد منهما يزيد على ساشا بخمسين كيلوغراماً. وضغطاه بلحمهما من كلا الجانبين.

الآن فقط، أدرك ساشا أنَّ يديه مقرونتان بالكلبشات. «إنهم يعملون بشكل جيد»، - فكَّر وسأل وهو يعلم مقدماً أنه لن يجيبه أحد:

- من أنتم؟

وفعلاً، لم يرد عليه أحد. السائق فقط ألقى نظرة على مرآة الرؤية الخلفية في جزء من الثانية.

شعر ساشا بالعرق.

«لماذا أخذوني؟ - فكر، محاولاً أنْ يستعد لما ينتظره. - بسبب الشغب؟ ربما، هناك بعض التسجيلات الصورية لي وأنا أكسر

شــيئاً ما... ولكن بطريقة ما، من دواعي الشرف أنْ يأخذوني أنا بالذات... وزيادة على ذلك في الشارع... وهل هناك سبب آخر؟»

كان ساشا متأكداً من أنه كان يتعامل مع «الشرطة السرية». إذ لا أحد غيرهم...

أشعل الرجل الجالس على اليسار سيجارة. فنظر ساشا إليه شزراً. التدخين، أجل، انتابته رغبة شديدة بالتدخين.

حدَّق ساشــا في الاتجاه الآخر، من النافذة، على الرغم من عدم وجــود أي معنى لذلك على أي حــال - فقد كان يعرف المدينة بشــكل سيئ، ولم يكن يعرف ســوى الساحة الحمراء. لكن لم يُنقَل إلى الساحة الحمراء.

ومع هذا نظر ببســاطة إلى الناس وإلى السيارات وحتى إنه غمز لإحدى الفتيات، وهنا صاح الرجل الجالس إلى جنبه:

- ماذا فعلــتَ، أيها الســافل؟ نكّس وجهــك القبيح إلى الأســفل، أيها الجرو المأبون! ســنتعرّض للتقريع بسببك من الصباح الباكر، والآن، سنغتصبك عند وصولنا. استعد لذلك.

نكّس ساشا رأسه، ولكن على ما يبدو لم ينكّسه إلى الأسفل كثيراً كما أراد المتحدث، فتلقى ضربة شديدة بالكوع على رقبته جعلته يُطلِق صوتاً غريباً في حلقه وخمد في اللحظة.

فتح عينيه، اللتين حلَّــت فيهما بدلاً عن البقعة الداكنة بقعةً ورديّة، ثم رأى حذاءً قذراً. فسال الكثير من اللعاب في فمه.

نظــر جانباً فرأى حذاء نظيفاً تماماً، أســود. وكانت إحدى فردَتَي الحــذاء تطرق بعصبيــة. على ما يبدو، كان الشــخص الطارق حريصاً على أنْ يدسَّ هذا الحذاء في أسنان ساشا.

كانت الجلسة غير مريحة.

كبح الســائق الفرامل بشكل مفاجئ وحاد، فاستقام ساشا من الحركة المفاجئة. كانت تبدو وتختفي أمامهم المؤخرة الثقيلة لسيارة «جيب» التي قطعت الطريق على سيارتهم «لادا».

شتم السائقُ، وضرب بقبضته على المنبِّه.

لسبب ما، حاول ساشــا النظر في وجه الجالس على المقعد الأمامي اليمــين - ولكنه لم يفلح في ذلك. انحنى ساشــا مرة أخرى، ليس كثيراً، بل من أجل التظاهر بالانحناء.

أكمل الشخص الجالس على اليسار تدخين السيجارة بعدد قليل من الأنفاس العميقة، وألقى بها من النافذة، ولكن بإخفاق - فأعاد تيار الهواء المتدفق إلى الصالون عقب السيجارة على الفور - فارتطم بطرفه الســاخن على حاجِب المدخن مباشرة. لم يستطع ساشا كبح ابتسامته، وقد لوحظ ذلك.

- ســأغرز عقب الســيجارة في عينك الآن، - قال الرجل المصاب في حاجبه لساشــا. وعثر على عقب السيجارة الداخن بين ساقيه السمينتين ومع ذلك رمى به.

انحنى ساشا إلى الأسفل. بالطبع، لم يُرِد أن يُضرَب.

ارتجَّ جيب ساشا، ثم رنَّ الهاتف.

- هل هذا عندك؟ - سألوه بوقاحة. - هاته، أيها المأبون، أين هو معك؟

- هنا، - قال على عجل، ورفع رأســه قليلاً، وكاد أنْ يلعن نفســه لأنه ردَّ بصوت اعتذاري بليد. لم يكن ينوي أنْ يعتذر أو أنْ يتملَّق، ولكن هذا ما حدث.

هزّوا ساشــا بعنف، وبعد أنْ رفعوا رأســه بقوة من شعره الطويل، وربَّتوا على فخذيه، وجدوا الهاتف المحمول في جيبه. فأخرجوه بعنــف. نظروا إلى الرقم وقطعــوا المكالمة ووضعوا الهاتف عندهم.

«يانا اتصلت»، - فكَّر ساشا.

- ألا تكونوا قد اشتبهتم في التشخيص بيني وبين فرد آخر؟

- سأل في حدود الممكن من التسامح ولكن بكرامة.

- نزّل رأســك، أيها المســخ، - ردَّ عليه الجالس في المقعد الأمامي.

«أخيراً، جاء ذلك الصوت»، - قال ساشا مع نفسه.

«ما لــي أتحدث معهم، اللعنــة، سيقتادونني الآن إليهــم... وسنتحدث هناك...» - فكر مرة أخرى، بغضب مفاجئ.

لم يشعر بالخوف. أراد أن يصلوا عاجلاً.

«اللعنة، لن يقتلوني على كل حال!»

وصلــوا، وأطلقــوا صفّارة المنبّــه، وفُتِحَت لهــم البوابة، وتَدحرجت السيارة بلطف إلى مكان ما في الفناء.

خرج رفاق درب ساشا من السيارة، وبدؤوا يدخنون. بقي جالساً - لم يستدعِه أحد.

- اخرج، أيها القذر. - ناداه أحدهم.

انتابته الرغبة بالرد عليهم بكلمة ما. زحف إلى الخارج وهو صامت، بعد أن تحرك بمؤخرته عبر المقعد. وبعد أنْ خرج رفع رأسه ونظر إلى الشمس.

كانت ثمة جدران من حوله. ونوافذ صغيرة.

دُفِع ساشا في ظهره. فسار خلف ذلك الذي كان جالساً في المقعد الأمامي وهو ينظر إلى قفائه الذي لا يلفت النظر بشيء، وإلى ظهره في البدلة الرمادية.

كاد ساشا أنْ يصطدم بالباب الحديدي الذي دخلوا من خلاله إلى المبنى - فقد تمكن من التشبّث بالباب بقدمه وحشر نفسه. ساروا عبر الطابق الثاني، والثالث. كانت الجدران مطلية بطلاء أخضر... الأبواب خشبية، وعلى أبواب الغرف أرقام، وفي بعض الأماكن أسماء... لم يكن لديه الوقت لقراءة أي شيء بوضوح.

فتح الرجل المكتب بسرعة، فدخل ساشا خلفه، ووقف في وسط المكتب، ينظر مِن حوله.

طاولة وكرسي بذراعين وكرسي عادي... وبضعة كراسي صغيرة إضافية، شمّاعة ثياب، خزانة صغيرة. ونافذة مشبَّكة (ذات حاجز شبكي).

جلس صاحب المكتب (أطلق عليه ساشا على الفور لقب الرصاصي، وعلى الآخرَيْن -المُشَيِّط والشحمي) على الكرسي ذي المساند واستدار نحو الخزانة وأخذ بعض الأوراق وإضبارة وألقى بها على الطاولة. وقرَّب الهاتف وأدار رقماً وقال شيئاً بسرعة، لم يحدده ساشا حرفياً - في ذلك الوقت كان ينظر مِن حوله ويفكر: «إذاً، كل شيء عادي هنا، الأثاث والغلاية والأقداح - من غير المعقول أنْ يعلِّقوني هنا بالفلقة... هذا غير ممكن. أو ربما، ممكن؟ أجل، ممكن. الآن سنرى».

وضعَ الرصاصي سماعة الهاتف. فدخل المُشَيِّط من المكتب المجاور وذلك استناداً إلى صوت غلق الباب الذي سُمِعَ في مكان قريب. ولاحظ ساشا أنه أدار القفل ذا القعقعة الحديدية حتى لا يضايقهم أحد.

فتَّشاه بدقة فائقة.

- اجلس، - قال الرصاصي وهو يلقي نظرة خاطفة على ساشا. عيناه سريعتان وغير واضحتين، وجهه عادي لا يحمل علامة مميّزة، ما إنْ يدير المرء ظهره عنه - حتى ينساه على الفور.

جلس ساشا مائلاً - ما يزال غير قادر على فعل أي شيء في الكلبشات (الأصفاد).

- لماذا هو مصفَّد اليدين؟ - سألَ الرصاصيُّ مستاءً. - انزعها! - أمر المشيِّطَ.

نهض ساشـــا مرة أخرى. أُطلِقَت يداه، ففرك معصميه، - تدفق الدم بفرح في راحَتَي يديه، فشعر بوخزٍ.

- الاســم، اللقب، الكنية، - اتكأ الرصاصي إلى كرســيه وفتح الإضبارة.

ذكر ساشـــا اســمه ولقبه وكنيته، وتاريخ ميــلاده، ومحل الإقامة.

لم يكتـــب الرصاصي أي شيء، وجعـــل ينظر في شيء ما في الإضبارة، متجهماً أحياناً وهو يفرز الأوراق.

جلس المشــيِّط في البداية على الكرسي إلى يســار ساشا، فكان ساشا ينظر إليه شــزراً، بعد أنْ كبح بصعوبة الرغبة في النظر إلى حاجبه - للتحقق إنْ كان عقب الســيجارة قد ترك أثراً أم لا.

ثم نهض المُشــيِّط، وبعد أن لامس ساشــا بكُمِّه مرَّ خلف ظهره - وفي هذا الوقت مال ساشا بقفاه على نحو سيئ.

«لا يريد أيٌّ منهما أنْ يــؤدي دور المحقق الطيب... - فكَّر ساشا بهدوء تقريباً. - كلاهما غبيان غير ودودين».

«الآن سيرحبان بك...» - رد عليه صوت من داخله.

ذهب المشــيِّط إلى النافذة، وفتـــح كوَّة التهوية، وأشـــعل سيجارة ودخَّن.

«يـــا له من ذكر خنزير مخصي، - فكر ساشـــا. - يجلس على الصدر فيسحقه. يا ترى، ماذا يطعمونهم..».

كان واضحاً أنَّ المشيّط في عجلة من أمره وحتى إنه منزعج من الرصاصي لكونه غير مستعجل. كان المُشيّط يسحب أنفاس السيجارة بسرعة وبعمق وينفث الدخان بسرعة وبصوت عالٍ من شفتيه الخشنتين. وفي بعض الأحيان يحدق في قفا الرصاصي.

- لا بأس، - قال الرصاصي، - لدينا القليل من الوقت. الآن ستخبرنا بسرعة عن العملية في لاتفيا. مَن حضَّر لها، وأسماء المنظِّمين، ومِن أين اشتريتم القنابل اليدوية، ومَن أجرى الاتصالات بجماعتكم في لاتفيا، وما إلى ذلك. إذا كنت ترغب في الحفاظ على صحتك، فلا تتأخر. لقد مر الوقت.

نظر إليه ساشا لمدة من الوقت، محاولاً ترتيب ما في رأسه من معلومات مبعثرة ومتناثرة.

«ماذا يمكنني أنْ أقول لهم؟» - سأل ساشا نفسه بصوت واضح غير متوقع، وتوقفت كل هذه الفوضى.

- لا أعرف أي شيء، - قال بحزم.

اقترب منه المشيِّط بسرعة.

- انهض، - قال له.

فنهض ساشا، متوجساً...

- الآن سأضربك هنا، - قال ووكزَ ساشا في صدره بإصبعه السمين. - جاهز؟

ثبَّت ساشا نظره إليه، ولم يجب على أي شيء.

أمسك المشيّط ساشا من كتفيه وضربه ضربة شديدة. كان ساشا سيقع بالتأكيد، لكنهما تمسكا به بقوة.

وقف ساشا فاتحاً فاه وهو يحاول بلع ريقه.

فتح المشيِّط يده اليسرى، فلاحظ ساشا أنه يمسك سيجارة بين أصابعه. ولسبب غير مفهوم لوَّح بها المشيِّط أمام عينَي ساشا، وأخذ نَفَساً عميقاً ونفث الدخان في فم ساشا المفتوح، وهو يلتقط الهواء.

أجلسا ساشا بعد أنْ شبكا يديه بالكلبشات إلى ظهر الكرسي، فلم يعد يتحرك بعد إلّا مع الكرسي.

- حسناً، - قال الرصاصي، - أنا نفسي سأخبرك بأسماء المنظمين. ماتفي. يانا. كوستيل (العكّاز).

- لا أعرف أي كوستيل.

- صحيح. لذلك، ماتفي ويانا.

- لم أقل ذلك.

- كيف لم تقل ذلك؟ قلتَ للتو.

نظر ساشا في زاوية الغرفة، بعد أنْ جمّد حركة فكره، محاولاً بقوة إرادته أنْ يتبلّد وأن يبدو غبياً وصموتاً، غير مستجيب للتنبيهات. وأن يغلق فمه ولا يفكر. ثم آنذاك سيُحسَم كل شيء بطريقة ما.

- علاوة على ذلك، هذا ما قالته يانا بالفعل. إنها تجلس هنا في المكتب المجاور. لا أحد لديه أي تهمة ضدك، ولا حتى اتهام

بخرق القانون. الآن في غضون خمس دقائق، ستخرج بسرعة، فماذا تقول، وتعود إلى المنزل. فكّر؟

- لا أعرف أي شيء، وقد أخبرتك.

- اللعنة! - انفجر المُشيِّط فجأة - لقد أضجرتمونا، أيها السفلة! إننا نوبَّخ بسببكم، أيها الكلاب الجُرب. تكلَّم باختصار، لقد تعبت منك، أيها الحقير. وإلّا سأغتصبك الآن بنفسي، أين الأداة؟ - هذه المرة هو سأل الرصاصي. فأومأ ذاك برأسه إلى الخزانة التي عند الباب.

تناول الرصاصي هراوة مطاطية سميكة وطعن بطرفها ساشا في صدغيه.

- الآن سأدسّها في مؤخرتك، أفهمت؟ بالحبل ذاته. وسوف تسير مع هذا الحبل مثل لعبة شجرة عيد الميلاد. وفي الزنزانة، سيجرك اللصوص إليهم من هذا الحبل. ما رأيك؟

لم يرد ساشا عليه.

- ما رأيك؟ - سأل الرصاصي مرة أخرى.

- أقسم أنني لا أعرف أي شيء. وإذا ما كنتَ على اطلاع، فلابد أنك تعرف عن هذا. هل يمكنني الذهاب إلى التواليت؟

- سأل من دون انقطاع.

شعر ساشا من قفاه أنَّ المشيِّط لا يريد السماح له بالذهاب.

- الآن ستخبرنا بكل شيء وتذهب، - قال الرصاصي.

- سأتبول على نفسي الآن.

- هل ستتحدث بعد أنْ تعود؟ - سأله الرصاصي، وهو يمسد براحة يده على الهاتف الموضوع على الطاولة.

أومأ ساشا برأسه لسبب ما.

- حسناً، اذهب - وافق الرصاصي فجأة. - اجمع أفكارك. الأمر لا يستحق العناد.

والتقط الهاتف على الفور.

«إنه بكل بساطة يريد الاتصال من دون وجودي، - أدرك ساشا، - وإلّا لما سمح لي بالذهاب..».

اصطحب المُشَيِّط ساشا إلى المرحاض في نهاية الممر. غرفة رثة صغيرة، من دون مرآة، من دون أي شيء على الإطلاق. فقط مقعد.

أفرغ ساشا بها مثانته ووقف لبضع ثوانٍ، يتأمل. لا شيء تحرَّك في رأسي.

«الآن سيقتلونني ويدفنونني هنا... من المثير للاهتمام أنْ أعرف ما المكتوب على وجهي... أخائف أنا؟.».

رفع ساشا بشكل غير متوقع غطاء خزان التصريف ونظر في الماء. فانعكس وجهه في الماء المهتز. لا شيء -ليس خائفاً ولا فخوراً. مجرد وجه.

وخرج...

- متى أتيت إلى موسكو؟ - نظر الرصاصي بعناية ونقر بمفاصل أصابعه على الطاولة.

- منذ ما يقرب من أربعة أيام.

- لأي غرض؟

- أنا دائماً ما آتي إلى هنا. أتنزه. إنها مدينة جميلة.

- عندمـــا كنت تتمشـــى، التقيـــتَ بيانا وماتفـــي. وبدأتم تناقشون شيئاً واحداً.

- لم نناقش معهم أي شيء.

- إذاً، التقيتم على كل حال، لكنكم لم تناقشوا أيَّ شيء. لذا فلنكتبها.

- لقد خانني التعبير...

- إنَّك عبَّرتَ بشكل صحيح.

- كلا.

- إنكـــم لم تناقشـــوا أيَّ شيء ولكنَّ يانـــا اتصلت بك قبل عشرين دقيقة وقالت إنَّ جماعتكم استولوا على البرج

صمت ساشا مرة أخرى.

«بغباء، بغباء، اجلس بغبـــاء، بصمت، بغباء، بغباء، - كرر ساشا لنفسه، غاضباً من إجاباته الغبية، - بغباء، بغباء، - قال، - بغباء، بغباء..».

- حســـناً، هيا، هيا، يا عزيزي، تحـــدث الآن، باختصار، - كان الرصاصي مســـتعجلاً بشـــكل واضح. - ســـأخبرك بِصراحة، لن أخفي عنك أي شيء: لقد مُنحنا ثلاث ساعات لاســـتيضاح أمركم. لأنكـــم قمتم بفضيحـــة دولية، - نطق

كلمة «دولية» في مقاطع. - وأحرجتم رئيسنا نحن وإياكم.

- وشدَّد الرصاصي على عبارة «رئيسنا نحن وإياكم». - ولكن هذا ليس أهم شيء. لقد مُنحنا الحرية الكاملة للعمل. هل تعرف ما الذى أتحدث عنه؟ مثلاً، يمكننا أن نرميك من النافذة الآن، وبعد ذلك سيُعثَر عليك في الطريق، وقد صدمتك سيارة مجهولة، واختفت من مكان الحادث. ولن يفاجأ أحد أن لديك كدمة في كل عين، وهراوة مطاطية في مؤخرتك. هل تصدقني؟

- أصدّقك، لو كنت أعرف شيئاً لقلتُه. - أجاب ساشا بهدوء بصوت خالٍ من أي عواطف.

- كما يحلو لك، - قال الرصاصي. - أعتقد أنك على كلّ حال ما زلت لا تصدقني.

- أصدّقك.

- لا تصدق. ولكن الآن سنثبت لك كل شيء.

لم يلحَق ساشا حتى لملاحظة كيف صار رأسه في كيس بلاستيكي - ألقاه عليه المُشَيِّط.

أخذ نفَساً واحداً فنفد الهواء. نظر الرصاصي إلى ساشا باهتمام، كما لو كانت المرة الأولى التي رآه فيها.

بدا أنَّ رأسه متورم ومليء بدم دافئ. وصار جفناه ثقيلين وتورَّما. فكان ساشا يفتح عينيه ويغمضهما، وكأنما يحاول التنفس بهما. لوى رأسه مثل حيوان بليد.

رُفِعَ الكيس عنه، وبعد أنْ أخذ ساشــا نفَســاً بأزيز صاح بغضب، مــن دون أنْ يلتقط الكلمات اللازمة، بأنهم - أتعبوه، وأنَّ - الأشياء لا حدود لها، وأنه - لا يعرف شيئاً، لا يعرف.

جاء الشــحمي، من دون أنْ يلتفت إلى ساشــا، طلب من الرصــاصي ورقة ما، وجلس يقرأ، وهو يعبث بمنخريه ببرودة أعصاب، وكأنَّ زُغابة دخلت فيهما.

وحتى إنَّ ساشا صمت من الدهشة.

- كيف الحال؟ - سأل الشحميُّ الرصاصيَّ، وكأنَّ لا أحد هنا موجود ولا ثمة مَن كان يصرخ من الرعب عندما دخل.

هزَّ الرصاصي كتفيه بإبهام تملّصاً من الجواب.

وبعد أنْ وضع الشــحمي الورقة جانبــاً أدار رقماً بالهاتف، وحيّا أحدهم بانشراح، يبدو من دفء صوته أنّها بُنيّة ما. فكان يهمس معها بسرور.

بدؤوا يلحّون على ساشــا بالأســئلة مرة أخرى. ما الذي تحدثــت عنه يانا وماتفي؟ لم يتحدثا عن أي شيء. عمَّ تحدّثا؟ لم أرَهما. بدأ يتعب المعتوه. أنا لست أحمق. لم أرَهما.

شدَّ المشيِّط، كما في كمّاشة، عضلة موجعة فوق ترقوة ساشا.

بدأ ساشا يصرخ مرة أخرى.

غطّى الشــحمي الهاتف لثانية، واتخــذ وجهه هيئة متوعِّدة وهمس بحنق:

- ســدّ فمك، أيها الســافل، - وفي الحال، بعــد ذلك غيّر لهجته، عاد إلى محاورته، وأخذ يتمتم بغزلٍ: - كلا، متى نستطيع

استيضاح الموقف؟ - حاول استكشاف شيء ما منها. - دعيني آتي إليكِ أنا؟ إذاً، تعاليْ أنتِ؟

بقي المشيِّط ضاغطاً على العضلة، لم يصغِ ساشا للرصاصي وبدأ يصرخ بأعلى صوته، وبعد لحظة أُعيد علَيه الكيس ثانية.

ولكن هـــذه المرة تذكر أنـــه يمكن عـــض الكيس، الشيء الرئيس هو عدم الزفير عندما تكون خلف الجدار البلاستيكي.

سحبَ ساشا جلد الكيس المبلل والرقيق والشفاف إلى فمه وتشبّث به بأسنانه، خائفاً، وعلى ما يبدو، باكياً.

تنفّس الصعداء، وبدأ يبصق البلاستيك الملتصق على لسانه الســـاخن. فتلقى على الفور صفعة ثقيلة وانفعالية من المُشَيِّط. فارتجَّ بحدة بشكل غير متوقع لنفســـه إلى الأمام، وسقط على الأرض مع الكرسي، وبصق وهو ملقى على الأرض على حذاء هذا المخلوق الدنيء. فتلقى ساشـــا هذا الحـــذاء في وجهه، في مكان ما على جسر أنفه، وبعد أنْ شعر للحظة بالسعادة، أغمي عليه. وهذا ما كان ساشا يتمنى أن يحدث له.

أفاقَ للأسف بسرعة - فقد سكبوا على وجهه الدورق. مثل هذا الماء جيد، على الرغم مـــن كونه متعفناً على الأرجح. لكنه جيد جداً، فهو غير مغلي.

- دم كثير. هل كُسِر أنفه؟

على ما يبدو، هذا الرَصاصي. هكذا فكر ساشـــا وهو يحاول أن يبعد بجفنيه الماء الذي غمر عينيه. إنه ماء كثيف.

- القذر، ستسوء حالته، - قال المشيِّط بثقة تامة.

- اللعنـــة، اعتقدت أنه مات هنا عندكـــم. دعنا نذهب إلى الغابة... - قال الثالث. - فالآن ســـيأتي فيتاليتش مسرعاً مرة أخرى.

- لماذا يأتي مسرعاً؟ - إنه يعرف.

- إنه يعرف، لكن الأمر بالنسبة إليه سيان. هذا لا يعنيه.

لم يعد ساشـــا يميّز الأصوات. لكـــن من جهة أخرى أدرك أنَّ المـــاء الكثيف - هو دمه النازف من أنفه. والغريب أنه برغم ذلك لم يشـــعر ساشـــا بألم حتى الآن. ولكن عندما رفعوه مع الكرسي فجأة، شعر بألم شـــديد في جسر الأنف لديه إلى درجة أنه بدأ يئن مثل الأطفال تقريباً: «آه، آخخخخ..».

ســـال الدم على وجهه. نكَّس بصره - فـــرأى أصل فخذه مغطـــى بالدم، الـــذي كان يقطر عليه من الأعلى. على شـــكل قطرات زئبقية ثقيلة.

فكّـــوا يديه عن الكـــرسي - ثم قيَّـــدوا يديه مـــرة أخرى بالكلبشات.

- لنذهب، - دفعه أحدهم.

مشـــى ساشـــا وهو يتمايل. الآن حصل ما أراد - أن يمشي بغباء، وأن يكون غبياً، يجب أنْ يركّز فحســـب على كيفية تدفق الدم بكثافة وهو يبكي.

توقفوا عند الباب.

- ماذا، هل سنقتاده هكذا؟ سأل أحدهم.

رفعوا خرقة مباشرة من الأرض، ومسحوا وجهه بسرعة، ولكن ما أنْ ألقوا هذه الخرقة على الأرض حتى زمَّ ساشا أنفه مرة أخرى بغضب واجتهاد نافخاً الدمَّ، حتى يبدو للناظر أكثر، ولكي يتدفق من دون توقف. ونشب عن هذا دوارٌ في رأسه وضبابية. ولكن سرعان ما استولت عليه البهجة بطريقة وحشية عندما صرخوا بغضب عليه:

- لقد أتعبتنا، أيها الوغد! يا لك من وغد، ما بك...

أجبروه على الانحناء إلى درجة منخفضة جداً بحيث لم يعد يُرى وجهه - وساقوه على طول الممر - فكان يتعمّد التنفس بصوت عالٍ، تاركاً أثراً من الدم، وكأنه يلعب، وكأنه واثق فعلاً أنه سيُعثَر عليه من خلال هذا الأثر ويُنقَذ.

في السيارة لفّوا رأسه، تقريباً إلى حدّ عينيه، بتلك الخرقة نفسها التي كانت على الأرض - اتضح أنهم التقطوها وأخذوها معهم. حتى لا تتسخ السيارة، أدرك ساشا.

كانت الخرقة رطبة قليلاً، من الماء القديم الذي لم يجف بعد، الذي غُسِلت به الأرضية - مضغ ساشا ببطء هذه الرطوبة على شفتيه، من دون أنْ يفكّر في أي شيء. إنهم يقتادونه إلى مكان ما. دعهم يقتادونه. لم ينظر إلى الشارع، ولا حتى إلى السيارات. لقد كان يستريح.

بدأ هؤلاء يدخنون. ثم قال أحدهم شيئاً، لم يسمعه ساشا، وصاروا يضحكون.

من الضحك مباشرة، من دون توقف، توجَّهوا إلى ساشا. وبدؤوا يضربونه ويعيدون تلك الأسئلة نفسها.

بقي ساشا يراوغ قدر المستطاع - ولم يجِب على أي شيء، ولسبب ما بدا أنهم لا يخاطبونه، ولكن ببساطة يصرخون بأشياء سخيفة: «مَن؟»، «متى؟»، «قحبة!».

أصبح كقطعة اللحم التي تُقَص وتُدعك... وذات مرة، ولدهشته، اكتشف أنهم كانوا يضربونه في ساقه بواسطة طفاية حريق، بنيةٍ واضحةٍ لكسر ساقه.

في بعض الأحيان كان ساشا يشعر بالألم كأنه يخترقه بالعمق فبدأ يصرخ ويسب. ثم بدأ يصرخ فحسب من دون توقف. متجاهلاً بمَ كان يُضرَب وأين أو إنْ كان يُضرَب على الإطلاق. سحب الصراخ الصاخب كيانه كله خلفه من خلال الحلق، فكان ساشا أحياناً ينفصل عن نفسه بطريقة ما ويسمع صراخه من الجانب.

لم يفاجأ إلا عندما أصبح الصراخ فجأة أعلى بكثير، كما لو أنَّ الصوت ضُخِّم بمكبرات صوت، وبعد لحظات فقط أدرك أن الخرقة قد انزلقت عن وجهه.

وجنباً إلى جنب مع الصراخ، طار الرذاذ، وحتى إنه لسبب ما لم يكن أحمر بل أسود. سقطت بضع قطرات على جبينه.

التفت الرصاصي من المقعد الأمامي وصاح:

- كمِّموا له فمه وأخرسوه، اللعنة، ما بكم، بصراحة!...

شدّوا الخرقة مرة أخرى، ولكن أثناء ما كانوا يجرّونه من السيارة، بعد أنْ اقتادوه إلى غابة صغيرة، انزلقت الخرقة - فمزَّقوها تماماً، على ما يبدو، لا يخشون على الإطلاق أن يسمعهم أحد.

أُلقي ساشا على الأرض، فنظر إلى السماء، كانت فارغة.

أشعل الرجال، الذين تعبوا من عملهم الرجالي الفظّ، سجائر وبدؤوا يدخنون، وكانوا في بعض الأحيان يراوحون بأرجلهم وهم ينظرون إلى ساشا. لقد تعبوا...

جلس الرمادي القرفصاء قرب ساشا. سمع ساشا فجأة عظام الرمادي العتيقة تطقطق.

- اسمع يا سانيا، لقد وصلتَ، - قال الرصاصي. - وربما، لا يمكنك أبداً المغادرة من هنا. إنك نفسك تفهم كل شيء بشكل صحيح. هنا، هل تعرف كم عدد الأشخاص من أمثالك المدفونين هنا؟ ولا أحد يبحث عنهم. لم يتغير شيء في هذا البلد ولن يتغير أبداً. ينبغي أن نحب هذا البلد وأنْ نصونه كما هو. هل تفهمني؟

كان ساشا ينظر إلى الأعلى.

- لن تفلحوا في شيء، إنكم ما تزالون أطفالاً غير ناضجين. أنت تعلم أنَّ كوستينكو مُجَنَّد منذ أنْ كان في أمريكا. إنه وكيل

وكالة المخابرات المركزية! وسُجِنَ بسـبب ذلك، لأنه يعمل لصالح مخابراتهم. لم يُسَجن بسبب «سلاحكم» الصدئ، أيها الغبي. فليس من السـهل أن نتشـاجر مع أمريكا الآن، لذلك اختلقنا قضية البنادق هذه. هل فهمت؟

وهكذا لم يظهر طائر في السماء.

- توجد لديّ حتى شهاداته التي أدلى بها، - قال الرصاصي متفاخِراً.

وفجأة خطرت في ذهن ساشا فكرة.

- دعونا نذهب ونرى؟ - طلب بعد أنْ شـعر أنه يتحدث بصعوبـة، وبالكاد تخرج كلماته وفمه يبقبق بشـكل مُضحِك، ولسبب ما يسقط لسانه في ثقب على الرغم من وجود ثمة سنّ قبل مدة وجيـزة على ما يبدو. - إذا مـا كانت موجودة فعلاً، سأبدأ في الإدلاء بشهادتي أيضاً.

- إذاً، أنت تعرف شيئاً؟

- لا أعـرف... ولكـن إذا كان كوسـتينكو عميل وكالة المخابرات المركزية... فسـأوقِّع على كل شيء. - حاول ساشا أنْ يتحـدث بسرعة، ولكن كل ما قيل بدا مثل تكسـير الجوز المنخور بمطرقة. شظايا حادة... وكِسرة سن تخدش اللسان... ولا يمكن التنفس بطريقة جيدة.

- لن نذهب إلى أي مكان، يا صديقي. قال المُشَيّط فجأة. - يجب أن تصدِّق بكلمة العم. نحن لسـنا سيارة أجرة - لنقلك

في جميع أنحاء المدينة. تحدَّث، إذاً، وستذهب وترى. حتى لو بقيت تقرأ طوال الليل.

حتى الآن بدا لساشا أنَّ الرصاصي هو المسؤول الرئيس هنا، ولكن اتضح أنَّ المُشيِّط استطاع أن يصر على رأيه. وإنّ النداء بكلمة «يا صديقي» صدح في فمه كالتهديد. أسوأ من «يا غبي».

ومع ذلك، توجَّه ساشا مرة أخرى إلى الرصاصي:

- هيا نذهب ونرى؟

فلوَّح الرصاصي بيده متعَباً. نهض ومشى متثاقلاً إلى السيارة.

- هل تتحامق؟ - سأل المشيِّط ساشا. - سوف نقيّدك، ونكرر كل شيء من جديد؟ هيا، تحدَّث. لن نقوم حتى بتوثيق أي شيء. ولن نقول أي شيء لأحد. اتفقنا؟

- اتفقنا، - كرر ساشا لسبب ما، لكن لم يرد عليه. وظلَّ صامتاً. وتجمَّع الكثير من اللعاب في فمه، لكن لم تكن لديه القوة على البصق. أدار قليلاً رأسه الذي يؤلمه فخرّ اللعاب مباشرة على خده. سال بشكل منحرف، قاطعاً المسار بين قطرات من الدم الذي جفَّ.

ظلّوا صامتين لبضع ثوانٍ.

- إذاً؟ - سأل المشيِّط.

لقد كان ساشا متعَباً جداً إلى درجة لم يحرّك حتى عينيه.

بدأ المشيِّط في الصراخ بشيء ما، ودفع نفسه للحركة فتحرّك بسرعة. ركل ساشـــا المســـتلقي على الأرض ركلة خفيفة. ثم قرروا أنْ يُنهِضوه، لكنه لم يستطع الوقوف جيداً - فقد كسروا رجله، على ما يبدو. فسقط ساشا بضع مرات.

نزعوا عنه الكلبشـــات مرة أخـــرى - ولكن لربطها ببراعة على شـــجرة. تحســـسَ ساشـــا اللحاءَ بظهره، فقد شُدَّت يداه بشكل غير اعتيادي...

أُجبِـــرَ على الانحناء بسبب وضعية الوقوف غير الملائمة، وجعل ينظر إلى الأسفل، إلى قدميه. حاول أنْ يرفع رأسه لكي يرى هؤلاء المســـوخ كلهم، وبالكاد أفلح في ذلك: لمح فحسب صندوق السيارة الذي وضعوا عليه زجاجة نبيذ وبعض المزات الخفيفة.

على ما يبدو كانوا يشربون.

وكانوا قد مزَّقوا قميص ساشـــا. وأنذروه بأنهم سيضربونه الآن على بطنه، على الضفيرة الحشـــوية. فمـــن دون القميص يمكن أن ترى بوضوح مكان الضرب.

لم يعد ساشا قادراً حتى على تمييز الأصوات.

وضربـــوه، فاختنق، فضربوه. ثم ســـكبوا على رأســـه عدة دِهانات زيتية، كثيرة وذات رائحة كريهة. فتقيأ عصارة المرارة، فسالت على وجهه.

«يانا – الضفيرة الحشـــوية...» – تذكر ساشا من مكان ما، وبدا هذا هراءً رهيباً، لأنـــه لا يوجد حب ولا حنان، بل ليس سوى الشعور بالألم وحسب.

صرخوا ورفعوا رأسه من فكّه ولوحوا بالزجاجة أمام وجهه.

«لقد شربوا...» – فكّر ساشـــا، وهو مندهش من كونه مع شدة الألم ما يزال يركّز على تفاصيل غبية وغير ضرورية.

«إنه الجحيـــم – عندمـــا لا يمكنك التحمـــل بعد، وليس باستطاعتك الموت».

ضربوا الزجاجة بالشـــجرة التي شُدَّ ساشا إليها، فتكسَّرت الزجاجة. بدؤوا يلوِّحون أمام وجهه بعنق الزجاجة المكســـور ذي الحواف الخشنة.

لسبب ما، فكّوا الحزام وسحبوا سرواله الجينز إلى الأسفل. وقف ساشا عارياً، بسرواله المُسَـــدل، أخرق وبائساً، مثل أي رجل عارٍ وأعزل.

– حتى المســـيح لم يُجَرَّد من ملابســـه، أيها الأوغاد، – قال ساشا وشعر أنه كان يبكي.

– المســـيح، أيها الســـافل، تكشَّـــف، – قال أحدهم لساشا وضربه ضربة خفيفة وســـطحية بعنق الزجاجة المكسور تحت حلمته اليمنى. وسرعان ما سال الدم، بتدفقات كثيرة.

– إيـــه، يكفي، – قال أحدهم للآخـــر الذي ضربه، – وإلّا فعلاً ستدفنونه هنا.

«لن يقتلوني»، - أدرك ساشــا، ولكن الأمر ســيان بالنسبة إليه.

- لا بــأس، أنا حذر، قال الذي ضربــه، ولكنه ابتعد وهو ينظر إلى صدر ساشا.

اعتقد أنهم لن يمسّوه بعد الآن، لكنه كان مخطئاً.

اقترب منه الرصاصي مرة أخرى وقال شــيئاً، فنزل من فم ساشــا لعاب ممتد ومتأرجح. ونظر إلى الخطــوط الدامية على بطنه.

فكّــوه مــن الشــجرة فســقط عــلى الأرض. مــن دون الكلبشات...

وضربوه... وكأنّ ذلك حدث مِــن قَبل... على الرأس... وعــلى مكان آخر - على أعضاء جهــاز التنفس. انطلقت فوقه هراوة الشرطة الطويلة. وهوت عليه بصفير.

بالضبــط - لقد حدث ذلك مِن قَبــل... لم يكن ثمة هواء، ولكن لســبب ما كان ما يكفي منه داخل جســمه - إلى درجة يمكنه الاستغناء عن التنفّس من خلال الفم.

لقد ضربوه بسلك، في إيقاع شــديد ومتسارع، ووقف هو نفسه من أجل تلقّي الضربات، وسعى لاستقبالها بجسده كله. تقبَّل الذلة ببساطة، وشعر أنه يريد أن يصرخ، ولكن لم يكن ثمة صوت. ولا حاجة لذلك.

أجل، حدثَ ذلك، حدث.

ومدَّ رجليــه. وطلب منهم أنْ يضربوه عــلى قدميه. وتبيَّن أنه كلــما ضربوه بقوة، كلما تخلــص أسرع من الألم في عضلاته الملفوفة على شكل ضفيرة. وترتخي العضلات أكثر.

عادت من جديد مــن مكان ما، في غضــون ثانية واحدة، الرؤية الحادة والمؤلمة. وشــاهد: أذقاناً تنــطُّ، رطبةً من العرق، وثقيلةً.

أخرجتــه ضربة جديــدة من وعيــه، ولكنه خمن ســبب تعرضه للضرب: بمجرد أن فقــد الصلة بعقله، بدأ يصوره في وقت واحد العديد مــن المصورين المحتجبين خلف ومضات كاميراتهم. انتشلته هذه الومضات ثلاث أو أربع مرات بشكل حاد ومؤلم من العتمة الكبيرة التي استولت عليه. وقد أضاء كل وميض عينيه المتوســعتين وفمه الأحمر المفتوح، الذي يدور فيه الصراخ ويضطرب مفلِتاً إلى الخارج.

مــن الواضــح أنهــم أرادوا تســجيل لحظة وفاتــه. لكن الومضات الأخيرة بدت باهتة وضبابية، كما لو صُوِّر من خلال الضباب...

وضاع كل شيء.

الفصل الثامن

هل بدأ ذلك قبل قليل؟

عاد إليه وعيه في وقت متأخر من المساء. ربما بعد ساعة، ربما ساعتين. كانت رطوبة تحت بطنه.

في البداية فكر: «أنا لم أمت».

ثم فكر: «ولن أموت».

وتذكر: «لماذا التقطوا صوراً لي؟»

فأدرك فجأة: لم يصوره أحد. وإنّما تهيّأ ذلك له.

حاول النهوض. يداه، وللغرابة، شغّالتان. بيد أنه لم يستطع الوقوف.

- ولكن ما هو الشـــغّال من أعضائه؟ - بدأ ساشا يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ، متمتماً بهدوء، وكما بدا له، بلطف.

آلمه بشدة صدره النازف، أسفل الحلمة مباشرة. وكان شيء ما يقطر من رأسه على جبينه. وساقه، لم تعد كما كانت.

زحف ساشا.

شعر أنه يزحف من دون سروال. لكنهم لم ينزِعوه السروال

- بل أُنْزِلَ.

حاول أنْ ينحني ويمســك بالحزام وأنْ يشدّه عليه – فكاد يفقد الوعي بسبب الألم.

استراح وبدأ يزحف ببطء وبهدوء، بالمليمترات، لكي يصل على الأقل بإصبع واحد لسرواله الجينز.

لم يفلح. فجعل يركل بقدميــه ويئنّ. ثم أدركَ أخيراً أنه إذا ما انحنى ليس إلى اليمين، حيث جُرِحَ صدره، بل إلى اليسار – فسيكون أســهل له. إنه مؤلم، ولكن ليس كثيراً. فشبكَ الإبهام على الحزام، وسحب لمدة طويلة، وهو يصرخ.

ارتدى ملابسه كيفما اتفق. ثم زحف من جديد.

استعمل يديه وإحدى رجليه. وعندما كان يلامس بصدره الأرض والأغصان اليابســة والأكواز يتألم ألماً شديداً. فكان في بعض الأحيان يصرخ صراخاً يثير الشفقة كالمجذوب من دون أنْ يخجل من ألم العُري.

استلقى على ظهره، وحاول أنْ يربط أزرار قميصه. لم تطعه أصابعه الملتوية. والزر لا يُشَــدّ. إذا ما وجِدَ هذا الزر. وتمكن بطريقة ما أنْ يشدّ القميص على صدره.

وكان يرتدي سترة. قد جردوه منها، على الأرجح. ورميت في مكان ما هناك...

قبل أن يعتم الجو، زحف ساشا إلى طريق ريفي مهّده بعض الناس، ربما، جامعو الفطر. زحفَ على أثر المرور – في بعض الأحيان كانَ يلتصق بصدره على الطريق، وآنذاك لم يشعر بالألم الشديد.

حاول أن يصرخ، لكنه كاد أنْ يفقد وعيه، بعد أنْ أطلق من داخلـــه أقوى صرخة يقدر عليها - يا ترى هل ثقبوا الرئة بعنق الزجاجة المكسورة؟

استلقى عدة مرات واستراح، ولكن ليس لمدة طويلة، لأنه خاف أنْ ينام.

وذات مرة انقلب على ظهره، ونظر إلى الســـماء. ولدهشـــته اكتشف أنَّ النجوم تضجّ. لقد سمع ضجيجها بوضوح، وكأنها أغصان وأوراق الأشجار. كانت النجوم تتمايل وتومض ببطء وتضج.

ثم واصل الزحف مرة أخرى.

«في الخندق - لن أموت»، - كرر.

ثم اخترع عبارة أخرى وكررها.

«لم أستسلم لأي شـــخص»، - قال ساشا عندما صعد بصعوبة على آخر مرتَفَع يمكن ملاحظته من بعيد يؤدّي إلى الشـــارع المكسو بالأسفلت الذي تسير عليه السيارات الجميلة الدافئة.

وبعـــد أن جلس على الشـــارع ملوحاً بيـــده كالأبله، أدرك برعب - أنه لن يتوقف أحد أبداً عندما يرى على ضوء المصابيح الأمامية وجهه الدامي الرهيب وملابسه الممزقة.

لكن الرعب الأكبر جاء من حقيقة أنه بدأ يشـــعر بالبرودة داخل بطنه، ورأســـه أخذ يعوم، وأصبح مـــن الواضح أنه إذا أُغمي عليه الآن فلن ينجو ولن يستيقظ.

فزحف مباشرة إلى الطريق، في منتصفه. فتوقف أحدهم.

وبعد ذلك فقط لاح له سقف صالة الطوارئ (غرفة استقبال المرضى)، غامقاً لا يمكن تمييزه تقريباً - لأنَّ المصباح في الممر لا يضيء.

ظلَّ ساشا ينظر إلى السقف.

حُمِلَ في الليل، ربما كان ذلك في الليلة نفسها، على نقالة نقل المرضى ونُقِل عبر الممر. غسلت الممرضة جسده بالماء الدافئ.

وقد حُوِّلَ إلى مكان ما، وأُخِذت له صور بالأشعة السينية، وظلَّ يقلَّب وهو يئن.

ثم أوصِلَ إلى غرفة فارغة تقريباً، وجاء إليه طبيبان، رجلان صحيحا البنية يرتديان مريولَين زرقاوَين.

لم يسألا ساشا عن أيّ شيء، نقلاه إلى أريكة. ثم قصّا الضمادات، وفتحا الجرح على صدره.

لم يكن يعرف ماذا يفعلان، ولكن بدا لهِ أنهما لسبب ما أدخَلا أنبوباً في صدره، بين الأضلاع. وبدا له أنهما أمسكا الجلد على طول حواف الجرح بأدوات خاصة وسحباه - وهما ينظران داخل جسده - ليتأكدا إنْ كان ثمة أيَّ شيء مثير للاهتمام.

كان الأمر أكثر إيلاماً مما كان عليه عندما تعرض للتعذيب. صرخ ساشا مرة أخرى، لكنه لم يضطرب، ولم يُعِق الطبيبين في عملهما.

بدا له أنَّ جسده في الداخل شبه فارغ، مثل جسد الدمية. إنه فارغ، ولكنه مؤلم وساخن جداً، ولا يمكنه النظر إليه، ولا يمكنه سحب الأشياء الحديدية الرفيعة فيه، وهذا فعل ليس فيه مروءة.

وأثناء ذلك كله كان مستمراً بالصراخ.

ثم قال له أحد الطبيبَين بصوت منخفض:

- لماذا تصرخ؟ لم نعد نفعل أي شيء.

- آسف، - رد ساشا فجأة بصوت واضح ثم صمتَ. وفعلاً لم يعودا يفعلان أي شيء.

ابتعد الطبيبان، مطمئنّين، عن الأريكة التي رقد عليها ساشا بهدوء، كما يرقد المرء بعد نوبة عنيفة.

- هل تشاجرتَ مع أحدهم؟ - سأله أحد الطبيبين.

فكر ساشا للحظة وقال:

- نعم، لقد تشاجرت.

سيّان له ما يقول.

غسل الطبيبان أيديهما وخرجا. بقيت الممرضة، وهي امرأة عجوز هادئة ولا يشعر المرء بوجودها، مثل شبح طيّب.

- هل وِجِد شيء عندي؟ - سألها ساشا. - هل سيعملون لي عملية؟ هل يوجد زجاج في أحشائي؟

- لم يجدا أي شيء. خيّطا جراحَك، هذا كل شيء. لن تُعمَل لك أيّ عملية. - قالت الممرضة.

فصدَّقها ساشا.

- وساقي ألا تُجَبَّس؟

- وماذا يُجَــبَّس فيها؟ مجرد كدمة. أنــت كلك أزرق. لقد ضُرِبتَ، كما أظن، لمدة طويلة.

لم تسأله عن أيّ شيء - فاندهش ساشا من ذلك.

نُقِــل إلى ردهة الرقود. جاء إليــه أحدهم... وطلب منه أنْ يتصل بذويه... فأجاب بأنه يتيم ليس لديه أحد... وأكَّد حرف «س» في كلمة «ليس» الذي انطلق من ثقب سنه المكسور حقيقة هذا اليتم بطريقة ما...

ثم جاء أيضاً طبيب... أو طبيبان... لمســا يديه... وضغطا على بطنه... وشدّا له قطّارة مغذٍّ... فغفا ساشا.

كان النور يغمر الشارع، لكن جفنَيّ ساشا الثقيلتين بشكل غير عادي أخفتا عنه ضوء النهار المُضجِر. ومع ذلك، ربما، كان هذا هو ضوء المساء - فقد نام طوال اليوم.

اســتلقى ساشــا، متذكِّراً بلا تذمّرٍ ما حدث له يوم أمس، ليس بعقله وبعضلاته المحطّمَة، بــل بشيء آخر. لم يتذكّر الألم ولا الإذلال، بل تذكّرَ فراغ جســده كلــه الدافئ والمتجاوب. لقــد حاولوا تحطيم الفراغ، لكنه أفلــتَ ونجا وأزاح عنه الألم والعديد من الجلطات الحمراء والســوداء والشــفرات الباردة وحبّات الزجاج...

ومرة أخرى صخبَ في أحشائه تدفقُ الدم الذي ما يزال يثير الأعصاب قليلاً ولكنه خفيف جداً. وهناك حيث يوجد القلب أو الروح، - كان كل شيء خفيفاً وخاوياً.

لم يحاول ساشـــا فهم شيء ما، والوصول إلى شيء ما بعقله الهادئ والكسول - ولكن، على ما يبدو، وقع في حالة يأتي فيها الإدراك غير المدعو فجأة من تلقاء نفسه.

وقـــد أدرك - أو حتى إنه، ربما، حلـــم بفهم كيف خلق الله الإنسان على صورته ومثاله.

الإنســـان - هو فراغ كبـــير وصاخب، توجد فيـــه تيّارات ومسافات جنونيّـة بين كل ذرة. وهكذا هو الفضاء أيضاً. فإذا ما نظرتَ من داخل جسم ناعم ودافئ، لنقل، من داخل جسم ساشا، وفي الوقت نفسه أنْ تكون أصغر بمليون مرة من الذرة - فإنَّ كل شيء ســـيبدو هكذا - مثل السماء الصاخبة والدافئة فوق رؤوسنا.

ونحن نعيـــش بالطريقة نفســـها داخل فـــراغ فظيع وغير معروف لنا ويثير فينا الفزع. لكن الأمر ليس مخيفاً بهذا الشكل - ففي الواقع نحن في منزلنا، إنّنا داخل ما يُعَدُّ صورةً لنا ومثالاً لنا.

وكل ما يحدث بداخلنا، - أيّ ألـم نتلقاه أو أيّ ألـم نتسبب به لشخص ما - مرتبط بمـا يحيط بنا. وسيُقتَصّ من الجميع، وسيُكافأ الجميع، ولا يمكن فهم أي شيء، مع أنَّ كل شيء بسيط وصحيح.

فتح ساشـــا عينيه واقتنع بأنَّ الأمور ستسير هكذا بالضبط. كانت ثمة خزانة بأدراج بجانب سريره. وثمة سرير آخر مقابل سريره. وثمة رجل جالس على السرير ويأكل تفاحة.

رأى الرجل أنَّ ساشـــا فتح عينيه، فلوَّح له بيده كما لو كان يجلس عــلى الضفة الأخرى من النهر ولا فائدة من التحدث - إذ يصعب سماع صوته.

فغمز له ساشا علامة على الترحيب.

كلا، جسمه ما يزال يؤلمه على كل حال، أدرك ذلك، بعدما غمــزَ، وبالتالي بعد أنْ أجبر عدة عضـــلات على وجهه على أنْ ترتعش. والألم الأوّل القليل أعطى إشارة للجسم كله، فأوجعه كل جزء من جسمه على نحو مرهِق ومثير للملل.

رقد ساشا واستمع إلى نفسه: كان كل شيء في جسده يبقبق ويتحطّم، كأنَّ مغرفة حديدية أُولِجَت في أحشـــائه، فاختلطت جميع أعضائه وتحركت الآن مضطربة من دون أنْ تجد لها مكاناً تستقرّ فيه.

رأى عــكازاً في الزاوية، على ما يبـــدو، لا يعود إلى جاره - لأنَّ الرجل تحرك على قدميه، وبخفة شديدة - من الواضح أنه يتماثل إلى الشفاء.

طلب ساشا إحضار العكاز إليه.

- مساعدة؟ - سأل الجار.

- شكراً، - أجاب ساشا، وشعر مرة أخرى بالحرف «ش» وهو يصفّر بجانب الكلمة المنطوقة بعد أنْ يسقط منها.

وقف الجار بجانب السرير، لا يفهم: «شكراً - نعم» أو «شكراً - لا».

ضيّقَ ساشا عينيه، مدركاً أنه سيعاني الآن من ألم شديد ولا يطاق.

- اسمي ليوفا، - قال الجار، - نادِني إذا ما احتجتَني، - وخرج.

فتح ساشا عينيه، وألقى نظرة خاطفة لمدة وجيزة على ليوفا ولاحظ أنَّ ليوفا يهوديٌّ من تلك السلالة النادرة من اليهود الباهرين، ذو شعر أسود وكثّ، غليظ البنية وسمين قليلاً، بملامح وجه فاتحة، سريع الحركة، وعلى ما يبدو، سريع البدهية كذلك ولديه إجابات جاهزة لكثير جداً من الأسئلة مهما كان عددها.

«بماذا ينبغي أنْ تبدأ الحركة؟» - فكَّر ساشا وهو يحرّك رجليه بأصابعه، موَتِّراً العضلات واحدة بعد الأخرى - فكانت جميع عضلاته تؤلمه.

«هل ينبغي أن أستدير إلى الجانب؟ أم أُنزِّل ساقَيَّ من على السرير؟»

بدأ يفعل كل شيء في الوقت نفسه ويئنّ، من دون أنْ يضبط نفسه. فقفز ليوفا وأمسك بساشا من الكتفين، وسحبه برفق إلى الأعلى.

كاد ساشا أنْ يبكي، فقد كانت أعضاؤه كلها محطّمة بمعنى الكلمة.

- يا إلهي، هلّا بقي لديَّ عضو من أعضائي لم يُحطَّم؟ سأل ساشا، محاولاً أنْ يبتسم.

غمز ليوفا مراراً غير عارفٍ كيف يساعد وبماذا يمكن أنْ يفيد. وقرَّب العكاز.

- هل تريد مساعدة؟ - سأل مرة أخرى.

- لا، لا.

جرَّ ساشا قدميه بصعوبة إلى المرحاض، متوقّفاً في كل ثانية ومتغضِّناً.

عاد، وكأنه ضُرب مرة أخرى - كان عليه أن يمشي ويجلس ويقف وهو يتألّم ألماً رهيباً. وفي الطريق وبختة المعينة (عاملة التنظيف) - وقالت له إنهم أحضروا له «نونية» (قعّادة) ليقضي عليها حاجته. مشى ساشا من أمامها بالعكاز بصمت، يكاد يصرخ احتجاجاً على عجزه.

رمى نفسه على السرير بالتواء وهو يئن، ثم رقد بصمت ضاغطاً على أسنانه، ومحرِّكاً لسانه من حين إلى آخر في الفجوة (التي أُسقِطت منها سنه بالضرب يوم أمس) لا يتذكر ساشا متى أُسقِطت بالذات وحتى لا يريد أن يتذكر.

«ربما سيعودون ليقضوا عليّ؟ - فكَّرَ ساشا بخمول. - لا بأس، سيعودون..».

رقد قليلاً وفكَّر: «أنت أحمق، يا ساشا. من سيأتي إلى المستشفى ليقتلك، أي هراء هذا..».

ونُودِيَ لتناول العشاء.

جاءت المعينة، أحضرت الطعام، لم يلمسه ساشا. فاحت من الطعام رائحة شيء حيّ وحامض على نحو يثير الاشمئزاز.

طلب من ليوفا، الذي عاد بخفة ونشاط من العشاء، أن يأخذ الصينية ويعيدها. ففعل ذلك على الفور.

ثم اقترح على ساشا تفاحة وردية وقوية.

أمسكها ساشا في يديه ووضعها على طاولة السرير. إذ لم يكن يرغب على كل حال أنْ يقضم التفاحة من دون سنٍ، مخاطِراً بتكسير الأسنان الأخرى، التي كانت، على ما يبدو، متخلخلة.

لكنه كان يرغب بالأكل. فطلب من ليوفا سكيناً وبعد أنْ أخذ التفاحة من على الطاولة بدأ يقطعها قطعاً صغيرة ويضعها في فمه. لم يمضغ تقريباً - عجنها قليلاً بأسنانه من دون أنْ يحرك فكه الذي يؤلمه.

- تفاحة سائغة الطعم، - قال ساشا، وأقسم على الفور بداخله بعدم نطق الكلمات التي فيها حرف «سين»، وقال فوراً:

- لم آكل أبداً مثل هذه التفاحة السلسة..».

نظر إليه ليوفا بعينين مبتهجتين على حين غرّة وفرحتين فرحاً صادقاً. كان يجلس على حافة السرير، يتمايل برفق، ويبدو أنه مستعد في أي لحظة ليس للنهوض، بل للقفز.

- هل ضربك أحد؟ - سأل ليوفا.

فغضَّن ساشـــا وجهه - فهو بالتأكيد لا يريد أنْ يجيب، ولم تكن لديه قوة ليقصّ كل شيء.

- لا بأس، لا تتحدث إذا لم ترغب بذلك، - قال ليوفا.

أومأ ساشا برأسه.

- هل لديك هاتف محمول؟ - سأله بعد دقيقة.

فتـــح ليوفا على الفور الـــدرج العلوي في الخزانـــة الملحَقة بالسرير وأعطى ساشا الهاتف.

مسكه ساشا في يديه، متسائلاً عن مكان الاتصال.

بالطبع لن يتصل بأمه.

«سأتصل بالمخبأ...» - قرر.

عندما قدم نفســـه وأخبر الخفر ببضع كلمات مَن هو وأين، أدرك أنه لا يعرف رقم المستشـــفى ولا اســـم القسم ولا رقم الغرفة بل حتى الطابق عرضه بشـــكل غامـــض. ربما، الطابق الثاني. ولكنه اتضح الثالث - فقد لقّنه ليوفا كل شيء.

- ماذا حدث لك؟ - سأله الخفر.

- سأخبركم لاحقاً، أجاب ساشا

... الشخص الذي لم يتوقع أن يراه مطلقاً - هو روغوف.

وصل روغوف بعد خمســـين دقيقة، قوياً وذا همة، ابتســـم ابتَســـامة تبعث الأمل، - نادراً ما كان روغوف يبتســـم. ورداً

عليه فرج ساشا أيضاً شـفتيه المشقوقتين، وأظهر الثقب الذي في مكان السن.

- يا لهم، كيف حطَّموك، - قال روغوف، وهو ينقل الكرسي إلى قرب سرير ساشا.

نظر ساشـا إلى روغوف تقريباً بحنان. فقد أدرك أنه لم يعد وحده وأنَّ لديه إخـوة. ها هو روغوف - أخوه، يفتح الكيس ويُخرج منه الزبادي والفواكه والخبز وقطعة من لحم الخنزير.

- هل تستطيع التحدث؟ - تفحَّص روغوف ساشا بعناية، كما لو كان يحاول أنْ يفهم من وجه رفيقه ومظهره أكبر قدر من المعلومات - حتى لا يسأله أسئلة زائدة.

أومأ ساشا برأسه: أستطيع.

سأل ليوفا الذي رقد على السرير:

- هل أخرج؟

فكر ساشا وأجاب:

- لا يهم. ابقَ نائماً...

لم يلتفت روغوف حتى التفاتة إلى ليوفا.

تحدث ساشـا وهو يحرّك فكه بصعوبة وينطق الكلمات. باختصار ومـن دون تفاصيل خاصة، حتى لا يكون واضحـاً لليوفا عمَّ يدور الكلام: «اتصلت يانا... وقبل هذا أعطتني الهاتف بنفسها... أخذوني من الشارع... كنا في القسم... ثم كنا في الغابة... سألوا من كان منظم الحدث في ريغا...» - وما شابه هذا.

- لقد زحفت بنفسي، نعم. إلى الطريق. ثم نسـيت. نقلني شخص ما... أو اتصل بسيارة إسعاف. على ما يبدو، إنها سيارة إسعاف.

كان روغوف يمضغ بشفتيه وهو يتأمل وقال:

- لن نفعل أي شيء بعـد. أنت بحاجة إلى النوم. هل أتت إليك الشرطة؟

- كلا.

- غريب، من المفروض أن يأتوا...

- من أين أتتك هذه الفكرة؟ - سأل ساشا.

- هذا هو المفروض. يستكشفون.

- وماذا هناك... في البلطيق؟...

- كل شيء رائع هناك. قفز خمسـة أشخاص من القطار، مباشرة من النافذة، والقطار يسـير بسرعة سبعين كيلومتراً... كيف لم يلقوا حتفهـم، لا أحد يعـرف. وصل أربعة منهم إلى ريغـا، واحد منهم فقط كُسِرَت سـاقه، الصبي من مدينة نيجنـي نوفغورود - في اليوم الثالث وجـده اللاتفيّون في الغابة، كان يزحف باتجاه روسـيا. وفي الوقت نفسـه، اسـتولى الباقون على البرج وصمدوا هناك لمدة ست سـاعات... وقد تمكن الصحفيون من الوصول من كل مكان تقريباً خلال تلك المدة... كانت فضيحة على المسـتوى العالمي... واتصل الكثير من الناس بالمخبأ ليشكروا لنا فعلنا. ماتفي ما يزال هارباً حتى الآن.

- ويانا؟

- سنتحدث عن يانا فيما بعد. إنها هنا.

- ألم يعتقلوها؟

- إنها في المخبأ.

غادر روغوف، فنام ساشا، غير قادر على التفكير في أي شيء.

استيقظ في الصباح، جائعاً جداً. كان ليوفا يقرأ شيئاً ما - على سريره وعلى الطاولة جانب السرير وضِعَت كومة من الكتب.

رأى ساشا يتحرَّك، فحيّاه متمنّياً له «صباحاً طيباً»، وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى. من الواضح أنه يريد أنْ يدردش.

- صباح الخير، - أجاب ساشا بشفتيه فقط.

- هل تريد بعض الشاي؟ - سأله ليوفا. كانت لديه بالفعل غلّاية في يديه.

غمز ساشا شاكراً.

انتابته الرغبة في تنظيف أسنانه - فقد كان في فمه ما يشبه عصيدة من الدم التصقت على حنكه. ولكن لم تكن لديه فرشاة أسنان بالطبع.

- كما فهمتُ، يا ساشا، أنتم «الاتحاديّون»؟ - سأله ليوفا وهما يشربان الشاي.

- نعم، هم، - ردَّ ساشا متجنباً ذكر كلمة حزب التي فيها حرف «زاي».

أومأ ليوفا برأسه.

- سمعت عن عمليتكم في ريغا. فعلُكم فعلُ الرجال.

لم يقل ساشا شيئاً.

حتى المساء لم يتحدثا عن هذا الموضوع. استُدعيَ ساشا من أجل الإجراءات، فساعده ليوفا على النهوض وقدم له العكاز. أكل ساشا الفاكهة على الفطور، ولم يتناول الغداء فقد كان نائماً، وفي العشاء لم يأكل سوى شيء قليل من عصيدة السميد - جلبها ليوفا من غرفة الطعام. بدت العصيدة لذيذة بشكل غير عادي، والشاي بعدها أيضاً.

شعر للمرة الأولى - أنه سيتعافى بسهولة، أو بالأحرى، أنه يتعافى بالفعل. ومرة أخرى فكر بسعادة - أنه قاوم آنذاك وصمد.

ارتفعت معنويات ساشا وتمتع بمزاج رائع.

وحتى إنه ابتسم رداً على ليوفا، الذي كان يبتسم دائماً إذا ما التقت عيناه بعَيْنَي أحدهم، ولكن ليس ابتسامة مهانة أو توسّل - بل مثل كلب مفعم بالحيوية وشبعان ومبهج يلوح بذيله ترحيباً وتحية.

بطريقة أو بأخرى بدأا يتحدثان بشكل غير ملحوظ. عرف ساشا، من حيث اللياقة، كيف جاء ليوفا إلى المستشفى (ونسي على الفور ما أجاب عليه). أما ليوفا، بدوره، فكان أكثر ما يهمه «الاتحاديون» - فهو لم يتوقع مقابلة متطرف حي وبدا سعيداً

بما حظي به، مثل عالم طبيعيــات. وحتى إنه كان يفرك يديه في بعض الأحيان - مــن دون أنْ تتهيج أصابعه الغليظة، بل على العكس من ذلــك، بدا له أنَّه بهذه اليد الناعمة يمكن بشــكل جيد جداً أنْ يمســد على رأس ابنه، الصبي المجعد الشعر وذي العينَين الســوداوين. كما إنَّ التحية بهذه اليد جيدة، فهي قوية، لكنها لا تسعى لكسر كل مفصل دفعة واحدة.

- كلا، بالطبــع، أنتم زهرة خَلاَّبة في السياســة، فريدة من نوعها، - قال ليوفا، فزمَّ ساشــا شفتيه قليلاً في هذه «الزهور»، من دون أنْ يشعر بالاســتياء، بالطبع. - ولكن ماذا تريدون؟ الحقيقة، أنا على اســتعداد أنْ أعترف لك - لقد كنت أقف إلى جانبكم مــن مدة طويلة، طالما كنتم بعيدين بالقدر نفســه عن «اليســاريّين» وعن «اليمينيّين»، وعن الوطنيين، والليبراليين. وبدا لي أنكم أتيتم لكي تُؤسســوا لتربة جديدة، بدلاً من التربة القديمة التي فقدت خصوبتها، وبشكل عام فقدت كل شيء.

- باستثناء القبور، - قال ساشا.

- نعم، نعم، باســتثناء القبور، - وافق ليوفا واســتمر على الفور يتابع فكرته. - ولكــن في الآونة الأخيرة، بدأ يتراءى لي أنكم تنزلقون... لا بأس، لنقُل، إلى التطرف القومي الشوفيني. أليس كذلك؟ أنا، طبعاً، لا أتحدث عن ريغا - فهؤلاء العملاء الأغبيــاء يجب أنْ يوقَفوا من مدة طويلة عند حدّهم. وبالطبع، أنا لا أقول إنكم تنون «تحطيم اليهود» - الحمد لله، لا ينبغي أنْ

نتوقع هذا من «الاتحاديين». ولكن نستشعر أنكم لا يمكنكم التخلّص من تلك المعتقدات البالية والإيديولوجيات الباطلة والعديمة الفائدة، التي رافقت وجود روسيا طوال الوقت، بدءاً من... فاسيلي الثالث(1) أو إيفان الرهيب(2) إلى حد البلاشفة، والتي سادت في البلاد ولم تجلب شيئاً سوى الدم والفوضى.

- من أين أتى هذا البلد كله، إذا لم يكن سوى الدم والفوضى...

- وصفّرت كلمة «سوى» في سن ساشا.

- إنه من هذا الدم، يا ساشا، ومن هذه الفوضى العمياء، وهذا واضح. والتاريخ يعيد نفسه كل مائة عام، فهو يسير في حلقة، في البداية صقيعاً دامياً ثم مخاطاً ذائباً ثم انهياراً ومن ثم صقيعاً دامياً من جديد... وهكذا دواليك...

- لا بأس، ليكن الأمر كذلك، لا يهمّني، - اعترف ساشا بصراحة.

- كيف لا يهمك؟ - اندهش ليوفا بصدق. - إذاً، فما الحاجة بكم؟ وماذا تفعلون؟ هل تريدون الصقيع الدامي مرة أخرى؟ ها أنت شخصياً - هل يمكنك صياغة فكركم؟

---

(1) فاسيلي الثالث (1479 - 1533) - هو الأمير المعظم لموسكو وقيصر عموم روسيا حكم من 6 نوفمبر عام 1505 إلى وفاته خلفاً لوالده إيفان الثالث. واصل فاسيلي الثالث بعد توليه عرش موسكو سياسة توحيد الأراضي الروسية التي نجح في ممارستها أبوه إيفان الثالث. (المترجم).

(2) إيفان الرابع (1530 - 1584) المعروف باسم إيفان الرهيب - أمير موسكو العظيم وقيصر عموم روسيا الأول توج أميراً لموسكو عام 1533 (في سن الثلاث سنوات) وتوج كأول قياصرة روسيا في العام 1547 وهو في السادسة عشرة من عمره، ما يجعله حاكماً من عام 1533 وحتى وفاته. (المترجم).

هزَّ ساشا كتفيه تجاهلاً.

- الحقيقـــة، - لم يتخلَّ ليوفا عن فكرته، - إنّي أريد أنْ أرى في «الاتحاديين» أنثروبولوجيا مستقبلية، بينما أنتم تتحدثون عن «مستقبل الأمة» الذي علق في أسنانكم.

- عـــلى الرغم من عـــدم وجـــود أيِّ أمة، - قال ساشـــا مستذكراً بيزليتوف.

- ساشـــا، يا عزيزي، أنت تبسّـــط تفكيري وتهوّنه، - قال ليوفا، بل على العكس، الأمة موجودة - إنها ببســـاطة تتعطش للانعتاق. لا حاجة لخلـــق أمة جديدة، كلا. ولا حاجة لتوطين الغرباء في البلاد. وليست ثمة حاجة لأن نتحول إلى محمية لكي نحافظ على أنفسنا. لدينا شـــعب بالفعل. ولكن ليس الشعب الذي يضرب عـــلى الصدر ويصيح يا «روســـيا» أولئك الذين يصرخون هم في الأســـاس الغرباء، المتطفلون. الشعب - شيء آخر. يمكنني أن أسميه «القديم - المنسي بالخير - الجديد». هل تفهم؟ هؤلاء، هم الناس الذين يبذرون بسلام ويحرثون بسلام، ولا يهمهم الجميع - لا أتبـــاع النزعة القومية ولا الكونيين غير المرتبطين بالوطن - لأنهم لا يفعلون شـــيئاً سوى إعاقة الحراثة والبذار.

- وبأيّ شـــيء يختلف هذا الشعب «القديـــم - المنسي بالخير - الجديد» عن فكرة «مستقبل الأمة» التي صدمتك؟

- لأن فكرة «مستقبل الأمة»، يا ساشا، التي دسَّها لكم أتباع النزعة القومية القذرين والأشرار تتناقض أيضاً مع الأنثروبولوجيا. وتناقِض التطور! إنَّ هذه الفكرة تواصل تلك الحلقة الأبدية - من الدم إلى الفوضى، التي حدَّثتك عنها.

- وهل لديك فكرة أخرى؟

- يا ساشا، أكرر لك مرة أخرى - ينبغي الخروج من هذه الحلقة، ونبذ أتباع النزعة السلافية[1] وأتباع النزعة الغربية على حد سواء، والبقاء في الشكل الأصلي من دون كل هذه الأفكار الدخيلة...

- ماذا اسْتَدْعَى التاريخ الروسي خلال ألف سنة، - أكمل ساشكا كلام ليوفا بالنغمة نفسها، مندهشاً للمرة المائة عن كثرة وجود الحرف «سين» في اللغة الروسية.

- هذا سؤال منفصل، يا ساشا، ماذا جلب التاريخ. جلب الكثير للمساعدة في فهم العالم، ولكن القليل جداً للعيش في هذا العالم.

- أنا أعيش بشكل جيد، أحوالي لا بأس بها.

- نعم، خاصة إذا حكمنا من خلال طلعتك البهية.

- لكني لا أعيش في روسيا. أحاول استعادتها. أخذوها مني.

---

(1) النزعة السلافية - حركة فكرية ظهرت في القرن التاسع عشر، دعت إلى أن تكون أسس الإمبراطورية الروسية القيم والمؤسسات المستمدة من تاريخها المبكر. عارض أعضاء وأنصار النزعة السلافية تأثيرات أوروبا الغربية في روسيا. (المترجم).

- بعض الجلادين أخذوا روسـيا من جلادين آخرين. وما يزال من غير المعروف أيّ الجلادين أفضل. الحاليون على الأقل تركوك على قيد الحياة.

- هذا على العموم سؤال غير مهم - مَن هذا الذي سيتركني على قيـد الحياة، - بدأ ساشـا ينزعج. - أنا على اسـتعداد لأن أعيش تحت أيٍّ سلطة، إذا كانت هذه السلطة تضمن الحفاظ على الأرض وتكاثر السـكان. الحكومة الحالية لا تؤمّن هذا أو ذاك. هنا يكمن الفرق كله.

- نعم، هنا، في هذا البلد، كان الدم، الذي تحدثتَ عنه، ينزف دائماً بشكل مفرط ورهيب، يا ساشا، - قال ليوفا ونشر يديه.

- دعكم من هذا، يا ليوفا، - تحول ساشا بشكل غير متوقع إلى الخطاب بصيغة الجمع «أنتم»[1]، - نعم «كان ينزف دائماً»، ولكن النسـاء كُنَّ يُنجِبنَ، ولم يقل عدد الناس أبداً. كان هناك ما يكفي بالضبط للبلد كله. - فوجئ ساشـا بنفسه من أيّ زاوية من زوايا طفولته أفلتت كلمة «بالضبط» السـخيفة هذه. - والآن فجأة لم يعد العدد يكفي.

- لأنهنَّ تعبنَ من الإنجـاب! - ضرب ليوفا كفّاً بكف. - إلى متى يطعمن أبناءهنَّ لهذه «الفكرة الروسية» التي لا تَشبع!

(1) في بعض الأحيان يكون الكلام بصيغة الجمع مع المخاطب كناية عن التباعد وليس فقط من أجل الاحترام. (المترجم).

- إنهنَّ لا يفكرنَّ بالفكرة الروسـية إلّا عندما لا يرغبن في الإنجاب.

- لا تغضب، يا ساشا، - قال ليوفا مبتسماً.

لم يرد ساشا عليه. لقد غضب حقاً. ونفسه لم يعرف السبب. من حقيقة أنه خاض في هذا الجدال.

في ذلـك المسـاء لم يعـودا إلى الحديث، عـلى الأقل، عن «الأفكار»، ولكن في صباح اليوم التـالي، بعد أنْ انتهزا فرصة الاستماع إلى نشرة الأخبار التي صدحت من المذياع المنصوب في الردهة، بدأا يتحدثان مرة أخرى، وعلاوة على ذلك بالموضوع نفسه.

حكى ليوفا طُرَفاً.

وقال إنَّ روسـيا من الناحية النظرية - حصان، ولكن من الناحية العملية لا ينقل. وإنه حيث يبدأ الضمير في روسيا، يبرز تاريخ المرض على الفور. وقال الكثير من هذا القبيل.

- كلا، قـل لي، هل لديكم أيديولوجيـا؟ - احتدَّ ليوفا. - أم إنكم ببسـاطة تخدعون أنفسكم باسـتخدام مفردات حثالة الشيوعيين والفاشيين التافهة؟ - قال ليوفا بعد أنْ خفَّفَ قليلاً من حدة كلماته بابتسامة.

- أولاً، إنهم ليسـوا حثالة، يا ليفا، - أجاب ساشا من دون ابتسـامة. - ثانياً... وثانيـاً، لم تعد هنـاك أيديولوجيات منذ مَدة طويلة... في الوقـت الحاضر الأيديولوجيات... للغرائز!

وللوظيفية الحركية للجسم! أما الإرشاد الفكري فقد عفا عليه الزمن واختفى إلى الأبد.

- وماذا بشأن جماعتك الشيوعيين والفاشيين؟

- لا التربـــة ولا الشرف ولا النـــصر ولا العدالة - لا شيء مما ســبق يحتاج إلى أيديولوجيا، يا ليوفــا! والحب لا يحتاج إلى أيديولوجيا. كل ما هو موجـــود في العالم اليومي - كل هذا لا يتطلب أدلة أو مبررات. الآن هناك شيء واحد حيوي - إعادة تقســيم البلاد، إعادة تقســيم العالم - لصالحنا، لأننا الأفضل. فمن أجل أنْ تخلق الســلام، تحتــاج إلى القوة - هذا كل شيء. أولئك الذين يســعدني أن أتمسك بهم وأشــاركهم وأُضاعف ســلطتهم هم إخواني. كان من حســـن حظي أنْ أعرف الناس الذين ليس من دواعي الخجــل أن أموت معهم. كان بإمكاني أنْ أعيــش حياتي كلها ولا ألتقي بهـــم. ولكنني التقيت. وبهذا ينتهي كل شيء.

- ولكـــن هذا نوع من الأناركية (الفوضوية)، - قال ليوفا، وهو راضٍ تماماً، على ما يبدو، عن رد ساشا.

- يا ليوفا، إني بكل بســاطة لا أريد أن أسيء إليك، - كان أبسط لساشــا الذي ما زال يحدق في السقف أنْ يفكر ويتكلم وهو بهـــذه الوضعية، لكنه التفت إلى محدّثــه. - نعم، لا أريد، ولكنني سأقول. هذه ليست فوضوية. هذا هو الوضوح التام. من الواضح لي، يا ليوفا، إننا حزب شــيوعي فاشي. ليس ذلك

فحســـب، يا ليوفا، وإنما هذا الشعب «القديم - المنسي بالخير - الجديد» الـــذي أضْفَيْتَ أنتَ عليه الكثير من الصفات الرائعة، والذي هو كذلك مجتهد وطيب، هو أيضاً «شيوعي - شوفيني» نمطي. أنت أوحيت لنفسـك أنه ليـس كذلك. إنه اختار هذا المصير بنفسه، وربما، يحب ذلك.

- هل يعجبه أنَّ تاريخه بأكمله - هو تغيير بسـلطة أسـاليب التعذيب؟ - هنا بدأ ليوفا يغضب. - وعندما يسخط هذا الشعب تماماً يبدأ في «ضرب اليهود».

- أوه، يا ليوفا، لا بأس، دعنا لا نتحدث عن هذا... الروس لا يعرفون على الإطلاق من هـم اليهود وإنهم موجودون في الطبيعة. قبل عشر سـنوات، كان واحـد من كل ألف يعرف أنَّ مـارك بيرنس[1] كان، عـلى ما يبدو، يهوديـاً. ناهيك عن أوتيسـوف[2]. في جميـع الأوقات، كان المعادون للسـامية في روسيا إما من الأوكرانيين... الذين ألقابهم، على سبيل المثال، غوغول أو تشـيخوف أو بولغاكوف... أو مـن البولنديين، الذين أسـماء عائلاتهم دوستويفسكي... وفي أسوأ الأحوال، لافلينسكي... وبلوك كذلك، هولندي، كما يُقال عنه... والآن كونيايف، الـذي هو، على الأرجح، من التتار... بقية المعادين

(1) مارك نعوموفيتش بيرنس (1911 - 1969) - ممثل سينمائي سوفيتي. واحد من أكثر الفنانين المحبوبين في الحقبة السوفيتية في الخمسينيات والستينيات. (المترجم).

(2) ليونيد أوسيبوفيتش أوتيسوف (1895 - 1982) - فنان روسي وسوفيتي متعدد المواهب. (المترجم).

للســامية في روسيا هم اليهود أنفسهم... وبشكل عام، هذا لا يثير اهتمامي.

- إذاً، اليهود؟ - بالرغم من ذلك سأل ليوفا.

- في أسوأ الحالات، مجانين أو تعساء، - وافق ساشا بسلام.

- وإذا كانت البلاد كلها تتكون من المجانين والخاسرين؟ - ليس من دون خبث سأل ليوفا.

- أنا لا أعرف أيّ نوع من البلاد هذه... عدد التعســاء من بين اليهود، بالمناســبة، أقل منهم من بــين الروس، وفي المقابل عدد المجانين أكثر.

صمت ليوفــا، وقطَّب حاجبيه، وتنفــس بعمق من خلال أنفه.

- المســألة تكمــن في شيء آخر تماماً، - قال ساشــا، وقرر أنْ يكمــل الحديث طالما أنه بدأ. - إنَّ مــا كنا نتحدث عنه هو موضوع غريب تماماً، وحتى إنه مفروض، - كاد ساشا هنا أنْ يقول «أنت فرضته»، - ويجب علينا نسيانه تماماً.

- إذاً، أين تكمن المسألة؟

- تكمن في حقيقة أنه لا يوجد ســوى القرابة، ولا شيء غير ذلــك. إنَّ فهم ما يحدث في روســيا لا يعتمد عــلى حجم المعرفة وليس على السفسطة الذهنية، التي من خلال استخدامها يمكنك التعتيــم عــلى أي شيء تريد وعلى أي مســألة، ولكن يعتمد على شــعور القرابة الذي ينشأ في الإنسان، ربما في مرحلة الطفولة، ثم

بعد ذلك يتعايش معه لأنه لا يمكن التخلص منه. إذا ما شعرت أنَّ روسيا بالنسبة لك هي الزوجة، مثلما موجود في قصائد بلوك، إذاً، هكذا ستتعامل معها مثلما تتعامل مع الزوجة. الزوجة بالمعنى الإنجيلي التي يجب أنْ تلتصق بها، والتي تتزوّج منها زواجاً كنسياً وتعيش معها حتى الموت. لقد فهم بلوك[1] هذا ببراعة - فيما يتعلق بزوجته. الأم - أمرٌ مختلف - فالأمهات يُتركْنَ. والأطفال شيء آخر - يفرون في لحظة معينة مثل الملائكة إذا ما ربيتهم. أما الزوجة - فثابتة. الزوجة هي التي تستوعبها، من دون أن تتفحصها، ومن دون أنْ تنظر إليها باهتمام أو بنفور: مَن أنتِ، وماذا تفعلين هنا، هل أنا بحاجة إليكِ، وإذا احتجتَ إليها - فلأيّ شيء، ولكنك تحبها على كل حال، وهذا يملي عليك بالفعل كيف يجب أنْ تكون. وفي هذه الحالة لا يبقى لديك خيار. ليس صحيحاً، يا ليوفا، عندما يُقال إنَّ الحياة هي دائماً خيار. أحياناً لا يوجد خيار قطعياً. إذا كان لديك حب - فلا خيار أمامك. وإذا كان لديك وطن... فالشيء نفسه هنا...

تعب ساشا فجأة. وحتى إنه لم يدرك أنه يستطيع التحدث هكذا لمدة طويلة. علاوة على ذلك، لم يفكر قط في ما كان يقوله الآن. ربما، كل هذا الكلام غير المصاغ كان يكمن في مكان ما في

(1) الكسندر بلوك - شاعر روسي وأحد أقطاب المدرسة الرمزية (1880 - 1921). كتب قصائد «السيدة الجميلة» التي كرسها لحبيبته وزوجته ما بعد لوبوف ديمتريفنا مندلييفا، ذلك المثال الذي لاوجود له إلا في تصورات الشاعر وخيالاته. (المترجم).

داخله وتشكَّل في وحدة واحدة على الفور، بمجرد أنْ ظهرت الحاجة له.

هزَّ ليوفا كتفيه تجاهلاً، رداً على ما قال.

وبعد توقّفٍ قال:

- يمكنك أن تتجادل مع أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة، أمـــا مع أولئك الذين يريدون أن يثبتوا أنفســـهم في آرائهم فلا جدوى من الجدال.

- إنك لم تفهم أي شيء، - ردَّ عليه ساشا.

- وأنت لم تقل أي شيء.

وهكذا تشاجرا.

شـــعر ساشـــا بالانزعاج من النوم بصمت، وهو مستمر في تبادل الشـــجار الذهني، ولكن لحســـن الحظ، جاء روغوف. وجلـــب معه مرة أخرى الفاكهة والســـجائر. وحتى إنه جلب القليل من المال. من ماتفي، كما اتضح.

فخرجا للتدخين.

- ماتفـــي ظهر، - سرد روغوف الأخبـــار. - يبدو أن كل شيء طبيعي. «مكتب المباحث» لسبب ما تركهم وشأنهم.

استمع ساشا صامتاً. وشعر ببعض التحسن على الفور.

لقد كان روغـــوف متّزناً من الناحية العصبية ولكنه عنيد - وترك انطباعاً بأنه يرى العالم كالآلة التي إذا ما انحنى فيها شيء فيجب تعديله حتى لا تتوقف.

- باختصار، كان نصيبك الأكبر بيننا، - قال روغوف.

- لم يتضح بعد مـــا الذي يفعلونه هناك مع فتياننا في لاتفيا، - ردَّ عليه ساشا.

- هذا صحيح، - قال روغوف موافقاً.

«لماذا لم يمسّوا يانا؟» - فكّر ساشا.

وكأن روغوف خمّن ما كان يفكر به ساشا، قال:

- بعد أن أخذوك على الفور، شـــوهِدَت يانا تخرج من مبنى جهاز الأمن الفيدرالي.

حملق ساشا في روغوف.

- ثم ماذا؟

- ثـــم لا شيء. قيل هـــذا لماتفي، فأومأ برأســـه وأمر بعدم الثرثرة.

صمت ساشا، ثم قال:

- أردت أنْ أفهم شيئاً على الأقل.

ودخَّنـــا مرة أخـــرى، وعندما خرجا أربكـــه روغوف مرة أخرى، وهذه المرة أكثر إيلاماً، إذ قال له:

- اتصلت والدتك بالمخبأ. وســـألت مـــاذا حدث لك... وقالت جدّك مات.

- متى اتصلت؟ - سأل بسرعة ساشا.

- أول أمس.

- ولماذا لم تخبرني؟

- وماذا كنت ستفعل؟ هل كنت ستذهب؟ على ظهر «نونية التبوّل»...

وبعد أنَّ شيَّعَ روغوف، استلقى ساشا على السرير - وقد تشوش كل شيء في رأسه ولم يعد قادراً على التفكير.

مات الجدُّ... الآن لم يعد في الوجود أحد من آل تيشين. إنه الوحيد - ساشا.

حلم في الليل بجدّه. في الآونة الأخيرة، كان ساشا عموماً يحلم بشيء ما. الجدّ كان يجلس على مدخل الكنيسة المسقوف ويطلب الصدقات.

فاستيقظ - وكاد يبكي.

«ما يعني ذلك؟» - فكَّر ساشا.

كان ليوفا صامتاً، ويقرأ بتركيز. قلَّبَ الصفحات بسرعة. نظر ساشا في كتبه - التي حوت كل شيء: بعض الكتب المدرسية، وكلاسيكيات الأدب الأوروبي، وشيء من كتب التقليعة الحديثة، وحتى إحدى الروايات النسوية في غلاف رديء.

«استاء، وماذا، ليذهب إلى الجحيم»، - فكَّر ساشا.

استلقى، وتذكر جدَّه - كيف كان يحتضر بهدوء. وفكَّر - هل هذه الطمأنينة قبل الموت فطرية، أم إنها تظهر من التعب؟

طافت طفولته في ذاكرته بشكل سيئ. ومض وجه جدّه، لكنه لم يستطع أنْ يتذكر كيف كان يقطّب حاجبيه وكيف يتكلم. فقد ذهب كل شيء إلى مكان ما، من دون أنْ يتوقَّف...

بعد الغداء استولى الحزن على ساشـــا تماماً، وقال فجأة من دون أنْ يعرف السبب:

- ليوفا، لا تزعل مني.

- سامحك الله، لستُ مســتاءً. - لكنه لم يبتسم. نظر إلى ساشا، وعاد إلى الكتاب، ولكن كان من الواضح أنه لا يســتطيع القراءة. ينزلق بعينيه على السطور ثم يعود من جديد إلى أعلى الصفحة.

خرج ساشا ليدخّن، حتى لا يتأذى ليوفا.

«إنه رجل طيــب للغاية. لماذا تشــاجرت معــه؟» - فكَّر ساشا...

كان التدخين متعةً، في الأيام الأولى للتدخين الرأس يدور، أما الآن - فلا شيء. مجرد مهدئ.

حزنَ على جدِّهِ... ولكن ساشا قد اعتاد بطريقة ما على فكرة مفادها أنَّ الجدَّ سيرحل، وأنه على وشك أن تختطفه يد المنون.

ولهذا لم يكن حزنه شديداً، كما حزن على رحيل والده.

«أو، ربما، شــوَّهوا شــيئاً في داخلي؟ - فكّرر ساشا. - في مكان ما في أحشائي قطعوا عرْق الشفقة واستأصلوه... أليس كذلك؟»

لم يردَّ عليه أحد، فترك ساشا الموضوع ولوَّح بيده متجاهلاً.

في اليوم التالي أُخرِجَ ليوفا من المستشفى.

تصافحا. وقال ليوفا شــيئاً غير مهم، «أتمنى لك أنْ تتعافى بسرَعة».

ثم قال:

- البشرية تكرر تلك النكات نفسها مراراً وتكراراً. وتُطلِق العنان للمشاعر نفسها.

- للبحث عن العدالة؟ - ســـأل ساشا أو قال مبتعداً قليلاً عن الموضوع قليلاً.

- كلا، - أجاب ليوفا.

أزيلت الدرز من صدر ساشـــا. إنّها خيوط مضحكة - نظر إليها مندهشاً. فكّر - لابد أنَّ الإنسان، مثل الدمية، إذ يمكنك أنْ تأخذه وتخيطه. أو أنْ تفتح أحشاءه.

وسرعان ما سُـــمِحَ لساشا بالخروج من المستشفى - ويبدو أنه استعاد عافيته.

ســـار في الشارع ببطء، شـــعره طويل، مثل شعر الكلب. كان يعرج ويضع يده على صدره. ويشـــعر أحياناً بالألم، كما لو أنَّ قطع الزجاج بقيت في مكان ما في أحشـــائه. ولكن مع ذلك كان وضعه لا بأس به. والشـــارع يفوح برائحة أواخر الخريف.

أحزنه أمرٌ واحد فقط، أنَّ يانا لم تأتِ لعيادته مرة واحدة.

... وصل يجرّ قدميه إلى مقعد طويل.

جلـــس عليه، هادئاً، يصغي إلى نفســـه، كما لو أنه لم يكن في الشارع من مدة عام. لقد تجمد، فعلاً، بسرعة.

مشى يعرج إلى محطة المترو، وركب في عربة نصف فارغة، وشعر كأنه جندي، كاد أنْ يُقتَل، بطشوا به، ولكنه نجا. والآن هو راكب، ولا أحد يعرف ما حدث له.

بشكل عام، كانت مثل هذه الأفكار شبه الطفولية غريبة بالنسبة لساشا، لكن شيئاً ما قد أثار فيه الآن الشجن.

تارة يفكر في جدّه، وتارة في كوستينكو... ومن ثم في ليوفا.

«ليوفا، على حق، - هكذا فكّر. - الدولة - جلاد. تُجرّد حد العُري، وتضرب الضفيرة الحشوية».

«لكن هذه ليست دولتي. إنها غريبة... أم إنك غريب عنها، يا ساشا؟»

«كلا، لستُ أنا الغريب. إنها غريبة عن الجميع. يجب أن تُقتل».

فكر أيضاً فيما قاله ليوفا عن القرابة، وسأل نفسه: «وأنتَ هل لديك هذه القرابة نفسها؟... هل تذكر كيف هربت من قريتك... توجد قرابة، أليس كذلك؟»

«نعم، نعم، لكنني لا أعرف الكلمات لإثبات ذلك».

«حسناً، لا بأس... ويانا؟»

«ومَن تكون يانا؟»

«هل هي قريبتك؟ زوجتك؟ لقد خنتَها عندما شعرتَ بالألم... بل وحتى لعنتها؟»

«اتركني وحدي، لا أريد أنْ أتحدث. لا أريد. لم أخُنها. لم ألعنها. مجرد أنّي شعرت بالألم بشدة».

ثم اختبأ في مكان ما عن أفكاره. بدأ ينظر إلى بعض الناس. إلى رجل مقابله، إلى فتاة غير جميلة، إلى طفل... ولا سيما إلى الطفل: كان الطفل يحملق حملقةً تثير العواطف، ربما يبلغ من العمر سنة ونصف سنة. لطيف جداً. وحش صغير، أجل.

استقبله مَن في المخبأ بفرح، وأخذوه بالأحضان - فطلب منهم ساشا أنْ يكون العناق برِفق أكثر.

لم يكن ماتفي موجوداً، ولا يانا أيضاً.

في الحقيقة لم يعرف ما إذا كان يريد أنْ يرى يانا - لم يستطع التحقق من ذلك بأي شكل من الأشكال. ربما أراد. بيد أنه محرَج قليلاً بسبب سنه المقلوعة، ووجهه النحيف وغير الحليق الذي يثير النفور.

وسرعان ما استلقى، في مكان ما في الزاوية، في الغرفة المظلمة البعيدة من المخبأ. كان الأولاد في مكان ما وراء الجدار يصخبون، فجعله هذا يشعر بالراحة، فنام.

وفي الصباح، تأهّب الجميع للذهاب إلى تجمّع جماهيري حاشد - فقرر ساشا الذهاب، على الرغم من أنه في الصباح اتضح أنه ما زال ضعيفاً ولا يستطيع المشي بسرعة. لكنه أراد على كل حال.

أحبَّ ساشـــا هذه المسيرات الصاخبة والمحمومة في المدينة، التي يصاحبهـــا الصراخ والزعيـــق. ومن حولهـــا - الرايات المجنونة، في الداخل - الشعور بالنصر.

بعد أنْ أفـــزَعَ «الاتحاديّون» الناسَ في مترو الأنفاق توجهوا إلى مكان التجمع العام. كانوا يصخبون، ما تســـبب في نظرات المارة العدائية تجاههم. ومع ذلـــك، ثمة من كان ينظر إليهم في بعض الأحيان نظـــرة ودية، أو على الأقل نظـــرة اهتمام: « مَن هؤلاء المتوحشون الرائعون الذين يتسكعون هنا..».

شعر ساشـــا دائماً بالراحة داخل الحشد الصاخب والمتنوع، وسرعان ما أصبح مكوِّناً صغيراً فيه ولكنه عنيد.

تجمَّعوا عند النصب التذكاري للكاتب الثوري، واصطف في صفوف. كان النصب يقف مثل حريق أسود متجمد، ملقياً بظلاله المستقيمة الطويلة.

لمح ساشا في الحشـــد، «جماعته» أيضاً - الفتيان والفتيات من مدينته، فريقه. كان بينهم شامان - القوي البنية ذو الشعر الأسود. وبايالا - الموسيقي ذو العينين الصادقتَين والمجنونتَين على وجهه الجميل. ودالنوبويشيك - الذي كان في السابق فعلاً يقود شاحنته في جميـــع أنحاء البلاد، وهو الأكبر ســـنّاً في الفريق... وكان بينهم بوزيك أيضاً شـــقيق نيغاتيف، ذو الوجه الداكن: ابتسم ابتسامة جعلت ساشا يكاد ينفجر بالبكاء، وعانق بوزيك برفق. بالإضافة إلَى بعض البراعم الشابة - «اتحاديّو» الدفعة الجديدة.

- ومَن أنتِ؟ - ســأل ساشــا، وهو ينظــر إلى فتاة، صبية صغيرة.

- فيرا، - أجابت الصبية.

نظر الصِّبْية إلى ساشــا شزراً وبخجل: فقد عرفوا ما حدث لــه، ولهذا احترموه. ولكــن كان هناك الكثير مــن الناس من أمثالــه في الحزب الذين عانوا من الضرب والســجن والجوع، العشرات، وربما حتى المئات. شــعر ساشــا قليلاً بالخجل من اهتمامهم.

... بعــد الفــوضى الأخيرة في وســط العاصمــة، قررت الســلطات إحضار أعداد هائلة من الشرطة. لم يعتقد ساشــا في البدايــة أنه سيُســمَح بالتجمع والمســيرة - ولكن في المخبأ أوضحوا لــه أنَّ الســلطات لو حجبت مســيرتهم الصاخبة، لكانوا قد تجمعوا في مكان غــير متوقع من دون الحصول على تصريح. ولكان لزاماً على الشرطة أنْ يفرِّقوا الجميع: وهذا، كما هو معروف، أمر ليس بالهيّن.

«الأوباش، خائفون»، - فكّرَ ساشا. وأعجبه أنهم خائفون.

جابوا موســكو بخطوات واســعة، وهم يصرخون بأعلى أصواتهــم. ولم يكن بإمكان المارة رؤيــة «الاتحاديين» بوضوح من الرصيف الذي توقف عليه (المارة)، بعد أن التفتوا من بعيد إلى الدوي والقعقعة،- لأنَّ الشرطة أحاطت بالطابور من جميع الجوانب.

مدّوا خُطاهم - كما لو كانوا يقيسون أراضيهم. صاحوا: «ثورة!»

لاحظ ساشا روغوف بوجنتيه المتوترتين ونظرته المعتِمة. كان روغوف يصيح مع الجميع بصوت عالٍ وعناد، واثقاً من أنه كان يفعل الشيء الصحيح.

وكان كوستيا صولوفي، الذي سار بين اثنتين فاتنتين من «الاتحاديات»، يلوّح بعلم ضخم على عمود من البلاستيك يبلغ طوله أربعة أمتار وبالتالي خفيف. كان العلم يرفرف في الهواء كأنه حيّ.

سار ساشا في البداية في الصفوف ولكن بعد ذلك أدرك أنه يختنق وصدره يؤلمه.

مشى بصعوبة إلى الرصيف، متعَباً، في سترة مستَعمَلة لا تلائم حجمه - أُعطيت له في المخبأ.

تركه رجال الشرطة على مضض. نظر إليه أحد الأشخاص في بدلة رسمية نظرة مشوبة بالكراهية. لم يرد عليه ساشا النظرة مطلقاً. وفكّر بشكل غير متوقع لنفسه أنه يريد أنْ يقتل كل واحد منهم - ولن يتأسف لذلك.

اندفعت خلف ساشا فيرا التي قد تعرف عليها للتو، لكن لم يُسمح لها بالدخول بعد أنْ دُفِعَت بخشونة.

«أوغاد»، - فكّر ساشا. ولكنه لم يتدخَّل.

أقيم التجمع الجماهيري في الساحة التي وصل إليها الطابور في غضون نصف ساعة.

عندما وصل ساشا إلى الساحة، كان ماتفي يتحدث من على الشاحنة - شاحباً، بعينين سوداوين. استمع له «الاتحاديّون»، وهم يرتجفون، ومستعدين للانطلاق في أي لحظة - لتكرار ما فعلوه مؤخراً.

فجأة، لمح ساشا يانا على الشاحنة. كانت واقفة في الطرف، جادة وجميلة، في سترة جلدية، وكنزة شبه شفافة، ذات «ثقوب صغيرة».

«ألا تشعر بالبرد؟» - فكَّر ساشا.

شق طريقه نحو الشاحنة، ووقف خلفها ملامساً العجلة بمقدّم حذائه.

كان يدخّن بالجوار منه رجلان من ذوي الوجوه القبيحة والمؤخرات والأفخاذ السمينة، إنهما من الشرطة السرية في ملابس مدنية.

سمع ساشا حوارهما.

- الحقراء يقدحون بالرئيس! - قال أحدهما للآخر، وهو يومئ برأسه إلى الشاحنة ذات مكبرات الصوت. - ليتني آخذهم جميعاً وأشفي غليلي منهم واحداً تلو الآخر. ليتني شخصياً أمزقهم جميعهم.

أشاح ساشا عنهما بوجهه وهو يرتجف من الداخل، إما من الرعب أو من الكراهية أو بالأحرى من الاشمئزاز أيضاً.

«ماذا لو رأيتُ جماعتي الآن؟ - فكر ساشا في أولئك الذين عذبوه. - ثم ماذا أفعل؟ سأنظر إليهم بصمت؟ وأختَبئ؟»

لقد عرف بالطبع أنه لن يختبئ - ومَن سوف يمسه عندما يكون حوله المئات من «الاتحاديين». ومع ذلك تدحرجت موجة دبِقَة وخانقة...

أشعل من أحدهم سيجارة، وابتعد قليلاً إلى الجانب، وجلس على مقعد وبدأ يدخّن. كانت أصابعه ترتجف.

اختنق لثانية، عندما وجد فجأة يانا إلى جواره.

- مرحباً، - قالت مرحبةً به.

أومأ ساشا برأسه، من دون أنْ يفتح فمه خجلاً من سنه المفقودة.

- كيف حالك؟ - سألت يانا.

هزّ ساشا كتفيه بلا مبالاة.

- بخير، - قال منتقياً الكلمة. - يمكنني التحمل.

لاحظ أنها قصت شعرها أقصر. لهذا صارت تبدو أكثر قسوة وحتى أكثر غضباً.

«ولكن جميلة جداً، على أي حال...»، - فكَّر ساشا.

- لا تغادر، ماتفي يريد التحدث معك. هنا برزت فكرة: من الضروري رفع دعوة جنائية، - قالت يانا. - بخصوص حقيقة تعرّضك للضرب. كيف تشعر الآن؟

- لا أعرف، الأمر بالنسبة لي سيان... - أجاب ساشا وصمت.

شعر بدوار وبغثيان إلى حد ما.

- لماذا لا تتكلم؟ - سألته يانا.

- لماذا لم تأتِ إلـــيَّ؟ - ســألها. «جــاءت الكلمات غليظة وبليدة»، - لقد فهم ذلك بنفسه على الفور.

بدا لساشا أنَّ يانا تهمهم على نحو تهكمي، بمعنى لماذا ينبغي عليَّ أنْ آتي إليك، هل أنا زوجتك؟ وما أكثر الناس الذين لدينا في السجون والمستشفيات، هل ينبغي الذهاب إليهم كلهم...

لم تجب على ســؤاله، وأخرجت سيجارة رفيعة - بأصابعها النحيفة ذات الأظافر الزاهية الألوان.

أشعل ساشا لها الســيجارة، وآنذاك فقط لاحظ كم طالت أظافــره بحوافِّها القذرة - لم يكن ثمــة ما يمكن قصّها به، مرة واحدة أخذ المقص من ليوفا خلسة، فقد كان من غير اللائق أن يطلب منه، ربما كان سيشــمئز...، لكنه سمع خطوات في الممر فأعاده إلى مكانه.

ضغط يده ودخن في قبضة - مثل اللص.

- هل شُفِيَت جِراحُك؟ - سألته يانا. - لا شيء يؤلمك؟

مرة أخرى بدا لساشــا من صوتها أنها لا تهتم إنْ كان شُفِيَ أم لا، إنْ تألَّم أم لا.

- لماذا أخذوني، ألا تعرفين؟ - ســألها فجأة. - ألا تعتقدين أنكِ تسببتِ في تعذيبي؟ وإنَّ كل هذا بسببك؟

نظرت يانا إليه بعناية واندهاش.

- أنت معتوه، - قالت. ثم نهضت وذهبت.

نهض ساشـــا أيضاً، من دون أنْ ينتظر ماتفي، ومشى وهو يعرج إلى محطة المــترو. وصل إلى محطة القطارات، واشــترى تذكـــرة في قطار الضواحــــي - لم يكن لديه مـــا يكفي من المال لقطار المسافات البعيدة - وتوجه نحو المنزل.

ارتجف القطار وبدأ يقعقع مثل آنية مخرومة. وجالت تيارات الهواء المزعجة في العربة.

ركب بوجه حذِر.

غفا من دون أن يشـــعر، على وقـــعِ قعقعة العجلات، وهو يلف نفسه في السترة من البرد.

في المنام، خدرت يده، فتراءى أنها - مرة أخرى في الكلبشات وسيشعر بالألم الآن - فصرخ مرعوباً، واستيقظ.

نظر جاره المقابل مذعوراً.

ابتلع ساشا ريقه. وضيّق عينيه نفوراً من كل شيء حوله: في الخارج، في الماضي وفي المستقبل.

وتذكر أيضاً كيف حلمَ للتـــو بالعجلات التي تقعقع تحت قدميـــه. وكانت هذه العجلات مثل مفرمـــة اللحم التي تدور وتطحن شـــيئاً مقرمشـــاً وهشـــاً. وتطايرت في الحلم رُكَمٌ من التراب الأسود الرطب وعوارض السكة الحديدية وشيء آخر، أبيض وصلب...

الفصل التاسع

في الأيام الأولى من شهر ديســمبر (كانون الأول)، عندما كانت تنهال نتف الثلج الخشــنة والمزعجــة - وردت من ريغا أخبــار مفادهــا أنَّ الأولاد، «الاتحاديين» الذين شــاركوا في العملية، قد حُكِمَ عليهم بالسجن خمسة عشر عاماً. إذ أُلصِقَت بهم تهمــة وفق مادة قانونية غير معقولــة عن الإرهاب، الذي لم يحدث بأي شكل من الأشــكال: عندما صعد «الاتحاديون» إلى البرج وتحصنوا - لم يضربوا أحــداً ضربة واحدة. والقنبلة اليدوية، التي هددوا بها الحراسَ كانت مزيفة.

أظهرت نشرات الأخبار وجه القاضي المقرف - شــعرٌ شائب وشــفتان رقيقتان وعينان غاضبتان. لاوكرازي... لاوركازي... لوكريزه - نسي ساشا على الفور لقبه. وقيل عن القاضي إنّه بسببه حُبِسَ سبعة عشر من قدامى المحاربين في الجيش الأحمر في سجن لاتفيا في العامين الماضيين. توفي العديد منهم في الحجز - أحدهم توفي بســبب الشــيخوخة، والثاني لم تُقَدَّم له الإسعافات اللازمة بعد الإضراب عــن الطعام... ورجل عجوز آخر ظهر على تقرير

تلفزيوني - فقد عُرِضَت لقطات أرشـيفية بدا فيها مصاباً بالشلل الارتعـاشي، بيديه المرتجفتين، وهو يُقـاد إلى القفص على كرسي. وكان القـاضي في تلـك الأثناء يقلب بعـض الأوراق، في ملف القضية...

- يجب أنْ يُقتَل، - قال ساشا في حالة من التعب.

- يجب، - قال روغوف بتأمّل.

وكان ماتفي وروغوف قد جاءا لزيارة ساشا بغتةً.

جلسـوا على المائدة، وشربوا الشاي. ارتشـف ماتفي الماء المغلي، ونظر إلى الشابَّين، مضيّقاً عينيه. عندما نطق ساشا كلمة «يُقتَل»، ركَّز ماتفي بصره عليـه، وكأنه يزن مدى الجدية التي قيلت بها هذه الكلمة.

التقط ساشـا النظرة وفهمها، ونظر بهدوء إلى عينَي ماتفي وقال:

- أجل، يا ماتفي.

أومأ ماتفي برأسه إيماءة قصـيرة وحول الحديث إلـى موضوع آخر.

وبعدما انتهوا من الشاي، دعا الأولاد للخروج إلى الشارع وترك هاتفه المحمول في الشقة.

- يا ماتفي، أريد أن أعرف، - قال ساشـا، عندما خرجوا إلى الممر. - ماذا حدث آنذاك؟ مَن السبب، في ما جرى لي؟ لماذا فُقِد الهاتف المحمول؟

- عذراً، لأننا لم نُخبِركَ على الفور، يا سانيا، - أجاب ماتفي، وبعد أن التفت، خطا ثلاث درجات نحو الأسفل.

بدؤوا يدخنون في الشارع واستغرقوا في التفكير لمدة قليلة. ثم قال ماتفي:

- جاء إلينا في ذلك الوقت رجل... أسميناه سبيتس (المتخصّص). واقترح على الفور أنْ يقدّم للأولاد لدينا دروساً في القتال بالأيدي. لم يطلب مالاً، ولم يُظهر نوايا لاكتشاف الأسرار - فوافقنا. درَّب جماعتنا لمدة شهر ونصف شهر أو، ربما، أكثر. لم يتدخّل خلالها في أيّ شيء. لذلك، لم نعد نتساءل - إنْ كان جاسوساً مزروعاً بيننا أم لا. ولا بأس أنَّ الأولاد يتشقلبون ويتدربون. ثم عرض ذات مرة العديد من الهواتف المحمولة - كنا بحاجة إليها، وأنت تعلم أنَّ الحزب ليس لديه مال. فقال سبيتس إنه يعمل في أحد المراكز على استلام هذا النوع من المحمول غير المرغوب به. وقد تحققنا - فوجدنا أنه فعلاً يعمل هناك. فأخذنا منه الهواتف المحمولة. وبعد أنْ وقعتَ أنتَ في الورطة - اختفى سبيتس فجأة... وبخصوص الهواتف المحمولة الأخرى، كان هناك حديث عن عمليات أخرى - فكان لا بد من إلغاء تلك العمليات على وجه السرعة. أما فيما يتعلق بحالتك... فلا بأس، كل شيء واضح معك. لقد أنقذتنا.

- كفّ عن هذا، أنقذتكم، - قال ساشا ولوَّح بيده مستهجناً، - حقاً، لم أكن أعرف شيئاً.

- أجـل، أنقذتنا، - قال ماتفي مبتسماً. - في اليوم الثالث سرّب لي أحد الطيبين من «مكتب المباحث» معلومة مفادها أنّهم لن يأخذونا - لأنهم لم يكتشفوا أي شيء بخصوصنا. كان بمقدورك أنْ تقول، لكنك صمتَّ ولم تشِ بشيء.

- وأولئك الذين في لاتفيا؟ - سأل ساشا.

- إنَّ «الشرطة السرية» في لاتفيا لا يتواصلون مع «مكاتب أجهزتنا السرية». يعتقد اللاتفيّون بشكل عام أنَّ «أجهزتنا» هم مَنْ رتَّب كل شيء...

- ويانا؟

- مـاذا عن يانا؟ استُدعِيَت إلى «المكتب»، ولدينا هناك بعض المعارف من المباحث، لا بأس، إنهم معارف نوعاً ما، - من الذين يتابعوننا. جاءت وقالت إنها لا تعرف شيئاً. استعرضوا سلطتهم عليها، ثم تركوها تذهب. وبشكل عام، أثناء سير العملية، لم يؤخذ أحد غيرك. ببساطة لم يكن لديهم مبرِّر لذلك. فعندما أعددنا لعملية ريغا عملنا من دون أخطاء. لم نترك ثغرة واحدة. لقد كنتَ أنتَ فرصتهم الوحيدة... أنا، في الحقيقة، مندهش من كونهم لم يقتلوك ويطمروك على العموم، بعد التعذيب. كيف تشعر الآن؟

- شُفِي كل شيء، مثل الكلب.

- عادة ما يُقال، «مثل القطط».

- ولكنَّ ما فيَّ، مثل ما في الكلب. وأريد حقاً أن أفعل شيئاً سيئاً. ألا توجد اقتراحات؟

- لا يمكننا العمل هنا، - قال ماتفي. - استُدعيتُ قبل مدة قصيرة... بشكل عام، كنت في الكرملين.

- اللعنة، يا للهول، - اندهش. - في القصر نفسه؟

- نعم، فيه نفسه، الذي يجلس فيه الرئيس.

- وهل كنتَ عند الرئيس، فعلاً؟

- كلا. لن أقول عند مَن. ولكنّي كنت عند شخصية كبيرة جداً. قال لي: إما أن تصمتوا، أو يُحكَم على كوستينكو بالسجن لمدة 15 سنة ويبدؤون في إطلاق النار عليكم. قال ذلك بشكل مقنع للغاية. أعترفُ بصراحة: إذا بدؤوا في إطلاق النار علينا... لا بأس، كان ينبغي أنْ نستعد لهذا من مدة طويلة. ونحن مستعدون فعلاً. على الرغم أنَّ سعينا بأرجلنا إلى الحتف قبل الأوان ليس نافعاً. ولكن إذا ما سُجن كوستينكو لمدة خمسة عشر عاماً، فهذا أمر سيئ.

- وإذا ما سُجِنَ على أي حال؟»

- هناك أمل ألّا يُسجَن. دعنا ننتظر حتى المحاكمة.

- وماذا بعد؟

- لن نعمل هنا. سنعمل في الخارج. لقد بدأنا بالفعل. وسنواصل. توجد مسوّغات.

نظر ماتفي إلى ساشا، من دون أنْ يضايقه بنظرته أو أنْ يسأله عن أي شيء.

- لقد فهمت، وأنا مستعد. - أجاب ساشا.

- نحن بحاجة إلـى السلاح، - قال ماتفي. - هل تستطيعون إيجاده؟

هزَّ ساشا كتفيه إشارة على عدم معرفته.

- سنحاول.

- إذا عثرتم عليه، تعال إلى موسكو. سأقدم لك توصيات: كيف ومــاذا. وجميع العناوين. أين يســكن. والباقي - عليكَ أنت. أحتاج لصورك فقط. من أجل جواز السفر. هل الصور موجودة؟ هاتها الآن...

عادوا إلى المنزل، كانت الأم تُحدث ضجة في المطبخ. لم يقل لها ساشا شيئاً عندما وصل من موسكو. لم يعد يمشي في الشقة - كما كان من قبل - في سروال قصير ومن دون قميص حتى لا تلحظ أمه الندوب على صدره.

ولكنها، طبعاً، لاحظت أثر الســن المقلــوع ولاحظت أنه يعرج.

«تشاجرتُ»، - قال لها ساشــا آنذاك على عجَل. ثم تباهى بسنه الجديدة التي وضعها.

«يا له من ناب، يا أمي؟» نظر إليها وفكر: «هناك الكثير من الدموع في عينيك. حركيهما، يا أمي، هذا لا يطاق».

ولكنـه لم يقـل أي شـيء. وظلت هي صـامتة أيضـاً، ولـم تسأل.

وحتى بدا لساشا أنه خمن أفكارها. فقد اعتقدت الأم: «أنه لن يفعل أيَّ فعل شائن. ولا يستطيع..».

بينما هو في الحقيقة يستطيع. ويريد ذلك.

- لديك ضيوف، - قالت مبتسمة. وقد ابتسمت من دون خوف وعداء خفي، كما فعلت من قبل، حينما استقبلت «الاتحاديين» في المنزل بكل بساطة وبرحابة صدر. ربما غيرت الكثير من آرائها وأدركت أنها لا تستطيع تغيير أي شيء بعد الآن. وحتّى إنَّ الولدين من مظهرهما يبدوان طيبَين، كلاهما ماتفي وروغوف.

تبادلت معهما التحية على نحو وديّ للغاية.

- ليتنا، يا أمي، نأكل شيئاً ما، - قال لها ساشا.

- هل تريدون أنْ تتناولوا البيلميني؟

- نعم، نريد.

وضعت الأم ثلاثين كرة من البيلميني لكل واحد منهم، وأعدت دلواً صغيراً آخر من السلطة، وقطعت الجبن بسخاء.

رتبت الأطباق، وهي تنظر شزراً، ثم خرجت.

روى ماتفي قصصاً مضحكة عن «الاتحاديين». قبل مدة جاء فينيا بغتة من مكان ما، بعد أنْ لم يكن أحد يعرف أين اختفى. وفي تلك الليلة نفسها شارك في «هجوم» ليلي على سفارة لاتفيا - رُجِمَت جدران المبنى بزجاجات الطلاء، وخُطَّت على الواجهة كتابة سوداء: «من أجل شيوخنا، سنقطع آذانكم!»

طاردت الشرطة فينيا في أفنية البنايات، لكنهم لم يمســكوا به - تمكن من طمر نفسه في حاوية القمامة. زعم فينيا لاحقاً أنه لم تكن هناك سوى أكياس بلاستيكية كبيرة ولم تكن في الحاوية أيّ فضــلات طعام موحِلَة، لكن لم يصدقــه أحد. وأطرف ما في الأمــر، أنَّ الشرطة خطرت لهم فكــرة - ربما، أنه مختبئ هنا في مكبّ النفايات، فغرزوا فيه قليــلًا العصي المطاطية، لكنهم اشمأزّوا ولم يحفروا.

ولكن من جهة أخرى وقع فينيا يوم أمس بنفســه: كما كُتِبَ في الصحف الصفراء، قام جماعة «الأس أس» (اتحاد المبدعين) بالهجوم على سانتا كلوز.

مع قدوم الشتاء وِضِعَت في موسكو في عدة أماكن منحوتات ثلجية لســانتا كلوز. وقد حطَّم فينيا، الذي كان مخموراً، أحد هذه التماثيل بمجرفة - بســبب الكراهية تجاه عيد رأس السنة البرجوازي، حسب رأيه، وتجاه بشيره غير الروسي ذي اللحية المفرطة جداً.

وفي بطرســبورغ تمكن الأولاد «الاتحاديون» بطريقة ما أنْ يرســموا على أحد أجزاء جسرٍ متحــرِّك العضو الذكري. وفي الليل عندمــا يُرفَع الجسر - مباشرة مقابــل نوافذ مبنى جهاز الأمن الفيــدرالي كان ينتصــب العضو كبيراً مطليــاً بالدهان الأبيض.

وعلى أثر ذلك وضع جماعتنا في بطرسبورغ على برج المبنى الإداري مباشرة فزاعة للرئيس التي كانت في الواقع سبب دعوة ماتفي إلى الكرملين.

وفي ريزان اقتيد قطيع من الأغنام، 13 رأساً، مع لافتات تحمل اسم الحزب الرئاسي الأساسي. حاولوا الاستيلاء على الكباش كدليل مادي، ولكن «الاتحاديين» أعطوا اللوحات فقط...

ضحك ساشا بصدق على حكايات ماتفي الطريفة، لكنه شعر في الوقت نفسه بقشعريرة خفيفة مزعجة في قفاه، أو في أحد فقراته، بسبب ما وعد أنْ يفعله، والذي سيفعله بالتأكيد.

وصرف اهتمامه عندما أدرك فجأة أنَّ والدته خفَّضت صوت التلفزيون في غرفتها - من الواضح أنها اهتمت بالسبب الذي جعلهم هنا يضحكون هكذا.

وعندما رافقهم ليشيعهما («سكنا» في شقة فارغة لأحد «الاتحاديين» في المدينة، وفي صباح اليوم التالي واصلا طريقهما) خرجت الأم إلى الرواق. وودعت ماتفي وليوشا، وهي تتأمل بحذر في وجهيهما.

- لا بأس، ماذا يا أمي؟ - سألها ساشا عمداً بنشاط، بعد أنْ أغلق الباب. ونظر في المرآة، وكشَّرَ فهو ما يزال غير معتاد على سنه الجديدة.

فهزت رأسها ولم تجب.

ذهب ساشــا، منجذباً بشيء ما، إلى المطبخ على أثرها - قام الأولاد بغسل الأطباق بأنفسهم، فما كان على الأم إلّا أنْ تجمع الفتات من الطاولة وتشغِّل الغلاية.

- ساشا، هل يمكن أن يحدث شيء؟ - سألت، مع التركيز على الكلمة الأخيرة.

لم يكن ســؤالها حول الشيء الذي ضحكوا بســببه للتو في المطبخ، بل حول شيء آخر، فهمته الأم على نحو غامض.

- وماذا يمكن أن يحدث، يا أمي؟ لا بأس، ســيأتي الرفاق يرتدون الزي العســكري بطريقة ما، وسيفتشــون في أغراضي هنا. للوقاية فقط.

- إنه لعار، يا ساشا.

- هل تخجلين منا؟ - اندهش ساشــا. - العار عليهم. إنهم رجال بالغون ويحملون مسدسات على جانبيهم يأتون إلى هنا. لكي يقلّبوا جرائدي، ويتسلقوا على الطاولة. هذا عار عليهم، هم.

- ما لي وإياهم...

- وما شأنك بهم؟

- أنتَ، مَن يهمني.

- يــا أمي، إنهم حقــراء، إنكِ ترَيْنَ ذلك بنفســك. كلهم حِقراء.

- أرى.

- يجب أن يُعاقبوا!

- يجب.

- إنهم يفعلون أشياء مقرفة كل يوم.

- ولكن يا بُني، عندما هم يرتكبون أعمالاً سـيئة هذا شيء. وشيء آخر - عندما ترتكبها أنت.

أراد ساشا أن يجيب أنه لن يرتكب أعمالاً سيئة، لكنه تلعثم، فلوَّح بيده وخرج بسرعة.

أثناء المشي إلى غرفته، تمتم بلا تفكير: «لا أريد أن أعرف أي شيء، لا أريد أن أعرف أي شيء».

هوى على الأريكة. وتذكر نيغا، نيغاتيف. ووجهه الصارم دائماً، ذا العينين اليقظتين. وتذكر بوزيك أيضاً.

«إنّي أمقت...» - قـال، وأراد أثناء ذلك أنْ يضرب الجدار بيده، لكنه لم يفعل. وهكذا كان واضحاً أنه - يمقت ولن يغير رأيه.

- صبية تُدعى فيرا تتصل بك، - قالت الأم لساشـا وهي تنظر في والهاتف في يديها.

في الآونة الأخيرة، سارت معه، أو بالأحرى - خلفه - إنها نحيفة وغير جذابة، ولكنها شـابة ذات كتفين حادَّيْن وساقين بيضاوين مسـتقيميْن... ودائماً ما تذكَّر ساشـا كيف اندفعت إليه من خلال الطوق، فدفعها رجـال الشرطة الذين يرتدون المعاطف الطويلة...

قرر ساشـــا أنْ يجعل من حجرتها غـــير المريحة مخبأ للأعلام واللافتات - في السابق كانت تُخزَن عند نيغاتيف، لكن والدته الغاضبة ألقت أدوات الحزب في الشارع. وحسناً فعل بوزيك عندمـــا جمعها. وأثناء ما كان ساشـــا يحمـــل اللافتات الحمراء والأعمدة الطويلة إلى حجرة فيرا اعتاد عليها وألِفَها.

- ماذا، يا فيرا؟ - سألها ساشا بعد أنْ أخذ سماعة الهاتف.

- هل بإمكاني المجيء؟

- تعالي.

في البداية، لم يكن هذا الشاب موثوقاً به، ولكن من الواضح أنـــه لم يكن يهتم إذا مـــا وثِقَ به أو لا. فهو نفســـه لم يثق بأحد. إنه قصـــير، لكنه قوي جداً، ذو أكتاف مســـتديرة تقريباً ورقبة منفوخة، يبدو أنه كله منســـوج من عضـــلات الوحوش. كان عابس الوجه وذا ابتســـامة بغيضة - أسنانه بارزة، كما لو كانت مكبَّرة، وعيناه تخزُران - هذا كل ما فيه من بهجة البشر. ولكن حتى مثل هذه التكشـــيرة نادراً ما تظهر على وجهه - بشـــكل رئيس عندما يقوم أحد «الاتحاديين» المحليين من فرقة ساشـــا بأفعـــال متهورة للغايـــة. أحبَّ أوليغ هذا التهور. كان اســـمه أوليغ.

أحبَّ العـــراك، وكان عدوانياً، بل وحتى قاســـياً. خدم في الشيشـــان، وبعدما سُرِّح من الخدمة العسكرية، التحق بالعمل

ضمن القوات الخاصة في الشرطة، وذهب مرة أخرى إلى الشيشان وقام بخمس مأموريات...

ثم طُرد من القوات الخاصة - فقد قام أوليغ في مدينته بضرب شخصية كبيرة، وفي الوقت نفسه شقيق المدعي العام للمدينة، أثناء اعتقاله. كان الشخصية الكبيرة نفسه مخطئاً، لكن لم يرغب أحد في فهم ذلك.

شعر أوليغ بالإهانة، وكان شديد الحساسية بشكل عام، والحقيقة، أنه لم يُعجِبه «الاتحاديون» - لأن العديد منهم لم يخدموا في الجيش، ولم يرغبوا في ممارسة رياضة الكمال الجسماني، وعموماً لم يتصرفوا كالرجال - حسب فهمه بالطبع. إذ إنَّهم يكتبون على حيطان المدينة ليلاً، ويقذفون بالطماطم، ويقيمون حفلات موسيقية في الأماكن التي يتجمع فيها جمهور مخمور وصاخب من ذوي الشعر الطويل الذين تفوح منهم رائحة الكلاب، ويغنون أغنيات تافهة على أنغام القيثارات... «تبّاً لكم...»، - قال أوليغ، ولكنه على كل حال كان يأتي إلى التجمعات، وعدة مرات ساعد «الاتحاديين» بشكل عملي.

«تبّاً لكم، تبّاً، - كرر أوليغ، - ببساطة لا يوجد مكان للذهاب إليه. هلّا انتسب بعض الذئاب الشريرة إلى الحزب... هل انقرض الجميع؟»

أخذ أوليغ على عاتقه واجب التواصل مع الشرطة في التجمعات - كان يتفق أحياناً مع زملائه السابقين، وكان

المراتب ما يزالون يتعاملون معه معاملــة اعتيادية، على الرغم من أنهم يسمونه أحياناً دنيئاً بسبب صداقته مع «الاتحاديين».

وعندما كانــت تصل وحدات أخــرى، يُقبَض عليه في كل مرة بســبب الوقاحة، لكنه يتمكن مــن إثارة الضجيج أثناء جره إلى الســيارة حتى ينشــغلوا به ببســاطة وينسوا بقية «الاتحاديين» الذين سرعان مــا يتفرّقون بعد أنْ يطووا راياتهم.

ثم عُرِضَ وجه أوليغ الحانق على قنوات التليفزيون المحلية - وكيف يسحبه أربعة أشخاص أو حتى خمسة إلى سيارة ذات ضــوء ومضي. لقد كان فتى مروَّضاً - يثير الكثير من الضجيج ولكن حســب توضيح ظروف الاعتقــال، لم يتجاوز تصرفه الأهوج أكثــر من عقوبة الحجــز الإداري وفق مــادة التمرد المتعمَّــد. ليكن أنه، صرخ بأعلى صوته، أو أطلق الســباب. لا بــأس، قد يكون جــرف الأرض أيضاً من العشــب بأصابعه القصيرة والقوية أو اقتطع شيئاً من الأسفلت والشجيرات على جانــب الطريق، أثناء ما كان حماة تنفيذ القانون يجرونه، بعد أنْ سقط عفوياً على بطنه.

كان يجيد تمثيل حالة الهســتيريا، إلى درجة يبدو معها وكأنه لم يعد يســيطر على نفســه ومن غير المرجح أن يعود إلى حالته العقلية. أَلِفَ ساشا مشاهدة هذه النوبات من الهستيريا (سواءً في التجمعات وفي حالات الشــجار، وعندما كان أوليغ يطارد

الأوغاد المتسكعين الذين لا تطيقهم روحه) وأدرك أنَّ هذا الفتى ماكر. بل وحتى إنَّه ماكر بشكل مقرف، مثل حيوان متوحش.

بطبيعة الحال، كان قادراً على أن يكون رصيناً وحاضر الذهن. فإذا ما خاض فعلاً في حوار مهم، مع أي شخص، فإنه ينظر في عينيه ويجيب بشكل معقول ومختصر، مثلما يجيب المساجين في السجن على الأرجح.

كان يغيّر أسلوبه في التصرف على الفور، ولم يشعر بأي شفقة على كائن حي - فهو مستعد في الشجار ليكسر أصابع أيّ شخص. وقد كسرّها فعلاً ذات مرّة - وسمع ساشا تلك الطقطقة، وتذكرها.

لقد كره رجال السلطة - كلهم بلا استثناء - وتمنى لرؤساء الوزراء وللمحافظين الموت - الحقيقي والمادي، ويفضل أن يكون غير عاديّ وبطيئاً.

كان لدى أوليغ سلاح جلبه من الشيشان، استبدله هناك في مكان ما بزجاجة من الشراب. هو نفسه أخبر ساشا بذلك ذات مرة.

ولكن ساشا اعتاد ألّا يتذكر أي شيء غير ضروري، ولا يستعلم التفاصيل، وحتى لا يحمل في رأسه معلومات غير ضرورية يمكن استخراجها بطريقة أو بأخرى على نحو حرفي تماماً. لذلك، لم يعرف نوع السلاح وما إذا كان ما يزال باقياً.

عندما تحدث أوليغ عن وجود السلاح - لم تكن ثمة حاجة إليه بعد. الآن ها هم يحتاجونه.

اتصل ساشا بأوليغ هاتفياً وذهب بصحبة فيرا إلى منزله. وكان قبل هذا قد زار أوليغ مرة واحدة فقط.

رن جرس البـــاب، صاح أوليغ بأنَّ البـــاب مفتوح. وعند الدخول رأى ساشا أوليغ بالقرب من مرآة كبيرة - وقف عارياً تماماً، وجنبه باتجاه الداخلين.

ارتبك ساشا قليلاً، ولوّى شفتيه على الفور بابتسامة صادقة، لكنها محيِّرة إلى حد ما.

- تعال يا ســانيا؟ لماذا أنت واقف؟ - غطى أوليغ عورته براحة يده ولوَّح بيده الأخرى نحو الغرفة. - ادخلوا إلى هناك...

تسلَّلَت فيرا وهي تقهقه مثل جرس ناعم.

- لماذا أنت متعرٍّ هكذا؟ - سأله ساشا.

- استحممت، - أجاب أوليغ.

لقد كان مبلَّلاً قليلاً بالفعل. ونسَّمَت منه برودة - يبدو أنه اغتسلَ بالماء البارد.

- هاك، انظر إلى هذه القذارة التي تورَّمت، - أوضحَ أوليغ، - لا يمكنني ترك المرآة حتى أقضي عليها.

- لا بأس، لا بأس، - قال ساشا، ومشى على أثر فيرا.

كانت جالسة بهدوء على حافة الأريكة، مبتسمة ومن خلال ابتســامتها أدرك ساشا أنَّ جســـد الرجل العاري ترك انطباعاً

عميقاً في نفســها، وبوجه عــام... كانت مســتمتعة... وإنها مســتعدة من مدة طويلة، وتريد. ولكنَّ ساشا لسبب ما لم يُرِد أي شيء.

كان من الممكن، بالطبــع، حتى معها... إذ لا يمكن للمرء أن يعيش من دون هذا. لقد بدأ في المدة الأخيرة، بعد أنْ شُــفيَ صــدره قليلاً، يعذب نفســه عدة مرات في اليــوم، من خلال ممارسة تمارين الضغط (نزولاً وصعوداً) والشّد، ولاحظ كيف نمت لديه عضــلات رقيقة ومتصلبة. وأصبــح نحيفاً وقوياً. وأصبح رأسه فارغاً وخالياً من الصدى. لا أحد يدوّي داخله، ولا بكلمة واحدة، وذهبت ذكريات الطفولة المبهرجة من غير رجعة. وصار يزمّ شفتيه فحسب إذا ما رأى أكياس السلوفان – عندما تسحب والدته الخبز منها بعد أنْ تعود من العمل، وذات مرة مزق هذا الكيس إلى قطع صغيرة بأصابعه المرنة والحقودة.

– لماذا فعلتَ هذا؟ – سألته الأم.

لم يُجِب بالطبع. أنّى له أنْ يعرف لماذا.

– كيــف هي الأمور هناك، بخصوص نيغاتيف؟ – ســأل أوليغ، وهو يدخل عليهم في شورت.

نظرت فيرا نظرة خاطفة في منطقة الورك، وقد لاحظ ساشا ذلك.

– لا شيء، إنه في السجن.

– هل تصل منه رسائل؟

- واحـــدة... وصلت رســالة واحدة. اتصلــتُ ببوزيك وأخبرني. كتب فيها أنَّ كل شيء على ما يرام ويشعر بالارتياح. قرأ لي بوزيك الرســالة بالهاتف. حســناً، إذا ما كانت الرسالة تحتوي على خمس وعشرين كلمة. ولكن، حســب ما أعتقد، في تلك الرسالة كلمات أقل...

أومأ أوليغ برأسه، وحتى لوحِظَ على وجهه ما يشبه الأسف إلى حد ما.

لم يُبدِ أوليغ نوعاً من المودة لأحد من «الاتحاديين» المحليين مثلما أبداه لنيغاتيف وبوزيك. شيء ما أســعده فيهما. ربما كانا يشبهان رفاقه في الجيش - الأكثر طيشاً وتهوراً. أولئك الرفاق الذين قُتِلوا.

والحقيقــة أنَّ أوليغ لم يرَ كيف يداعــب نيغاتيف الزهور - ربــما، لم يكن هذا يعجبه. ولكن، لا أحــد يعرف باطن أوليغ، فلربما أعجبه ذلك.

- هيا بنا، لندخّن؟ في مدخل العمارة؟ - اقترح ساشا.

- وأنا؟ - سألت فيرا.

- أنتِ، اِبْقَيْ شــاهِدي شيئاً ما. أوليغ، هل لديك ما يمكن مشاهدته؟ هل لديك صورك الشخصية بعباءة التمويه وقاذفة القنابل؟

وفي المدخل، ســأل ساشــا على الفور وبشــكل مباشر عن السلاح. أو بالأحرى، أعطى تصوّراً عنه، على كل حال.

- قلتَ إنَّ لديك مثل هذه الأشـياء، - وأشـار بيده كيف يطلق الفرد النار.

هز أوليغ رأسه.

- هل هذا ضروري؟

- ضروري، قال ساشا مؤكِّداً.

- هل تستدعونني؟ - سأل أوليغ.

- لا أعرف بعد.

- ومتى تحتاجونه؟

- يمكن أنْ نقول، اليوم.

- يمكن أنْ نقول، هيا بنـا، إذاً، - قال أوليغ مكرراً نغمته على سبيل المزاح.

- هيا بنا، - وافق ساشا. - ماذا نقول لفيرا؟

- سأخبرها بنفسي. إننا ذاهبان لمدة نصف ساعة.

ارتـدى أوليغ سروال جينز وقميصاً قديماً وسـترة قديمة. وانتعل بسطاراً.

- هل هي فتاتك؟ - سأل، أثناء نزولهما في المصعد، من دون أنْ يخفي ذلك النهم الذكوري في صوتـه، الذي يميز الاهتمام بتحديد صفة العلاقة.

- لا أعلم...، - أجاب ساشـا، من دون أنْ يفكر فعلاً في السؤال، بل كان يفكر في شيء آخر.

- لماذا، «لا أعلم»؟ هل تنام معها؟

- ربما، - أجاب ساشا، ومرة أخرى في غير محله.

- غريب الأطوار، آه، - كشّر أوليغ عن ابتسامة مشوبة بالانزعاج. - كيف خدمت في الجيش، وأنت غريب الأطوار بهذا الشكل؟

- خدمتُ بشكل اعتيادي، - أجاب ساشا مبتسماً أيضاً.

وفي الأسفل، أخرج أوليغ رزمة من المفاتيح من جيبه، وطلب من ساشا أنْ يمسك المصباح اليدوي الذي استلّه من جيب آخر. فتح الباب القديم والصرار المؤدي إلى القبو.

- أنِرْ، - أمَرَه.

- ما جرى لك، كيف تحتفظ به في القبو؟ - سأل ساشا.

- وأين يمكنني الاحتفاظ به، أفي المنزل؟ أو في الداتشا[1]؟

- هلّا دفنته في مكان ما.

- في المدينة ليس ثمة مكان لدفنه، ولو دفنته خارج المدينة... فلربما، فجأة يلزمك استعماله، على وجه السرعة. فمن غير المعقول أنْ تبقى ترمي الطماطم طوال حياتك؟

لم يرد ساشا. من الواضح أنه لا يريد الآن...

(1) الداتشا - منزل موسمي أو دائم، يقع في العادة في ضواحي المدن الروسية والبلدان الأخرى في الاتحاد السوفيتي السابق. تعد منازل الداتشا شائعة في روسيا، وهي منتشرة أيضاً في بلدان الاتحاد السوفيتي السابق وبعض بلدان الكتلة الشرقية. ويمارس المقيمون في الداتشا صيد السمك وصيد الحيوانات ونشاطات أخرى لوقت الفراغ، وتعد الزراعة أيضاً من النشاطات المرتبطة بالإقامة في الداتشا. (المترجم).

أخرج أوليغ مصباحاً يدوياً آخر من جيبه، وجعلا يضيئان معاً. ومع ذلك كانت الإنارة سيئة. سارا، أحدهما خلف الآخر على طول الممــر الضيق والعفن والمنتِــن، وأرجلهما تخفق على نحو مزعِج. امتدت على اليمين أنابيب الماء الســاخن الملفوفة بالخِرَق. وبدا على اليســار بناء يشــبه الغرف تكدست فيه على الأرض أكوام من سقط المتاع العبِق والذي لا حاجة لأحد به. يمكن للمرء هناك حتى أنْ يخفي جثة.

سمع ساشا صأصأة بوضوح فقال لأوليغ:

- حيوان ما يصأصئ.

- وما أدراني مــا يكون، - أجاب أوليغ بلا مبالاة، وصرخ على الفور بفظاظة: - آه، اللعنة!

- ماذا؟ - تقدم ساشــا من خلف أوليــغ، وهو يمســح الأرض بضوء المصباح اليدوي.

- إنــه جــرذ، - قال أوليــغ في وجوم. - الجــرذان، ربما، تصأصئ. تكاثرت القوارض هنا. منذ أنْ فُتح مطعم شعبي في العمارة. في السابق لم تكن موجودة...

ثم واصلا المشي. حاول ساشــا أنْ يضيء لنفسه تحت قدميه - لم يكن يريد أن يدوس بقدمه على جرذ.

فوبَّخه أوليغ قائلاً:

- أنِر الطريق، ألا تسمع؟ أنت تسير خلفي، لا يمكن أنْ تطأ أيّ شيء... على الأقل هنا. هاكَ خذ، أنِر بالمصباحين كليهما.

بدأ أوليغ يبعثِر كومـــة من النفايات - دفع أريكة موضوعة عموديّـــاً وأســقطها، وبعثر بعض الأثاث المكســور. وأخرج مجرفة من التي تُســتَعمَل في صنف ســلاح الهندســة من علِى حزامه، وجرف بها الأرض قليلاً، فســمع الصوت الذي يريد ســماعه، فحفر بسرعة وسحب كيســاً. وفلَّه بعناية. فومضت خرقة مغمورة بالزيت على ضوء المصباح اليدوي. والماســورة السوداء. إنه مسدس من نوع ماكاروف.

ســحب أوليغ مخزن الطلقــات ونظر إليه ثم مسَّــد عليه بأصابعه - إنه ممتلئ.

- توجــد أربعة مخازن أخرى احتيــاط، - قال وهو يُدخِل المخزن في المقبض.

كان ساشا ينير بالمصابيح ويسمع بوضوح الصأصأة القريبة والصاخبة والمتعددة الأصوات. وسأل بنفور:

- لماذا هذه الجرذان تصأصئ إلى هذا الحد؟

- وما أدراني. دعنا نذهب ونرى.

رفع أوليغ المسدس من نبيطة الأمان وشدَّ الترباس ثم دفع الطلقــة إلى حجرة الطلقات. ورفع يده مع الماســورة - كما لو كان يتسلّى.

- أنِرْ بسطوع أكثر، - ســأل، بمرح تقريباً، ولكن بهاجسٍ حيواني (يجعل الدم يندفع في عروقه بهمس) بوقوع شيء ما.

ســارا نحو الصأصأة عدة أمتار أخرى ووقفا هناك، حيث الصوت قوي بشكل خاص.

وجه ساشـــا ضوء المصباحين إلى هناك، وهـــو فزع قليلاً مـــن الداخل - كما لـــو كان خائفاً من رؤيـــة شيء خارج عن المألوف...

وفعلاً رأى.

دفع أوليغ عربة متداعية، فصارت الصأصأة فجأة أكثر حدة وإزعاجاً، واختلج على ضوء المصباحين المرتجفين ما لا يقل عن عشرة من خطوم الجرذان. لم تهرب الجرذان.

هدّأ ساشـــا يديه المرتجفتين بعصبية، وبأكبر قدر ممكن ركَّز ضوء المصباحين بشكل متقاطع على مصدر الصوت.

- اللعنة! - قال أوليغ. - ما هذه القذارة!

ابتلع ساشا ريقه.

- اقترب أكثر، - أمرَ أوليغ. - قلتُ، أقرب!

تقدم ساشا إلى الأمام، فتحرك شعاع المصباحين إلى الجانبين مـــن دون انتظـــام ثم عاد مرة أخـــرى، بعد أنْ وجد المنشـــود الصاخب والمثير للاشمئزاز.

تجمّعَـــت الجـــرذان (كان عددها لا يقل عـــن العشرة) معاً وتشابكت بذيولها وبعضها بجوانبها أيضاً. شكَّلَت ذيولها كتلة متشـــابكة، بحجم القبضة، والتصقت بهذه الكتلة المتشـــابكة أنـــواع القذارة والقطـــران والزغب الوســـخ. كانت الأرجل الأمامية للجـــرذان تتحرك، لكنها لم تتمكن من الزحف إلى أي مكان، لأنّها أعاقت حركة بعضها بعضاً.

تفحَّص ساشا أرجل الجرذان الخلفية وهو يرتجف بعصبية، فرآها يابسة ولا تتحرك.

كانت العيــون الشريرة الصغيرة، كما يبــدو، تنظر نظرات فظيعة تماماً. ولم تتوقف الصأصأة المحمومة.

خفَض أوليغ الماسورة على حين غرّة وأطلق النار في منتصف الكتلة - أحد الجرذان، كما بدا لساشا، انفصل إلى نصفين تقريباً، فانكشفت أحشاؤه الداخلية القذرة المختلطة بتشوّش.

لم يكد ساشا يجد الوقت ليشتم أوليغ، حتى أطلق ذلك النار مرة أخرى وبدا أنه ضرب مباشرة في كتلة الذيول المتشــابكة. بــدأت العديد من الجــرذان، التي تحرّرت فجــأة من بعضها بعضاً، تزحف، وهــي تجر أرجلها الخلفيــة وراءها، وكانت ذيول بعض منها قصيرة، وبعضها الآخر، على العكس، ذيولها طويلة للغاية.

أوليغ، الذي قد تمكن من دسّ المسدس في جيبه، داس على ظهر أحد الجرذان ثم ضربه بمهارة وخفقٍ شديدٍ بالمجرفة على رقبته فانقسم الحيوان على الفور إلى قسمين. وضرب جرذاً آخر بالمجرفة نفسها من جنبها المُفَلطَح عدة مرات.

مزَّق الجرذان وســحقها، وضربها بكعب حذائه الثقيل على رؤوســها وأصعَقَها، واســتخدم المجرفة من جديد، وشــطر بغضب أجسادها المُقرِفة، وهو يلعن في بعض الأحيان بصوت أجَش.

زحفت عدة جرذان وهي تسحب خلفها العجينة الممزوجة مــن أمعائها الدقيقــة. زوج من الجرذان فقــط ملتصقان معاً بجنبيهما لم يكن بإمكانهما أنْ يفترقا، فبقيا يدوران في مكانهما.

لاح في الضــوء الخافــت وجه أوليغ الذي شــوَّهه تقلّص أخرق - إما من الضحك أو من الضغينة. وأفلَتت منه المجرفة وسقطت ســقوطاً حاداً، مثل الصقر، وعندما وقعت أصدرت صوتاً قوياً ورنّاناً.

- هل هذا كل شيء؟ - سأل أوليغ بعد ثلاث دقائق تقريباً.

نضح الدم، وكانت عدة جرذان ترتجف بأطرافها متشــنجةً وتلمع حتى في الموت بعيونها المكروهة.

- هيّا بنا، نخرج من هنا، - قال ساشا.

عاد ساشا إلى المنزل مع فيرا من دون أن يخبرها بأي شيء.

اشترى زجاجة شراب بالقرب من المنزل.

- لماذا أنت هكذا، ماذا جرى لك؟ - سألته فيرا.

- كل شيء على ما يرام. اصمتي.

فصمتَت مطيعةً.

ذهبت الأم إلى المناوبة الليلية.

فاحت من الشقة رائحة الكنس والنظافة والأرضية الرطبة.

- هل تشربين معي؟ - سألها ساشا. - لكن بصمت. - هل تريدين مني أنْ أُشغّل الموسيقى؟

- شغلها، - وافقت فيرا وهي مذعورة قليلاً.

سكب ساشا لنفسه أولاً وشرب على الفور، بلهفة، من دون أن يتناول أيَّ مزَّات. ثم سكب قليلاً في كأسين. قطَّع تفاحة. ثم قطَّع ليمونة. نظر إلى الليمونة بعناية، متذكِّراً (ليمونة يانا).

- هل يمكنني أنْ أشرب مع الليمون؟ - سألت فيرا.

رفع ساشا بصره إليها، ونظر إليها نظرة ثقيلة ومن دون معنى. ثمَّ هز رأسه.

شربت فيرا، وغضَّنت وجهها من حدة الشراب، فمزمزت بقطعة من الليمون فتلوَّت أكثر. وفركت أنفها الصغير وظهرت الدموع في عينيها. فابتسم ساشا يرثي لها وقال:

- يا حُمَيقاء، تعالَي إلى هنا.

قبَّلها في فمها الصغير، فحاولت أن تتصرف بشكل متصنّع قليلاً، ولكن من رغبة صادقة في أنْ تعجبه وتُظهِر الشيء الإلزامي في المرأة، وهو ما لم يوجد في فيرا حتى الآن.

أمَرَها ساشا أنْ تذهب إلى الغرفة، فمَشَت رويداً مقاربةً الخَطْو ولسبب ما وهي تغطي سروالها الجينز بكفِّها المقلوب والمفتوح الأصابع كل الفتح ولهذا لا يحمي.

خلعَ ملابسها بهدوء في الظلام، ومسَّدَ على جسدها طويلاً وهو مغمَض العينين متخيّلاً بالطبع غيرها. ثمّ أدارها، مطيعةً، ومَتنهدةً بين الحين والحين كأنها تشكو تقريباً.

تذكر وجه يانا - بذلك التعبير الغريب والمتوتر واليقظ لامرأة تصغي إلى أحاسيسها - امرأة ما تزال شابة لم تفقد ذوقها في البحث عن الجديد - وتتلاءم مع الذوق، - فتذكَّر، وبسرعة شديدة، بعد أنْ ضغط أسنانه من دون إصدار صوت، عانى ألماً تقريباً، وليس فرحاً - وأحسَّ بتشنجِ ألمٍ معتم وقصير.

غادر في اليوم التالي. لقد صنع لنفسه في الحقيبة قعراً ثانياً بمساعدة قطعة من الورق المقوى، وأخفى المسدس هناك، لفَّه في ملابس داخلية ووضع معه كتابين. لم يقطع تذكرة قطار المسافات الطويلة، بل قرر السفر بقطارات الضواحي - حتى لا يدخل اسمه في قاعدة البيانات مرة أخرى. فقد حدث أن قبض رجال الشرطة السرية على «الاتحاديين» في طريقهم إلى موسكو - لاسيما عندما تُقام احتفالات كبيرة في العاصمة، يطلب «المركز» من الأقاليم تتبع حركة الأشخاص غير الموثوق بهم - «الاتحاديين» في المقام الأول.

وقف ساشا على رصيف المحطة، ولديه شعور بالوزن غير المعتاد للحقيبة - فقد بدا له أنَّ أيّ شخص يأخذها في يديه سيفهم على الفور أنَّ شيئاً غريباً وممنوعاً وضِعَ هناك.

لقد ذُهِلَ قليلاً عندما ناداه أحدهم. اختلج بعصبية، لكنه تماسك. واستدار ببطء.

اقترب منه بيزليتوف مبتسماً.

- مرحباً، يا ساشـــا! هل استـــأتَ منّي آنذاك؟ لقد بحثتُ عنك. هل أنت بخير؟

بقي ساشـــا مذهولاً للحظة، ثم أجاب بشيء ما. وقال إنه غير مستاء وكل شيء على ما يرام. فقال بيزليتوف:

- رافقت أمي في زيارتها. ذهبت إلى أختي. ما أزال أخشـــى قيادة السيارة في الشتاء.

- هل اشـــتريتَ سيارة؟ - سأله ساشـــا، على الرغم من أنه بالطبع لم يهتم بطرائق حركة بيزليتوف.

- نعم، نعـــم، لأن لديَّ وظيفة مختلفة الآن. أنا وأنت الآن، يا ساشـــا، من طبقتين مختلفتين، أو أعداء، كما نســـمى عندكم، - قال بيزليتوف مبتســـماً. - أنا أعمل هناك، - ولوَّح برأسه إلى مكان ما باتجاه مركز المدينة.

أومأ ساشـــا برأسه وكأنما فهم ما يدور حوله الحديث، لكنه في الحقيقـــة لم يفهم. فقد كان يراقب ببصره حركة القطار الذي سيركب فيه.

- لا بأس، يجب أنْ أركب، - قال ساشا.

- اتصـــل بي، أرجـــوك، عندما تأتي! هل أنت مســـافر لمدة طويلة؟

- لا أعرف، - قال ساشا، وهو منزعج من الداخل.

- اتصل، اتصل بي. أريد أن أعرفك أنت وأصدقاءك أيضاً علىَ شخص مثير للاهتمام.

ضيَّــق بيزليتوف عينيه، وشــعر أنــه يعامل ساشــا بطيبة وبحرص فعلاً، وهذا ما أزعج ساشا أكثر.

- نعم، سأتصل بك، - أجاب ساشا، وصافح يد بيزليتوف بسرعة ودخل القطار.

«كل شيء يجري بحماقة بشــكل أو آخر...» - فكر ساشا. لكنه لم يرغب في تغيير أيّ شيء. ولم يكن ثمة شيء ليُغَيَّر.

الفصل العاشر

استقبله ماتفي.

تعانقا.

كلاهما كان قليل الكلام.

- هل حصلت عليه؟ - سأله ماتفي.

- حصلتُ، - أجاب ساشا.

- مسدس جيد؟

- يقتل.

- سنسلمُه إلى جامعة التذاكر التي من طرفنا. وستُخبّئه عندها. وتُسلمّه لك في ريغا.

- هل سأذهب إلى ريغا؟

- وإلى أين تظن؟

- ومن سيسمح لي بالدخول؟

- لدينا جواز سفر «مزيَّف» والتذكرة باسم... صاحب الجواز. لذا الآن لديك اسم آخر... هاك، امسك... تذكّر ما اسمك. الوثائق اعتيادية. - أضاف ماتفي، وهو ينظر إلى وجه

ساشا المهموم إلى حد ما. - هل كنتَ تفضِّل القفز من القطار؟ بين الأعمدة المسرعة نحوك؟

- لا أدري، - أجاب ساشــا، بعد أنْ لاحــظ ذهنياً كيف استخدم ماتفي بشــكل متلازم في كلامه اسم الفاعل. «على ما يبدو كلمة «المسرعة» - اسم فاعل..».

- علاوة عــلى ذلك، أُلغيَ خط ســانت بطرســبورغ - كالينينغراد، الذي يمــر عبر لاتفيا، بمبــادرة من اللاتفيين. والآن لا يوجد مثل هذا القطار. وهم يعانون خســائر فادحة من هذا. كما أخفناهم على كل حال آنذاك عند الاستيلاء على البرج...

سارا في الشارع الموســكوفي المسائي. كان الناس يتحركون باتجاههم بسرعة. فكّر ساشا بإحساس غريب أنه إذا ما اكتشفوا ما يتحدث عنه هذان الشابان، فعندئذ...

... ثم ماذا سيحدث؟...

«لاندهشوا، ربما... ونظروا من حولهم...» - فكَّر ساشا.

- هذا عنــوان منزل... الهــدف... وهذا عنــوان العمل. وهنــاك أرقام الهواتف. حُجِزَت لك تذكرة العودة، ولكن هذا أنت الذي ستقرره بنفسك. وفقاً لما ستؤول إليه الأمور... هل سيمكنك آنذاك السفر هكذا... على المكشوف.

تســاقطَ الثلج. نزل مباشرة بشكل مســتقيم - لم تكن ثمة رياَح. كان الثلج يشبه مخطط القلب لرجل يحتضر - فالخطوط

المستوية تنكسر في بعض الأحيان بشكل حاد، ثم تمتد مرة أخرى لتصل إلى أسفلت الشارع.

كان لديه شعور بأنه سيُقبَض عليه فوراً عند مدخل القطار. سيحدث شيء سخيف وأحمق، على سبيل المثال، جامعة التذاكر، امرأة متعبة ترتدي ملابس زرقاء، بعد أنْ تنظر إلى جواز السفر تقول بالاشمئزاز: «لكن هذا ليس أنت! أنت - ساشا تيشين! جواز السفر مزيف! انظروا إليه، أيها الناس! جواز سفره مزيف!»

لكن جامعة التذاكر لم تقل شيئاً.

صعد إلى الرف العلوي في مقصورته - وتساءل طويلاً ما إذا كان ينبغي عليه أنْ يخلع حذاءه - فهُم على كلّ حال سيأتون ويعتقلونه، فسيتعين عليه أنْ ينتعله مرة أخرى.

المسدس، الذي سلّمه ساشا لماتفي، يكمن الآن في مساحة بين السقفين في مرحاض الدهليز غير الشغّال، في الطرف الآخر من القطار. أُخبِرَ ساشا باسم جامعة التذاكر ورقم عربتها فقط، بعد أنْ قيل له إنه ينبغي عليه الذهاب لجلب المسدس قبل وقت قصير من الوصول إلى ريغا، قبل نصف ساعة تقريباً. وستُسلِّمه له بعد أنْ يجيب عن السؤال المتفق عليه.

استلقى ساشا وجعل يفكر كيف ستُسلِّمه المسدس، فالناس هناك يتحركون في كل مكان، وسيلحظون كيف تدسّ جامعة التذاكر لشابٍّ شيئاً ملفوفاً.

فُتح باب المقصورة، نظر ساشا إلى الرجل الذي دخل بعينين مفتوحتين كلّ الفتح، حتى إنَّ الرجل نظر من حوله بعين الشك، بعد أنْ ألقى نظرة على صدره وكتفيه - هل لُطِّخَ بأي شيء.

وسرعان ما أعرض ساشـا عنه، ووبَّخ نفسه. ولكن عندما دخل الراكب التالي، لم يتمكن مرة أخرى من كبح نفسه ونظر. مرة أخرى رجل.

«ربما، رجال الشرطة السريّة يتجمعون؟»، - اعتقد ساشا.

وبدأ ينظر إليهما شـزراً، لعله يعثر عـلى علامات تبعيتهما للأجهزة الأمنية. العلامات، بالطبع، موجودة.

بعد بضع دقائق، استدار ساشا إلى الحائط متعَباً من هذا كله.

ودخل شخص آخر أيضاً.

ثم تحرّك القطار.

راقب ساشا موسكو وهي تبتعد عائمة، ضجرةً ومُثلجة.

فُحِصَـت التذاكر، ومن جديد لم يهتـف أحدهم بأنَّ قاتلاً ركب في العربة باسم مسـتعار، وأُعيد إليه جواز السفر. وكاد ساشا أنْ يسأل: «هل هذا كل شيء؟» استلقى، جاهداً ألّا يفتح عينيه، محاولاً عـدم التفكير في أي شيء، خاصـةً حول ما هو قادم. أهم شيء - أنْ يصل إلى هناك. أنْ يصل، وحسْب.

«أنْ يصل»،- كرر ساشا. وغفا بأعصاب متوترة، مستيقظاً بين الحين والحين، وهـو ينظر بعينين زائغتين إلى ما هو موجود حَوله في المقصورة، ثم ينام مرة أخرى.

تحرك القطار - وكأنه عِرقٌ فيه يُجَرّ. على وشك أنْ ينقطع، ويصدح بألم يائس في أحشائه، وسوف تتقطع أوعيته.

... أو ليس عرقاً، بل عصب من لثته الموجِعَة، من جوف سنه - وعلى أثر العصب امتدّ رأسه الموجِع كله بعينيه المتوحشتين، كما لو كان العصب قد نما من الجذر، متسلقاً في أعماق الجمجمة، ومتشابكاً في الدماغ، ليتوغَّل في عظم الجمجمة نفسه. فما أنْ ينقطع العصب، حتى ينهار الرأس كله.

تقلَّبَ ساشا على الرف العلوي. وأحسَّ أنَّ ثمة الكثير من العظام في جسده - وطوال الوقت ضايقته مرفقاه وركبتاه وعموده الفقري، كانت تريد أن تنكسر وترقد كالهلام الناعم.

لم يَنْهَرْ، ونهض مغتاظاً، وكأنه كله متكوّن من عروق وعظام فحسب، وذهب يدخّن في الدهليز. نفث الدخّان بقوة في الزجاج. تبدد الدخان، فتجلى وجهه في شبه العتمة مكوّناً من قطعة واحدة.

فهمَ ساشا، - «كلا، ليس ثمة شرطة سريّون، لا في العربة، ولا في أي مكان. لن يوقفوني. لن يوقفوني. لن يوقفوا أي شيء..».

وفي الدهليز، أدرك ساشا فجأة أن الثورة حتمية. ونظر في وجهه فرأى كيف كانت الثورة تقترب، وتحمل الرعب والغضب - ولا ثمة مأوى يمكنه اللجوء إليه.

قبل ما يقارب أربعين دقيقة مـــن موعد الوصول إلى ريغا، ذهب ساشـــا إلى جامعة التذاكر. تحدّث معها، وسألها السؤال المتفَق عليــه، فأومأت برأســـها، من دون أنْ تنظـــر في عينيه. اشترى من جامعة التذاكر بعض الشوكولاتة وزجاجة من المياه المعدنيـــة. فوضعت كل هذا بعناية في كيـــس. وفي قعر الكيس وضِع المسدس ملفوفاً بورق خشِنٍ.

في الدهليـــز، دسَّ ساشـــا الكِيس مع المســـدس بسرعة في سرواله. وشـــدَّ الحزام مرة أخرى. وبعد أنْ تأبَّط الكيس الذي فيه الماء والشوكولاتة ســـار عبر العربات مرتدياً كنزة عريضة، مسرعاً ونشيطاً وحذراً ومسعوراً من الداخل.

تحرك النـــاس من جنبـــه ومقابله. وصدح الـــكلام باللغة اللاتفية. ابتســـم لكل من قابلـــه. لكنهم نادراً مـــا ردوا عليه بابتسامة.

كان ساشا مســـتعداً لضرب وقتل أي شخص، ولهذا كانت ابتسامته خفيفة بشكل لا يصدق. تأرجحت على وجهه، عديمة الوزن تقريباً.

في المقصورة، ابتســـم ساشـــا لرفاق الـــدرب عندما كانوا ينظرون إليه. وفجأة، شعر أنَّ المسدس يكمّله إما بوزن روحيّ أو بـــدني إلى حد الثقل اللازم - إلى درجة وقفت قدماه في ظلها بتماسك ورأسه انتصب بثبات.

ارتجف القطار وصرَّت الفرامل. أحبَّ ساشا هذا الصوت دائماً.

«وصلنا».

سار باتجاه المحطة، بالكاد ممسكاً نفسه عن أنْ يبدأ يصفّر بلحن ما.

كان الشارع أكثر دفئاً بشكل ملحوظ مما عليه الحال في موسكو.

«كلا، لن أمشي في المدينة على قدمَيّ. لنذهب بسيارة أجرة».

استقل سيارة أجرة، قائلاً اسم الفندق باللغة الروسية.

سائق سيارة الأجرة، رجل ذو شعرٍ أشقرٍ وعينين لا تعبّران عن شيء، انطلق من مكانه حتى من دون أنْ يومئ برأسه. مدَّ ساشا ساقيه. ونشر ذراعيه بسرور وهزّ كتفيه قليلاً.

«يا ترى، هل يفهم اللغة الروسية؟» - فكّر ساشا في السائق بتهكّم.

كان الرجل يطقطق بسنّه باستمرار. حدق ساشا إليه. ورغب بأنْ يأخذ الرجل من خصلات شعره المتشابكة على قفاه ويقول له: «لا تطقطق»، - بعد أن يضرب رأسه مسبقاً على عجلة القيادة.

«وهكذا، نتعرف على ريغا!» - قرر ساشا على نحو احتفالي، بعد أنْ فتح النافذة - فغطّى ضجيج الشارع على الطقطقة المزعجة.

«أرى جسراً. على أوتاره يمكن عزف لحن معيَّن. على الجانب الآخر هناك بلوط. المدينة مريحة ونظيفة. تعجبني هذه الأماكن».

نظر إلى سكان ريغا، وملابسهم، واقتنص نظراتهم، بل وحتى إنَّه لوَّح بيده لإحدى الفتيات. فلم تتفاعل معه.

توقفا أمام مدخل الفندق مباشرة.

ناول السائق ورقة نقدية، وشكك في ما إذا ما كانت مجزية. فاتّضح أنها مجزية.

طقطق السائق للمرة الأخيرة بسنّه وابتعد بصمت من دون أنْ يقول وداعاً.

دخل ساشا إلى الصالة مبتسماً.

- مرحباً، أنا من روسيا! - قال لموظف الاستقبال.

فردّ عليه الابتسامة بأدب.

في الغرفة، خلع حذاءه ورقد على السرير، متمدِّداً بسعادة. ورأى على منضدة السرير دليل المدينة، نوعاً من كتيِّبات الإعلانات، فمدَّ يده ليتناوله، وقال متسائلاً بصوت عالٍ:

- حسناً، ما هو برنامجنا الثقافي هنا؟

تفحَّص خريطة ريغا، ولفظ بصوت عالٍ الأسماء التي لم تكتب باللغة الروسية:

- نهر... دوجافا. شارع سامبيتر. شارع لوباناس... وأشياء باسم ستيبنيك... (متنزّه) بيبيربيك...

مطار «ريغا» الدولي بطائرة مرسومة. «أو، ربما، اختطف طائرة صغيرة وانقض على منزل القاضي؟» - فكّر ساشا ساخراً بكآبة.

وجد الشارع الذي تقع فيه المحكمة. وهذا هو مكان إقامة السيد القاضي. فاختلج شيء على نحو ضعيف في أحشائه وخمد على الفور. نظر ساشا بعناية إلى الخط المنحني للشارع الذي فيه منزل السيد الذي حكم على أصدقائه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً.

أحسَّ فجأة بثقل المسدس الذي بقي كامناً تحت الكنزة، مضغوطاً بالبنطلون.

«أين أخفي المسدس؟ - فكَّر ساشا. - لا يمكن الاحتفاظ به في الغرفة، سوف تعثر عليه المنظِّفة. يجب أنْ أذهب لأدفنه في متنزّه. أين متنزهاتهم هنا؟ - عاد ساشا إلى الخريطة مرة أخرى.

اغتسل، وحلق ذقنه غير الجميل والقليل الشعر. وضع المسدس في كيس بلاستيكي، ولفه بإحكام بشريط لاصق كان قد جلبه معه حتى لا تتسرب الرطوبة إلى داخله، ودسَّ المسدس من جديد في عبِّه ووضع خريطة المدينة في جيبه وذهب في نزهة. باتجاه أقرب حديقة عامة.

حدّق بعينيه السريعتين واليقظتين، بحثاً عن قامات رجال الشرطة في الشارع. كانوا نادراً ما يوجدون، لكن ساشا على كل حال سعى بعناية إلى تجنب المرور بالقرب منهم إذا ما سنحت الفرصة لفعل ذلك بشكل غير واضح وبلا استعجال.

كانت الشوارع الصغيرة، التي تشبه لعب الأطفال تقريباً، تسرُّ العين. لقد استمع باندهاش إلى كلامهم. وفكَّر: «كل هذا

العدد الكثير من الناس، والجميع لا يتحدثون باللغة الروسية، كيف لا يشوشون...» فهو لم يكن في الخارج أبداً.

رأى قطاً على حافة نافـذة، فمدّ يده ومسَّد عليه قائلاً: «... يـــا قطتي، يا قطـــة»، - فقوَّس القط ظهره بحنـــق، وفحَّ. رفع ساشـــا يده عنه، وهو يلعن - فطلَّت امرأة بوجهها من النافذة على الفور، ونظرت باستياء.

«السياح الروس يهاجمون القطط اللاتفية»، - تصوَّر ساشا غلاف إحدى الصحف المحلية.

اشـــترى آيس كريم، وتلذَّذ بأكلها مبتسماً. هكذا بدا شكله عندما التقـــى وجهاً لوجه مع شرطي، الذي ابتســـم له أيضاً، وكشّر عن أسنانه اللطيفة رداً على ذلك.

راجع الخريطة مرة أخرى وأدرك أنَّ المتنزه قريب.

انتصبت أشـــجار المتنزه بهدوء وهيبة. لمســـها ساشا بيديه، متحسِّساً اللحاء بأصابعه.

كان ثمة عدد قليل من الناس في الحديقة.

حاول ساشا المشي ببطء، حتى يتمكن من فهم مكان إخفاء المسدس بالضبط. لم يرغب أنْ يفارقه. فقد اعتاد عليه.

«وإذا ما عثـــر عليه كلب غبي؟ - اغتمَّ ساشـــا. - فآنذاك سأخنقه بيدي»، - ردَّ على نفسه بجدية.

مشـــى لمدة طويلة ثم عاد، بعد أن اختار مسبقاً مكاناً جيداً وهادئاً وشجرة كبيرة أعجبته.

حاد عن المسار المطروق. وتحرك بخطى سريعة في عمق المتنزه، وحاول ألّا يدوس على الثلج إلا نادراً وأحياناً يقفز من رقعة ذاب الثلج عنها إلى رقعة ذائبة أخرى.

جلس ملامساً اللحاء بكتفه، وبحركات قوية حفر بسرعة حفرة صغيرة، ووضع الكيس هناك. وألقى عليها التراب، ورشها بأغصان صغيرة وجافة وداس المكان قليلاً ومشى عائداً خفيفاً بشكل غير متوقع. يبدو أنه لم يكن ثمة أحد في الجوار. ويبدو أنه لم يره أحد.

وأثناء العودة في الطريق، أمعن النظر إلى بعض الأشجار القليلة الملحوظة، وحاول بشكل عام أن يتذكر المنظر العام - حتى لا يتشوّش وتختلط لديه الأشياء فيما بعد. وقبل أنْ يخرج من المتنزه، حسَب الخطوات. فعدَّ ثلاثمئة وثلاثاً وعشرين.

مشى عائداً من دون أن يتخفّى. وعندما يرى الشرطة يتمنى أن يوقفوه ويفتشوه. لكن لا أحد فكَّر أن يوقف ساشا.

وفي الطريق مرَّ ساشا بمقهى - جلس على طاولة، وأشعل سيجارة، ولسبب ما في انتظار القائمة في يد نادل خدوم: لم ينوِ أنْ يطلب أي شيء. فهو حتى في روسيا زار المقهى عدة مرات فحسب - إذ لم تسمح حالته المادية بذلك.

قرر أن يرتاد المقهى اليوم من أجل القاضي، وسيشرب الشاي فقط.

سيجد فحسب منزل وعمل السيد... لواركيزي؟ لوكريزي؟ اللعنة، نسي مرة أخرى.

جاءت فتاة هادئة غير مبتسمة جاحظة العينين. وناولته القائمة.

- شاي، - قال ساشا، من دون أنْ يفتح المحفظة السميكة الداكنة التي تحمل أسماء الأطباق.

سألت شيئاً باللغة اللاتفية.

نظر ساشا إليها بعينيه المبهجتين.

- شاي، - كرر بصوت عالٍ، كما لو كان يتحدث إلى شخص يعاني من ضعف في السمع. - مجرد شاي. مع السكر. حلو.

أومأت الفتاة برأسها.

أحضروا له الشاي من دون ليمون. وأخذوا القائمة.

دخَّن سيجارتين، وتفحَّص ببصره جميع زوار المقهى. كان الشاي لذيذاً. هطل الثلج الناعم في الشارع سريعاً وبقطع صغيرة، والتصق بشكل غير محسوس على الطريق المرصوف بالأحجار.

«هكذا تختفي حلوى «غزل البنات» أيضاً بشكل غير محسوس عندما تأكلها»، - تذكر ساشا إحساس الطفولة.

ومرة أخرى أحسَّ بالطمأنينة والغبطة. طقس مثالي لإطلاق النار على شخص ما.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً للوصول مشياً إلى المحكمة. وحتى إنَّ ساشا تأسف لأنه دفن المسدس بعيداً.

«إنها مدينة جذابة وجميلة وساحرة، - فكَّر ساشا وهو ينظر إلى البنايات الجميلة الوردية والبيضاء والبيج وإلى الطريق المرصوف بالحجارة تحت قدميه والنوافذ العالية في المنازل والصغيرة في العلّيات. - لماذا يعيش هنا أناس أشرار؟ لو لم يكونوا أشراراً بهذا الشكل، لما قتلهم أحد».

على طول الطريق انتصبت أشجار تشبه المكانس الأنيقة. بالقرب من الحواجز كان الثلج خشناً، ولا يُعرَف من أين أتى، مثل هذه القمامة. إنَّ وجود الشتاء في المدينة غير محسوس تقريباً.

وثمة الكثير من المصابيح. بعض منها كانت تقوّس رقابها الرفيعة، وبعض منها انتصبت على ساق سوداء رقيقة، وأخرى معلقة مثل البراميل فوق الأبواب.

كانت الشوارع نظيفة للغاية، وظل الماشي يندفع على ضوء المصابيح.

اللافتات والإعلانات قليلة للغاية. قرأ ساشا اللافتات في مقاطع، بصوت خافت.

اجتاز طريقاً سريعاً ثلاثي الخطوط تسير عليه حافلات جميلة - أكبر شارع قابله، ثم اتجه إلى العمق مرة أخرى في أزقة ريغا القديمة. على ما يبدو كانت هذه مدينة ريغا القديمة التي تحدث عنها أحدهم ذات مرة. ربما في الإذاعة؟

إنَّ شوارع ريغا الصغيرة، على عكس شوارع المدن الروسية المستقيمة، متعرجة وغالباً لا يمكن رؤيتها بالكامل - لا يُرى

سـوى عدد قليل من المنازل فقط، وعـدد قليل من المصابيح، وبعض واجهات العَرض الجميلة، ولكن البسيطة ذات الضوء الوردي الدافئ في الداخل. البيوت ملتصقة مع بعضها بعضاً، وغالباً لم تكن ثمة فجوات بينهما.

«لابـد أنَّ نيغا قد تجـول هنا في مكان ما»، - فكَّر ساشـا. وتخيّل نيغاتيف أمامه، وتذكر شيئاً عنه، بعض الحوادث.

وفجأة أدرك ساشـا أنَّ في شـخصية نيغاتيف يكمن أهم شيء: ألا وهو الشـعور الفطري بالكرامة الداخلية. ومن ثمّ، ربما، بالصدفة، ضُمِّنت في المدونـة العامة للمفاهيم الصبيانية العادية غير القابلـة للتجزئة كلمة مثل «الوطن». وهذا كله قد حُسِم.

لم يكن نيغا وحده على هذا النحو، فقد كان «الاتحاديون» كلهم متشابهين: ففـي سن 14، و17 سنة، و19 سنة - كان لدى كلّ واحد منهم تقريباً الإحساس بالكرامة، المتميز والخالي من أيّ قصد.

كان ساشـا على يقين من أنه لن يحـدث أيَّ شيء لنيغاتيف في السجن في كل وقت: ببسـاطة لأنّ مثل هؤلاء الأولاد لن يسيء أحد إليهم. ولا يمكن الإساءة إليهم، إنهم مجبولون بشكل مختلف - أسـهل شيء قتلهم. ومـرة أخرى كل شيء بسـيط، ولكن ما العمل لو كان الأمر كذلك.

ولأنَّ ساشا كان مسـتغرقاً للغاية في التأمّل، لم يلحظ نفسه كيف وصل - ورأى فجأة لافتة برقـم على ركن أحد المنازل،

فتذكــر هذا الرقم، لكنه الآن نظر إليه كما لو كان للمرة الأولى، غير عارف إنْ كان هذا الرقم فأل سعدٍ أم لا.

ومن دون أنْ يحســم الأمر، استدار وعبر إلى الجانب الآخر من الشارع.

عــاش القاضي في منزل من طابقين مطليّ باللون الوردي في زقاق جانبي هادئ. المنزل محاط بسياج. والبوابة الحديدية تُقفَل من الداخل.

نظر ساشا إلى النوافذ بكل هدوء، بعد أنْ ضيق عينيه. وتخيل أنَّ الســتارة ستُسحَب الآن، وســيطلّ وجه القاضي، وصورة ظليةٍ داكنة، ويدان بيضاوان... وســوف يهدد ساشا بإصبعه: «سأُريك!»

هزَّ كتفيه وذهب يتمشــى في الجوار. بحث لنفسه عن مقعد في مكان يمكنه الجلوس فيه بهدوء وينتظر. لم يكنِ ثمة مقعد.

«ســأجلب لنفسي كرســياً من الفندق، - فكّرَ ساشــا، - وأضعه هنا، وسوف أنظر. وأحتاج كذلك إلى مسند لوحات... سأتظاهر بأني أرسم لوحة..».

هَمْهمَ ساشــا متذمــراً، بعدما تذكر رســومات أيام طفولته ودرجات ثلاث[1] (مقبول) التي نالهــا في مادة الفنون الجميلة. «ستكون لوحة جميلة... سأقول إنني مفاهيمي. من أتباع المدرسة البدائية. تكعيبي. فاشي..».

---

(1) درجات التقييم في النظام التعليمي الروسي هي: اثنتان – راسب، ثلاث – مقبول، أربع – جيد، خمس – ممتاز. (المترجم).

كان يتجول، ويتساءل مع نفسه، عما إذا كان القاضي يتمشى في المساء مع كلب، وإذا كان يتمشى، فأين، وهل يتناول الإفطار في مقهى، وهل يُنقَل من العمل بسـيارة، أو في بعض الأحيان يعود إلى المنزل سيراً على الأقدام بعد أنْ يتعب من الجلسات.

إذا ما كان يُنقَل، فربما تدخل السـيارة خلف السياج وهناك فقط يترجّل منها. فسيكون الحال آنذاك سيئاً.

«سـأجري إلى هناك، فتُغلَق البوابة، وسـأجلس على ظهر القاضي، انتظر الشرطة. جيد..».

عاد إلى الفندق، متعَباً، اشـترى بيتزا في الطريق، وزجاجة شراب. تناول هذا بسرعة وبسرور. وسقط نائماً.

بعد أن نام من دون أحلام، اسـتيقظ في تمام الساعة الثامنة، واستحم، ابتسم بهدوء إلى موظف الاستقبال الجديد وخرج إلى المدينة. استنشق الهواء البارد، واستل الخريطة من جيبه وتوجه إلى المحكمة.

أَحبَ ريغا أقل خلال النهار، ربما لأن رأسه تجمد.

سـار بسرعة، وهو يتنفس من أنفه ويكشر عن أسـنانه، التي ضربها البرد برفق.

عثر على البناية من دون صعوبة - وعندما شاهدها، أحسَّ فجأة بقلبه، كان ينبض بقوة وعزم.

لم يدخـل إلى المبنى، قرر أن يعود إلى هنا في الرابعة مسـاءً. وَسوف ينتظر. فعلى الأقل، يلزمه أن يعرف ما إذا كان القاضي

يصل إلى المنزل بالسيارة أو سيراً على الأقدام. وإذا سيراً على الأقدام - فبأيّ طريق يسير.

«بالمناسبة، سوف أنظر إلى الخريطة الآن..».

من المؤسف أنه لم يكن ثمة أيَّ أناس تقريباً بالقرب من المحكمة - إذ لم يرغب بالوقوف وحده أمام المبنى وينظر في وجه كل مَن يخرج من الأبواب الثقيلة.

«هل أشتري ناظوراً؟ - فكّر ساشا وهو ينظر من حوله بحثاً عن نقطة يمكن للمرء أن ينظر منها من خلال الناظور. لم يكتشف هناك مثل هذه النقطة.

مشى إلى أقرب مقهى وشعر فجأة بالجوع. أخذ بنفسه القائمة المنتفخة من المنضدة وعاد بهذا الكتاب الكبير إلى الطاولة الفارغة في ركن المقهى. أسماء الطعام والشراب مكتوبة بلغة غير اللغة الروسية. قلَّبَ ساشا القائمة بسرعة ووضعها جانباً وهو يشتم ذهنياً.

- أريد حساءً، - قال ساشا للنادل القادم. - هل لديكم حساء؟ أيّ حساء؟

أومأ الرجل برأسه.

- والشراب. هل لديكم شراب؟

- نعم، - ردَّ عليه فسُرَّ ساشا لأول كلمة روسية سمعها هنا.

- إذاً، اجلب لي، مائة وخمسين ملليلتراً. وبعض السلطة. كلا، مئتين. وسلطة. هل يتأخّر الطلب؟

- سنسخِّنه الآن.

- ولكن لا تُسخِّنوا الشراب.

ذهب النادل من دون أنْ يبتسم.

«ولماذا لم يقترح عليَّ أنْ أختار حساءً معيَّناً؟ - فكر ساشا. - ومع ذلك، الأمر عندي سيان. أنا آكل كل شيء».

لقد اعتاد أن يـأكل كل شيء، ولم يكن صعب الإرضاء في الطعام، ويشرب كل شيء أيضاً.

أُحضِر له الحساء بعد ربع ساعة، وخلال ذلك الوقت دخن ساشا ثلاث سجائر. وكانت تدور في رأسه أفكار مقيتة، وكان يشعر بالغثيان.

بـدأ في تناول الطعام واكتوى بـه وجعل يحدّق في الشراب من طرف عينيه. تململ قلِقاً على الكرسي - ربما بسـبب الجوع الذي لم يخمد بعد. كان الشراب يتأرجح في الدورق داعيةً إياه. فسـكب منها، وشرب في جرعة واحـدة، وأكل الخبز، وكوى نفسـه مرة أخرى بالحساء. فصعَّر وجهه. ولكنه شعر في داخله بحنان ودفء.

بعد بضع دقائق استرخى وبسط ساقيه تحت الطاولة وبدأ ينظر إلى الناس في المقهى. لم يلحظ أي شيء يثير الاهتمام في أي شخص.

وبعد أنْ أنهى الشراب، وهو ينفخ في الحسـاء، طلب لنفسه مِئـة ملليلتر أخرى مع السـلطة. ثم فكَّر: «السـلطة ما زالت موجودة والخبز... أي طعام يمكن أنْ يؤكل من دون شراب».

بعد نصف ساعة، أصبح ساشا ثملاً ومتراخياً. طلب قائمة الحســاب، وضع ورقة نقدية كبيرة، انتظر حتى جيء له بالمبلغ الباقي ثم ترك المقهى وهو يتعثر.

من دون التفكــير في أي شيء، عاد إلى مبنى المحكمة. ضلَّ الطريق في أحد الأزقة، وبدأ يسأل المارة أين المحكمة. بعضهم هــزَّ كتفيه متجاهلاً ومرَّ من جانبه بسرعة، وبعضهم أشــاحوا بوجوههم متظاهرين بعدم فهم اللغة الروسية.

- إنهم لا يحبوننا هنا، - كان ساشــا يهمــس بكآبة، وأحياناً يفترض، وهذا هو الصحيح: - ربما، تفوح رائحة الشراب مني؟

توقف عند بوابة المحكمة، وارتمى بكتفه على البوابة الخارجية. بحث في مكان ما في أحشاء سترته عن السجائر والقداحة. رفع عينيه إلى صوت خطوات، فرأى القاضي.

توقع لســبب ما أن يكــون القاضي مرتدياً معطفاً أســود، وحتى بياقــة مرفوعة، ولكن كلا، كان يرتدي ســترة وينتعل حذاءً رياضياً، مرَّ من جانب ساشا من دون أنْ ينعم عليه بنظرة ومشى إلى الشارع. تحركت لبدة شعره البيضاء في مهب الريح.

وقف ساشا عند البوابة الخارجية، من دون أنْ يلتفت، بقفا متوتر، مصغياً إلى الخطوات الواثقة والهادئة المبتعدة.

وبعد دقيقة ســار على أثره. رأى ظهر القاضي، وحدَّق إليه بعنــاد. في بعض الأحيان كان الظهر يغيــب عن نظره، تحجبه ظهور أخرى أو ببساطة يغيب في الزقاق الملتفّ مثل الخرطوم.

شدَّ ساشـا خطاه، مصطدماً بالمارة السـائرين باتجاهه، وسار أسرع، ثملاً ومتبلِّداً. أخرج السـجائر وفقدها، لم يسـتطع أن يدخن سيجارة أثناء السير، فغضب وجعل يلعن.

وفي نهاية المطاف فقدَ أثرَ القاضي، فوقف في وسط الرصيف ونظر حوله بحقد. ركّز نظـره على رقم المنزل وفهم كل شيء. جاء القاضي لتناول الغداء. هذا منزله.

استيقظ في السـاعة الرابعة صباحاً. وعند الرابعة وسبع عشرة، أشعل المصباح الليلي، وانحنى برأسه ينظر إلى مُؤشِّرَي الساعة القصير والطويل. ذهب إلى المرحاض وتبول، من دون أن يفتح عينيه كما ينبغي، مسـتمعاً إلى الصوت هل يسقط بوله في بئر المرحاض أم لا. نظَّف أسنانه، وشرب ماءً من الصنبور، وغسَّل بنفور من الماء ومن وجهه على حد سواء.

هوى بنفسـه على السرير، ونظر إلى السـقف، لم تكن لديه رغبة في النوم.

لُصِقَ على السقف قماش مُشَمَّع. هكذا عرَّفه ساشا لنفسه - «قماش مشمَّع». لم يعرف ماذا يُسمّى.

كان القماش المُشـَّمع أصفـر اللون. عُلِّقَـت صورة فوق السرير. نظر ساشـا إليها بطرف عينه، متكاسـلاً عن أنْ يدير رأسه نحوها. لم يفهم منها أيَّ شيء.

أخذ نَفَسـاً عميقاً. وأراد شراباً. ومـن دون أنْ ينظر ربَّتَ على منضدة السرير براحة يده - وتذكر أنه في الليل كان يحاول

التدخين، بل وسحب السجائر من سترته. كانت السترة ملقاة بالقرب من السرير، والحذاء مرمياً أبعد قليلاً، أحد نعلَي الحذاء مقلوب إلى الأعلى، والآخر على الجانب.

«لو لا كانت منفضة سـجائر موجودة أيضـاً...»، - فكَّر ساشا وهو يدخِّن.

أخذ قدحاً من المنضدة ووضعه على صدره بعد أن أمسـكه بيده اليسرى. لم تخطر بباله فكرة واحدة.

- فـراغ مطلَـق... - همس ساشـا. - كما فـي سـقيفة مهجـورة... مهلاً، هل يوجد أحد هنـا؟ بعض النفايات غير ضـرورية... هل هذه مجرفة، أم ماذا؟ هل حان الوقت؟ كـلا، ليسـت مجرفة... لا يوجد شيء...

أخذ نفَسَـاً عميقاً من السيجارة وأمسـك بالدخان ونفثَه ببطء.

تذكر ما كان يفكر فيه عادة عندما يريد النوم. لم يساعده عدّ أزواج الخِراف البيضاء. أما النساء فكُنَّ يشوشنَ عليه فحسب. وفي بعض الأحيان ساعدته حبكات كتبه المفضلة، لكن الآن لم يخطر بباله أيّ منها. نعم، كان يتجادل أحياناً مع أحدهم ذهنيّاً، لكن ساشا لم يرغب الآن أن يجادل.

شـعرَ بتعكر وشـدّ غريب في جوفه - ومع هذا كانت ثمة معرفة قوية أنه لا يمكن تفادي أيّ شيء: فهو، ساشـا، سيفعل كل شيء حتـى النهاية. كما لو كان هذا خـارج إرادته وخارج

سلطته - كالحكم، الذي يُنطَق به ولا يخضع للاستئناف، ويخضع للتنفيذ.

ألقى السيجارة في القدح، بعد أنْ كسل عن إطفاء عُقبِها، وبقيت تدخن لبعض الوقت.

وهكذا استلقى. دخان خانق على اليسار وصورة مشوشة على اليمين وبطانية عند الرجلين وشعر خفيف على الصدر وحلمتان مسودّتان ومتجمدتان. لم يكن لديه خيار سوى التدخين مرة أخرى.

غفا في الصباح، نام نوماً سيئاً وعصبيّاً، بجسد ثقيل وبقدمين مبلَّلَتَين وباردتَين. طوال الوقت يتقلَّب ويتلوّى وكأنه يريد أن ينكمش أكثر ويختبئ في زاوية ويرقد بشكل غير ملحوظ.

فتح عينيه مستاءً، كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً.

«انهض، يا ساشوك»، - قال لنفسه ونهض.

وقف أمام المرآة وفرشاة الأسنان في يده، نظر إلى نفسه طويلاً وهو يضغط على الفرشاة بقوة، وكأنه يريد أنْ يغرزها في مكان ما، في جسم حي. نظَّف أسنانه بسرعة، في غضون ثلاثين ثانية.

بعد عشر دقائق كان في الشارع، مشى بسرعة، وهو ينظر تحت قدميه. أخرج الخريطة أثناء المشي، وتحقق.

بدأ من مدخل الحديقة يحصي الخطوات، لكن سرعان ما شعر بالملل فاتَّكَل على الذاكرة البصرية ولم يُخطئ.

نظر مِن حوله بسرعة، وحادَ عن الطريق فرأى شــجرته. ومن دون أنْ يتلفَّت، حفر وأخرج السلاح وخبأه في عبّه.

«في أحد المقاهي، في المرحاض، سأضع الخرطوشة في مخزن الطلقــات، - قرَّرَ مع نفســه. - ثم أرمي المســدس في النهر. وسأطلق النار في المكان المناســب. لا يهم المكان أين. حتى لو قُبِضَ علـيَّ، إن الأمر سيان».

ما يزال ثمة الكثير من الوقت.

«ماذا لو لم يذهب اليوم؟» - فكر بتكاسل.

«سيذهب»، - ردَّ على نفسه بثقة.

وجــد مبنى المحكمة، مرَّ من جانبه مــن دون أنْ ينظر إليه، فقد كان منظر الجدران والنوافذ مرهقاً ومزعجاً.

قــرر أن يذهب إلى مقهى آخر، غير المقهــى الذي ثمل فيه البارحة. حتى لا يصبح مألوفاً.

«آكل... هل سآكل؟ سآكل، وسأشرب. على الأرجح سأشرب. كلا، لن آكل. ســأشرب فقط. ســيكون منظري غريباً إذا ما طلبت الشراب وكوباً من الماء. يجب أنْ أطلب شيئاً آخر».

غرز ساشــا إصبعه في طبق من دون أن ينظر تقريباً. إذ، لا مندوحة من قراءة اسم الطبق فهو على أي حال لن يستطيع أنْ يفهم ماهيته.

أحضروا لــه شــيئاً في مقلاة صغــيرة. يبدو أنه يســمى «جوليان».

مضغ ساشا الطعام بعناية وشرب ببطء الشراب المصبوب بيد جافة ودقيقة. بدا الشراب ثقيلاً مثل الزئبق.

«إذا ما رُشَّــت على المائدة، فستتناثر على الأرجح إلى كرات صغيرة».

رمق ساشا نفســه باندهاش مُستَغرَب وفكَّر، لماذا قلقه غير محســوس تقريباً - مقارنةً على الأقل بالهلع الخفيف الذي كان يعاني منه قبل أي عراك في الفنــاء أو في أيام الجيش. أو آنذاك، في الغابة؟ ولكن بعد ذلك اليوم - ما الذي يمكن الخوف منه؟ يبدو أن المشــاعر الإنسانية لها حدودها - على الأقل فهِمَ ساشا بوضوح عن نفســه أنه لن يموت من الخوف، ولن يفقد وعيه، ولن يجمد ويضعف لثانية واحدة.

كان في بعض الأحيان يمسّ بلســانه العنيد الســن المركبة يزحزحها، ويحاول أنْ يحركهــا أو يزحزحها. كما لو كان تحت هذه الســن وفي اللثة الدامية والعاريــة تكمن الإجابة - لماذا لم يعد من الممكن أن يشعر بالخوف.

ولكن في مكان ما نما شعور مختلف، ما يزال يتعذر تفسيره: لم تكــن ثمة إمكانيــة أخرى لخوف آخر غــير أرضي يرتبط به جسده الهجين.

ثمل ساشا مرة أخرى. لم يعد هناك شراب.

ذهب إلى المرحاض، وأغلق على نفســه في القمّرة بالمزلاج. وأَخرج المسدس بعد أنْ نظر مسبقاً إلى السقف.

«إذا كانت لديهم كاميرات هنا، فسيتصورون أنني قررت أنْ أرمي خصيتَي»، - حاول ساشا أنْ يُضحِك نفسه.

أدخَلَ الخرطوشـــة في حجرة الإطلاقات، ووضع المسدس على وضـــع الأمان وأخفاه في بنطلونـــه، خلف الحزام. ثم غير رأيه، وأخرجه ووضعه في جيبه. وتبوّلَ بعناية. وضغطَ على زر الصرف وهو ينظر إلى الماء. وأدرك أنه ثمل. فقرر أنْ يتمشّى في الشارع حول الحي حتى يصحى رأسه.

مشـــى، ناظِراً أمامه مباشرة من دون أن يولي اهتماماً للناس، وأبعد عن نفسه فكرة: «وإذا ما غادر، بينما أنت تتجول هنا؟»

لن يبتعد. سيكون الوقوف بجانب المحكمة والانتظار أسوأ بكثير.

«ماذا لو أوقفتك الشرطة الآن؟»

كلا. لن يحدث شيء.

في اللفة الخامسة، رأى خوموت بوضوح في الحشد... كان الرجل بارزاً، ويرتدي ملابس غالية، ومرَّ من جانب ساشا من دون أن يتعرّف عليه...

وفي اللفة السادسة تاه ساشا وتوقف عن العد.

كان في بعض الأحيان يســـمع كلاماً باللغة الروسية، ولكن صار في حالة لم يعد فيها يفهم حتى هذا الكلام.

لم يعـــد يتذكر كم من الوقت مرَّ، وشـــعر كيف اختلج قلبه بمرارة، فتوقف.

«المحكمة، يا ساشا، – قال لنفسه. – يا ساشا، المحكمة».

بلع ريقه قليلاً وأخذ نفَساً، وهو ينظر إلى الأسفلت.

«يبدو أنني ثملت أكثر قليلاً. من كأسين... يا له من هواء هنا... شاسع. لا توجد طريقة لاستيعابه..».

وقف ساشا من دون أنْ يتحرَّك، وبدا لنفسه كأنه عمود. وهكذا قال مع نفسه: «أنا عمود من الملح». لماذا من الملح بالذات – لم يكن يعرف.

بدا أنَّ ساقيه لم تشعران بالرطوبة، ولم تشعر يداه بالبرد.

كان القاضي يرتدي تلك السترة نفسها، والحذاء نفسه. وبدا لساشا متوتراً ومتجهماً.

وقف لمدة نصف دقيقة ومشى يتبعه، وهو ينظر إلى فروة رأسه المتمايلة.

«يمكنك الآن»، – قال لنفسه.

«كلا، الكثير من الناس يمشون».

«لا تسوّف».

«أنا لا أسوّف. أنا ذاهب. أنا مستعد».

مشى ساشا ويداه في جيوبه.

أراد أن يدخن، لكنه أجبر نفسه على عدم التدخين. سيلهيه ذلك.

شعر ساشا كما لو أُزيلت جميع الأعضاء منه، وغُلِيَت ووَضِعت فيه من جديد – مغليةً وتهتزّ هزاً ناعماً.

زحف دماغه في جمجمته. لكـــن عينَيه كانتا متجمّدتين على كل حال كالجليد وابيضّتا. وأصابعه التي أصبحت كأنها رقيقة - أيضاً متجمّدة، ولكنها قوية وعنيدة ولا ترتجف.

«المحكمة بالمحكمـــة، والقرن بالقرن»، - كرَّر ساشـــا مع نفسه حتى لا يفكر في أيِّ شيء، سوى النظر إلى قفا القاضي.

«المحكمة بالمحكمة، والقـــرن بالقرن، المحكمة بالمحكمة، والقرن بالقرن...» - من كثرة التكرار ضاع معنى هذه الكلمات واختلـــط، واندمجـــت الكلمات معـــاً وتحوّلت إلى شيء يشـــبه زقزقة الطيـــور، أو كأنَّ إوزة ذات رقبة نحيفة تزعق: المحكمة بالمحكمة، المحكمة بالمحكمة...

«هيا الآن، قلتُ الآن»، - أمر نفسه، كما لو قطع خيطاً خشناً.

اكتسب ساشا زخماً، وأزال بإصبعه زرّ أمان المسدس الذي في جيبه.

وبعد أن أسرع ساشـــا وصار على بعد ما يقرب من خمســـة عشر متراً من الرجل الذي ســـيموت بعـــد ثانية، توقف قليلاً: فقد ركض أحدهم باتجاهه، أو بالأحرى، باتجاه القاضي.

«اللعنة، أيّ شـــيطان أتى بك؟» - لعن ساشـــا، غاضباً، لا يعرف ماذا يفعل.

أخرجَ الرجل الذي كان يركض من كيس كبير بحركة عنيفة أداةً حديدية. إنها بندقية رشاشة. وفي غضون خمس ثوانٍ صاخبة، سقط القاضي، الذي لم يسعفه الوقت ليفعل شيئاً وحتى ليصيح،

وبدأ يرتجف جسده على الأسفلت، واستقبل قطع الرصاص في داخله. فقد أُطلِقَ عليه الرصاص من مسافة مترين.

ومن ثم، بعد أنْ وضِعَت الماسـورة (السبطانة) على جبين القاضي المستلقي على الأرض، وجِّهت إليه رشقة أخرى.

جلس ساشـا من دون أنْ يعـي ما يراه وجعـل ينظر إلى القاضي المُمَدَّد وإلى بنطلونه الوسـخ وحذائه الثقيل. في البداية كانت ساقاه تتحركان، ثم توقفتا. سـقطت البندقية الرشاشة قرب الجثة على الأسفلت. والرجل الذي، لسبب ما، لم ير وجه ساشا اسـتدار وركض بخفة في الاتجاه المعاكس، وسرعان ما تحول إلى مكان ما.

- يا للهول... - قال ساشا بصوت منخفض.

نهض، غير مصدق ما يراه، وذهب إلى جثة القاضي. تلاصق شـعره الشـائب، والآن بعد أن رقد القاضي، بدا شـعره أكثر كثافة. وكان الدم النازف يتدفق بغزارة من تحت السترة.

جلس ساشـا، لسبب ما محاولاً النظر إلى القاضي في وجهه، والتقـط من الرصيف ظـرف إطلاقة ودحرجـه على أصابعه ووضعه في جيبه.

«سـيأتون الآن، وأنت تجلس هنا ومعك مسدس»، - قال لنفسه.

رفع عينيه المذهولتين. كان المارة ينظرون إليه، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. نهض ساشـا وسار بسرعة من دون أنْ ينظر مِنَ حوله.

بعد بضع دقائق شعر بألم في رقبته. أحدهم يسرع خطاه على أثره.

«يجب أن ألقي المسدس».

«لا يمكن، سيراني أحدهم».

«لو أنه من الشرطة، لكان قد أوقَفَني».

«ربما، عليَّ أنْ أركض؟»

وتَّرَ ساشا عضلاته ليندفع، - وفي تلك اللحظة بالذات سمع صوت صفارة الإنذار - وهبَّت من جانبه سيارة شرطة.

«لو أنّي ركضت، لأوقفوني. هل حالفني الحظ؟ هل أنا محظوظ؟ هذه المرة الثانية؟»

«عُد إلى مكانك، يا محظوظ..».

استدار ساشا بشكل عشوائي. وأسرع خُطاه.

لقد أحسّ، أحسَّ بالنظرة. لم يتميّز ساشا بالشعور الحدسي أبداً، لكنه الآن عرف بالتأكيد.

وفي المنعطف التالي، حـدَّق بطرف عينه - وخمن على الفور الشخص الذي كان يسير خلفه. إنه رجل عادي، وحتى شاب. وواضحٌ أنَّه ليس شرطياً. كثير الحركة، محدودب الظهر. تجاعيد الشعر ظاهِرة من تحت القلنسوة، والشعر على الكتفين. الأنف طويل. والعينان ضيقتان. مظهره مُمَيَّز... مَن تريد، أيها المدمِن المقيت؟

مشى ساشا سبع دقائق أخرى، ليصل على الأقل إلى حديقة عامـــة - وفي الحديقة يمكنه أنْ ينتظر هذا الدميم ويســـأله عمّا يفقد. ولكن لم تكن في هذا الجانب أيّ حديقة عامة.

كان ساشا هادئاً، وحتى لم يرغب في التخلي عن المسدس.

اســـتدار نحو موقع بناء جديد، ودخل بسرعة في فجوة في السياج الخشـــبي. قفز من طوبة إلى طوبة (كانت الأرض طينية ورطبـــة) ونظر إلى نوافذ المبنى المكتمل إلى الطابق الثالث فقط. لم يكن ثمة عمال.

وبعد أنْ وصل إلى المبنى بسرعة اختبأ بجانب النافذة.

«سأنتظر لمدة دقيقة».

لم يكن بوســـعه الذهاب إلى الفندق حاملاً معه المســـدس. وربما، حتى لا ينبغي له الذهاب إلى الفندق على الإطلاق.

«سنرى الآن»، - فكّر ساشا.

علم أنَّ الشخص الذي مشى خلفه سيأتي.

وفعلاً جـــاء. حشر نفسه بين ألـــواح السياج الخشـــبي بصعوبة - من الواضح أنـــه ذو عضلات ضعيفة، وكله عبارة عن أعضاء ملتحمة بشـــكل رديء، وأنـــه ذو رجلين رفيعتين. وبدا يتنفس بصعوبة.

«تعال هنا، أيها الهائج» - التصق ساشـــا بظهره على الحائط وجلس القرفصاء ببطء.

صرَّت خطوات الرجل.

«هل يسير على أطراف أصابعه - ابتسم ساشا ابتسامة خبيثة. - ويرفع ساقيه الطويلتين ببطء. متعقّب آثار، الحقير».

أدار رأسه، فرأى فردة حذاء، تخطو بهدوء على أرضية المنزل الخرسانية. ثم فردة الحذاء الثانية.

- تعال، يا صديقي. واصعد إلى الطابق الثاني، - قال ساشا بصوت منخفض وبعد أنْ أدرك أنه لم يذعن إليه، أضاف بصوت عالٍ: - بسرعة، بسرعة!... من أنت؟ - سأل ساشا من الطابق العلوي.

- وأنت مَن؟

ضرب ساشا بقدمه الخفيفة والقوية صاحبه الجديد على ركبته ووجّه له على الفور لكمة بقبضته في جبهته. تعمّد أنْ يضربه على الجبهة بالذات عن قصد.

سقط الفتى على مؤخرته، وحرك ساقيه النحيفتين، وزحف على مؤخرته إلى الركن.

التقط ساشا قطعة كبيرة وثقيلة من الطوب من الأرض:

- إذا ما تحدثتَ بشكل سيئ، فسوف أرمي قطعة الطوب عليك. - وقف وهو يهزّ اللبنة في يده. - مَن أنت؟ - كرر ساشا.

- إنسان.

- امسك، يا إنسان.

ألقى ساشا قطعة الطوب فمرَّت إلى الأعلى من رأسه قليلاً. وبعد أنْ ضرب الطوبُ الحائطَ سقط على ظهر الفتى الجالس، فغطّى رأسه بيديه. ثم تحرك وهزَّ كتفيه فسقط الطوب بجانبه.

لم يتحرك ساشا حتى لالتقاطه.

نظر الجالس إلى ساشا، ثم حدق بطرف عينه إلى الطوب.

- نعم، التقطها، - اقترح عليه ساشا.

لم يمس الطوب أحدٌ، بالطبع.

- هل جلوسك مريح؟

رداً على ذلك، صدح شيء غير واضح.

- ها، قل؟! - سأل ساشا من جديد بصوت عالٍ كالأصمّ.

- جلستي مريحة، - كرر بسرعة، كالكلمات التي يصعب لفظها على عَجل، لهذا صدحت العبارة مثل «جلتيح».

- مَن هو «جلتيح»؟ - سأل ساشا برغم أنه فهم كل شيء.

- قلتُ جلستي مريحة.

- لقد ظننت أنك قدمت نفسك: جلتيح. إذاً، أنت لستَ جلتيح. أليس كذلك؟ حسناً، إنه اسم لا بأس به. هيا، ليكن اسمك على كل حال جلتيح.

أخرج ساشا سيجارة. ودخّنها - من دون أي انفعال مصطنع. فقد رغب في التدخين من مدة طويلة، هذا كل شيء.

- لماذا تلاحقني، يا جلتيح؟ - سأله ساشا.

لَا إجابة.

بحث ساشـــا عن شيء آخر عـــلى الأرض. لاحظ دلواً في غرفـــة أخرى، وذهب ليجلبه، متأكداً من أنَّ الطوب لن يُجذف باتجاهه. عاد، وهو يهزّ الدلو بمرح، ولاحظ وهو يبتسم ابتسامة داخليـــة أنَّ الطوب قد رُفِعَ وحُوِّل أقرب إلى الرِّجْل ذي الحذاء الرياضي الأبيض المضحك.

ضرب ساشـــا فجأة الشخص الجالس على رأسه بالدلو من دون أن يقول أي شيء. اتضـــح أنَّ الضربة كانت بصوت عالٍ جداً، وعلى ما يبدو، مؤلِمة. فكَّر ساشـــا لمدة من الوقت ثم هدد الجالـــس بالدلو مرة أخرى. وفي هذه المـــرة ضرب يديه اللتين تغطيان رأسه.

- سألتك ســـؤالين، مَن أنت ولماذا تبعتني، وأخبرتني للتو أنك جلتيح. دعنا نتعرف على بعضنا بعضاً بشـــكل أفضل. أنا لا أعرف شيئا عنك.

- أنا صحفي، - ردَّ على ساشا بشكل غير متوقع.

- ممتاز. أرني البطاقة.

أظهرها له. كانت مكتوبة باللغة اللاتفية.

«لنثـــق بالكلمـــة، - قرر ساشـــا وهـــو ينظـــر إلى البطاقة الشـــخصية، التي لم يفهم فيها شيئاً على الإطلاق، - يكفيني أنَّ الصورة لرجل من دون ملابس عسكرية».

- ولماذا اتبعتني، أيها الصحفي؟

ثلاث ثوانٍ من الصمت. فهزَّ ساشا الدلو.

- لقد لاحظتك أمس. كنتَ تتبع القاضي مخموراً.

«اللعنة، يا لي من مغفل»، - فكَّر ساشا.

- كيف تعرف أنَّ هذا قاضٍ؟

- أنا صحفي، لقد أخبرتك. الجميع يعرفونه... وإلى جانب ذلك، غالباً ما يُعرَض على شاشة التلفزيون.

- لماذا لم تتصل بالشرطة؟

- بخصوص ماذا؟ بخصوص أنك تمشي في الشـــارع؟ وإذا كان ذلك صدفة، فما الذي سأبدو عليه في النهاية؟

أومأ ساشا برأسه: تكلم أكثر.

- وقبل ســـاعة مـــررتُ بالجوار، مكتب تحريـــر الصحيفة قريب، ورأيتك اليـــوم هنا مرة أخرى. انتظرتُ قليلاً، ورأيتك كيف تتبع القاضي مرة أخرى. وتابعتك. وهذا كل شيء.

ألقى ساشا السيجارة على الأرض. وصمتَ لمدة من الوقت.

- لا بـــأس، لقد أدركـــتَ أنْ لا علاقـــة لي بالموضوع، أيها الصحفي؟

وافق الفتى بإيماءة من أنفه في الهواء.

ظن ساشا أنه سأل ســـؤالاً غبياً: فلماذا، إذاً، يضربه بالدلو هنا - إذا لم يكن له علاقة بالموضوع.

- كلا، ربـــما أنـــك لم تفهم قصدي، - قال ساشـــا بصوت منَخفض وبنبرة فلسفية. ووضع الدلو رأساً على عقب وجلس

مقابـل الصحفي. وقال: - باختصار، الموقـف كالآتي. إني أكرر لـــك: لا علاقة لي بالموضوع. قُتِلَ القــاضي، وأنا لا أعرف من فعل ذلك. ولكن إذا ما بلَّغتَ عنّي، فقد أتعرّض إلى مشـــاكل. جرّاء أشياء لم أرتكبها. وإذا لم تُبلِّغ عنّي، كل شيء سيكون على ما يرام، لكلينا. فماذا قرَّرت؟ هل ستُبلِّغ عني؟

هز الصحفي رأسه نافياً.

- وكيف لي أنْ أثق بك؟ - ســأل ساشا. - ربما سيكون من الأفضل لي أنْ أقتلك؟...قل؟ ماذا قرَّرتَ، لقد نسيتُ؟

- سأذهب الآن إلى البيت.

- نعم؟ وماذا هناك؟

- سأتمشّى مع الكلب.

- ومن ثم؟

- سأنام.

- سأرافقك؟

- كما تريد...

- حسناً دعنا نذهب.

أظلم الجو في الخارج.

«اللعنــة، ينبغي عليَّ أنْ أمشي مرة أخرى والمســدس معي، -فكَّر ساشا، - أين أضعه؟.».

قاد الصحفي إلى الفجوة في السياج.

- اغرب من هنا. - قال له مودّعاً.

نظر مندهشــاً، كيف كان الصحفي يحشر نفســه في الفجوة على شــكل أجزاء، وكيف تمتد ساقاه وتتحولان بارتباك وكأنه حشرة زاحفة لديها على الجانب الآخر من الســياج عدة أرجل أضناها التردد.

دخَّن ساشا سيجارة مرة أخرى، وهنا ظهر وجه الصحفي في الثقب فجأة.

- أأنت من «الاتحاديين»؟ - سأل الوجه.

لم يجد ساشا حتى ما يمكن أنْ يجيب به.

- لا تخــف، لن أشي بــك، - وعد الصحفي بشــكل غير متوقع، وإن كان ذلك بسخرية استخفاف واضحة، واختفى.

كان مــن الغبــاء أن يركض خلفه. في الشــارع وهو يلوح بالمسدس...

مسح ساشا المســدس بسرعة بوشــاح، ووضعه في كيس وســخ ملطّخ بالجير الرمادي وجده على الأرض. وتجول بهذه اللفافــة في موقع البناء الجديد، بحثاً عن مخرَج آخر. لم يعثر على شيء. رأى خلف السياج أجمة شُجيرات، فألقى الكيس هناك.

ثم ألقى الوشاح في سلة المهملات.

الفصل الحادي عشر

في دهليز القطار انطلق ساشا في ضحكٍ عالٍ. وقف بمفرده، يدخِّن، وقد غادر القطار مدينة ريغا، - كان ساشـــا يقهقه وهو يلهث وينظر إلى وجهه المُكَشِّر في الزجاج.

حرَّكت في الجيب الداخلي لســـترته زجاجة الشراب السائل المتبقي. أخذ ساشا رشفات من عنق الزجاجة من دون مزة. ثم تنفس من أنفه ولوى شـــفتيه. وبصق في منفضة السجائر، التي تطاير منها الرماد مباشرة إلى عينيه.

وضحك مرة أخرى وتوقف عن الضحك فجأة، وكأنه نزع قناعاً عنه.

خرجت جامعة التذاكر، ونظرت بريبة، لوى ساشـــا وجهه لها عندما التفتت.

- هل تعتقد أنني ســـأقول: «شـــكراً لك يا رب؟» - سأل بصوت عالٍ، وهو ينظر إلى مكان ما خارج النافذة.

«لن أقول».

«لماذا، يا رب، حرمتني من هذا؟ سآخذه في مكان آخر».

التصق بجبهته على الزجــاج، ونظر باحثاً عن شيء ما، عن شــخص ما. ثم تلمَّس في جيبه ظــرف الإطلاقة الذي التقطه هناك، في ريغا، بالقرب من الجثة.

ســار في العربات، من دون أنْ يفسح المجال لأي شخص، أخــرقَ، متأفِّفاً. وصــل إلى عربة المطعم، جلــس وحده على الطاولة المتطرفة وظهره للجميع حتى لا يرى أحداً.

بقي لمدة نصف ساعة ينكش البيضة المقلية بالشوكة.

«ما حاجتي للبيض، يجب أن آكل اللحم».

- أعطني بعض اللحم، - قال للنادلة. - ها أنتِ ذي، أيتها المهملة.

خــرج ليدخن في الدهليز - لم يرغب في الجلوس وحده مع البيض المخفوق الذي يشبه المجدور، والذي لا تحتمل العيون النظر إليه.

شرب المتبقي من الزجاجة في الدهليز، ووضعها بشــكل أخــرق فســقطت. وتدحرجت عــلى جانبها وهــي تطقطق بفظاظة.

عاد إلى مكانه، طلب مائة ملليلتر أخرى من الزجاجة. نظر بعناية إلى القارورة.

أحضروا له اللحم طازجاً وســاخناً. أكل ساشا بنهم. أراد أنْ يصب الشراب، لكن العربة كانت تتأرجح، فلم يستطع أنْ يسكَب في الكأس بأي شكل من الأشكال. كانت النادلة (رآها

ساشـــا بطرف عينه) في حالة من الهياج قرب الطاولة المجاورة، فقالت إنها ستساعده الآن.

- أنا بنفسي، - ردَّ عليها ساشـــا وأخذ رشفة من القارورة.

- أنا بنفسي، - كرر بصوت مبحوح، وهو يعبّ الهواء بأنفه.

... كان الأمـــر على هـــذا النحو: في ريغا عـــاد إلى الفندق، هادئـــاً جداً، ولكن بأفكار مضحكة ومضطربة تماماً: ماذا يعني كل هـــذا، لماذا حـــدث كل شيء هكذا بالـــذات، ومن هؤلاء الأشخاص - أصحاب البندقية الرشاشة...وهذا الذي اسمه جلتيح؟

لم يكن بمقدوره إدراك أي شيء. كان الأمر كما لو أنَّ أحدهم أعطاه إشارات لا يمكن حل ألغازها.

بقي في الفندق حتى المساء، من دون أنْ يتوصل إلى شيء ولم يفهم شيئاً ولسبب ما كان يتعكر أكثر من ساعة إلى ساعة.

غـــادر في اليوم التالي. ذهب إلى المحطة ســـيراً على الأقدام، وهو ينظر إلى المدينة بكراهية، وكأن شيئاً قد سُلِب منه هنا.

بدا الأمـــر أحياناً: وكأنه فرَّغ أو حتى أحـــرق مكاناً داخل نفســـه، داخل حنقه الذي لا يطاق. والآن أصبح هذا المكان في الداخل فارغاً وموحِشاً.

لم يستطع الاهتداء إلى وســـيلة يمكنه بها إحباط الشر الذي بدأ يتزايد.

أخــرج خريطة المدينة وأنارها على وهــج الولاعة. في البداية أمســك الخريطــة بإصبعين ثم ألقــى بها على الأســفلت عندما اشتعلت.

نظر إليه المارة، بعضهم بانزعاج، وبعضهم سرعان ما أشاح بوجهه عنــه وهو يمر من جانبه. قلبَ ساشــا الخريطة بطرف حذائه، فأحرقت كلها...

... وعندما كان ساشــا على متن القطار، قاوم فكرة ســيئة خطرت بباله لإشــعال النار كذلك في الستارة على نافذة عربة المطعم.

وبعد أنْ أنهى الشراب، لم يشعر على كل حال بتلك الدرجة من الثمل المُبهِج الذي يمكــن للمرء معه أن ينام على الأقل في دوار بلا غثيان وخفيف، بالكاد يمكن الإحساس به.

طلــبَ شراباً مرة أخرى ومعها بعض المــزة الرديئة الجافة. فقدَّمت طلبه نادلة جديدة، ليس تلك التي جلبت الشراب مع اللحم.

مضغ ساشــا بنفورٍ المزة الحامضة مبتلعاً إياها مع رشفات كبيرة من الشراب. وتبـَّين أنَّ زجاجات الشراب كانت قليلة، فطلب المزيد. تنامى شعوره بالتثاقل والانزعاج أكثر.

ذهب إلى المرحاض، وقف متمايلاً وشعر بوجهه غريباً نوعاً ما، كما لو كان مصبوباً من الطين اللدائني (بلاســتيلين). وبدا لهِ أنه إذا ما جعَّد وجهه أو كشّر بكل قوته فســوف تسقط من وجهه قطع من شيء غريب عالق به.

أدخل أطراف قميصه تحت البنطلون ونظر إلى نفسه في المرآة: وجهه هو نفسه. وجهه بعينه. لم يغسل يديه.

تناول الشراب الذي جُلبَ له كله، وطلب قائمة الحساب.

نظر إليها باندهاش لبعض الوقت، من دون أنْ يفهم لماذا المبلغ قليل.

ثم خمَّنَ: قائمة الحساب أحضرتها النادلة الثانية، التي لم تكن تعرف أنَّ ساشكا كان يجلس هنا من مدة طويلة وأنّه قد تذوق لحم الخنزير مع الشراب.

ومن دون تردد، دفع قيمة ما تضمنته قائمة الحساب فقط، ودخل في الدهليز.

«عربتي بعيدة عن هنا... ستة أو سبعة دهاليز مررت بها عندما كنت أبحث عن عربة المطعم...» - تذكر ساشا.

اندفع بخطوات سريعة على طول القطار، وهو يفكر تفكير ثمِلٍ أحمق: «لن يعثَروا عليَّ، كلا. ينبغي عليهم النظر في كل مقصورة. لن يعثروا».

في بعض الأحيان كان يصادف جامعات التذاكر، فينظرن إلى ساشا بعيون مندهشة: على ما يبدو، كان يسير بسرعة كبيرة، ويضرب الأبواب بقوة.

مرَّ مسرعاً من جانب مقصورته وخرج إلى الدهليز، بدأ يدخّن سيجارة وهو يبتسم بدناءة ماقتاً لؤمه بتلذذ.

- هل يكفي هذا للوصول إلى الجحيم؟ - سأل بصوتٍ خافت. - لا يكفي؟ سأضيف المزيد.

نظر من النافذة. شـــخص آخر كان يقف أيضاً في الدهليز. لم يكد يُكمِل تدخين نصف الســيجارة حتـــى جاءت النادلة، الأولى.

- لقد دفعتَ نصف الفاتورة فقط، - قالت بصوت مرتجف بسبب الاستياء والمقت.

- لا إشكال، - أجاب ساشـــا بنشاط، وبالتالي بشكل مثير للاشـــمئزاز جداً. وأخرج نقوداً ووضعها في يدها النافِرة، من دون أنْ يلحظ، أنها كل ما كان لديه تقريباً.

بعد أن وصل إلى المنزل اتصل هاتفياً بماتفي.

- مرحباً، يا ساشـــا، سعيد لســماع صوتك. أعرف أنّ كل شيء حصل تماماً، - قال ماتفي مؤكداً من دون أن يســأل عن أيِّ شيء.

- لستُ أنا مَن فعل، - قال ساشا.

- أعرف، أعرف، - ردَّ ماتفي.

جلس ساشـــا لبعض الوقت قرب الهاتف، ينظر إلى سماعة الهاتف ويمسِّـــد على الجهاز. لم يكن ثمة شـــخص آخر ينبغي الاتصال به. إذ لم يتذكر أي شخص يود الاتصال به.

ارتدى ملابسه، وخرج. اتجه إلى مكان ما.

تجول في المدينة الصباحيـــة - الكئيبة والباردة التي تعصف بها الرياح.

لطالما شعر أنه ضيف على هذه المدينة. وبدا الأمر كما لو جيء بك وأنت طفل صغير إلى بيت عمّة متجهمة وتشعر دائماً بالحرج أنْ تطلب منها الزيادة في الطعام على الغداء أو الذهاب إلى المرحاض. نظراً لأن قدور الحساء صغيرة، فإنها لا تتسع للمادة المضافة، ومقابل المرحاض - العمة دائماً تروح وتجيء. والغبار في البيت في كل مكان، الراديو يشتغل طوال الوقت، يثرثر كأنه يدور بنابض... كان هذا هو شعوره تجاه المدينة، غير سارٍ، وغير مريحٍ. كما لو كنتَ تنتظر دائماً: متى يأتي أهلك ويأخذونك إلى المنزل؟

لكن لا يوجد منزل. ولن يأخذك أحد.

لقد اعتاد ساشا على ذلك، بالطبع.

لم يره أحد متكدِّر المزاج أبداً. ولم يُسَأ له منذ كان تلميذاً في الصف.

كان ساشا يتذكّر أحياناً: ربما نسي إساءة واحدة على الأقل، وغفر لأحدهم عبثاً. كلا، لم يحدث مثل هذا الشيء. وكان دائماً، حسب الضرورة، يتصرف بوقاحة ويضرب في الوجه ويهاجم بعد أن يحتدم غيضاً.

والآن يتسكَّع، لا يعرف أين يندفع. وعلاوة على ذلك جائع...

فكَّر، أنه بحاجة للحصول على وظيفة. ليس لديه أيَّ نقود على الإطلاق. من الضروري أنْ يلتحق بعملٍ ما. بلد ملعون،

ومع ذلك يجب أنْ يجد الإنسان عملاً في مكان ما فيه. أنْ يكنس الفناء، أنْ يخلط الإسـمنت، أنْ يحمل الأواني، أن يجر البالات، وعندما يشـاهد التلفزيون في المسـاء تخرج المخلوقات الدنيئة وتصعّر خدودها وهي تتحدث كيف تهتم به. وجوههم... في الآونة الأخيرة، بدأ ساشـا يتأذّى عندما يرى وجوههم. كان يمعن النظر إلى أفواههـم وعيونهم. وفي بعض الأحيان يُطفئ الصوت فتصبح آنذاك سـفالة الأقنعة واضحة جداً لدرجة أن قشعريرة قوية تسري في ظهره.

ينبغـي أنْ يلتحق بعمل، نعـم. وألّا يشـاهد التلفزيون. وبخلاف ذلك، فإنَّ الأمر لا يُطاق تماماً.

سأذهب إلى فيرا. ينبغي الذهاب إلى مكان ما، وإلّا فإنَّ الجو بـارد. أم أنها تدرس الآن؟ يبدو أنها تدرس في مكان ما. أم أنها طُرِدَت من كل مكان بسبب تعاونها مع «الاتحاديين»؟

ليس من الواضح لماذا سار ساشا، مرتجفاً كله من البرد، يجرّ قدميه المبلَّلتين إلى منزلها، لم يكن لديه نقود حتى لأجرة الحافلة. لم يجد أحداً. دق الجرس بفظاظة، ولا جواب عليه.

غادر بعد أنْ ترك آثار أقدامه الرطبة في المدخل. نزل ببطء، مثل رجل عجوز. ومسّد الدرابزين بيده.

ربما، يذهـب إلى بوزيك؟ بوزيك... العزيـز... نيغا أخذ نقـوده... يجب أن يقـول له إنَّ القاضي الـذي وضع أخاه في السجن قُتِل.

هل هذا ضروري؟

وماذا، ألا يجب إثارة مشاعر بوزيك الطيب بطريقة أو بأخرى؟ هل يفرح وهل يضحك؟ «لقد قتلوه، - سيقول، - كم هذا عظيم! هشَّموا دماغه! شيء ظريف ومضحك جداً»!

لن يقول لأحد، بالطبع. علاوة على ذلك، هو نفسه يعرف كل شيء. ولا يُعرف ما يدور في ذهنه بخصوص ذلك.

طلب بيزليتوف أنْ أتصل به. ولكن بأي رقم أتصل؟ كان لديه هاتفِ خلوي. هل اتصل على الهاتف المحمول؟ من أين؟ ينبغي العودة إلى المنزل.

جاء ساشا إلى والدته في العمل، في وحدتها الطبية البائسة، التي عملت فيها بصفة ممرضة. صعد من جانب الاستقبال إلى الطابق الثاني، حيث حجرتها الصغيرة التي تفوح منها رائحة الأدوية.

رفعت الأم عينيها نحو ساشا بسرعة، بمجرد دخوله، ونظرت على الفور إلى كتفه، كما لو كان من المفترض أن يقف شخص ما هناك. ذلك الذي يجب أن يحضره، رجل بالغ، ذو عينين صارمتين وحسن المظهر. في بعض الأحيان بدا لساشا أنَّ والدته كانت تريد حقاً أن تكون منطقية. دائماً ما تتذكر والده من دون أنْ تقول حتى النهاية، بالطبع. ماذا سيفعل لساشا لو كان إلى جانبهما الآن. «لو كان أبوك على قيد الحياة...» - تقول ذلك وتنظر إلى ساشا بحزن.

لم يرد ساشا، وكان يخرج متضايقاً.

لم يكــن بمقدور الأب أنْ يفعل أي شيء. فقد تعب ومات. وكان يمكن أن يبقى حياً وهو تعبان. ولكنه فضَّلَ أنْ يموت.

- لماذا أنت تعذبني هكذا يــا بني؟ - بدأت الأم فوراً بنبرة عالية دامعة.

- كفى، كفى، كفى، هيا نترك هذا كله... - انحنى ساشـــا وهو ينظــر إلى أمه، التي بــدت متعَبَة، مثل أيّ امرأة روســية عاشت نصف قرن.

- لا بأس، بالطبع، ما عسى الأم أنْ تقول...

- ماما، أرجوكِ كُفّي. هلّا أعطيني الشاي؟

- أين كنت؟ - سألته الأم وهي تضع إبريق الشاي الصدئ.

- لقد ذهبت إلى موسكو.

- مـاذا تريد هنـاك فـي موسـكو؟ وكأنَّ أحدهـم ينتظـرك هناك.

- أنتِ وحدكِ مَن ينتظرني، - ابتســم ساشــا وقال وكأنه يمــزح، لكنه مع هذا كان يعلم أنَّ والدته تســعد وتبتهج لأنه تذكر حبها على أقل تقدير.

- حسناً، ما الذي يحملك على هذا؟

- ماذا يحمل...

- أنت غير صبور للغاية، يا ساشا.

- لا أحب الصبر.

- في الحقيقة لاحظتُ ذلك عندما كنتَ صغيراً جداً. فقد كنتَ تبكي في الليل، وإذا ما أردتك أن تغفو، فإنك لا تغفو أبداً. تبقى تحملق جاحظاً عينيك. وإذا ما تصورتُ أنني سأبقى صاحية طالما كان ذلك ضرورياً، فإنك تهدأ بعد ذلك وتنام نوماً عميقاً، - قالت الأم ووضعت الشاي أمامه.

- لماذا تحكين لي هذا؟ - سألها ساشا، وهو يحرِّك السكَّر ويشعر داخله بالكآبة.

- لا تستعجل، يا بني، أريد أن أحكي لك.

- أنا لا أتعجل.

- إذا كنتَ على حق، فسيكون كل شيء كما تريد. لا تستعجل.

- حسناً، يا ماما. كيف أُمورِكِ؟

- أيّ أمور عندي، سواك...

وهكذا بدأا يتحدثان.

اتصل ساشا بـبيزليتوف. «ساشا، عاوِد الاتصال بعد دقيقة، إذا لم يكن في الأمر إحراج».

«لا يوجد إحراج»، - فكر بنفور. ولسبب ما، لم يرغب بمعاودة الاتصال. وماذا أفعل: هل أذهب إلى المنزل؟ سأتوحش هناك... فعاودَ الاتصال.

- بمن تتصل؟ - سألته الأم عندما طلب الرقم.

- بيزليتوف...

- ربما، سيجد لك عملاً في مكان ما؟ - بدأت والدته أسئلتها على الفور. - في الشغل؟ آه، يا بني؟ إنه، على ما يبدو، يعمل في الجامعة...

- حسناً، سنتحدث عن هذا فيما بعد، - ردَّ عليها ساشا بهزلٍ، على الرغم من أنه في غير هذه اللحظة كان ربما سيرد بفضاضة وقلة احترام. لأنَّ الأم ما إنْ ترى أيَّ شخص، محترم من وجهة نظرها، حتى تريد على الفور أنْ يلتحق ساشا بعمل ما.

وعند الوداع دسَّت لساشا ورقة نقدية من فئة الخمسمائة روبل استلَّتها من محفظتها النحيفة، التي بقيت فيها، على ما يبدو، ورقة أخرى مثلها، ولا شيء غيرها.

«يا لها من محفظة نقود بائسة، - فكَّر ساشا، - بألوان حمراء وكرشٍ متدلٍّ... مستاء نوعاً ما... آه، كم أشعر بالقرف..».

لم يعد بيزليتوف يُدَرِّس في الجامعة. إذ صار يعمل في الإدارة. «مستشار المحافظ» - هذا ما هو مكتوب على بطاقة التعريف التي سلَّمها بيزليتوف إلى ساشا.

جلسا في مقهى في وسط المدينة، خلف طاولة خشبية مطلية بالورنيش.

- هل ستأكل؟ - سأل بيزليتوف.

- ليس لديَّ مـــال، - لم تكن لدى ساشـــا الرغبة في إنفاق الورقة النقدية ذات الخمســمائة روبل التـــي أهدتها له والدته، ولكنه في الوقت نفســـه لم يكن يريد رفض تناول الغداء. «دعه يطعمني»، - قرر ساشـــا بوقاحة تامة. فقد انتابته رغبة شديدة بالأكل. كان ساشا ينخر بعود تنظيف الأسنان ويدخِّن في وقت واحد. لذا هكذا جلس، وعود الأسنان والسيجارة في أسنانه في الوقت نفسه.

- ماذا ستأكل؟ سأل بيزليتوف.

- وأنت هل ســتتغدّى؟ إذاً، اطلب لي ما تطلبه لنفســك. حتى لا أعاني من الاختيار.

طلب بيزليتوف وجبة متكاملة، شــملت المقبلات واللحم والحلوى. انتعش ساشـــا وانفرجت أساريره قليلاً وفي كل مرة ينظر بعناية إلى النادلــة التي تظهر وهي تحمل الصينية ليرى إنْ كانت تُسرع نحوهم.

- الآن سوف أقدمك إلى أحدهم، - قال بيزليتوف. - نحن نعمل معاً. لديه وجهات نظر مختلفة عني. كثيراً ما أتجادل معه. لكني حقاً أريدكما أن تتحدثا. يبدو لي أنه يفهم بعض الأشــياء المهمة...

- التي ما أزال لا أعرفها أنا، - قال ساشـــا مبتسماً: قُدِّم لهما حساء. كان البخار يتصاعد من الحساء.

فردَّ عليه بيزليتوف بابتسامة.

«لماذا أحسُّ هكذا بجوع شديد جداً، فهذا أمرٌ مُسْتَهْجَن... - فكَّر ساشا، وهو يتناول الحساء بعنف. - لأنه ببساطة بارد»، - برَّرَ لنفسه.

- لا بأس، يا ساشـــا، كيف حالك؟ - استفسر بيزليتوف. وأمسك بيده ملعقة الحســـاء الذي لم يبدأ حتى الآن في تناوله، وانشغل بفرك شيء عليها بالمنديل.

«الحقيقـــة، أردتُ أنْ أقتل القاضي، لكـــن لم أنجح»، - ردّ عليه ساشـــاً ذهنيّاً بصوت بهيج، وهو ينظر إلى زيتونة في ملعقة بيزليتوف. ولكنه لم يقل أي شيء على الإطلاق، وكشَّر بابتسامة غامضة.

- أين صاحبك؟ - سأل ساشا.

- سيأتي قريباً. لديه عمل كثير.

- وهو أيضاً مستشار؟ ماذا تعملان؟

وفي هذه المرة أجاب بيزليتوف بتكشيرة بعد أنْ خمَّن السخرية المخفية تقريباً في ســـؤال ساشا - كانت تكشيرة بيزليتوف تعني أنه لا يريد التحدث باستخفاف حول هذا الموضوع، بل وحتى بجدية أيضاً. وعلاوة على ذلك، يتطلب الشرح وقتاً طويلاً.

- ساشـــا، أنـــت تعرف... بشـــكل عـــام، أنَّ مصيرك من المفترض ألّا يهمني. فأنت بالنســـبة لي غريب. ولكن... حتى وإن بـــدا الأمر مبتذلاً... إنَّ ذكرى والـــدك... وحتى إنّي أميل لك، أنت شخصياً، لأنك... تبدو حيوياً...

أومأ ساشا برأسه كناية عن الفهم - أو بالأحرى صوَّر إيماءة الفهم هذه من دون اعتناء كافٍ: «نعم، نعم، أنا أستمع إليك بانتباه، نعم، نعم، هذا كله صحيح، نحن كلانا أحببنا والدي، وأنا فعلاً أبدو حيوياً..».

- قل لي، يا ساشا، هل سبق لك أن لاحظت أنَّ تصرفات «الاتحاديين» تمثل مزيجاً غريباً جداً من الشجاعة والتهريج؟ وفجأة غيَّر لهجته. - علاوة على ذلك، فإن شجاعتكم هي شجاعة مهرج بهلوان يعتقد في البداية حقاً أنه لن يُعاقَب، ومن ثم يتفاجأ بأنه عوقِب، ويواصل البهلوانيات ولكن هذه المرة من الشعور الناجم عن التلذّذ بالاضطهاد الذي أُلحِق به.

- بالدقة المتناهية، هذا ما أعتقد به، - قال ساشا.

أكل الحساء، والآن صار ينظر طلّة النادلة وهي تحمل لحم الخنزير.

- ها، أنت تسخر مرة أخرى. هذا لا يناسبك، ألا تعتقد ذلك؟

- لماذا أنت طوال الوقت تتوجه إليّ تارة بصيغة المفرد المخاطَب «أنت» وتارة بصيغة الجمع المخاطَب «أنتم»؟ - سأل ساشا.

نظر بيزليتوف إلى ساشا بعناية لمدة ثانية، وهو يفكر بعمق في شيء ما. فنظر إليه ساشا مبتسماً.

- وما الفرق في ذلك، - أجاب بيزليتوف وهو يهز رأسه.

- قل لي، من فضلك، ماذا تريدون؟ أنا هنا... حصلت على

إمكانية الوصول إلى جميع المستندات الخاصة بكم، بيانات الحزب، برنامجكم، منشوراتكم. ودرست كل هذا بعناية. الكثير من البذاءة الفكرية والنشيج والنوبات الهستيرية والكثير من الكلمات. لكني لا أفهم شيئاً واحداً: ماذا تريدون؟ لا بأس، ها أنتم تجيدون السخرية بشجاعة وتلقّي الضربة على الجبين ثم تقديم الجبين مرة أخرى ليُضرَب، وبعد ذلك ماذا؟ تريدون إقامة النظام؟ فكيف يُعبَّر عنه؟

- «النظام»، «النظام الروسي»، - كرر ساشا بابتسامة ساخرة. - مرة أخرى، أنت تخلط بيننا وبين غيرنا.

- إذاً، أنتم لا تريدون النظام؟

- هكذا هو الأمر: نريد النظام - هذا يزعجكم. لا نريد النظام - كذلك يزعجكم.

- ذلك لأنَّ نظامكم وفوضاكم كلاهما لا يمتلكان أي علامات محدَّدة، اللعنة! لا هذا ولا ذاك! على أي شيء ستستندون عندما تبنون المستقبل؟ إلى قصائد كوستينكو المخصَّصة للأطفال؟ أو على فلسفته المجنونة، فلسفة مترحّلٍ في الأراضي الأوروآسيوية؟

- سنستند إلى الشعور بالعدالة والشعور بكرامة الذات، - أجاب ساشا متعَباً. - ولو كان لديَّ ابن، لربيته بهذه الطريقة بالذات.

- البلد ليس كالابن، يا ساشا! - قال بيزليتوف هذا بهدوء، بِلا حماسة عاطفية، لأنه تذكر الحساء، وسيكون من المبتذل أن يهتف بحماسة كالممثل ثم يحمل الملعقة إلى فمه.

- في هذا البلد الثورة تتطلب كل شيء، - قال ساشـــا وهو يراقـــب كيف يأكل بيزليتوف الحســـاء. - لديك ذوق جيد، يا أليكـــسي، فكيف تتحمَّل كلّ هذا الكابـــوس من حولك؟ أي شـــخص مفكر، ســـواء كان يعمل في المصنع أو في الحقل، في مريولٍ أبيض أو في زي عســـكري، يفهم هذا. أغمض عينيك، واقرأ «أبانا الذي في السماوات...» عشر مرات، ثم شغِّل القناة الحكومية الرئيسة، وسوف لا ترى سوى الشياطين هناك.

- أيّ شياطين، يا ساشا! أيّ شياطين! وحتى إنْ كان هناك بعضهم، فإنهم ليسوا ســـوى حمقى غير مؤذين. وليس ثمة أيَّ كوابيس، إنّكم ببساطة لا تعرفون شيئاً حقاً، لقد أُتخِمْتُم بقراءة صحافتكم الغامضة...

- ولكنك قد اســـتكنت. - قال ساشـــا ونظر إلى بيزليتوف وفكر في اللحم، وانتابته الرغبة بأكل اللحم.

هزَّ بيزليتوف كتفيه، وكان يعني: يا إلهي، أيّ هراء هذا!

- إنّك بهذا توبّخني، - وتابع ساشـــا كلامه، - وكأنّنا دبّرنا هذا كله، نحن الحفنة من الأولاد. والآن ســـنحوِّل مكان محور الأرض وسنغرق روســـيا في فوضى دموية وسينهار كل شيء. وحتى إنني بـــدأت أفخر بنا... لكننـــا في الحقيقة، يا أليكسي، عـــارض طارئ. دفعتنا تيارات عرَضيّـــة. الثـــورة لا تأتي من الأعلى أو الأسفل، إنها تأتي عندما تُستَنفَد كل الحقائق...

- لقد سمعت هذا في مكان ما...

- أنا أيضاً.

- الحقائق تُستنفَد في داخلكم أنتم فقط! - قال بيزليتوف وصوَّب الملعقة باتجاه ساشا. - لقد فاتتك تلك اللحظة. لم تُستَنفَد الحقائق خارجكم، بل استُنفِدَت داخلكم. وداخلك أنت، يا ساشا! إنّكم لا تعلمون أنَّ كل شيء حتمي يجعل الناس يتغيرون، ولم تصلوا بعد إلى هذا الفهم. هل تعرف لماذا أنت، لماذا أنتم كلكم متعطشون هكذا لسحق الجميع من حولكم؟ إنكم لا تعرفون أين تضعون أنفسكم، وماذا تفعلون بأنفسكم. في الواقع، يحسم كل واحد منكم الصدمة النفسية الخاصة به...

- ابتذال، يا أليكسي. لا بأس، بصراحة، من الابتذال أنْ تقول هذا. ألا تشعر بالخجل؟ الإنسان المخلوق من الصلصال، كله صدمة كاملة. أنت صدمة وأنا صدمة وأيّ شخص. ونحن جميعاً نحسمها، صدماتنا وحياتنا كلها... وكما تريد دائماً أنْ تحيل كل شيء إلى بعض العُقَد، بل إلى عُقَد الآخرين. أنت وجماعتك تأمّلوا...

- لكنني لا أُروِّج لعُقَدي، محاولاً بناء الجميع وإعدام بعضهم رمياً بالرصاص.

انتابت ساشا رجفة خفيفة.

- لكنك تعيش في وئام مع أشخاص أغبياء وقُساة وأنذال، - وبعد أنْ صمت قال. - وحتى تعمل لصالحهم.

فأجاب بيزليتوف: - إنهم طبيعيون، قد لا يكون لديهم تألق فكري كافٍ، لكنهم، على عكسكم، لديهم فكر سليم على الأقل.

- يا أليكسي، أشـــعر بالغثيان مـــن كلماتك، صدقني. كنت أظن دائماً أنك ليبرالي، لكن ليس بتلك الدرجة.

أراد ساشـــا أنْ يقول إنَّ بيزليتوف أصبـــح ليبرالياً متذلِّلاً، لكنه لم يقل بعد أنْ رأى النادلة تجلب له الطبق الرئيس.

- هل الليبرالي - كلمة بذيئة؟ ســـأل بيزليتوف. لم يغضب بعد غضباً جديّاً، ولكنه أضاف تشامخاً إلى الكلام.

- في روســـيا، هذا أســـوأ من الطاعون، - أجاب ساشـــا ببساطة.

وقُدِّمَ لبيزليتوف كذلك الطبـــق الرئيس، فبدأا يأكلان لمدة من الوقت في صمت.

«ليته طلب الشراب، - فكَّر ساشـــا. ربما، لا يشرب الكحول خلال وقت العمل. وإلّا ســـوف تفوح منه رائحة الشراب عندما يحين وقت تقديم المشـــورة... يا ترى، كيف يقدمون المشورة؟ هل ينحنون ويهمســـون في الأذن؟ ولكن أيّ وقت عمل هذا، الساعة الآن الثامنة مساءً... آه! أعتقد إنه يقود السيارة، ولا يجوز له تناول الكحول!»

مضغ بيزليتوف الطعام بعناية وابتلعه ببطء.

- وما هي الليبرالية، يا ساشـــا؟ - ســـأل، أخيراً. - حســـب فهمك؟

- إذا أُزيلَت عنها جميع القشـــور، ســـتبدو في روسيا وكأنها فكرة الجشع والربا الممزوجة مع حرية الاختيار سيئة السمعة،

والتي، مع ذلك، ترفضها أنت ببساطة باسم الحفاظ على ما يُسمّى المكوِّن الاقتصادي للفكرة الليبرالية.

- هل أنا أمارس الجشع والربا؟

- إنك، في نقاشنا هذا، تتخذ بثقة جانب الناس الذين يمارسون هذا بالضبط والذين يرون في هذا هدف حياتهم.

- ولكن الحرية على كل حال مهمة بالنسبة لي، يا ساشا، - لم يُرِد بيزليتوف الاستمرار في الجدال. - وأهم بكثير، على سبيل المثال، مما هي بالنسبة لك. وحتى إنك لا تعرف ما هي بالضبط.

- حريتك لا تهمني، بل يهمني وطني وأرضه وأبناؤه وعماله وشيوخه. حريتك لا تهمني.

- الفاشية أفضل بالنسبة لك، أعترف؟ - سأل بيزليتوف بمرح. فقد سلّاه المحاور بالتأكيد.

وضع ساشا الشوكة على الطبق. لقد نفرت نفسه من الأكل وقال:

- آه، كم تحب هذه الكلمة الجيّاشة، «الفاشية»! وكم تحب أنْ تهتف بها! أقسم أنَّ لديك علاقة حميمة مع هذه الكلمة. وإنّك تحلم بها. لم ينطق أيّ أحد من أصدقائي بهذه الكلمة، ولا مرة واحدة. ولم أتذكر هذه الكلمة، حتى نطقتها أنت.

- ومن أين جاءتك فكرة أنني أعتبركم فاشيين؟ - سأل بيزَليتوف بسخرية. - في البداية كانت تحفظات، ولكن سرعان

ما مرت. أنتم لستم فاشيين. أنتم أشقياء مشاكسون. لن تصلوا أبداً إلى درجة النازيين. في أحســن الأحوال، يمكنكم تقليدهم بشكل سيئ.

- يبــدو لي أنَّ هذا مفيد لبعضهم، - قــال رجل، بدين ذو وجه منتفخ ولكن بأنف جميل ومستقيم، اقترب إلى الطاولة.

أحدثَ مظهره على الفور لدى ساشا شعوراً بعدم الارتياح، وسرعان ما أدرك الســبب: فقد بدت شــفتاه وكأنهما مغطيتان بشريط من الحليــب المغلي، ولهذا بدتا مليئتــين للغاية باللحم بشكل يثير النفور.

- يــا أركادي ســيرغييفيتش أقدم لك صديقي الشــاب، ألكســندر تيشــين، - أدّى بيزليتوف دوره، بعد أنَّ قدم الوافد الجديد وساشا لبعضهما بعضاً.

- لقد فهمتُ، فهمت، فأنا أعرف ســلالة البشر من خلال العيون، - قال أركادي ســيرغييفيتش ولوَّح بيده. كان صوته عالياً ووقحاً عن قصد.

جلس أركادي ســيرغييفيتش إلى الطاولة، وساشا ما يزال ينظر إلى شــفتيه، لاسيما وإنَّ شــفتيه كانتا تتحركان باستمرار بطريقة أو بأخــرى، حتى عندما كان أركادي ســيرغييفيتش يصمت. تارة يقرأ القائمة بشــفتيه وتارة يقاطعهما، كما لو كان يريد العثور على كلمة مناســبة للبداية، ولأنه يحاول تجربة عدد من الكلمات، لم يستطع اختيار الكلمة الأكثر ضرورة.

وفاحت منه (من خلال الكولونيا) رائحة ثقيلة، كما لو جاء مباشرة من إسطبل.

في المظهر، بدا أكبر من بيزليتوف. ربما، كان عمره يزيد قليلاً على الخمسين سنة.

- هل ستتناول الغداء؟ - سأله بيزليتوف.

- كلا، للتو طلبتُ كونياك وشطائر، - أجاب أركادي سيرغييفيتش، ونحّى عنه قائمة الطعام. - هل تشرب قيلاً من الكونياك؟ - وجّه سؤاله إلى ساشا.

- بكل تأكيد.

جُلبت الشطائر والكونياك بسرعة. كانت أربع شطائر بالكافيار الأحمر موضوعة على طبق، وكان الكونياك في كؤوس كبيرة.

- الناس في روسيا لا ينشدون الخير من الخير، لكنهم يبحثون عن المشاكل من أجل الخروج من المشاكل، - قال أركادي سيرغييفيتش بعد أنْ شرب. والتفت حصرياً إلى ساشا، ويبدو أنَّ بيزليتوف قد سمع كل هذا. - إذا لم نفهم هذا بأنفسنا، لن يتغير أيَّ شيء، - تابع أركادي سيرغييفيتش، وهو ينظر في عينَي ساشا، لكنَّ ساشا كان ما يزال مسحوراً بشفاه المحاور. - صحبتنا أنا وأنت أكثر مِدى بكثير، على سبيل المثال، من صحبتنا أنا وأليكسي كونستانتينيتش. لأننا، أنت وأنا كلانا! - وطنيّان. بالنسبة

لنا جوكوف[1]، اسـم مقـدس، ودينيكين[2] كذلك اسم مقدس. لكن بيزليتوف يكاد يبدأ يعتصر أصابعه، فأحدهما بالنسبة له طالح والآخر غير صالح.

- كلاهما على خير، - لوَّح بيزليتوف بيده رافضاً، وإنْ كان من دون تهيّج على الإطلاق.

- الجميع بالنسـبة لك خيّرون، بالطبـع، - وكذلك لوَّح أركادي سيرغييفيتش بيده رافضاً وتوجهت شفتاه الملوّيتان مرة أخرى نحو ساشـا. - عن أيّها موضوع تحدثتَ مع بيزليتوف، ستجده يتمهّل في كل شيء، مثل شخص مصاب بالحساسية في حفل غداء. ولكن بالنسـبة لنا، فإن تاريخ وطننا هو الطريق كله. أليس كذلك، يا سانيا؟

لم يومئ ساشا حتى برأسه، لكن أركادي سيرغييفيتش أكد بارتياح:

- هذا كل شيء، - وتناول شطيرة في هذا الوقت. - وكلانا، أنا وأنت نكره كل هذا التفـكك البغيض الذي بدأه في وقتهم المصلحون الفاشلون. وأنا، خلافاً لك، كنت في المتاريس ذات

(1) غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف (1896 – 1974) – القائد السوفييتي. مارشال الاتحاد السوفيتي وأحد القادة الميدانيّن في الحرب العالمية الثانية نال لقب بطل الاتحاد السوفييتي أربع مرات وحاز العديد من الأوسمة والأنواط والميداليات السوفييتية والأجنبية الأخرى. وتولى خلال الحرب العالمية الثانية منصب رئيس الأركان العامة. (المترجم).

(2) أنطون إيفانوفيتش دينيكين (1872 – 1947) كان جنرالاً في الجيش الإمبراطوري الروسي (1916) وأحد أوائل جنرالات الحركة البيضاء المناهضة للاتحاد السوفييتي في الحرب الأهلية الروسية. (المترجم).

سنة لا تُنسى، بين الأوغاد الشيوعيين والقوميين. وأطلقوا النار من الدبابات بمرأى منّي! وأنا، يا ســانيا، ما زلت لا أسامحهم على ذلك. سيأتي يوم ونشــفي غليلنا. لكن ليس اليوم. لأنه لا يجوز ذلك اليوم.

- من قال هذا؟ - ســأل ساشا من أجل الحفاظ على الحوار بطريقة أو بأخرى. في الحقيقة، لم يهتــم بمَن قال ذلك، فالأمر عنده سيان.

- افتح عينيك وســترى بنفسك، يا سانيا، - ضيّق أركادي ســيرغييفيتش عينيه بحبّ وأجاب. - لن تكون روسيا قادرة على تحمل تفكك آخر، ســتتفكك نفسها إلى أجزاء، ولا يمكن لأحد أن يجمعها بعد ذلك بأي مجرفة. وما الذي سيمســك كل هذا الحجم الهائل لنصف قارة، احكم بنفسك؟ لا إله مشتركاً، لا إيمان بالمستقبل، لا آمال مشتركة، لا يأس مشتركاً، لا شيء، ولا أيّ رابطــة! الســلطة وحدها! نعم، نعم، يا ســانيا، أرى سخطك. - كان ساشــا في ذلك الوقت ينظر بحبٍّ إلى شطيرة الكافيار. - ولكنها الحقيقة. السلطة القبيحة والمعقودة اللسان والخادعة، ولكن هذه السلطة ما تزال على الأقل روسية نوعاً ما، وعلى الأقل عقلانية نوعاً ما. يوجد ثمة رجال طيبون، يا سانيا، إنهم يفهمون كلّ شيء، كل شيء. الرجال الذين أقاموا بأيديهم المزارع الجماعية وشــيّدوا المصانع، هؤلاء هم الخميرة المعتَّقة، وَقد عادوا جميعاً بالتدريج إلى الســلطة. وسوف يُصلِحون كل

شيء بهدوء، وسـيخرجون من الحفرة ويخرجوننا، يا سانيا... وإذا كنتم... - تناول أركادي سيرغييفيتش قليلاً من الشراب ولزم مكانه لبعض الوقت بعد أنْ ضغط أسنانه بشدة وقال: - لا بأس، بالطبع، إنهم يستخدمونكم كفزاعة لتخويف الأطفال الروس. وبطريقة ما سيستغلونكم. ولا يهمهم إلا استغلالكم. وليس ثمة مَن يعرف من يدفع لكم المال. صحيح، مَن يزوِّدكم بالمال؟

تثاءب ساشـا فجأة، ونظر في عينَي محاوره، وبعد أنْ أطلق زفيراً لم يردّ بشيء.

- يا سانيا، أنا أراك، هكذا وجهاً لوجه، لأول مرة في حياتي. - قال أركادي سيرغييفيتش، وهو يتحول إلى الهمس تقريباً. - ولكن يبدو لي أنني قد فهمت شيئاً واحداً فيك. إنك تريد، كما في أيام الطفولة، ألّا تكون مذنباً بأي شيء.

- أريد. وأنا على حق في كل شيء.

صمت أركادي سـيرغييفيتش وجعل يمضغ شـفتيه لمدة طويلة. أنهـى بيزليتوف طبقـه الرئيس وهو يحمل السـكين والشوكة ببراعة.

- أنت على حق في أيّ شيء بالضبط؟ - سأل أخيراً أركادي سيرغييفيتش.

- على سـبيل المثال، في حقيقة أنَّ «الثورة» و«روسيا» اليوم مفهومان متكافئان ومتسـاويان. ولا يمكن تصور روسيا بعد خارج الثورة ومن دون الثورة.

- وبماذا أيضاً؟

- في حقيقة أن جيلك لن يترك كلمة يمكنها أنْ تحكي عنكم بإطراء. وأنّكم قمامة متعفِّنة.

نظر أركادي سيرغييفيتش وبيزليتوف إلى بعضهما بعضاً وضحكا. ضحك بيزليتوف مِلءَ شدقيه. وكان ضحك أركادي سيرغييفيتش مثل الشخير المتكرر. وضحك ساشا أيضاً.

- كم أنتم مزعجون، - قال بلطف تقريباً ونهض عن الطاولة.

تسكّع، مكشِّراً بشكل غريب وتحدث بصوت عالٍ أحياناً، في وسط المدينة. كانت المصابيح مشتعلة، وواجهات المتاجر تشعّ بشكل باهت، ومن مكان ما طوال الوقت كانت ثمة موسيقى تصدح من سيارات مفتوحة الأبواب، من أبواب المقاهي الجميلة. وتمشّت فتيات الليل اللافتات للنظر مثنى وفرادى، وأحياناً مع المعجبين. كان المعجَبون يجوبون فرادى، وثلاثة، وأحياناً مع الفتيات المزيّنات بالألوان الصاخبة.

«أنا مسخ ظلامي، فكّر ساشا بهدوء. - يمكنني أنْ أقتل. لست بحاجة إلى النساء. ليس لديَّ أصدقاء ولا يمكن أنْ يكونوا».

«كلا، أنت حقاً مسخ، يا ساشا، - تحدث مع نفسه. - لماذا أخذَت النقود من والدتك؟ هل رأيت حذاءها؟ إنها ترتدي

الملابس القديمة للسـنة الثالثة، وأنت تأخـذ المال منها. ليتك ذهبت واكتسبت المال، أليس كذلك؟»

«وفي الوقت نفسـه، ينصح بيزليتوف أنْ يتلو «أبانا الذي في السماوات»، المنافق» - أمعن ساشا النظر بنفور إلى داخل نفسه.

«اللعنة، من أين حصلوا على هـذا المال الكثير؟ - عادة ما كان ساشـا يندهش من السـيارات الباهظة الثمن التي يخرج منها الشـباب الذين يرتدون الملابس الفاخرة. - هذه السيارة وحدها تكلف ما تكسبه أمي خلال مائة وأربعين سنة. يا ترى، هل تعمل هي بشـكل سـيئ؟... أَم أنّي أطرح أسئلة غبية مرة أخرى؟»

ولأنَّ ساشا ليس لديه ما يفعله، فقد ذهب إلى سوبر ماركت ليلي. تمشّى هناك، مسحوراً، في المتاجر كلها.

نظر إلى الأسـماك، التي لا يوجد مثلها حتى في كتاب علم الحيوان. الأسـماك الموضوعة في الزيت، مثـل المعادن الثمينة. والروبيـان والأخطبوطـات والسرطانـات البحرية والحبار وجـراد البحر وقنديل البحر وبلح البحر بكميات كبيرة كما لو أنها ربيَت في خزان مياه محلي، ولا تُصطاد بل تُغرَف بشبكة من الماء، والتي تكاثرت بأعداد كبيرة إلى درجة التبذّل. وبعد ذلك لا يُعرَف مع أيّ صلصة يمكن تقديمها.

وكذلك الأجبان، من مكان ما من مستودعات الحِفظ وأقبية الحكايات الخيالية التي قرأها منذ زمن بعيد. أجبان معطرة مثل

أكثر النساء بهاءً وشــباباً. مثل هذا الجبن لا يؤكل، بل تلتصق عليه بخدك وتبكي.

واللحوم، إنها لحوم كثيرة بشكل لا يُصَدَّق؛ إنها من الكِثرة إلى درجة يصاب معها المرء بالتوحش. إنَّ هذا اللحم المكشوف يستحق أنْ يُرى في الطبيعة، على ضوء مشعل النار، عندما تكون أنت من اصطاد الحيوان البري وذبحه وسـلخه - عندها فقط يكون منظر اللحم الدامي والهامد والمسـلوخ مبرَّراً بطريقة أو بأخرى. أما هنا، وهو ملقى للعَرض... فبأيّ شيء نستحقه؟...

وقلائد الدجاج العاريـة، والإوز المتغطرس الطويل حتى من دون رؤوس وريش.

الخضراوات عَطِرةٌ، كما في الحلم، والطماطم حمراء وكبيرة، كما في الطفولة، والخيار من النوع الذي لا تسعه الطبيعة الصامتة.

وصفوف الفاكهـة، الموضوع عليها البطيخ الأحمر (الرقي) الريّان المفلوق، وعناقيد العنب الخامدة كأنها نائمة، والبرتقال بجوانبه المنفرجة، واليوسـفي بقشره الخفيف والمتغضّن أحياناً والسـهل التقشير. والكيوي المشـعِر، مثل مفاتن جسم رجل الكهوف، والتفاح بظلال ألوانه المختلفة، والكمثرى الناعمة، والموز الرهيب، ونوع من الفاكهـة الأخرى كأنه عين مصباح إشارة المرور الحمراء التي استخرجها المشاغبون.

صفوف من زجاجـات الشراب، مائة وأربعون من الأصناف غيرَ المعروفة. وصفوف من زجاجات الشراب، بأشـكال مختلفة،

كما لو أنَّ مهندسين معماريين متميزين انشغلوا بتصميمها مؤقتاً عن بناء مدينة المستقبل. والكثير من المشروبات الكحولية، التي يعجز المرء حتى عن النظر إلى ملصقاتها...

وها، قد خرج ساشا مسرعاً من السوبر ماركت ووقف لمدة طويلة عند المدخل وأشعل سيجارة وبدأ يدخّن. وجعل ينظر كيف تأتي سيارات جميلة ويخرج منها أناس منفعلون، ومن ثم، بعد مرور بعض الوقت، يعودون بأكياس كبيرة مليئة بالطعام الذي لم يذقه ساشا مطلقاً ولم تذقه والدته، والذي لا يعرف مذاقه لا بوزيك ولا نيغاتيف ولا شامان ولا بايالا... ولا أحد، على الأرجح، من «الاتحاديين» في هذه المدينة.

«كما لو كنت تريد هذا الطعام حقاً، - قال ساشا لنفسه. - ألا يمكنك العيش من دونه؟».

«لا بأس، لا أريده. يمكنني العيش من دونه».

«إذاً، ماذا جرى لك؟»

«الحقيقة..».

أخرج ساشا مرة أخرى علبة السجائر ورأى أنها فارغة.

عاد إلى السوبر ماركت، وتحول على الفور إلى الصندوق، وصار الثاني في الدور. كان يقف أمامه رجل يرتدي سترة جلدية ممتازة، وقد لمع الثلج الذائب على ياقته السوداء المصنوعة من جلد حيوان بري جميل. وكان الرجل يتحدث بهاتفه الخلوي. ذكرت له البائعة المبلغ، فأومأ برأسه. وأَخرَج من جيبه حافظة

نقود، وفتحها بإحدى يديه، وسحب من حزمة سميكة عدة أوراق نقدية ذوات أصفار كثيرة - وطوال هذه المدة يتحدث عبر الهاتف. جمعَ بقية العملة وأمسك الكيس الضخم الطنّان وهكذا خرج والهاتف تحت أذنه.

اشترى ساشا سجائره المحبوبة، وصرَّف ورقته النقدية ذات الخمسمائة روبل. فتح العلبة، وهو ما يزال واقفاً بالقرب من صندوق النقد، وألقى بالغلاف البلاستيكي وإيصال الدفع في سلة المهملات ودسَّ سيجارة في فمه، وأشعلها وهو بعدُ في المتجر مقترباً من الباب.

- التدخين ممنوع في المتجر، - قال له الحارس الذي يرتدي ملابس سوداء ويقف عند الباب معتقداً أنَّ من واجبه أنْ يقول ذلك.

وضع الرجل الكيس في المقعد الأيمن، وجلس هو خلف المقعد وما زال يتحدث بالهاتف. ارتجفت السيارة رجفة خفيفة وابتعدت بعد أن اهتزَّ فيها مخفف الصدمات الجميل برفق.

«أناس مشغولون»، - تنهد ساشا وعاد إلى صوابه.

لم يشعر بالبرد على الإطلاق: يا ترى، هل دفَّأه الكونياك.

«الآن سأعود إلى المنزل، وسآكل عصيدة الحنطة السوداء. وسأسلق نقانق الجبن. عندما تغليها، يصبح الماء عكراً، كما لو أُضِيف إليها مسحوق الغسيل... وفي الصباح تنبعث من القدر رائحة، كما لو أنَّ فأراً متعَباً متساقط الشعر مصاباً بضعف المناعة

قد غرق هناك... ســآكل عصيدة الحنطة الســوداء وأذهب لأنام. سوف أرى أحلاماً. وأيّ أحلام سترى في المنام؟... اللعنة، عندما تكون قد عشتَ ربع قرن وأنت تفهم أنك لا تريد أن ترى أي شيء في المنام».

خرج ساشــا مرة أخرى إلى مركز المدينة، كان الليل قد حلَّ في المدينة، الناس في الشوارع مضطربون، وكأنهم قد استيقظوا مباشرة.

مشــى مســتعجلاً إلى مكان ما، بعد أن فقد الشعور بالبرد والتعب، خفيفاً يكاد ينحني. مسَّ بلســانه ســنَّه، الذي ركَّبه. وجعلّ يقلب مظروف الإطلاقة في جيبه.

اشترى زجاجة شراب من أحد الأكشاك وشربَ الزجاجة بأكملهــا تقريباً في البرد. وجعل ينظــر إلى الناس، كان الناس مســتمتعين. يمشــون من جانبه وهم يضحكــون، يركضون صوب المقاهي ويخرجون منها دافئين ومبتسمين.

وجد ساشا نفســه فجأة يحاول أنْ يرسم على وجهه مظهر ابتسامة معينة مميزة به، وأنْ يجعل وجهه كذلك يبدو سعيداً. بيد إنه لم يفلح في ذلك.

أراد أنْ يُفــرغ مثانتــه. نظر إلى أقرب فنــاء، ولكن كان هنــاك اثنان يتبادلان القُبَل. فخرجِ مرة أخرى إلى الشــارع المضاء بمصابيح ساطعة. وواصلَ المشي وهو يقلِّص معدته بعصبية.

وفي الفناء التالي التقى بالدورية وجهاً لوجه، حتى إنه ارتبك للحظة. إذ لم يجد الطريقة التي يفسر بها وجوده هنا وعمَّ يبحث في الظلام. فاستدار ومشـــى صامتاً، وفي يده زجاجة الشراب التي لم تُفرغ تماماً.

ســـار لمدة دقيقتين في الشـــارع، وهو يقفز أحياناً، ثم لاحظ زقاقاً مظلماً آخر، فاســـتدار قافزاً بين الحفـــر المملوءة بالماء. لم يكـــن ثمة أحد في الفناء، ولكن، على مـــا يبدو، كان مقهى يقع في الطابق الســـفلي، وكانت هناك ثلاث سيارات قريبة، ذوات أجهزة إنذار ضوئية ضد السرقة.

حسناً، لا بأس. وجد ساشا لنفسه مكاناً عند الجدار خلف مدخل المقهى، وفكَّ أزراره بسرعة بيـــده اليمنى، وفي الوقت نفســـه يتخبّط لا يعرف أين يضع الشراب، ثم وضع الزجاجة على الأسفلت، وفتح السحاب، منهَكاً من العجَلَة.

وقف لمدة دقيقة تقريباً، محاولاً النظر إلى النجوم، لكن منعته حافّة الســـقف. بالإضافة إلى ذلك، تساقط رذاذ خفيف وقليل من الثلج من الأعلى.

خفض عينيه إلى أسفل، وأعاد ترتيب رجليه، حتى لا يبتلَّ مـــن البول النازل من الجدار. صـــارت قدمه مباشرة على بركة متجمدة مـــن الجليد. فلعنَ من دون حمق. لاحظ ساشـــا وهو يَنظر شزراً أنَّ الفناء كله مليء بالبِرَك.

وهو يهتز بالنهاية، ســمع كيف يصعــد أحدهم الدرج من المقهى. واعتماداً على قوة الخطــوات اعتقد إنه رجل. لا بأس، يمكنه ألّا يستعجل.

شدَّ ساشا أزراره ولاحظ بغضب أن زجاجة الشراب التي شرب منها قد ســقطت وانسكبت. فرفعها وهزَّها. لم تبق فيها جرعة.

التفت إلى الشــخص الذي غادر المقهــى فعرفه على الفور: كان هو الذي اشــترى المواد الغذائية في المتجر قبل ساعة. وها هي سيارته.

لم يتذكر ساشــا اللحظة التي قرر فيها القيام بذلك. لم تكن لديه فكرة واحدة على الإطلاق. أدار رأسه، وبعد أنْ انتظر ثانية عندما يغلق الرجل باب السيارة، ضرب بيد خفيفة الزجاجة في زاوية المنزل. فتشكّل عنق الزجاجة المكسورة في يده. وكما ظن ساشا، لم يسمع الرجل صوت الزجاجة المكسورة.

أمســك ساشــا الزجاجة بشــكل لا يمكن رؤيتها خلف كُمِّه، وسحب ســيجارة من العلبة ببراعة بيده اليسرى، وبعد أنْ ضغط عُقب السيجارة بأســنانه، اقترب من السيارة بمشية استخفاف واثقة تماماً. انحنى إلى نافذة السائق. كانت الموسيقى تصدح في السيارة، والرجل ينظر في مرآة الرؤية الخلفية، ليحدد كيف يخرج بعناية أكبر.

طرق ساشا الزجاج بأظافر أصابعه وقال:

- من فضلك، اعطني ما أُشعل به السيجارة!

نظر إليه الرجل من وراء الزجاج وهو مستاء. رد ساشا عليه بابتسامة حلوة.

خُفِّضَ زجاج السيارة.

- ماذا تريد؟ - سأل رجل غير حليق ولكنه ذو مظهر لائق.

- صه، - أجاب ساشا وهو يبصق السيجارة تحت قدميه، وبعد أنْ أمسك الرجل من ياقته الجميلة بيده اليسرى ووضع عنق الزجاجة المكسورة مقابل عينيه تماماً. - لديك محفظة نقود في جيبك. اعطني إياها.

- سأعطيك، - أجاب الرجل، كما بدا لساشا بهدوء.

أخذ ساشا المحفظة بيده اليسرى ودسّها في عبّه، من خلال رقبة الكنزة الممدودة.

- الآن مفتاح السيارة.

أطفأ الرجل محرك السيارة وناوله المفتاح مع الحافظة.

ألقى ساشا، من دون أن ينظر، المفتاح باتجاه الثلج والبِرَك، في عمق الفناء.

- لا تتبعني. المفتاح هناك، ابحث عنه، وإلّا سأسرق السيارة أيضاً، - قال ساشا وركض. وأسرعَ بقدمه على الفور إلى بركة عميقة، وهو يخفق رذاذ الجليد.

- أيها الأنذال، ماذا فعلتم هنا! - لعن مرة أخرى، بمرح شديد.

«أحسنت، الآن ستُسرِع إلى الشارع المضيء وعنق الزجاجة المكسورة في يدك»، - تذكر فجأة، واستدار، وألقى عنق الزجاجة المكسورة في بركة.

عَبرَ الشارع المزدحم، محاولاً اتخاذ هيئة الخطوات السريعة، وليس الجري الصاخب، توغل في الفناء المقابل، معتقداً أنه نافذ. وفعلاً كان نافذاً.

وبعد عشر دقائق تقريباً، حاولَ أنْ يجتاز عدة أفنية متزحلقاً باستمرار فوق الجليد، وبعد أن التفت مرة واحدة على نحو خارِق، ولكن من دون أنْ يختنق من الركض، أدرك ساشا بغريزة وحش البراري أنَّ أحداً لن يمسك به.

خلع قبعته ورماها بعيداً، حتى لا يُعرف من خلالها على كل حال. فلو اتصل ذلك الرجل بالشرطة، من المحتمل أنْ يذكر القبعة من بين العلامات التي تصفه. وسوف يُبحَث عنه حسب القبعة. أما ملابسه الباقية فهي عادية جداً. سترة غامقة وجينز غامق وحذاء غامق.

«ربما ليست غامقة؟ - رفع ساشا رجله وهو ينظر إلى الحذاء. - إنه رَطِب».

أخرج محفظة النقود، واستلَّ منها رزمة الأوراق النقدية الكبيرة، وفتَّشها مرة أخرى، فوجد بعض البطاقات التعريفية، ولم يكن فيها ثمة وثائق شخصية، ولا حتى إجازة قيادة السيارة. ألقى المحفظة في بركة ووضع المال في جيبه الذي بالكاد اتسع له.

وسرعان ما خرج ساشا إلى الساحة، وتذكَّرَ أنَّ هناك موقفاً لسيارات الأجرة. كان الناس ما يزالون في الساحة، معظمهم سُكارى. ازدحم الناس عند الأكشاك. مشى ساشا عبر الساحة، حاظر الذهن وصاحياً، واتجه نحو سيارات الأجرة الواقفة على الجانب الآخر.

مرَّت بالجوار سيارة شرطة ببطء. نظر السائق من جانب ساشا إلى الشباب الصاخب الذي يقف على الرصيف. وبعد أن قلل ساشا من خطواته الخفيفة قليلاً مرّت السيارة فواصل مشيه بهدوء. وحتى إنه لم يدخّن. كانت كل نبضة من نبضات قلبه مباشرة وصادقة، وكل شيء في مكانه، ولم يرتجف لديه عرق.

لم يمسك ساشا مثل هذا القدْر من المال في يديه، وحتى إنه لم يخمِّن أنَّ الناس يمكنهم حمل مثل هذه المبالغ في جيوبهم. وفعلاً، ما حاجتهم بها؟ هل يتبضّعون بها في الليل... اللعنة، وماذا يمكنهم شراؤه هنا؟... ربما، يشترون دراجة هوائية رياضية... وهل تُشتَرى الدراجات ليلاً؟ هل يستقلون سيارة أجرة إلى سانت بطرسبورغ، ليشاهدوا ليلة من الليالي البيضاء؟ ما حاجتهم لهذه المبالغ الكبيرة؟ وكيف ينفقونها؟

قسَّم المال إلى ثلاثة أجزاء. وأخذ أحد الأجزاء إلى بوزيك.

- هذا صندوق مشـــترك، يا بوزيك. - اشترِ لنفسك سترة وبســـطاراً - أمرني نيغا. وأرســـل بالباقي طــرود. حتى ينفد. وعندما ينفد، أخبرني.

التزمَ بوزيك الصمت.

- إذا حدث أي شيء، اتصل بي، - طلب منه.

- حسناً، - أجاب ساشا.

- إذا لم تتصل بي، فسأفعل ذلك بنفسي.

- سوف اتصل.

وقــرَّر أن يعطي الجزء الآخر لأمه، ولكــن ليس كله دفعة واحدة، حتى لا يثير خوفها.

- مــن أين؟ - ســألت بفرح ولكن بــشيء من الخوف في صوتها، حتى بعد أنْ تلقت القليل من التطمينات.

- لقد سرقته، - أجاب ساشــا بصدق، لدرجــة أنَّ أمه لم تصدق ذلك.

- قل الصحيح؟

- إنَّكِ بحاجة لحذاء شــتوي، - قال ساشا وهو يخرج من المطبــخ. لم يكذب عــلى والدته أبداً، وحتــى الآن لم يرغب في الكذب.

أخفى المبلغ الباقي، ليس لنفسه بل للمستقبل. وحتى إنه لم يفكر بأنَّ هذا المبلغ له، فهو لم يحتَج له.

فكَّ ورقة نقدية مُقَرقِشَة واحدة اشترى بها الشراب، ثلاث زجاجـات دفعة واحدة، ورزمة عُلَب كاملة من السـجائر. لم يشرب وحده في الشقة الفارغة أبداً.

«والآن سـأشرب...» - نظـر ساشـا إلى الزجاجة بعينين جذلَتَين. وقطَّعَ لنفسه خيارة مخلَّلة كبيرة، وأَعدَّ عجَّة من ثلاث بيضات وسـلق سـجق الجبن. جلس في المطبـخ، وجعل يهز برجله. وكأنَّه على وشك فعلِ شيء مهم بشكل ملحوظ.

ومـا إنْ شربَ حتى شـعر أنَّ كل ما كان يؤلِمه في أحشـائه في المـدة الأخيرة قد بدأ يحرقـه. والآن لم يعد شيء يؤلمه في هذا المكان. بقي الحريق فقط لكي يجف كالقشرة الميتة.

وأحسّ بالحرقة فأكل الخيار وعصر عينيه بما فيه الكفاية.

وقال لنفسـه: «الآن. سـتصبح. حالتي. جيدة. وسأشعر بهدوء تام».

مضغ شـيئاً من عجَّة البيض المقلي، وقطَّع النقانق بالشوكة إلى قطع غير مرتبة. وبعد الكأس الثاني نظر برقّة إلى هذه القطع وإلى البيض (العيون) المقلي البارد الذي أراد أنْ يغمزه، وقضم الخيار بصوت عالٍ، مضيّقاً عينيه.

أحسَّ بالدفء في رأسـه، وبدا له أنَّ الضوء الخافت مُضاء أيضاً. فرمش بعينيه مندهشاً، من دون أنْ يفهم أين بالضبط.

دائماً ما يبـدو للمرء في مثل هذه الحـالات أنَّ الجو أصبح مشرقاً، وإذا ما شرب مرة أخرى، فسيصبح أكثر إشراقاً وأكثر

سخونة وأكثر متعة. وهكذا ينجر من كأس إلى كأس خلف هذا الشعور وخلف هذا الضوء الوامض، كما ينجر خلف خطيئته، حتى يدور رأسه الطالح تماماً ويتعكر ويسقط على جانبه.

«من السابق لأوانه أن أسقط»، - قال ساشا لنفسه بعد الكأس الثالثة، وهو بعد قادراً على أنْ يميّز أنه لو قال هذه العبارة بصوت عالٍ، لكان قد تباطأ قليلاً عند بعض الحروف وعند تقاطع الكلمات التي، حتى في حالة السّكْر الخفيف، تسعى للانهيار وللسقوط، وكأنها ملصوقة بطين لدائني (بلاستيلين) قديم.

وبعد الكأس الخامسة، انفتحت شهية ساشا، فأكل كلَّ ما تبقّى من عجَّة البيض المقلي التي قد بردت ولكنها كانت لذيذة على أيّ حال.

الآن يمكن التدخين. كلا، كأس أخرى، الكأس السادسة صار يضغط برفق. والأفكار تتدفق بشكل أبطأ، أكثر ليونة وكسلاً واسترخاءً. كانت أبطأ وأكثر استرخاءً إلى درجة تبدأ فيها بالتفكير في شيء ما، وتزيح الحجارة المتراخية في رأسك، ثم تأخذ الولاعة لتُشعل سيجارة فتنسى في الحال ما كنت تفكر به. فتدخِّن وتستذكر بمرح: ماذا كان في رأسي الآن. شيء ما، اللعنة، مهم للغاية. وتنصرف لشيء آخر وتنسى. وفي هذا الحال تسكب الكأس السابعة، بالطبع. في ذكرى الفكرة المنسية ولكن العميقة. ثم تباغتك فجأة عند نهاية الزجاجة، لكنك لن

ترغب في استقبالها بعد الآن. وتقول لها عودي من حيث أتيتِ. لســـتُ متفرِّغاً لكِ. وقُبيل انتهاء الزجاجة تود أنْ تتحدث من خلال الهاتف مع شـــخص طيب كان ينتظرك من مدة طويلة، ولا يمكنه النوم من دون مكالمتك.

لم يعرف ساشـــا بمن يتصل. في مثل هـــذه الأوقات، كان ســـيتصل بنيغاتيـــف، ويســـتمع إلى صمته وكيـــف يغير نغمة الصمت من الانفعال إلى الاهتـــمام الهادئ والقصير المدى، ثم يعود مرة أخرى إلى الاســـتياء الكئيب ولكـــن الهادئ، والذي يروق لساشا بشكل لا يصدق.

أدرك ساشا فجأة أنَّ في شقة نيغاتيف كان دائماً ثمة هدوء من نوع خاص. وخمَّن ساشـــا قائلاً مع نفسه: هذا بسبب الزهور! هذه الزهور كانت مشبعة بهدوئه الأبدي! لدى نيغاتيف البداية الإبداعيـــة أقوى بكثـــير من الرغبة في تحطيـــم كل شيء، وهنا يكمن السر!».

لاحظ ساشـــا هـــذه الفكرة بالـــذات، بعدما ســـكب بقية الزجاجة في الـــكأس إلى أنْ فرَّغها تماماً. وحتى إنه لم يرفع مثل هـــذه الكأس المملوءة، في البداية شرب منـــه قليلاً وهو منحنٍ برأسه عليه.

لم يتصل بأحد.

مع زجاجة الشراب الثانية أكل قطعة النقانق وخيارة أخرى بنهم شديد.

لم تبقَ فكرة واحدة راسـخة في رأسه، لكنَّ عواطفه تناوبت حادَّةً مثل شرارة الكهرباء في العين. تارة يهاجمه الانفعال وتارة الشفقة ثم الضحك وثم الغضب.

شيء مـا طار من جانبه، قطـارات سريعة بسرعات عالية، وهي تـدوّي... ودبَّت أعلام ممزقة عـلى وجهه مباشرة. نفث الدخان بشـفتيه المسـتخفّتَين والملتويتـين فاختفت الأعلام. وبقيت الظلمة المتمايلة.

اسـتيقظ وكافح لمدة دقيقة ليتذكـر بالضبط متى وصل إلى السرير. لكن هذه اللحظة سقطت من الوعي إلى الأبد.

في المطبخ الذي وصل إليه وهو يتشـبث بالجدران انتصبت بين الأطباق غير المرتبة الزجاجة الثانية فارغة تقريباً.

«وأين أمي؟» - فكَّر ساشا.

ألقى نظرة حزينة على السـاعة ووجـد أنَّ وقت عودتها لم يحن. ربما، إنه نام لمدة خمس ساعات.

جمع الأطباق بسرعة في الحوض، وتناول جرعة من الشراب المتبقي وقطعة خبز كاملة وسـكب الماء من الصنبور في كوب طويل. وعندمـا دخل إلى غرفته كانت والدته تفتح قفل الباب بالفعل.

وضـع كل شيء أحضره إلى الأريكة، وغطى نفسـه بغطاء السرير (وبطبيعة الحال لم يفرش تحته شرشفاً)، وتظاهر بالنوم. كان يعلم أنَّ والدته ستدخل غرفته في غضون دقيقتين، وتحقق

فيما إذا كان في المنزل. إنه في المنزل، مستلقياً برأس ثقيل، وداخل رأسه دويّ مقرف. لم يغسل أسنانه. أخرج لعابه القذر، وبصق على مشع التدفئة المركزية، سيجف اللعاب.

نظرت الأم إلى الداخل، فرأته نائماً مغطى بالبطانية حتى رأسه، ولكن بعينين مفتوحتين: لأنه إذا ما أغمضهما سيشعر بالغثيان.

فأغلقت باب الغرفة بلطف.

«نظرت أمي لمدة أطول من المعتاد، - لاحظَ ساشا وقال مع نفسه، - إنها قلقة بشأن المال، من أين حصلت عليه... يجب أن أحكي لها كذبة».

انحنى ساشا على ظهر الأريكة، وأمسك بزجاجة الشراب المتبقية. في البداية سيكون الأمر مثيراً للاشمئزاز، ومن ثم يكون جيداً ومنعشاً وفيه تحدٍّ. ولكنه في البداية مُقَزِّز.

شرب وهو يهزّ برأسه مثل الكلب الذي خرج من الماء. جلس لمدة دقيقة وقد بدت ملامح الاشمئزاز غير العادي على وجهه.

شرب ماءً من القدح ورقـدَ. الآن يمكنه أن يغمض عينيه وينصت إلى داخله وكيف يزهِر كل شيء فيه.

ماذا؟...

شيء ما ليس على ما يُرام.

أخذ ساشا قشارة رغيف من الخبز على صدره، وثلمَ شيئاً من لبّها ولفَّه على شكل كرة، ووضعه على لسانه.

ورقد على هذا النحو. وذابت قطعة الخبز على لسانه.

«ما هو الفصل الآن؟» - فكَّر ساشـــا وهو يستمع إلى الأصوات خارج النافذة. تحامق لبضع ثوانٍ، وهو يتعمّد المراوغة بعقله، كما لو كان فعلاً لا يعرف الشتاء في الفناء أم الصيف.

ولكنه لم يتذكر بالضبط اليوم والأســبوع. وحتى الشهر لم يعرفه، اعترف ساشا فجأة لنفسه أيضاً. لقد حان شهر ديسمبر (كانون الأول)، هذا أمر مؤكد. بل ومن مدة. ولكن عيد رأس الســنة الجديدة لم يمر... سيحين قريباً عيد رأس السنة. اللعنة، ولكن...

ولماذا، - «اللعنة؟» وكأنك احتفلت به في وقت ما. ففي العام الماضي أويتَ إلى الفراش في الساعة العاشرة مساءً ونمتَ حتى الصبـــاح. وأمك كانت في الخفارة مرة أخرى. إنها في المناوبة في كل ليلة رأس السنة، ومقابل هذا تقبض ثلاثة روبلات ونصف روبل إضافية.

فكَّر ساشـــا بأنَّ الشتاء من الســـهل أنْ تخمّنه من دون أنْ تفتح عينيك. وبدت لـــه هذه الفكرة آسرة. وسرعان ما نزع الســـدّادة عن زجاجة جديدة، وشرب من فوهتها، وشرب بعدهـــا الماء ليطفئ به نار مرارة الشراب، ممســـكاً بالفكرة في رأســـه حتى لا تضيع، ورمى نفسه على الوسادة مرة أخرى، وأغمض عينيه.

أجل، عن الشتاء...

لا بأس، الآن أبسط شيء هو أنَّ الكنّاس المتأخر يصرف بالمجرفة ويجمع الثلج. صوت لطيف للغاية إذا كنتَ تنام ولا تحتاج إلى الاستيقاظ. تشعر بنعيم غير عادي لأنَّ الثلج يتساقط في الشارع وأحدهم يعمل وأنت ترقد هنا تحت اللحاف. تنقلبُ إلى الجانب الآخر وتواصل الاستمتاع بالنعيم.

في فصل الشتاء، تتحرك السيارات بشكل أبطأ ويكون الهواء أكثر همساً. وتمر حافلة الترولي وكأنها تسير على سكة متوترة، كما لو أنَّ المساحة قد تكثَّفت، - فيتعيَّن عليها أنْ تستند بجبهتها الكبيرة. وتسير عربات الترام بتركيز وتجلجل بصوت خافت في الانعطافات، حريصةً على الاعتناء بجسدها الحديدي.

الربيع - مسألة أخرى.

ثم هناك الكثير من الماء، والسيارات تمر فيه بصخب، والمارة يقذفون الشتائم خلف السيارات، يمكن سماع كلّ شيء جيداً، والهواء فارغ ومذاقه مجرد على نحو كريه، يجعل الحنجرة مبحوحة بشكل مستهجَن. تتحرك عربات الترام بوقاحة وتُهدِّد بالانهيار. والجار وراء الجدار يسعل بصوت مقزز للغاية، كأنه دبٌّ استيقظ في بركة ثلجية (فاتته الأيام التي ذابت فيها الثلوج. وخرج من الجحر، نحيفاً، أشعث، بغيضاً، وهناك تعرض للضرب على أيدي الجنود المسرَّحين الغاضبين والسكارى، على كليتيه ورئتيه وظهره) هكذا يَسعل الجار.

بحلول منتصف الربيع يصبح الهواء شـفافاً ولطيفاً إلى حدّ التبذّل، وتشـعر بأنك برعم مُزهِر، والرقة تداهم عقلك، حتى تشعر بالملل.

العالم مليء بالأصوات في نهاية الربيع، يبدو أنه بحلول فصل الصيف سـتُصاب بالصَّمَم. ولكن لا شيء، ستعتاد على ذلك. طيور الصباح - العصافير، ولَقْلَـق... كلاب الفناء، وكذلك الجراء التي تربَّت فيها... وأغاني السكارى، والموسيقى المُنبعثة من السـيارات المفتوحة، هناك الكثير لدرجة أنه لا توجد قوة لفرز الضجيج إلى الأجزاء المكونة له. وأنت تعيش وسـط هذا الضجيج، مندهشاً أحياناً من الصمت الذي يخيّم فجأة. وحتى هـذا الصمت خادع. لا بد أنَّ يطنَّ كائنٌ مـا في الزاوية، إذا ما أصغيتَ جيداً.

ثم الخريف... الخريف، وما أدراك ما الخريف...

نَديٌّ، موحِلٌ، رَطِبٌ، رمـادي. في البداية يصخب تلاميذ المدارس، وبعد ذلك يخفت كل شيء، ويهمس كل شيء... إلى أنْ يأتي عامل النظافة ويُبدد السكون بمجرفته.

وشربَ أيضاً. أمسـكَ ساشا الزجاجة أمام عينيه، وبعد أنْ فكَّر قليلاً، ارتشـَف منها من جديد، ثلاث مرات تقريباً مِلءَ حلقه، وهو يلهث. كفى، إنه يقتل.

نام ساشا.

رقد بــلا حراك، كان يتنفس بشـــدة، وكان جبينه ســاخناً ومبللاً بالعرق وقدماه متجمدتين ومتعرقتين أيضاً.

قبل ثوانٍ قليلة من الاســتيقاظ، كان يركض، يركض نحو القاضي، محاولاً تجاوزه. لم يســتطع بــأي حال من الأحوال أنْ يصل إليه، فقد ركض ببطء شديد.

... مشى إلى المطبخ عندما استيقظ. وجد أمه تجلس مكتئبةً. وقد انتصبت زجاجاته على شــكل صفّ، الثلاث كلها لسبب ما. نظر ساشا إلى الزجاجات مدةً من الوقت، مضيِّـقاً عينيه من الضوء. وفي النهاية خمَّن أنَّ أمه دخلت إلى غرفته، لتتحقق كيف ينام ابنها، فلاحظت مخبأه السري، وأخذت كل شيء.

- أريد أن آكل، - قال بصوت مبحوح.

ولكنه، في الحقيقة، كان يريد أنْ يشرب.

- هل لديكِ كومبوت[1]؟ - طلب من أمه. - والأفضل ماء المخلّلات... نعم، ماء المخلَّل.

امتصّ الماء المالح من العلبة.

- أشعر بالعطش الشديد، - أوضح لها.

- إذاً، لماذا تشرب؟ - ســألته الأم. - تقول، لا أشرب، لا أشرب، وها أنت... تريد أن تكون كأبيك؟

- كفي، يا أمي، كفى، لن أعــود للشرب بعد الآن، - قال ساشا بصوت مبحوح. ولسبب ما لم يشعر بالخجل. لأنه، على

(1) كومبوت - شراب مُحلّى يُعَدّ من الفواكه والثمار المغلية بالماء. (المترجم).

الأرجـــح، كان على يقــين من أنه لن يصبح ســكِّيراً مدمناً. لا بأس، شرب، وماذا بعد؟

بقي صامتاً.

وضعت الأم عجةً (أومليت) أمامه. أكل بنهم، كاوياً نفسه بحرارة الأكل. فهو لم يأكل طوال اليوم. وكان بين الحين والحين يُلقــي نظرة خاطفة على الزجاجة الثالثة التي بقي فيها شيء من الشراب، ليس لأنه أراد أنْ يشرب، بل اندهشَ ببســاطة لأنه لم يتبقَّ فيها سوى القليل. فقد ظنَّ أنه شرب منها جرعتين فقط... هل يُعقَل أنه تناول منها أثناء النوم. يبدو أنَّ مثل هذا الشيء قد حدث بالفعل، نعم حدثَ. آخ، الويل لي...

- اليوم ســأذهب للمناوبة. لن تشرب بعد؟ - سألت الأم وهي تلبس.

- لــن أشرب، لــن أشرب، - وردّاً عــلى تمتمتهــا الضعيفة والحزينة: - اذهبي، يا أمي، اذهبي، لن أشرب، لقد قلتُ لكِ.

جلس في المطبخ، شــاباً قوياً لا تبدو عليه آثار السُّكْر تماماً. وماذا في الأمر، ألم يســكر قليلاً قبل هذا. إنــه بحاجة للتهوية فحسب وليس سكران. وثمة دوار وخدر في رأسه.

دخل الغرفة، واستلقى وعيناه مفتوحتان.

رنَّ جرس الهاتف.

«هل أريد أن أســمع أحداً؟» - ســأل نفسه. وعرف أنه لا يريد أن يسمع أيَّ أحد.

خرج إلى الممر، إلى طاولة الهاتف.

- ألو؟ - ســـأل، وهو ينظر إلى الهاتــف الهائج من دون أنْ يرفع السماعة. - مَن يريدنا؟ مَن يحتاجنا؟ ربما هذه يانا؟ «أرجو المعذرة، يا ساشـــا، أنت لستَ معتوهاً. اِشْـــترِ لي ليمونة!» أو، لربما، هذا كوستينكو؟ «ساشا، أنت مخمور. حافِظ على اتزانك، يا ساشـــا». أَم هذا نيغاتيف... «يا ساشا، ما زلتُ في السجن. إنك هكذا، يا ساشا، تنتقم لأخيك بشكل بائس..».

صمت جرس الهاتف.

شغَّل التلفزيون، نقر متنقِّلاً من قناة إلى أخرى، مثل جندب على مكبّ النفايات. وفجأة حلّقَ على صورة بالأبيض والأســود، وجه ذو شارب، رأى الكثير من المسلحين، وآنكا[1] مع المدفع الرشاش. «تشابايف»[2]، نعم، كان ثمة مثل هذا الفيلم.

اهتم ساشـــا فجأة، على الرغم من أنه شـــاهد هذا الفيلم في الطفولة عـــدة مرات. ولكن منذ ذلك الحـــين، لم يُعرَض فيلم «تشابايف» من مدة عشر سنوات.

---

(1) آنكا المقاتلة بسلاح المدفع الرشاش - شخصية خيالية في فيلم الأخوين فاسيلييف «تشابايف»، استناداً إلى رواية ديمتري فورمانوف «تشابايف» ومذكرات المشاركين في الأحداث. وهي إحدى مجندات الجيش الأحمر، وقائد طاقم مدفع رشاش ضمن المجموعة التي يقودها تشابايف. أدّت دور آنكا في الفيلم فارفارا مياسنيكوفا. (المترجم).

(2) فاسيلي إيفانوفيتش تشابايف (1887 - 1919) كان جندياً روسياً شهيراً وقائداً في الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية الروسية. هناك الكثير من الأفلام والأغاني السوفييتية تناولت نشاطه. (المترجم).

جعل ساشا ينظر إلى الشاشة بإحساس غريب، وتقريباً من دون الخوض في ما كان يحــدث، أو بالأحرى، عارفاً بها مقدّماً من مكان ما بشكل حرفي تقريباً.

كان الفيلم، مــع إمكانية التكهن بأحداثه كلهــا، فاتناً ولم يستطع ساشا فهم السبب.

اختلجت أحشــاؤه بشكل لا يكاد يُحَس في مكان ما، في فم المعدة، وارتجف عِرقٌ مضطرب بشكل ضعيف.

كان يشاهد بلهفة، منتبهاً إلى كل إيماءة.

وعندما أسرع تشاباي، في أروع لحظة في الفيلم، على صهوة حصان، وهــو يرتدي عبــاءة قوقازية ترفــرف، نحو العدو، يقود الجميلات الشــديدات البأس براياتهنّ الحُمر وبسيوفهنَّ المسلولة - انفجر فجأة بالنشــيج وبكى بسعادة وبصدق، غير قادر على التوقف.

«يا إلهي، ما هذا الذي يحدث؟ - ســأل نفسه. - لماذا أبكي هكذا؟»

بقي يشــاهد لمدة قليلة أخرى، وهو يهدئ نفســه بصعوبة، ويبتسم أحياناً بهدوء. وأغلق الشاشة عند مشهد مقتل تشاباي، لم يعُد ثمة شيء يســتحق المشاهدة، ولا داعي لأن يعذّب نفسه أكثر.

شغَّل الغلاية.

أخذ سيجارة، وذهب إلى الحمام لكي يدخِّن، وجلس هناك على الأرض، على حصير الأرضية. نسي أن يشعل النور، فدخّن في الظلام.

من الغريب أن تدخِّن في مــكان مظلم، بشريط ضوء تحت الباب. تضيء أنت والسيجارة وأصابعك التي تمسك بها عندما تمتصّ نفساً من الســيجارة. وتحدق عيناك بثبات على شريط الضوء، من الغريب أن ينظر الإنســان دائــماً إلى الضوء عندما يحيط به الظلام.

ودوّى صوت آخر يُسمَع في الشقة بأكملها. الغلاية تصدر ضوضاء مثــل المجنون. لم يكن يدرك أبــداً أنها في فترة ما بعد الظهر قــادرة على أنْ تُطلِق مثل هذا الضجيج. كل شيء يمكن الحــدوث. أثناء النهار، الغلاية هادئة، تنفث البخار لنفســها، غير قادرة على إحداث ضوضاء يغطي على ضوضاء السيارات في الشــارع وضجيج الجيران وحديث الناس في مدخل العمارة ونباح الكلاب. أما الآن، فترى بعينك...

ارتدى ساشــا ملابسه، وأخذ الســجائر وظرف الإطلاقة الفارغ، وبعد أنْ توقَّف بضع لحظات، وهو ينظر إلى حذائه، ألم ينسَ شيئاً، خرج إلى الشارع، بعد أنْ أغلق الباب بهدوء.

على الطاولــة، كان البخار يتصاعد من الشــاي، في كوب أبيض كبير، لم يشربه ساشا.

... بعد عدة ساعات وصل ساشا إلى أوليغ ودق جرس الباب.

فتح أوليغ الباب، وبدا من وجهه اليقظ أنه لم ينم.

- ادخل، - قال أوليغ، من دون أنْ يندهش من شيء.

- مَن جاء، يا أوليغ؟ - سأل صوت أنثوي من الغرفة إما أمه أو جدّته.

- نامي، كل شيء على ما يرام، - أجاب بصوت منخفض.

- ألا تريد الذهاب في نزهة على الأقدام؟ - سأله ساشا.

- من مدة طويلة أريد.

- لنذهب. سأنتظرك في الشارع.

دخَّن ساشا عند مدخل العمارة، وقبل أن يكمل تدخين نصف السيجارة، جاء أوليغ، مسرعاً وحسن المظهر.

- ماذا تريد الآن، مدفع رشاش؟ - سأل أوليغ بجدية.

هز ساشا رأسه نافياً.

- هل كان المسدس مفيداً؟

فكر ساشا لمدة ثانية وأجاب:

- لا بأس. مفيد.

- لكني لم أسمع أي شيء. رئيس الوزراء على قيد الحياة والرئيس على قيد الحياة. الوزراء على قيد الحياة.

- إنهم ببساطة لم يخبرونا. لقد ماتوا جميعاً.

- هكذا، إذاً، - ابتسم أوليغ بابتسامة خبيثة.

- نقصف «ماكدونالدز»؟

أي فرد آخر من «الاتحاديين» كان سيســأل: «الآن؟» - أو: «متى؟» - أو «بأيّ شيء؟». ولكنَّ أوليغ لم يسأل أي شيء.

ســارا بخطوات سريعة، أياديهما في جيوب سترتيهما، ويعتمران قبعتين ســوداوين محبوكتين، أوليغ فقــط كان لديه على القبعة كرة خرقاء. لاحظ ساشــا من الشــتاء الماضي هذه الكــرة عند أوليغ، الشيطان يعرف من أين أتى بهذه القبعة السوداء. بدا فيها أوليغ أكثر شــؤماً: طفل قاس أو حدث متخلّف عــن أقرانه أو كائن متحول بفعل الطفرة، شيء من هذا القبيل يتناهى للمرء عندما يرى رأســه المتوَّج بكرة منفوشة على اليافوخ.

- هذهِ ليست وجهتنا، - قال أوليغ.

- يجب أنْ نمرَّ بفيرا.

- إنها تركض ببطء. ربما، لا داعي لذلك؟

- إنها تنفعنا.

- انظر بنفسك. سأركض وحدي، لن أنتظركما.

- كما تريد.

كانت فيرا تســكن في الطابق الأول من منزل ســتاليني[1] مكون من أربعة طوابق. قرع ساشا بإصبعه على نافذة منخفضة ذات حاجز شــبكي. وسرعان ما ظهر وجه فيروشكا، ناعساً ولكن ليس مفزوعاً.

---

(1) المنازل الستالينية - اسم شعبي يُطلَق على المباني السكنية التي بُنيت في الاتحاد السوفييتي في الحقبة من أواخر الثلاثينيات حتى أواخر الخمسينيات على الطراز الكلاسيكي الجديد. (المترجم).

- هل تخرجين؟ - سأل ساشا.

غمزت بعينها موافقةً.

وهنا كان عليه أنْ يدخّن سيجارة ونصف سيجارة، على الرغم، من أنَّ فيرا كانت مستعجلة وهي تتأهب للخروج، استناداً إلى الطريقة التي كانت تطرق بها كعاب حذائها عند المدخل.

- يا فيرا، يجب أنْ آخذ منك خلطة «الزجاجة الحارقة»، - قال ساشا.

أومأت فيرا برأسها بسرعة، كما لو أنَّ شيئاً لا مفر منه قد حان، وهو على ما يبدو ما لم تكن تريده، والآن شعرت بخوف حقيقي.

- حسناً، - أدخَلت يدها الصغيرة السريعة في جيب سترتها، - المفاتيح... هذه المفاتيح معي. ولكن هناك سنحتاج إلى الضوء. على الأقل وولاعة.

تقع السقيفة في فناء منزلها، مائلةً وبلوح مكسور على السقف. في السقيفة قبو، خُزِنَت فيه، وراء علب الطماطم والخيار التي خلَّلَتها فيرا، اثنتان من زجاجات المولوتوف - عبوتان تحتويان خليطاً حارقاً. نزل ساشا في القبو مع فيرا، ومن حين إلى آخر يشعل الولاعتين. أخذ الزجاجتين منها بعناية، وناولهما إلى أوليغ، الذي كان واقفاً على الدرجات المتهالكة من السلَّم الرطب.

فأخذهما أوليغ وهو صامت ومن دون أن يسأل أيَّ شيء.

- سأذهب معكما، - قالت فيرا في الشارع وهي تنظر بثبات إلى ساشا.

- هذا ما ينقصنا، - ردّ عليها.

ســـار الثلاثة وهم صامتون. مشت فيرا بالقرب من ساشا، متعثرةً برجليها المستعجلتَين، وبدت كأنها تريد أن تخطو مرتين بالرِّجل الواحدة. أو تتخذ خطوة أطول قليلاً، لكي تساير مشية ساشا. ولكنها لم تنجح بأي حال من الأحوال. فنظر ساشا إليها بطرف عينه من دون انزعاج، وفهم كل شيء.

وإضافـــة إلى ذلك كانت يدها قريبة دائـــماً، وأحياناً تلامس يده، كما لو كانت تتوقع منه أن يأخذ أصابعها الصغيرة في راحة يده.

الزجاجتـــان كانتـــا تجتذبان جيوب الســـترة الداخلية نحو الأســـفل. فقرر ساشـــا مع نفســـه أنه إذا ما أوقفتهم الشرطة فسيقذف إحدى الزجاجتين في السيارة ويضرم فيها النار. ومن ثم يتصرف حسب ما تمليه الحوادث.

لم يكن يريد إشـــعال النـــار في «ماكدونالدز»، كانت لديه خطـــط أخرى. إنه لـــشرف كبير لمنتجي أغذيـــة الكلاب أن يحرقه.

شقوا طريقهم عبر الأفنية، تقريباً من دون أنْ يصادفوا المارة، وأحياناً يلتقون بعض الســـكارى - وفي هذه اللحظات شـــعر

ساشا بتوتر شـــديد وحاد لدى أوليغ: إنه في أي لحظة يتعطّش للعِراك، وحتى في هذا الوقت يتمنى أن يصطدم بكتفه أحدهم.

ولكن لم يلمسه أحد حتى بالصدفة.

دحرج ساشـــا ظرف الخرطوشـــة الفارغ في جيبه بأصابعه الهادئة.

«يجب أنْ نمر على بوزيك، فقد وعدته، وهو في طريقنا على كل حال»، - قرر ساشا مع نفسه.

«ها أنت تريد أنْ تسجن الأخ الثاني»، - اشتكى في نفسه.

«لن يُســـجَن، إنه صغير السن»، - ردّ على نفسه بلا مبالاة. كان ساشا سيدعو بوزيك حتى لو كان أكبر.

كان ضوء مشـــتعل عند بوزيـــك، في الســـاعة الثالثة بعد منتصف الليل.

أخذ ساشـــا قليلاً من الثلج وجعله على شكل كرة وألقى به على نافذة بوزيك، لكنـــه لم يصل إلى هناك. ثم أخذ مرة أخرى وألقى به وفشل مرة أخرى.

ابتسم أوليغ ابتســـامة خبيثة. وألقى قطعته الثلجية لتلتصق في وسط النافذة وكادت تكسر الزجاج. فأطلَّ وجهان بسرعة من النافذة.

«مَن هـــذا، هل هو نيغا؟» - اختلج ساشـــا من الدهشـــة والفرحة. ولوَّحَ بيديه - هيّا، إلى هنا!

«هل هو حقاً نيغاتيف؟» - سأل نفسه مرة أخرى.

إنه فينيا، الشيطان المرح. خرج من المدخل وصاح على الفور بشيء بهيج.

- فينيا، من أين جئت؟ - اندهش ساشا.

- ها قد جئتُ بخبر إلى بوزيك من أخيه، - قال فينيا، وهو يبتسم في الحال للجميع، لأوليغ ولفيرا ولساشا، وللثلج الليلي الخفيف. - تسلّوا: إنسان صغير خرج من السجن، سُجِنَ مع نيغا، وجاء إلى روسيا ليتحدّث عن أموره هناك. لقد أحب «الاتحاديين» كثيراً. وهو نفسه لاتفيّ! إنه إنسان صغير. الحقيقة، هو ابن أحد الشيوعيين من لاتفيا.

- كيف حال نيغا؟

- نيغا على ما يرام، سأخبركم بكل شيء. إلى أين أنتم ذاهبون في هذا الوقت المبكر جداً؟ هل تريدون قصف شيء؟ هل ستأخذوننا؟ - كاد فينيا أنْ يقفز في مكانه. في الحقيقة، كانت تفوح منه رائحة الكحول. وحتى ساشا شعر به، مع إنَّ حاسّة الشم عنده ينبغي أنْ تخذله خلال اليومين الأخيرين.

- لنذهب؟ - طلب ساشا هذه المرة بجدية، وهو ينظر إلى بوزيك.

أومأ بوزيك برأسه.

- طبعاً، نذهب، - قال فينيا، وهو يقف في مكانه ويحرك جميع أطرافه في الوقت نفسه، وكأنه كان يتدحرج في الرمل، ثم ارتدِى ملابسه على جسمه القذر.

- ما بك، هل لديك قمل؟ - سأله أوليغ.

- ماذا؟ - لم يفهم فينيا.

انطلق الخمسة كلهم. في البداية، صخبَ فينيا بشيء ما، لكن ساشا أسكته بكلمة «صه»، فصمتَ بصعوبة، وبدأ يتحدث إلى نفسه همساً. كان واضحاً أنه ما يزال مخموراً، وإلى جانب ذلك تفوح منه رائحة دخّان السجائر عندما يضحك.

- لنمشِ إلى هنا، - قال ساشا، مشيراً إلى صفوف المرائب، على بعد بضع دقائق سيراً على الأقدام نحو الساحة التي يتربَّع عليها «ماكدونالدز».

كان ساشا هنا قبل أنْ يذهب إلى أوليغ. وادَّخَر عدة أحجار كبيرة وقضبان حديدية طويلة. كانت الحجارة في كيس من الكتان. واصطَفَّت القضبان المعدنية خلف الصندوق الحديدي للمرآب.

- امسك، - ناول الكيس إلى أوليغ.

وزن أوليغ بضعة أحجار على كفه الصغير القوي.

وبعد أنْ تجوَّل بوزيك بين المرائب، جمعا شظايا من الطوب وحشياها في جيوبهما.

ومن دون أنْ يتحرَّج من فيرا تبوَّل فينيا على باب أحد المرائب.

قاد ساشا عصابته المرحة إلى المبنى المكون من أربعة طوابق الذي طلب من فينيا وبوزيك البقاء بالقرب منه حتى لا يصدروا ضوضاء في المدخل.

وضغط الرمز على قفل الباب، الذي حُدِّدَ منذ المساء، بثلاثة أرقام ممحاة، والتي فُكَّت شفرتها بسهولة على ضوء ولاعة.

- فيرا، لسـنا بحاجة إليك بعد، - قال ساشـا بعد أنْ فتح البـاب ودخل دهليز المدخـل الذي يفوح برائحـة الغبار. - خذي، امْسكِي الزجاجتين، احذري أن تسقطا... هذا المدخل نافذ، هيا نذهب، سأريكم كل شيء.

صعـدوا إلى الطابق الثاني وهم يسـيرون بخطوات هادئة. يمكن للمرء من النافذة، من خلال الزجاج المتسـخ، أن يرى «ماكدونالدز» ونوافذه الطويلة المضيئة.

- قفي هنا، وانظري إلينا، - قال ساشا لفيرا. - عندما ننهي عملنا، سـيأتي أوليغ وبوزيك وفينيا إلى هنا. انتظروا الشرطة. إذا ذهبـت الشرطة إلى المدخل، اخرجوا مـن الجانب الآخر. اتركوا الزجاجات في المدخل، لا تركضوا والزجاجات معكم.

- ماذا عنك؟ - نطق أوليغ أخيراً.

- سآتي بعدكم أيضاً. بعد ذلك بقليل، - قال ساشا وعندما رأى نظرة أوليغ المندهشـة والسـاخطة أضـاف: - لا بأس، هل تسمع؟ أنا المسـؤول. هل تتذكر شفرة الباب؟ حسناً، هيا نذهب؟

- وزجاجات المولوتوف، ألا نحتاجها؟ - سأل أوليغ.

- لـ«ماكدونالدز» - كلا، - شرح ساشا في الشارع، همساً. - أَريد أن أحرق «الطفيليّين» بعد «ماكدونالدز».

أُطلِق اسم «الطفيليّين» على «حزب الرئيس». وكان مكتبهم يقع في الساحة نفسها التي يقع فيها «ماكدونالدز» ولكن في الجهة الثانية من الشارع.

- سيهرع رجال الشرطة، ولن يدعونا نفعل.

- لا تهتم، لأنهم ما أنْ يأتوا حتى يغادروا على الفور.

هزَّ أوليغ كتفيه تجاهلاً. لم يكن خائفاً بالطبع، ولكنه ببساطة فهم للتو: إنَّ ساشا مهتاج، لذلك قرر أن يخرج بنفسه، إذا حدث هناك أي شيء.

وقف ساشكا وأوليغ قليلاً عند الزاوية، ينظران هل يوجد مارة متأخرين من الليل أو سيارات، وخاصة سيارات الشرطة.

سار فينيا وبوزيك في الظلام خلفهم بعشرة أمتار تقريباً. ولأنَّ فينيا لم يقدَر على الصمت حدَّثَ بوزيك بشيء، وبشكل عام كان مظهرهم كلهم وكأنهم يريدون الآن أن يصنعوا دمية من الثلج.

كانت في بعض الأحيان سيارات من ماركات أجنبية تمرّ مسرعة. وعند النظر عن كثب، يمكن للمرء أن يرى فيها فتيات بشعر لامع يجلسن بجانب السائق. وعند الاستماع، يستطيع معرفة الموسيقى التي تصدح في الصالون.

- هل سنقف هناك حتى الصباح؟ - سأل أوليغ بهدوء.

أمسك ساشا قضيباً، فتشبّثت قفازاته الصوفية بالحديد على نحو مزعج، ومشى مشية لولبية وحاسمة من دون أن يرد على

سـؤال أوليغ. وهو يركض مقترباً من واجهــة العَرض، انقضَّ ملعلعاً وانهال بالضرب على الزجــاج، قذف أوليغ الحجر الأول من خلف ظهر ساشا. لم يلحظ ساشكا الرمية.

دوّى الزجاج وانهار.

أرغى فينيـا وأزبَد وكأنــه يرقص. وتسـلَّق، وهو يقذف الحجارة بسرعة، مباشرة إلى واجهــة العرض. وطرق برجليه ويديه على الزوايا الزجاجيــة المتبقية، المُحطَّمَة إلى قطعٍ صغيرة والســاقطة مثل متدليات الكهوف. ثم ابتعــد راكضاً بمهارة، مثل القرد. وبعد أن أحدث ثقباً شائكاً كبيراً في واجهة العَرض، دخل مباشرة في بناية «ماكدونالدز».

ضرب ساشــا النوافذ عدة مرات وفضَّــل أن يدمر مقهى الشــارع: الطاولات تحت المظــلات الواســعة، والعديد من الكراسي الملولبة، لســبب مــا، ما زالت موجودة حتى شــهر ديســمبر (كانون الأول). كان القضيب يرتَدّ في يديه بشــكل مــؤلم، لكن هذا زاد مــن غضبه. لاحظ مــن زاوية عينه كيف انطلقت سيارة أجرة بعد أن زادت من سرعتها.

اعتقد أنَّ الأكثر ملاءمة أنْ يســتعمل القضيب كأداة من أنْ يضرب بها. وبعد أن اســتعدّ وأخذ الوضعية المناسِبة، سحب الطــاولات والكــراسي بالقضيــب، فاندفعت من الســاحة المرصوفة بالبلاط الأســود والأبيض. وقد ساعده بوزيك في ذلك.

- إيه، ماذا فعلتم أيها الشياطين! - صاح أحدهم. فخمَّن على الفور أنهم ليسوا الشرطة، لو كانوا من الشرطة لما نادوا عليهم.

وفي الوقت الذي التفت فيه ساشا باتجاه الصوت، رفع أوليغ الكرسي الملتوي وألقى به بخفّة مدهشة على السيارة. فلوح الكرسي بشكل جميل بساقه الملتوية.

وبعد أن التفتَ ساشا أدرك أنَّ الرجل كان يصرخ من سيارة حمراء جميلة من دون أنْ يخرج منها، بل خفَّضَ الزجاج على الباب الأيمن وانحنى على المقعد.

وعندما قذف أوليغ الكرسي ضغط الرجل على دوّاسة البنزين وانطلق، وإنه حتى لم يُطفئ محرك السيارة. ضرب الكرسي مصدّ الصدمات بصوت عالٍ وتدحرج على الأسفلت.

وما أنْ سارت السيارة لمسافة خمسة عشر متراً حتى توقفت، لم يستطع الرجل أن يتحمل الإهانة. فقفز، متحمساً وغاضباً، وبلا سترة. هرع نحو الأولاد، ولكنه رأى كيف طار كرسي آخر نحو السيارة، من أوليغ، وقطعة من الطوب من بوزيك. فتصدع الطوب على الزجاجة الخلفية.

- آخ، أيها السافلة العنيدة، - جاش أوليغ، وهو يبحث عن شيء أثقل. وعندما نظر إليه ساشا أدرك أنَّ أوليغ لن يرمي أي شيء بعد الآن، ولن يتوانى عن الذهاب إلى السيارة.

- اعطني هذه، - وسحب بشرَهٍ القضيب من ساشا.

وعندمـــا هرع أوليغ إلى الســـيارة والقضيب في يديه، أدرك الرجـــل كل شيء وعاد عـــلى عجل إلى الصالون. فاشـــتغلت الســـيارة، ودارت العجلات لمدة ثانية على الفارغ فوق الطبقة الجليدية إلى أنْ تشـــبَّثت بالأسفلت. ثم طار القضيب في أثرها، وضرب المصباح الجانبي الأيسر. فابتعدت الســـيارة وهي تهزّ أحد مصباحيها الصفراوين.

- هيا بنا لنخرج، يا شـــباب! - أمر ساشـــا. - يا أوليغ! يا بوزيك! أين فينيا؟ يا فينيا، تباً لك! فينيا!

خرج فينيا من واجهة العَرض المهشَّمة بوجه خبيث وراضٍ.

- كنت أبحث عـــن شيء لألتهمه، فهجمتُ على الأكل. - قال مشـــتكياً ووجهه ملطّخ بالصلصة. - ألا تريد أنْ تأكل؟ - وعرض على ساشـــا قطعة خبز ذات رائحة طيبة ومأكولة قليلاً ومدهونة بالصوص.

- ليركض الجميـــع، إلى المنزل! واجلســـوا هناك بهدوء! - أمرهم ساشـــا في الفناء. ووقف هو لمدة نصـــف دقيقة، التقط أنفاســـه وبصق، زرَّرَ ســـترته وخلع قبعتـــه وعلقها على غصن شجرة. وعضَّ على أسنانه وعاد من جديد إلى المقهى المدمَّر وهو يدحرج ظرف الإطلاقة الفارغ في جيبه. أشـــعل سيجارة أثناء سيره ودخّنها. وقف بهيئة المتفرج الليلي يتمتع بالنظر إلى الحطام.

وسرعـــان ما جاءت الشرطـــة من دون تشـــغيل الوميض الضَوئـــي. قفز بسرعة ملازم ثانٍ كان يجلس بجانب الســـائق،

وقفز بعـــده شرطي الدورية الآخر وهو يحمل بندقية رشاشـــة ويرتدي سترة عسكرية طويلة وبقي السائق في السيارة.

نظر ساشا إلى الشرطة نظرة ودية وهو يبتسم.

- لماذا تقف هنا؟ - ســـأله الملازم الثـــاني الذي هرع في اللحظة الأولى إلى ساشا، ولكن لمّا رأى هيئته المتراخية، أبطأ الحركة.

- ســـمعتُ أصوات التحطيم فاقتربتُ، - وضَّح ساشا له.

- كنتُ أعود إلى البيت من امـــرأة. إنهم أوغاد، أليس كذلك؟ لماذا يفعلون هذا؟

- هل رأيتهم؟

- من الخلـــف فقط. ومن بعيد. عندمـــا اقتربت، كانوا قد هربوا. اثنان، طويلان.

- ماذا يرتديان؟

- لم أنتبه إلى ملابســـهما. ركضا بهذا الاتجاه، - وأشار ساشا إلى الاتجاه المعاكس من الفناء الذي ذهب إليه أولاده.

جاءت سيارة شرطة أخرى مسرعة بصخب.

- ما الأمر؟ هل قبضتم على أحد؟ - ســـأل أحدهم بعد أنْ أومأ برأسه إلى ساشا.

- كلا، إنه شاهد. ســـجِّله! - أمرَ الضابط الأقدمُ المناوبَ الذي يحمل البندقية الرشاشة. فأخرج الرجل دفتر ملاحظات منفوخاً من جيبه الداخلي.

- هل لديك أي وثائق؟ - سأل ساشا.

- كلا، لماذا أحملها معي إلى المـــرأة. تقبلني هكذا، من دون هوية شخصية.

السيارة الثانية انطلقت في الاتجاه الذي أشار إليه ساشا.

- اسم العائلة؟ - سألوه.

ذكر ساشا اسم أحد رفاقه في الجيش، من سيبيريا. واختلق عنوان المنزل ورقم الهاتف.

- ربما، ينبغي أن تأتي معنا؟ - سأله الشرطي.

- لأي غرض؟

- التعرف على الجناة.

- لقد قلتُ إنّي لم أرَهما، - أجاب ساشـــا، مبتســـماً، ورأى كيف اقتربت تلك الســـيارة ذات الماركـــة الأجنبية، التي قذف عليها أوليغ الكراسي.

قفز السائق من السيارة، وصفقَ الباب بشدّة، وكله أحمر مع الغضب، حتى في ضوء المصابيح كان واضحاً.

- لماذا أنتم واقفون؟ - وبَّخ الشرطة على الفور، - يجب أن تقبضوا عليهم!

- لماذا تصرخ، أيها مواطن؟ - سأله الملازم الثاني بهدوء.

- ألا ترى الزجاج؟ - قال الرجل وغرز إصبعه في سيارته. - ألا ترى الضوء الجانبي؟

امتدَّ صدعٌ عبر زجاج الســـيارة على شـــكل ابتسامة رجل نَصفه مشلول. ولم يكن ثمة مصباح جانبي، فعلاً.

- أرى، ثمّ ماذا؟ - لم يفهم الملازم الثاني.

- اقتربتُ بسيارتي، وصحتُ على هؤلاء الشياطين: «لماذا تتصرفون بهذه الوقاحة؟» فلمّا خرجتُ من السيارة، ضربوها بالطوب وبكرسي وقضيب. ها هو الكرسي على الطريق! ألم تلحظوا؟ والقضيب في المكان نفسه! هيا نذهب، لأُريك الخدوش!

- لنذهب الآن. كما أفهم، أنت رأيت كل شيء؟

- اللعنة، ما الذي أتحدث عنه؟ رأيت، وكفى! كان يمكن أن يقتلوني!

لاحظ ساشا أنَّ الرجل يبدو من أولئك الذين أثروا حديثاً وعلى حين غرّة، وقحٌ وصاخبٌ في الوقت نفسه، وغير قادر على انتهاج أسلوب واحد للتواصل في أي موقف، يتنقّل باستمرار من الصلافة إلى الهستيريا. وحتى رجال الشرطة بدوا على خلفيته أكثر احتشاماً.

- كم كان عددهم؟ - سأله الملازم الثاني.

- ثلاثة.

- وأنت تقول - اثنان؟ - التفت الملازم الثاني إلى ساشا.

- أنا رأيتُ اثنين، - أجاب مبتسماً كما في السابق، وأدار عينيه النزيهتين من رجل الشرطة إلى الرجل صاحب السيارة ذات الماركة الأجنبية. - كانا يركضان مبتعدَين عندما اقتربتُ.

- هل تتذكر علامات مميّزة؟ - تحول الملازم الثاني إلى الرجل.

بدأ الرجل يتذكر، وهو يركّز ويضغط على جبهته وقال:

- كلهم أقصر مني بالضبط.

بطريقة ما وصفَ أوليغ، وذكرَ كرة الصوف على قبعته وسرواله الجينز الأزرق والسترة القصيرة وعظمة الوجنة البارزة والعينين الصغيرتَين الشريرَتَين. وتذكَّر من بوزيك القامة القصيرة والبنطلون الداكن على ما يبدو.

- أوه، كان يرتدي سترة ذات جيوب وقلنسوة. لم يكن يعتمر قبعة. والسترة زرقاء فاتحة.

تلعثم الرجل عند الكلام عن ساشا. فكّر طويلاً، ولكنه لم يتذكر شيئاً وقال:

- لم أستطع رؤيته بشكل جيد.

صمت لثانية وأضاف:

- سترة داكنة وقبعة حياكة... لا أتذكر الوجه. وشعره، على ما يبدو، داكن. أبيض الوجه وشعره أسود، أو أشقر داكن.

- ولكنه كان يرتدي قبعة؟ - سأله الملازم الثاني.

- رأيت قفاه. قام يلوي الطاولات، وقف وظهره باتجاهي. وفي يده قضيب.

- إنه هو الذي ألقى القضيب على السيارة؟

- لا أتذكر... أعتقد هو... لا أتذكر.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- هربوا، - بعد كل كلمة كان الرجل يكيل الشتائم البذيئة بسخاء، وقد بدت الشتائم على شفتيه مثيرة للاشمئزاز كثيراً.

- هل تسببوا لك بأضرار جسدية؟

- كلا، هربوا على الفور. ألقوا كل شيء، ودخلوا إلى الفناء، - قال ومرة أخرى بدأ يكيل السباب البذيء.

- هل أردت القبض عليهم؟

أومأ الرجل بشكل مبهم. على ما يبدو، لم يكن يريد أن يبدو جباناً.

- ألم تلحقهم بالسيارة؟ - سأل الملازم الثاني بسرعة.

- لقد ذهبوا إلى الأفنية بين العمارات، لا أستطيع أنْ أدخل إلى الأفنية، فقد دُقَّت هناك أعمدة.

- إلى أيٍّ أفنية ذهبوا؟

أدار الرجل، بارتباك واضح ولكن ملحوظ على ما يبدو لساشا فقط، رأسه وأشار إلى الفناء الذي هرب إليه الأولاد بالفعل.

- وأنت تقول، إلى هناك؟ - التفت الملازم الثاني إلى ساشا وأشار بيده نحو الاتجاه المعاكس.

- ربما أنت مشوّش؟ - سأل ساشا سائق السيارة ذات الماركة الأجنبية من دون أنْ يرد على الملازم الثاني. - أنا كنتُ أمشي من الاتجاه الذي أشرتَ إليه. بينما هم ركضوا إلى هناك.

حدثت وقفة صمت مستهجنة. فابتسم ساشا.

«يبدو أنَّ هذا الأحمق تمادى كثيراً، - فكَّر ساشـــا بمرح. - ويبدو أنه لا يستطيع رؤية أيّ شيء».

- ربما، إلى هذا الاتجاه، - أجاب الرجل أخيراً. - كنت أنظر إلى ســـيارتي، الزجاج مكسور، والمصباح الجانبي. أثناء ما كنت أنظر، هربوا. لم ألحظ إلى أين بالضبط. سمعت الخطوات فقط. اللعنة، مَن يعرفهم.

هزَّ الملازم الثاني كتفيه مستهجناً.

- هل تريد أنْ تكتب بلاغاً؟ - سأله.

- طبعاً سأفعل.

- هل تعرف أين قسم الشرطة؟ اذهب إلى هناك. سنعمل في الأفنية في الوقت الحالي.

- سأذهب بسيارتي خلفكم، - رد الرجل.

استهجن الملازم الأول وهزَّ كتفيه مستهجناً مرة أخرى.

صفقت الأبواب الثلاثة واحداً تلو الآخر، وابتعدت السيارات.

بعد أن شيّعهم ساشا ببصره، نظر بطرف عينه عن غير قصد على كتفه فرأى شـــظية من الزجاج، قطعة من واجهة العَرض التي كسرها عالقة هناك بحرص بالحافة المتعرجة.

لم يعـــد إلى المدخل، اســـتدار باتجاه النافـــذة، حيث ينتظره الأولاد الذين لم يرَهُم ساشـــا فلوَّحوا له بأيديهم، مشيرين إلى الجانب الآخر من الساحة.

- اذهبوا إلى المكتب، إلى المكتب! - ردَّدَ ساشا وهو يمشي، على الرغم من أنه لم يسمعه أحد بالطبع.

فكَّر قليلاً وعاد. أخذ الكرسي المرمي على الطريق.

ســاروا بخُطى أسرع، وكان أقرب إليهم. انتظروا ساشــا، وهم ينظرون مِن حولهم.

- باختصار، يا شباب، ليس لدينا وقت، - قال ساشا، وهو يركض ولاحــظ الآن فقط كيف يخطّ فينيا عــلى واجهة المبنى بأنبوبة رشّ: «أيها القذرون نحن نكرهكم».

- من أين حصلت على العلبة؟ - سأله.

- أحملها معي دائماً.

- ضع فارزة بعد «القذرون». وعلامة تعجب.

- بعد الفارزة؟ - سأل فينيا بكل جدية.

لم يرد عليه وقال لفيرا:

- فيروتشكا، اعطنا الزجاجات. حطموا النوافذ يا شباب.

بينما كان بوزيك يجول في الشــارع بحثاً عن الطوب، تسلَّق أوليغ على قضبان النافذة وكسَّر الزجاج بيده المدفونة في كُمِّه.

التفتَ بوجهه المســعور إلى ساشــا، وأخرج راحة يده من كمه. وضع ساشا الزجاجة في راحة يده.

- إنها تحترق! - قال أوليغ بصوت منخفض، وهو يقفز. - هيّا نرمي الثانية من خلال نافذة أخرى.

في الوقت الذي كان فيه أوليـغ يعدّ زجاجات المولوتوف، ثبَّتَ ساشا بقضبان شـبكةِ النافذةِ الكرسيَّ الذي أخذوه من «ماكدونالدز»، وأخذ العلبة من فينيا وخطّ خمسـة أحرف على باب المدخل الأسـود العالي للمكتب: «أ» «غ» «ب» «ي» «ا» «ء».

... ومـن ثـمَّ، بعـد أن صرف الأولاد، وقـف عند أحد الأقـواس، بالجوار، وكتفـه إلى الجدار البارد، وشـاهد كيف أصبح الجو دافئاً ومشرقاً في نوافذ المكتب على بعد مائة وخمسين متراً منـه، وكأنَّ احتفالاً طيباً وحميميّاً قـد بدأ هناك، والجميع سعداء.

عاد عبر المدينة على مهل، وهو يصفِّر أحياناً. أيقن: لا أحد يستطيع القبض عليه. الشيء المهم هو ألّا يُسرِع. يمسكون بك، عندما تهرب. لم يهرب ساشا.

الفصل الثاني عشر

قضى الليل في شـــقة أوليغ البديلة، التي يبـــدو أنها لم تُنتزَع بعد. إذ توفيت إحدى عمّاته البعيـــدة، ففرغَت غرفتان أنيقتان منذ شهر.

احتفظ «الاتحاديّون» بالشقة للحالات الطارئة، ولم يذهبوا إليها بلا سبب، ولم يعرف عنها إلا عدد قليل جداً منهم.

وصل ساشا عندما بدأ الجو يضيء. كان لديه مفتاحه الخاص.

وكما توقـــعَ، لم يُرد أحد من الجماعـــة أن يتفرق. فوجد على الأرضية، التي اكتظّت بزجاجات النبيذ الثقيل والطعام المقطَّع بلطف والجبن والنقانق (نظر ساشا عن كثب، محاولاً أنْ يعرف مَـــن قطَّعه، أوليغ أم فيرا، وقرر أنّها فيرا)، الأولاد نائمين: كان فينيا مســـتلقياً وأوليغ متكوّراً وبوزيك الصغير والحزين ملتفاً مثل الكلب.

تحدّثَ، بالطبع، فينيا. مع أنَّ أوليغ، ولدهشـــة ساشا، كان ينظر إلى فينيا بمودة، ومن دون تهيج. ربما لأن فينيا كان يتحدث عن نيغاتيف، وربما لسبب آخر.

كانت فيرا مســتلقية على السرير، من الواضــح أنها متعبة للغاية، ولكن عندما رأت ساشا نهضت. بدت سعيدة وخائفة بعض الشيء.

«إنهــا خائفة عليَّ، - خمَّن ساشـــا، - لماذا بقيــُـت هناك، في الساحة، وحدي..».

- لا بأس، أنت رائع، يا ساشا - اعترفَ أوليغ، وهو مخمور قليلاً، - لديك أعصاب هادئة. ماذا أوحيت إلى الشرطة هناك، لا أفهم؟ في «ماكدونالدز»؟

لوَّح ساشا بيده مبتسماً ابتسامة تنمّ عن الرضا والارتياح، - هراء، كما يُقال.

- كلا، تحدَّث بجدية، - قال أوليغ مصرّاً. - والآن تحدثتَ إليهم مرة أخرى؟ - ضحك أوليغ بقهقهة عالية. - قلتَ لهم: يا عمّي، لقد رأيتُ هؤلاء المشاغبين مرة ثانية، إنهم الآن ركضوا إلى هناك؟

- نعم، أنا كذلك اســتمتعتُ من القلب، - قال فينيا وهو يضحك مخموراً. - اعتقدتُ أنــك فقدت عقلك: وقررتَ أن تعترف على الفور. وحبستنا جميعاً في مدخل العمارة، وأرشدتَ الشرطة إلى مكاننا... أنت، يا ســانيا، وحــشي الطبع، على ما يبدو، أسوأ مني...

ســكب أوليغ لساشــا قدحاً من الكحول. أخذه ساشــا خِجلاً، على الرغم من أنــه لا يريد أن يشرب. طلب قطعة من الجبن المُحزَّز على شكل شرائح رقيقة.

كانت فيرا تستمع إلى الأولاد وتنظر تارة إليهم وتارة إلى ساشا بفخر، بل وحتى بإعجاب.

- سأذهب إلى الفراش، يا أولاد، أريد أنْ أنام، - قال ساشا، وأحسَّ بنظرة فيرا المتواصلة. فأومأ إليها - لنذهب، أيتها البنت الطيبة؟ - فنهضت جذلى وسعيدة: ومشت بقدميها الصغيرتين الطفوليتَين على الأرضية الخشبية الوسخة.

«يا لأصابعي الصغيرة»، - فكَّر ساشا برقّة.

نظر أوليغ إليهما بحسد.

وفي الصباح، طرق أوليغ بجنون على الباب، ونظر بوجهه المضطرب من دون انتظار إذنٍ للدخول. «كان يأمل أنْ يرى فيرا عارية»، - خطرت هذه الفكرة في رأس ساشا.

- استيقظوا، باختصار، أيها الحمائم! يانا تُعرَض في التلفزيون! - صرخ واختفى على الفور. ولم يكلف نفسه عناء الانتظار حتى تظهر فيرا من تحت اللحاف. حقاً لم تكن ترتدي شيئاً.

قفز ساشا، وسحب سرواله، وأسرعَ عارياً إلى حد الخصر. كان الجميع يجلسون أمام التلفزيون، ولم يكن أحد منهم نائماً. كانت وجوه الأولاد مدهوشة. رأى ساشا على الشاشة مدة عدة ثوانٍ وجه رئيس الدولة، ملطخاً بشيء لا يُعرف، عاجزاً وغاضباً وذليلاً في الوقت نفسه. وثمة شيء أبيض وأشقر وأحمر يقطر على سترته، وكأنّه رُشَّ بكل شيء. كان الرئيس في بعض

الأحيـــان يفتح فمه ويحرك شـــفتيه بصمت، محـــاولاً التنفس. وتحركَ بعض الناس بفزع من حوله، بعضهم يمســـك بمِحرمة وبعضهم بمنديل ورقي، ولا يجرؤون على فعل أي شيء.

«ألقت فتاة كيساً بلاستيكياً على رأس الرئيس، من المفترض أنـــه مليء بعصـــير الطماطم والمايونيز والكاتشـــب والقشـــدة والمعكرونة المفرومة ناعماً وشيء آخـــر تنبعث منه رائحة حادة وكريهة»، - ذكر المذيع. وبدا أنه يواجه صعوبة في كبح الابتسامة على وجهـــه. كان هذا أحد معارف كوســـتينكو القدماء، وهو مقدم لأحد البرامج المســـتقلة الأخيرة على التلفزيون الروسي. إنه مدبّر دسائس ومليونير، نشأ في إحدى المحافظات البعيدة، في عائلة طبيب يهودي ومعلمة روســـية، ويبدو أنه شـــخصياً يعرف أنَّ برنامجه سوف يُحجَب قريباً، ولهذا شعر بالخوف حقاً.

من هذا البرنامج فقط كان يمكن للمرء في العامين الماضيين أنْ يعـــرف حقيقـــة وجـــود «الاتحاديين» في الواقـــع، ووجود كوستينكو في السجن. وها هو الآن يعرض ما لا يمكن عرضه من حيث المبدأ.

«تعرَّضت يانا شارونوفا، في مبنى المسرح، أمام العشرات من ممثلي المجتمع الثقافي، إلى إصابات جســـدية شديدة. تمكن مراســـلنا أنْ يصـــوّر البلاطات، التي جُرَّ عليهـــا حرفياً وجه الفتـــاة التي ارتكبت أعمال عربدة محضـــة ضد رئيس الدولة. البلاطات، كما نرى، مغطاة بالدم وكما يؤكد الشـــهود، كانت

أســنان الفتاة قد كُسرت. بالإضافة إلى ذلــك، على ما يبدو، كُسِرَت يدها، أولئكَ الذين يقفون بالقرب ســمعوا بوضوح الطَقطقة المميّــزة. ولا بد من أنْ ننــوّه إلى أنَّ الفتاة لم تُبدِ أيَّ مقاومة وتمكنت من الصراخ بعبــارة واحدة: «لقد كان ذلك فعلاً سياسياً!»

ارتعد ساشا.

من الواضح أنَّ المذيع أحب ما حدث وما كان يقوله، وكان عــلى يقين من أنه يقضي دقائقه الأخيرة على الشاشــة، في البث المباشر، ولكن في المقابل تقريره ســوف يُبّــث اليوم على جميع القنوات العالمية.

وأضاف المذيع: «صادر مســؤولو حماية الرئيس على الفور جميع الأشرطة من المراسلين ومصوّري الصحافة والتلفزيون، لكننا تمكنا من حفــظ اللقطات المصــوَّرة بأعجوبة. وأفادت مصادرنا في حزب «اتحاد المبدعين» أنَّ يانا شــارونوفا شغلت مؤخراً أحد المناصب القيادية في الحزب. وهي التي ينسب إليها تنظيم عملية الاســتيلاء على برج المراقبة في وســط مدينة ريغا والمطالبــة بإطلاق سراح قدامى المحاربــين في الحرب الوطنية العظمى من الســجون اللاتفية. ولكن بسبب نقص الأدلة، ما زالت شارونوفا طليقة».

وأعقــب ذلك عرض تقرير عن أكثر عمليات «الاتحاديين» شهرة في الســنوات الأخيرة: أعمال الشغب في وسط موسكو،

وقذف الــوزراء بالمايونيــز وبالكعك الدهين على رؤوســهم الثقيلة، ورفع فزّاعة تمثل المحافظ على رأس برج...

«إليكم آخر الأخبار الواردة مــن المحافظات»، - قال المذيع على نحو من الرضا والسرور.

وهنا رأى الأولاد «ماكدونالدز» الأمــس، وكأن إعصاراً شديداً ضربه. لم يســتطع فينيا وأوليغ أنْ يكبحا جماح نفسيهما، وانفجرا ضاحكين، وحتى بوزيك ابتسم.

وقد لاحت خلف «ماكدونالدز» على الباب كتابة «أغبياء»، وعلى الواجهة كلمة «القذرون» تعلوها علامة تعجب، ومنظر المكتب مــن الداخل - الجــدران محترقة، ومشــعّات التدفئة المركزية ســوداء وأكوام من القمامة المنصهرة، التي كانت حتى يوم أمس بمثابة أجهزة مكتب.

علَّق المقدم على الفيديو بكل سرور.

- جاء الانهيار، - قال ساشا بصوت منخفض، وهو الوحيد الذي لم يبتسم طوال هذا الوقت. - إهانة الرئيس لن تُغفَر لنا.

- لا بأس، لن يحدث شيء، - قال فينيا ولوَّح بيده.

في الثانية نفســها، اهتزَّ الهاتف القديــم واختلجت جوانبه البيضاء. فجعلوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً.

رفع أوليغ سماعة الهاتف، ثم قال:

- المكالمة لك، يا ساشا.

اتصل «الاتحادي» المحلي - شامان.

- سانيا، أمك تبحث عنك.

- يا شامان، من أين تتصل؟ - قاطعه ساشا.

- لا تهتم، كل شيء على ما يرام، لا أتصل من المنزل. أمك تبحث عنك، تبكي.

- ماذا حدث؟

- تقول، جاء رجال الشرطة السرية، وبحثوا عنك. نبشوا شقتكم بأكملها. وتقول إنهم دفعوها.

- ماذا تقصد «دفعوها»؟

- أنا لا أعرف ماذا يعني ذلك. هي قالت «دفعوها». لم تسمح لهم بالدخول. يبدو إنهم كسروا الباب. كانت تبكي.

- حسناً، فهمت كل شيء، تبكي.

ما إنْ وضع السماعة حتى رنَّ الهاتف مرة أخرى. فرفع أوليغ السماعة. استمع بصمت ووضع السماعة، وقال:

- كان رجال شرطة في شقتي.

- هل اتصل بك أهلك من المنزل؟ - سأل ساشا. وقد فهِمَ أنه إذا ما اتصلوا من المنزل، فهذا يعني أنهم سيأتون قريباً هنا.

- كل شيء على ما يرام هناك. علَّمتُ جدتي. إذا ما جاءت الشرطة، قلتُ لها، اتصلي وقولي: «أوليا، لقد طبختُ لك حساء الخضار واللحم! تعال لزيارتي»! وهذا ما قالته الآن. لم تستطع

أنْ تتذكر بأي شــكل من الأشكال، فكتبت لها ذلك على قطعة من الورق ولصقتها على السرير.

ضحك أوليغ ضحــكاً بصوت مبحوح. نظر إليه ساشــا باهتــمام، وهو يفكر. حســناً، لقد قررت، ســنبقى هنا لبعض الوقــت. يجــب أن أذهــب إلى والــدتي فقط. لقــد دفعوها. سأدفعكم، أيها السفلة.

غســلوا وجوههم، وتناولوا الفطور كيف ما اتفق، وشربوا الشــاي. وعندما رأى ساشــا عينَي فينيا تلاحقــان قناني نبيذ الأمس الفارغة تماماً أمر:

- يُمنَع خروج أيّ أحد إلى الشارع.

- لا توجد سجائر، - قال فينيا بمرح.

- فيروتشــكا ســتخرج، - وفي هذه اللحظة دخلت فتاته المطبخ، مبتسمة بطريقة ما جديدة.

«الآن الجميع يعلمون أنَّ ساشــا عشــيقي»، - هكذا فكَّ ساشا رموز مزاجها.

«ولكن مَن يعرف...» - قال متلعثماً مع نفسه بعد دقيقة.

- إلى أين تذهب؟ - سألته فيرا.

- سأعود قريباً.

- ساشا، لا توجد نقود عندي كذلك، - قال فينيا مبتسماً.

أعطى ساشــا فيرا ورقة نقدية مقرقِشة وجميلة. فأطلقَ فينيا صرخة رضاً وابتهاج.

سار في شوارع المدينة وهو يشـعر أنَّ الشوارع والساحات تكرهه. كما لو أنها تحاول إخراج ساشـا مـن هذه الفضاءات المملة والحساسة. ولم تعد الطاقة الغضبية المُكشِّرة النابضة نحو الداخل تكفي ساشا أنْ يقاوم. كانت المدينة كبيرة جداً.

«المحكمة بالمحكمة، والقرن بالقرن»، - كرر ساشـا بعناد من دون فِهم ما تعنيه هذه الكلمات أو محاولة فهمها.

«أسـتطيع أن أفعل أي شيء»، قال ساشـا مع نفسـه وهو يلمس ظرف الإطلاقة الفارغ في جيبه. لقد برَّد ظرف الإطلاقة أصابعه، ولكن لا ينبغي تدفئته أبداً إلى الدرجة التي يكفي فيها الدفء لمدة نصف دقيقة على الأقل.

لم يقترب ساشـا من العمارة التي فيها شـقته، بل ذهب إلى المبنى المجاور المكون من خمسة طوابق، وصعد إلى باب العلية، ولكـن كان ثمة قفل كبـير يتدلّى منه. وفي المدخـل التالي كان الشيء نفسـه، وفي الثالث حالفه الحظ. تبيَّن أنَّ القفل مكسور، ولا يحتاج الأمر سـوى فتح القوس الصدئ. فُتِحَ الباب وهو يضغط على الأرضيـة ويصدر صريراً. كان الجوف الأسـود تفوح منه رائحة الحجر الرطب والعفونة.

قدحَ بالولاعة ومع ذلك لم يَرَ شيئاً وكاد يكسر ساقيه، وجد الطريق نحو السقف، كان مقبض فتحة الخروج ملفوفاً ببساطة بالأسلاك.

تســلَّق إلى الضوء الأبيض ووصل إلى حافة السقف تقريباً. جلس القرفصــاء ونظر إلى الفناء وإلى نوافذ شــقته وإلى المارة القليلين...

لم يبحث طويلاً، فقد رأى في الطرف الآخر من الفناء سيارة «فولغا» ســوداء تقف ولاحظ آثار التوقّف الجديدة إذ لم يكن ثمة ثلج على سطح السيارة، والهوائي يتأرجح في الريح. فتذكَّر ساشا أنَّ هذه السيارة لم تكن هنا من قبل.

نزل إلى الطابق الســفلي قافزاً فوق الدرجــات كما لو كان يستعجل للذهاب إلى موعد.

كان في المدينــة ثمة مكتب اتصــالات واحد فقط، فذهب ساشا ليتصل من هناك.

لم يرد أحد في المنزل عليه.

خرج إلى الشــارع الكئيب والقاتم عــلى الرغم من حلول الصباح. كان الثلج يهطل كثيفاً ومســتمراً، وساشــا من دون قبعة.

بعــد أن تردد لحظة، قرر أنْ يذهب إلى وســط المدينة، «من أجل القبعة»، برر لنفسه.

وصل بسرعة إلى هناك بواســطة حافلة صغيرة، وســار إلى ساحة الأمس، كانت القبعة ما تزال معلّقة على الغصن، لكنها باردة ويكســوها الثلج، بــلا حياة. أخذهــا واعتمرها، ودفَّأ برودتها برأسه.

نُظِّفَ كل شيء في «ماكدونالدز» وثُبِّتَت نوافذ جديدة. لم يذهب إلى المكتب المحترق. لاحظ من بعيد أنَّ العديد من الناس يزدحمون هناك. ويبدو أن كاميرات قد نُصِبَت. ربما، تجمَّعَ الصحفيون المحليون. فقد استيقظوا...

جلس في حافلة الترولي البطيئة والمُنهَكَة فسارت به دورة كاملة، وهو يراقب كيف يمتلئ الصالون بالكامل وكيف يفرغ في نهاية الطريق ويصبح مهجوراً. وكيف أنَّ قاطعة التذاكر (الجابي)، المرأة الصاخبة والسمينة، تشقّ طريقها ساعة كاملةً بين الركاب المتجمدين الذين تكدّسوا ملتصقين كاللحم في المجمِّدة، تتنهد فجأة وتصبح على حين غرة وحيدة، وعيناها عديمتا اللون تشرئبّان بحزن.

- ماذا تفعل؟ - سألت قاطعة التذاكر ساشا في المحطة النهائية.

- لقد فاتتني منطقة التوقف التي أردتُ النزول عندها، هل يمكنني العودة؟

أجابته بسخط: - سنقف لمدة عشر دقائق. وعليك أن تدفع ثمن التذكرة مرة أخرى.

- سأدفع، - ردَّ عليها.

فكَّرَ في والدته وفي يانا. كانتا تتناوبان في رأسه، وشعر بأسى لا يُطاق عليهما كلتيهما، وأنه يحبهما كلتيهما إلى درجة مستعد معها للموت من أجلهما على الفور.

«لقد كسَّروا أسنان يانا، ولكن...» - تذكَّر ساشا فمها السريع وشفتيها ولسانها الرطب وعينيها اللتين غالباً ما تغيران مزاجهما.

وبعــد ذلك مباشرة فكَّر في والدته، وفي هذا التحول لم يكن ثمة ابتذال ولا غباء.

«من يجرؤ على الإســاءة إلى أمي؟ مَن يتجرّأ على أمي؟» - تســاءل وهو ينظر أمامه إلى الحاجز البلاســتيكي الملصق عليه تقويم ســخيف، وخلف الحاجز جلس الســائق يدخن، شعر ساشا بطعم الدخان وأراد هو أيضاً أنْ يدخن.

اتصــل هاتفياً بوالدتــه بعد الظهر، وكان يعــاني من البرد والجوع، ردت على الهاتف على الفور، كما لو كانت تجلس قرب الهاتف تنتظر الاتصال.

- أين أنت، يا بُنَي؟ - صرخت تقريباً.

- اهدئي، يا أمــي، كل شيء على ما يــرام معي، - أجاب ساشا، وهو ينظر حوله لسبب ما، ويتطلَّع إلى وجوه الأشخاص الذين يقفون بالقرب من الكشك الذي يتصل منه، ولهذا يخلط بين الكلمات. - أنا... في الشــارع... الحقيقة، أنا أتصل... من أحد الأماكن. ماذا جرى لك، هناك؟

- لم يحدث شيء. لا شيء على الإطلاق. استدعيتُ الحرفيين ونصبوا الباب.

- هل كسروه؟

- أنتَ بنفسك قلت لي: لا تفتحيه أبداً لأي شخص، واطلبي منهم ترك الاستدعاء في صندوق البريد. وفعلاً لم أفتح الباب، - قالت الأم وهي تشتكي وتتذمَّر.

- هل ضربوك؟

- الله يسامحك، يا ساشا، لم يلمسني أحد بإصبعه، لا تفعل شيئاً. لم يضربني أحد. بعثروا الأشياء كلهاَ في الشقة، وحطموا زهرتي على الأرض لسبب ما، وشتموك بأنواع الشتائم وغادروا. ماذا فعلت، قل لي؟ أين أنت؟

- في مكان ما، يا أمي! في قراغندي! اهدئي، لا تخافي. لم أرتكب أي خطأ، هل فهمتِ؟ هذا كل شيء، ينفد المال. ماما! مع السلامة! كل شيء على ما يرام! وكل شيء سيصبح بخير!

ووضع السماعة بسرعة.

خرج من كابينة الاتصالات، ومشيٍ على قدميه مسافة محطة واحدة لتوقّف الحافلة، وشعر بثقل أُزيح عن صدره. وحتى شعر بالدفء. وقفز إلى سلّم الحافلة الصغيرة.

أمسى الجو مظلماً للغاية.

اقترب من شقة أوليغ، تباطأ وهو ينظر إلى النوافذ. كانت الشقة مُضاءة، رغب برؤية وجه عزيز واحد على الأقل.

«ماذا لدينا هنا في الفناء؟ أليس هناك سيارة بها قوات خاصة تتربص في الزاوية؟ - نظر ساشا مِن حوله - ومَن هذا الذي

يدخن عندنا هنا؟ رجل ما يدخن. إنه ينظر إلى ساشا أيضاً. إذاً، أنا سأدخِّن كذلك. وسأقوم بلفَّة أخرى..».

كان ساشا على وشك أنْ يمشي، لكنه التفتَ فجأة، وعرف الشخص الواقف حتى ليس من خلال الملامح، إذ لا يمكن تمييزه في الظلام، ولكن من خلال الإحساس، من خلال المعطف القصير وإيماءة اليد التي ترفع السيجارة إلى وجهه.

وبدا أنَّ الرجل لم يعرف ساشا أيضاً.

- ماتفي! - حتى إنَّ ساشا فتح يديه من المفاجأة والفرحة.

- ساشا، - سُمِعَ من صوته أنَّ ماتفي كان يبتسم.

تعانقا بشعور صادق ودافئ.

- كيف عثرتَ على هذا المنزل، يا ماتفي؟

- لقد قضينا أنا وروغوف ليلة هنا في المرة الماضية.

- أوه، بالضبط. لقد نسيت. هل أنت هنا من مدة طويلة؟

- لقد وصلتُ للتو، قبل سبع دقائق تقريباً. بعد أنْ خرجتُ من قطار الضواحي. وأدقق النظر عن كثب، هل أُحرِق كوخكم أم لا.

- وأنا أيضاً أتفحَّص.

- هل بدؤوا يضغطون عليكم؟ - صار صوت ماتفي على الفور أكثر جدية.

- الحقيقة، لا نعرف. أمس قمنا بأعمال شغب وحرق هنا في وسط المدينة. لنتمشى الآن. هل لديكم مشاكل بسبب يانا؟

- «مشاكل»... - ضحك ماتفي ملء شدقيه، بمعنى: وهل ما نحن فيه يسمّى هكذا.

- لا بـأس، ما لنا ننتظـر هنا. - أدرك ساشـا أنَّ الحديث جديّ، وإضافة إلى ذلك بدا ماتفي متعَباً. - انتظر، سأذهب إلى الشقة، إذا لم أعد، فعليك أنْ تسافر.

- لا تسـتعجل، يا ساشـا. هل يوجد احتـمال كبير بأنهم ينتظروننا هناك؟

- من المفترض، كلا. هنـاك الأولاد، جماعتنا، وفينيا هناك أيضاً...

- فينيا؟!

- نعم، فينيا، ماذا في الأمر؟ سيكون بإمكانهم كسر النافذة هناك، إذا ما حدث شـيء، ويشيرون لي بطريقة أو بأخرى. إنهم ينتظرونني. كل شيء على ما يرام، على ما أعتقد. سأعود الآن.

صعد ساشا إلى باب الشقة، وقف من دون حركة مدة بضع ثوانٍ. في البداية لم يسـمع سـوى طنين التليفزيون، ولكن بعد ذلك دوّى صوت فينيا المرح فاطمأنَّ قلبه بعض الشيء. وفتح الباب ونظر.

كان أوليغ وفيرا جالسَين في المطبخ، يشربان الشاي. فهرعت فيرا من المقعد مثل الطير لملاقاة ساشا. وقبَّلته على شفتيه بفمها السريع كالمنقار والرطب قليلاً.

كشَّرَ أوليغ، وابتسم ابتسامة تحية لساشا.

«لقد غازلَ صاحبتي فيرا»، - خمن ساشا.

كان فينيا وبوزيك في الغرفة يشاهدان التلفزيون، ثمة حماقة صاخبة وإطلاق نار.

- سأعود حالاً، - قال ساشا بشيء من الرضا.

ودخل بعد دقيقة هو وماتفي. حيّا أوليغ وبوزيك وهو يبتسم بود وانحنى لفيرا، وعندما رأى فينيا قال:

- لم أرغب برؤيتك تماماً، - من دون الكثير من الغضب، فقد جفَّت عواطفه، على ما يبدو.

غمز فينيا بخجل برموشه غير المُنتظِمة لسبب ما التي كانت ثلاثة منها طويلة واثنان قصيرين. وحاول أنْ يحدد مدى غضب ماتفي. وعندما مرّ ساشا من جانب فينيا شمَّ رائحة الكحول، على الأرجح، أنَّ المحتال قد أدار رأس فيرا بقنينة الشراب من حجم ربع لتر.

- لا بأس، ألا نشرب الشاي؟ - اقترح ماتفي.

- نذهب، لنضع إبريق الشاي. انتظرونا، أنتم هنا! - طلب ساشا من الأولاد.

أغلق باب المطبخ.

- ماذا بشأن فينيا؟ - سأله.

- لقد طردناه. يشرب من الصباح إلى المساء ويدخن المخدر ويسحبه إلى القبو بالكيلوغرامات. وزيادة على ذلك، الآن ليس لَدينا مخبأ.

تمكنت يانا، التي تسللت عند افتتاح المسرح الجديد بهوية صحفي بعد أنْ اختبأت في الشرفة، من إلقاء الكيس على الرئيس أثناء مروره، فسقط الكيس بالضبط على رأسه الضارب إلى البياض.

مشى ماتفي في ذلك المساء من المنزل إلى المخبأ.

وعندما وصل إلى المخبأ، رأى المكان مطوّقاً، وكاد أنْ يقع في أيدي الشرطة السرية. فقد استولوا على المخبأ ويبدو أنهم ألحقوا أضراراً جسدية بجميع مَن كان هناك.

- إذاً، أنت تعرف ما أرادت يانا فعله؟ - قاطع ساشا ماتفي.

- إنها لم تنسّق مع أحد! - قال ماتفي في همسٍ واضح وقد همسَ، بالطبع، من عِظَم التعذيب الذي تعرَّضت له يانا، لا لأنه كان خائفاً من شيء ما. - لم تنسق مع أي أحد، يا ساشا! ما كان أحد سيسمح لها! هذا كل شيء، يا ساشا! سيقتلونها هناك! جميع الأشخاص الذين ما زلنا نستطيع التعامل معهم، من بين أولئك الذين كانوا قريبين إلى حد ما من رجال السلطة العليا، رفضوا جميعاً التواصل معي. لقد بدأت على الفور الاتصال بمجرد أنْ عرفت. بعضهم ببساطة قفل الهاتف بوجهي، وبعضهم سبَّني مباشرة وتمنى لي الذهاب إلى الجحيم. ثم وضعت هاتفي النقال على مقعد، وبعد دقيقتين، بمجرد أنْ تركت المكان، هرعت مجموعة كاملة من الحمقى وهم يرتدون الأقنعة من أجل الهاتف المحمول. كان منظراً مضحكاً، وكنتُ جالساً في سيارة

أجرة على الجانب الآخر من الطريق. نظرتُ وغادرت. وصلتُ إلى الشقة، التي غادرتها قبل ساعة، وتصوَّر، يا ساشا، إنهم لم يفتشوا هناك فحسب بل ألقوا من الطابق الثالث إلى الشارع الأثاث كله وكل شيء كان في الشقة. وهم يعرفون أنه لا يوجد ثمة شيء للبحث عنه، وقد فتشوا عشر مرات وألقوا بكل شيء من النافذة وكسروا النوافذ خلال ذلك.

لم يبدُ ماتفي مستاءً، بل كان يتحدث عن الموقف كما هو.

- وكانت زوجتي في المنزل مع الطفل الرضيع، - أضاف ماتفي.

نظر ساشا متسائلاً إلى ماتفي، وخاف حتى من طرح سؤال.

- لقد ذهبوا إلى والدتها على الفور، ولم يحاولوا حتى منعهم من إلقاء العفش. - أجاب ماتفي بعد أنْ فهم نظرة ساشا. - وقالت زوجتي إنهم كانوا من الحقارة بدرجةٍ وكأنهم بعد دقيقة سيلقون بها مع الطفل من النافذة.

- أردت أنْ ألجأ إلى أحد أكواخنا في موسكو، - تابع قائلاً، - لكنهم كانوا ينتظرونني بالفعل هناك. وجدني أولادنا في الشارع، لكن الشرطة السرية لم يلحظوا وجودي. قال لي الأولاد إنَّ الشرطة تبحث عني في جميع أنحاء موسكو، وربما يعتقدون أنني ويانا دبّرنا هذا كله. وبشكل عام إنهم يقبضون على جماعتنا كلهم. مَن عُثِرَ عليهم.

ظلَّ ساشا صامتاً.

- نهاية عمل الحزب في موسكو؟ - سأل مبتسماً ابتسامة حزن.

بدا لساشا أنَّ ماتفي يفكر: أجيب أم لا.

- كلا، ليست النهاية، - أجاب وصمتَ لحظةً.

- لدينا العديد من معسكرات التدريب التي أنشأها كوستينكو. لم يُعثَر على أي منها حتى الآن. ولكن حتى في مثل هذه الحالة، لن أذهب إلى هناك. أخبرني كوستينكو حتى قبل السجن: إذا ما تسببنا بفقدان معسكر واحد على الأقل، فسيخنقني شخصياً.

أومأ ساشا برأسه، فقد أعجبه الجواب.

- لا بأس، هل ندعو الأولاد لشرب الشاي؟ - اقترح ماتفي.

صبّوا الشاي في الأقداح ودعوا الجميع إلى المائدة.

- إذاً، ينبغي علينا كذلك مغادرة المكان، - قال أوليغ، عندما كانت فيرا تصب للجميع القدح الثالث. كان على الطاولة قطع من الكعك والخبز والجبن الرخيص والنقانق المسلوقة والتفاح.

راقب ساشا، ببهجة، كيف حزَّ ماتفي التفاحة في قدحه: منذ طفولته في قريته، لم يلحظ مثل هذه العادة لدى أي شخص.

- ماذا تقول، يا سانيا؟ - سأل ماتفي. - هل لدينا مكان آخر نذهب إليه؟ سيكون من الضروري الانتظار لمدة ثلاثة أيام حتى تهدأ أعصاب هؤلاء الأوغاد. بعد ثلاثة أيام، سأسلِّم

نفسي لهم، إذا ما استلزم الأمر. لقد ظهرتُ في اليوم الخامس بعد أعمال الشغب في موسكو. أخذوني واحتجزوني ليلة وأطلقوا سراحي. وإنْ كان لا أحد يعرف كيف سيتصرفون في هذه المرة... لم يحدث مثل هذا بعد... كيف ترى أنت؟

- أجل، لم يحدث مثل هذا. يجب أن نرحل. هل لديكم أي اقتراحات؟ - سأل ساشا أوليغ وفيرا وبوزيك.

لم يرد عليه الجميع.

- إذاً، اذهبوا معي إلى القرية - قال ساشا. - لن يعثروا علينا هناك. حتى بداية الربيع وظهور أزهار اللبن الثلجية، بكل تأكيد. المهم أنْ نصل إلى هناك.

- هل من الممكن أن نستأجر سيارة أجرة؟ - سألت فيرا.

- كلا، لن تذهب سيارة الأجرة إلى هناك. المكان بعيد، - رفض ساشا الفكرة، على الرغم من أنَّ الأمر لم يتعلق، بالطبع، بمسألة بُعد المسافة. بل كان يأمل أن يكون ديسمبر (كانون الأول) دافئاً وأنَّ الثلج المتساقط يذوب باستمرار.

- لديَّ سيارة، - قال أوليغ.

في الساعة السادسة صباحاً، ذهب أوليغ إلى المرآب. انتظره «الاتحاديون» في المطبخ، ودخّنوا كثيراً وكانوا ينظرون من النافذة وينفضون الرماد في علب المواد الغذائية المحفوظة التي أفرغوها لتناول الإفطار. وكانت فيرا تسعى جاهدة للالتصاق بساشا وتنظر إلى وجهه.

راقب ساشـــا بحزن الثلج الذي يتســـاقط بكثافة. وكانت درجة الحرارة في هذا الوقت سبع درجات تحت الصفر.

بعد الساعة الســـابعة بقليل اقتربت ســـيارة «فولغا» البيج القديمة من المدخل. خرج أوليغ، وبعـــد أنْ أغلق الباب بقوة نظر إلى الصالون لســـبب ما. ورفع بصره إلى نافذة الشقة، لمحَ الأولاد، لكنه لم يلوح بيده ولم يبتسم.

أُجلِسَ ماتفي في المقدمة، وجلس فينيا وساشـــا وفيروتشكا في المقاعـــد الخلفية، وصعد بوزيك أيضاً ولكـــن طُلِبَ منه أنْ ينزوي عند الأقدام ما دامت الســـيارة تسير في المدينة. وغُطِّيَ ببطانية. كأنَّ أرجل الجالسين جميعهم متجمدة. ووضعوا أربعة أكياس كبيرة مملوءة بالمواد الغذائية في الصندوق، اشـــتروها في المساء.

- ترهلت مؤخَّرة السيارة، - قال أوليغ متجهماً في الطريق.

- سيوقفوننا في أول سيطرة (نقطة تفتيش) بالتأكيد.

- الشيء الرئيس هو ألّا نقع بأيديهم في المدينة، - أكد ساشا.

- أما هناك...

- نقطة التفتيش عند المخرج: لا يمكنك الالتفاف عليها.

- وسوف نتجاوز السيطرة. سيراً على الأقدام.

وهكذا فعلوا.

تركهم أوليغ قبل خمسمائة متر من السيطرة (نقطة التفتيش)، على طريق مهجور خارج المدينة، فنظروا خلفهم إلى آخر المباني

العالية الكئيبة في الضواحي التي يسكنها العمال. على اليسار بدأت غابة صغيرة، وعلى اليمين امتدت أرض قفر مكفهرّة.

ابتعدت السيارة «فولغا» ببطء ساعيةً للسير بسرعة وهي تهز بمؤخرتها وتطرح الثلج الوسخ من تحت عجلاتها المنزلقة.

- الآن سيهرب بأكلنا، - علَّق فينيا على أثر ابتعاد أوليغ، - سيأكل في الغابة النقانق كلها وحده.

- هل نمشي مباشرة على طول الطريق السريع؟ - سألت فيرا ساشا.

- كلا، من الحماقة أنْ نفعل ذلك. ربما، صوَرُنا معلَّقة هناك في السيطرة...

- « اِرْمِ على الهدف، ولا تدخل في مفاوضات»، - أضاف فينيا بخفّةٍ.

نظرت فيرا بخوف إلى ساشا، فابتسم لها.

- ما لنا نقف؟ - سأل ماتفي بجدية مرحة.

- هيّا نذهب إلى الغابة، - أجاب ساشا في تناغم.

- هناك الثلج كثيف، إلى الركبة، - اشتكت فيروتشكا.

أدرك ساشا، الذي نزل أولاً، على الفور أنَّ الثلج عند النزول من الطريق أعلى حتى من عمق الركبة. فقد كدَّسته سيارات جرف الثلج.

ضحك الأولاد، وحاول بوزيك العبور عن طريق الزحف أَو القفز كالضفدع، على أطرافه الأربعة، لكنه غاص على أي

حال. وكان على ساشـــا أنْ يسحب فيرا ويجرها إليه تقريباً. فقد كان الثلج بعمق خصرها بالضبط.

كان الثلـــج أقل في الغابة، لكنهم مشـــوا بصعوبة شـــديدة مجتازين مســـافة قصيرة، وسرعان ما شعروا بالتعب. ومع هذا كان فينيا وبوزيك يتقاذفان بكرات الثلج.

«بوزيك مبتهج»، - فرحَ ساشا.

- وإذا ما قابلَنا هنا رجلٌ بالزي العســكري بالصدفة، فماذا نقول؟ - تحامق فينيا. - لقد تهنا، أيها الرفيق الشرطي؟

تخلفت فــيرا، وكانت بصعوبـــة ترفع ســـاقيها في حذائها الصغير، «ربما، امتلأ الجميع بالثلج»، - فكَّر ساشا. وفي بعض الأحيـــان كان ينتظرها، ويقودها مـــن يديها، ولكن كليهما كان يعاني من صعوبة المشي، فيبتعد ساشا مرة أخرى.

- يا ماتفي، - سأل ساشـــا بصوت خافت. - هل تفكر في بعض الأحيان في ما ينتظرنا؟ وما يُخبّأ للحزب؟

نظر ماتفي إلى ساشا بجدية.

- إنك رجل ذكي، يا ساشا، - أجاب ماتفي.

لم يقل ساشا شـــيئاً، حتى يدرك ماتفي أنه يتمنى منه إجابة كاملة. وفهم ماتفي ذلك، فقال:

- يا ساشا، ليس لدينا فرصة. ولكن هل هذا يهم؟

لمس ساشا لحاء شجرة بيده.

- لا يهم، - أجاب بصدق.

قرروا الخروج إلى الطريق بعد ساعة، وقد تبلَّدوا إلى حد ما من البرد، وأخذوا يتحركون على أرجلهم المتجمدة المستقيمة، على شكل الحرف «A».

- ساشا، لديَّ شعور أنني حافية القدمين، - قالت فيرا بنبرة رثاء.

- يا فيرا، - فجأة فقدَ ساشا روح المرح، - طوال الوقت أنسى أن أسألك، كيف التحقتِ بـ «الاتحاديين»؟

لم تجب فيرا، كانت متجمدة تماماً، أدارت رأسها فقط.

كانت سيارة أوليغ تقف أبعد قليلاً على الطريق السريع، فركضوا نحوها، ولم تطعهم رُكَبُهم، وهبَّت الرياح في وجوههم.

- سخِّن التدفئة، يا عزيزي! - طلب منه ماتفي، وهو يدخل، والتفت إلى ساشا وسأله: - هل المسافة إلى قريتك بعيدة؟

- بعيدة، - أجاب ساشا. - جدّتي هناك. سوف تدفِّئنا... المنعطف التالي، يا أوليغ، على اليسار.

تخيَّل ساشا، وهو بالكاد يكبح الابتسامة، كيف سيكون أمرهم على خير هناك: سيُطعَمون جيداً وسينعمون بالدفء وسوف يذهبون للتنزه وسيتزحلقون على الزلاجة... وماذا؟.. سيُصلِحون الكوخ.

«سآخذ أصدقائي إلى قبر والدي... سأريه كيف هم أصدقائي... وسوف نشرب عند القبر... وسوف أسلِّم على جَدّي، لم أذهب إلى قبره قط. آه؟ يا رب، أوْصِلنا!»

ارتجف ساشـــا بقلب قاسٍ، بعد أنْ تذكر عبارته «هل يكفي هذا للوصول إلى الجحيم»...

«والآن، تتوسل بذلك الرب نفسه: أوْصِلنا؟»

«لا أطلب أي شيء. لا شيء»، - أجاب نفسه.

- هـــل تعرف كيف جئـــتُ إلى «الاتحاديين» يا ساشـــا؟ - انحنت فيرتشكا فجأة على كتفه.

- ماذا؟

- لقد ســـألتَ لماذا جئتُ إلى حزبكم... أخبرتني أمي ذات مرة أنها عندما كانت طفلة صغيرة، أرادت أنْ تكتب رسالة إلى شـــخص ما، إلى فتى أو فتاة، لا على التعيين، في مدينة أخرى، ولكـــن في بلدنـــا. أغمضت ماما عينيها، وبشـــكل عشـــوائي ســـدَّدت بقلم الرصاص على الخريطة. فأصابت القوقاز، على بلدة ما. وكتبت رسالة: «اسمي ماشا، أريد أن أكون صديقتك، أنـــا أدرس في الصف الخامس، علاماتي أربع (جيد) وفي بعض الأحيان ثلاث (مستوفي). وقد اختلقت العنوان: شارع لينين، منزل كذا وكذا، شـــقة كذا... وتلقـــت إجابة، هل يمكنك أن تتخيل؟ من طفلة داغســـتانية، تكبرها بسنة واحدة فقط... ثم بقيتا تتراســـلان لمدة طويلة وذهبتا لزيارة بعضهما بعضاً إلى أنْ ولدتُ... كان هكذا بلدنا.

- والآن؟ - سأل ساشا، ولسبب ما نسي على الفور عن أيّ شيء سأل بالضبط.

- والآن أمــي تكرهني، - أجابت فيرا، وبدا لساشــا أنها أجابت بشكل صحيح.

انحدرت الســيارة إلى الطريق الريفي وسارت ببطء أكثر، وأحياناً كانت تنزلق عن الركام الثلجي على حافة الطريق. نظر ساشــا في وجه أوليغ لمعرفة ما إذا كان غاضباً، لكن وجهه كان لا يمكن اختراقه.

اجتازوا قرية واحدة، وكان الثلج يتساقط، جموحاً ومتواصلاً وكثيراً، وكأنه ينزل من مكمن، وفي منتصف الطريق إلى القرية الثانية توقفوا.

خرجوا من الســيارة دافئين قليلاً ودفعوها مستندين بأيديهم المتجمدة إلى صندوق السيارة المتجمّد. لم يستطيعوا دفعها إلّا بعد أنْ طلب أوليغ من أحدهم أنْ يقود الســيارة - فاتضح أنَّ ساشــا فقط كان يعرف السياقة، فجلس خلف عجلة القيادة. وبمجرد أن وضع أوليغ يديه القصيرتين على السيارة، زحفت.

- يا سلام، القوة فيك... - قال ماتفي بإعجاب.

صعدوا إلى الصالون، كانوا صاخبين ومرحين لأنهم تمكنوا من مواصلة الســير. اجتازوا بسرعة القرية الثانية، حيث كان الطريق ممهَّداً قليلاً. ولكن مــا إنْ تجاوزوا أطراف القرية حتى توقفت السيارة مرة أخرى، تماماً.

تناطحــوا مع صندوق الســيارة ما يقرب من ســاعة وهم يستشيطون غضباً، وتشاتموا بالكلمات البذيئة، وهزّوا السيارة...

لاحت القرية سوداء خلفهم، من دون نيران تقريباً.

- حتى لو خرجنا من هنا، فلن نستطيع مواصلة السير، قال أوليغ بهدوء وهو يطوف حول سيارته «فولغا» المتعطِّلَة. - كان من الممكن أن نسير يوم أمس. أما اليوم، فلا. هيّا بنا نمشي على الأقدام إلى الناس.

... من دون مزيد من اللغط، طرقوا على الكوخ الأول، ففُتح لهم.

- هل أتيتم؟ - سأل الرجل الذي فتح الباب والذي يرتدي كنزة صوفية على جسمه العاري وسروالاً بركبتين مسحوبتين.

- قلت للجدّ على الفور: «سيأتون الآن». ادخلوا إلى الكوخ. تدفَّؤوا الآن.

سمح للجميع بالدخول إلى المنزل.

- يا ولد، كم عددكم... هل كانت البنت في الصندوق؟

أغلق الرجل الباب الخارجي خلفهم.

- ربة الدار غير موجودة، لقد ذهبت إلى الجيران. سأحضّر لكم الشاي الآن.

إنه حتى لم ينظر إلى القادمين، كما لو أنه غير مهتم بمن هم وكيف يبدون. دخل إلى المطبخ الصغير، وقال من دون أن يلتفت، وبنبرة استياء كما يبدو:

- أقول لهم، ادخلوا إلى الكوخ، لماذا أنتم واقفون عند العتبة...

- إننا بحاجة إلى جرار، يا أبتِ، - قال ساشا بصوت عالٍ: مثل العديد من سكان المدينة، اكتسب عادة سيئة بأنْ يتحدث إلى القرويين كما لو كان لديهم صعوبة في السمع.

لم يرد عليه أحد.

- لا بأس، لنخلع أحذيتنا في الوقت الحالي، - اقترح ساشا على الأولاد وهو يبتسم ابتسامة خبيثة.

بدؤوا في خلع أحذيتهم بحرج، كما هو الحال دائماً في منزل جديد، لا سيما في قرية.

كانت شبه عتمة، يبددها ضوء المصباح الضعيف، وفاحت رائحة شيء ما غير واضحة.

- إلى هناك، على الأرجح، - أشار ساشا إلى باب آخر منجّد باللباد.

دخلوا الكوخ، تاركين آثار أقدام مبللة على الأرضية الخشبية. ولسبب ما حاولوا المشي على أطراف الأصابع، كما لو أنَّ شخصاً ما نائم في المنزل.

كانت الغرفة المنخفضة مظلمة ولكنها دافئة. سقط ضوء المساء الضعيف من النافذة.

انتصب عند الجدار مقعد طويل مطلي. وفي وسط الغرفة ثمة طاولة كبيرة مغطاة بقماش مشمَّع منقوش بالأزهار. وعلى الجانب الآخر من الطاولة توجد أريكة.

جلس الأولاد صفّاً على المقعد الطويل ضاغطين بطونهم أمام الطاولة.

- اذهبي إلى الأريكة، - قاد ساشا فيرا بعناية عبر الغرفة.

جلسوا ونظروا مِن حولهم. بحَّ فينيا بصوته. من الواضح أنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه خجلَ حتى الآن، إذا كانت كلمة «خجل» تنطبق عليه بشكل عام.

دخل صاحب الدار وبإحدى يديه الغلاية وباليد الأخرى مجموعة من الأقداح.

- ناوليني المسند هناك عند حافة النافذة. تحت الغلاية، - طلب من فيرا. - وإبريق الشاي في المكان نفسه.

نقر على زرٍّ فاشتعل مصباح ضعيف في ظلّة (أباجور) صفراء. فتفحَّص ساشا رفاقه. كان الجميع يجلسون متعبين قليلاً، لكنهم لم يشعروا بالاكتئاب على الإطلاق.

- سائق الجرار نائم ثمل. وجرّاره لا يشتغل، - قال الرجل، كما لو أنَّ ساشا سأله للتو.

ذهب إلى المطبخ مرة أخرى، أحضر المربى في وعاء بحجم لتر وملعقة كبيرة داخله وخرج مرة أخرى.

فتح الباب بعد ذلك بدقيقة، وظهر في قبعة وكنزة مزرَّرَة وسروال دافئ، وقال:

- سأذهب لربة المنزل، وإلا ستبقى هناك حتى الليل.

أراد ساشا أن يردّ عليه بأن لا يقلق بشأن ما هو موجود، لكن الباب أُغلِق.

قضوا الوقت بشرب الشاي.

وأخيراً تفحَّصوا الغرفة الصغــيرة. الجدران المغطاة بورق حائط ســميك قديم، مع أيقونة في الزاوية وســجادة رثة على الحائط وخزانة ذات أدراج في الزاوية. وثمة باب أبيض يؤدي إلى غرفة أخرى، التي أحدث أحدهــم فيها ضجّة فجأة وصرَّ بالسرير ثم بدأ يشخر.

فُتح البــاب، وظهر الجدّ، صغيراً ذا شــعر أبيض منفوش، ووجه يشبه وجه طفل على وشك البكاء.

«إنه يشبه القزم حارس الغابة»، - فكَّر ساشا.

«على الأرجح، هو والد ربة الــدار، فالرجل الذي فتح لنا الباب معافى للغاية ولا يبدو ابناً لمثل هذا الجدّ»، - فكر ساشــا مرة أخرى.

- لم يأتِ إلينا وفد من مدة طويلة، - قال الجد. - في السابق، كل أسبوع يأتون ثلاث مرات، بدءاً من نوفمبر (تشرين الثاني) حتى مايو (أيار). ألم يُدفَن كبار الســن كلهم؟ وهل بقي الآن مَن يأتون إليه؟

خمَّن ساشا أنَّ عابري السبيل الذين كانت تتعطَّل سياراتهم في الثلج والطين كثيراً ما وردوا على هذا المنزل.

وقف الجدّ لبعض الوقت وتأوَّه قليلاً على الشــارع. وكان يُســمَع كيف يبحث عن كنزته الصوفيــة طويلاً يهمس بشيء ويشتم بهدوء.

- أين التواليت؟ - سألت فيرا بصوت منخفض.

- هناك، اذهبي، سوف يصحبكِ الجدّ، - تفوَّه فينيا أخيراً.
ومع ذلك، كانت لديه القدرة على قول أي هراء ببراءة، وحتى الآن، لهذا ابتسمت فيرا.

- كلا، بجِد، يا ساشا؟

- بجِد، يا فيرا. إنه في الفناء. هل ستذهبين؟، - أجابها ساشا.

هزت فيرا رأسها نافيةً.

أكلـــوا مربى التوت من ملعقة واحـــدة، واحداً تلو الآخر. وضع فينيا رجليه على مشـــع التدفئة، وغمغم بسرور. وفعلت فيرا مثله واســـتندت بظهرها إلى ساشـــا ووضعت ساقيها على مســـاند أذرع الأريكة المتهالكة، وأســـندت قدميها على جانب الموقد الدافئ.

لقد تدفّؤوا قليلاً.

صرَّ باب الشـــارع، فاختلجت فيرا، وأرادت أنْ تعدِّل من وضعيّتها الطائشة للغاية، لكن ساشا أوقفها قائلاً:

- اجلسي، اجلسي، هذا الجدُّ. لا يهتم بكيفية جلوسك.

- ولكنكم كثيرون، - قال الجـــدُّ وهو يدخل وبنغمة توحي بأنه لم يذهـــب إلى أي مكان. - إيه؟ صغار؟ لســـتم في طريقكم إلى القبور، إنكـــم تركضون نحو طريق آخر. ما زال في انتظاركم جميعاً أنْ تهربوا إلى القرية، جميع سكان المدينة: سيحين الوقت عن قريب. أليس هناك شيء يحترق بعد في المدينة؟ سوف تحترق قريباً.

جلس على كرسي في الزاوية، بالقرب من الباب تقريباً، نظر إلى الجميـــع بعينين لا يمكن للمرء أنْ يعرف إنْ كانتا مبتهجتين أم جاهزتَين للبكاء، لاسيما وأنَّ المصباح بالكاد يضيء.

- في الســـابق كان الرَّب يؤخر عقوبة العاصي. وقد يؤجّل العقوبة لأبناء الخاطئ. كان ينتظر الخاطئ حتى وفاته ليصحح خطأه. هكذا كان: طالما كان الإيـــمان قدراً بشرياً. وكأنّ الرَّب أصبح يعجّل عقوبة العاصين. إنه يعطي إشـــارة مرة، ثم يضع مَعلَـــماً في المرة الثانية، وفي المرة الثالثـــة يهوي بعمود على الظهر ويكسره إلى شـــطرين... هل لاحظتم هذا، يا أعزائي الصغار؟

- جـــال الرجل العجوز ببصره على جميع الحاضرين. - ألم يكن لديكم مَعْلَم على طول الطريق؟

نظر ماتفي إلى الجد باهتمام، أما فينيا فكأنَّ شيئاً خشبياً مبتذلاً جلس أمامه متمتـــماً بلغته غير المعروفة، وكان بوزيك ينظر من النافذة، وأوليغ يشرب الشاي ويكشط المربى.

وبعد أنْ أنهى علبة المربى نهض وخرج إلى الممر وعاد بكيس المواد الغذائية، أخذه من السيارة.

- يا جد، اجلس معنا واشرب الشـــاي، - قال أوليغ بنغمة ودية، ووضع الطعام على الطاولة.

- لقـــد شربت الشـــاي المخصص لي كله منـــذ مدة طويلة ومضغـــتُ خبزي كلـــه. الآن آكل خبز غـــيري. وأقول لكم: إنكم جميعاً ستفرون بمجرد أن تدركوا أنكم أصبحتم تثيرون

التعـــب لغيركم. ولكن لن يكون ثمة مـــكان تفرون إليه: فقد مات جميع مَن بإمكانهم أنْ يوفروا لكم المأوى. مات الجميع في قلوبكم، ولن يكون ثمة مأوى لأحد... يُعتقَد الآن أنَّ روسيا تتخطّى الأزمان، كانت أزلية وســتظل خالدة. ولكنّ روسيا، إذا ما قُسِّـمت حياتها على المدة التي عشـتُها، فسوف تحصل على ســبع عشرة مدة فقط. روسيا كلها تنقسم على سبعة عشر عجــوزاً. الأول ولدَ في عهد الخزار. وعنــد موته، قُطِع الحبل السري للثاني، الذي ولِدَ بعد ســبعة عقــود. والثالث يتذكر سفياتوسلاف[1]... وسقط الخامس في صراع داخلي، والسادس اشتبك مع التتار... والثاني عشر عاش في أيام الفتنة، والثالث عــشر في عهد رازيــن[2]، والرابع عشر في عهــد بوغاتش... وهكذا سرعان ما وصل العدّ إلـــيَّ، أنا: سبعة عشر رجلاً، لا شيء سوى ذلك. يمكنك أن تضعنا جميعاً في هذا الكوخ، هذه هي الحكاية كلها... في شبابنا، اعتقدنا أنَّه سيكون لدينا أبناء، كما قيل آنذاك، وهؤلاء الأبناء لن يعرفوا خطايانا، ولكن تبين أنَّهم لم يعرفوا الأرض ولا الســماء. لديهم جوع واحد. ولكنَّ هذا الجوع من العقل فقط. ولا يمكن إشـــباعه، لأنه لا تُشبع إلا الحقائق النهمة... أنتم هناك، في المدينة، جميعكم، كما يُقال،

(1) سفياتوسلاف الأول – أحد حكام روسيا الكييفية. حكم منذ عام 945 حتى 972. (المترجم).

(2) ستيبان رازين (1630 –1671)، المعروف باسم ستينكا رازين، قائد قوزاقي قاد انتفاضة كبيرة ضد النبلاء والبيروقراطية القيصرية في جنوب روسيا في 1670–1671. (المترجم).

تذهبون إلى الكنيسة. وتعتقدون أنكم خلال السير إلى المعبد، ستغطون الفراغ في قلوبكم. يأمل الناس أنهم روّضوا الرب بعد أن أشعلوا له الشموع. يعتقدون أنهم خدعوه. ويعتقدون أنهم يغلبون الله العظيم بتصرفاتهم هذه. وصاروا يسمّون سفالتهم وتراخيهم تارة رحمة وتارة طيبة. وما بقي إلّا أنْ يحمّلوا الله ذنبهم زوراً ويقولوا: «لقد قرر الله ذلك. قال الله ذلك. هذا قصد الله». ومرة أخرى يجدفون لأنفسهم، بقدر ما تسعه مخالبهم. وكيف يمكنهم، هم الحمقى، أن يعرفوا قصد الله، وما هي إرادته، وعمَّ يتغاضى؟... والمحزن ليس في كون الإنسان حقيراً، بل في كونه سيئاً في حقارته. فكلما لاحظ أكثر أنَّ الآخرين يرون حقارته، كلما ازداد سوؤه... لم يعد ثمة مخرج لكم بعد الآن.

- يا جد، هل نشرت فلسفتك هنا مرة أخرى؟ - قال صاحب الدار الذي دخل وهو يضحك ضحكة ساخرة. وعاد من جديد يرتدي القميص الرمادي والسروال القصير.

- أقول، إنَّ الجرَّار يقف، منذ أكتوبر (تشرين الأول)، فاعتبر، - ردَّ الجدّ بشكل واضح. - لن يغادروا، أقول. والرجال في القرية، أربعة أشخاص معي. يجب الانتظار حتى يذوب الثلج.

- اذهب إلى غرفتك، لقد سمعنا نكاتك من مدة طويلة، اذهب، - طرد صاحب الدار الجدّ ليس بفظاظة، ولكن بإصرار. خرج الجدّ وهو يرمش بعينيه، وكان على وشك البكاء أو الضحك.

جاءت ربة المنزل، وابتسمت على الفور بمودة لدرجة أنَّ الجميع باستثناء فينيا شعروا بالارتياح من أعماق قلوبهم. فمثلاً، كان ساشا قلقاً للغاية بشأن كيفية استقبالها لهم. ربما، فينيا وحده لم يفكر في هذا.

- لماذا لم تقترح على الأولاد أنْ يتجفَّفوا؟ - انهالت على زوجها. - انظر، أقدام الجميع مبلَّلة؟

- ومَن لا يعطيهم؟

سرعان ما جُلِبَ لفيرا طست فيه ماء ساخن يفوح برائحة لاذعة وحلوة لتدفّئ به رجليها. وحتى إنها لم ترفض بل وضعت كعبيها في الماء المغلي وهي تختلج بسعادة.

سلَّمَ الأولاد جواربهم بضمير حي، وبدلاً عنها أعطوهم جوارب صوفية ممزقة في الغالب، ولكن في المقابل اثنتين لكل رِجْل، شائكة ودافئة.

قَدَّمَت لهم مقلاة بطاطا ساخنة، وفتح أوليغ الكيس الذي جلبوه معهم من المدينة وأخرج العلب ذات الجوانب الجميلة وقطَّعَ الجبن والنقانق بسخاء، وعرض الشراب على صاحب الدار، فردَّ الرجل باختصار:

- بلا شك، طبعاً.

وفتحوا لربة المنزل زجاجة نبيذ من دون أن يسألوها.

- بارك الله فيكم يا أولاد، أنا حتى لا أتذكر ما هو. الزجاجة جميلة جداً.

- والجدُّ؟ - سأل ساشا. - ألا ندعوا الجد؟

- وكيــف يمكن من دون الجد، - أجــاب صاحب الدار. وذهب وناداه.

جلــس الجدُّ هادئاً خلف المائـــدة، وأكل قليلاً، ولم ينظر إلى أي أحد.

بعد الكأس الثالثة انتعش الجميع، كالمعتاد، والحقيقة أنَّ ربة المنزل لم تــشرب كأس النبيذ الأحمــر القوي كلّه: «أنا مــن دونه مبتهجة»، قالت بلطف ورطَّبت شــفتيها فقط، وضيّقت عينيها بظرافة. كان من الواضح أنها تأسف ببساطة لأنها تهدر هذا الشراب النادر على نفسها. من الأفضل أنْ تضيّف به شخصاً ما.

تحدّثوا بأشــياء بسيطة. قال ساشــا إنهم ذاهبون إلى جدته، وسرعان ما عثروا على معارف مشتركين، فعلى كل حال القرية مجاورة، وحتى تبيّن فيها ثمة بعض الأقارب البعيدين.

الجـدّ فقط سرعان ما ترك المكان من دون أن يقول أي شــيء، ولاحظ ساشا أنَّ بوزيك حزين مرة أخرى.

- لماذا أنت هكذا؟ - ســأله ساشا بصوت منخفض بعد أنْ انحنى إليه.

- نسيت أن أسقي الزهور، قال بوزيك.

نامــوا في غرفــة واحدة، عــلى الأرض، بعضهــم تغطى بالبطانيــات وبعضهم بأغطية أسِرَّة قديمة - راضين ومتخمين من العشاء وفي مزاج رائق.

وفي الصباح تجمدوا في المرحاض المتجمد في الفناء الخلفي، وعادوا بسرعة خفيفين إلى المنزل بعيون صافية.

وشربوا الشـــاي بالتناوب. ذهبت ربة المنزل إلى مكان ما في الصبــاح، وكان صاحب الدار يدق عـــلى شيء ما في الحظيرة، والدجاج يصيح بشـــكل مزعج. الجدّ لم ينهض، وكان يُسـمَع كيف يتأوَّه في بعض الأحيان وهو يتقلَّب.

نقر ساشا على شاشة التلفزيون ووقع على الأخبار على الفور.

- إنه برنامج... ما اسمه... صديق كوستينكو، - انتعش فينيا.

غير أنَّ البرنامج كانت تقدمه فتاة غير معروفة ذات وجه صارم.

كانت الموضوعـــات مألوفة وغبية في كثير من الأحيان، من قبيل: عُقِدَ اجتـــماع هناك، وأعيد تعيين فـــلان، وهناك انفجر أنبوب كالمعتاد واشتعل شيء آخر، وثلاث مناطق إما من دون تدفئـــة، أو مـــن دون كهرباء، أو من دون هـــذا وذاك، وجرى إجلاء الأطفال من مستشـــفى الـــولادة المتجمد. لم يفاجأ أحد من مدة طويلة. ولكن ذوي الطباع القذرة فقط يقولون بكسل واستهزاء: «كان هذا يحدث من قبل كذلك، ولكنهم أخفوه». لابد أنْ يقولوا شيئاً...

تردد هذا كله بخمول في رأس ساشـــا وهو ينظر إلى الشاشة ويحتسي الشـــاي، وفجأة تجمد مع هذا الشـــاي في حلقه عندما رأى وجه ليوشا روغوف على الشاشة ميّتاً.

وبعد لحظة سمع، أخيراً، ما بدأ مقدّم البرنامج يقوله.

«عُثِرَ على عضو المجلس السياسي «لاتحاد المبدعين»، ليوشا روغوف، ميتاً تحت شرفة منزله. يقول الجيران إنه في الوقت الذي ألقى فيه ليوشا بنفسه أو أُلقي به من النافذة، كان ثمة غرباء في شقته. أحد جيران روغوف، الذي رفض الإدلاء باسمه، يدّعي أنه سمع أنَّ أولئك الذين جاؤوا إليه قبل ساعة من الحادثة المأساوية قدموا أنفسهم على أنهم موظفون في جهاز الأمن الفيدرالي. ومن الجدير بالذكر، - أضافت المذيعة، - أنَّ الثلاثة الأشخاص في الملابس المدنية الذين خرجوا من شقة روغوف فحصوا جثته على الأسفلت ثم بعد ذلك غادروا في سيارة كانت متوقفة هناك، في الفناء. وقد سجَّل الجيران رقم السيارة، وتأكدنا منه، فوجدنا أنَّ سيارة بهذه الأرقام مسجلة لصالح إدارة جهاز الأمن الفيدرالي في المدينة، ورفض المكتب الإعلامي في جهاز الأمن الفيدرالي التعليق على هذه الواقعة».

جلس الجميع بلا حراك، وهم يحدقون في الشاشة. وسار الجدّ إلى الشارع وهو يتأوَّه، ولكن لم يلتفت أحد إليه.

«قُتِلَ اليوم، في موسكو، كونستانتين صولوفي، عضو المجلس السياسي «لاتحاد المبدعين»، عند مدخل منزله. وقد أصيب بطعنات وجروح عدة، اتضح أنها قاتلة. وأفاد مراسلونا أنه خلال اليوم ونصف اليوم الماضيين في عدة مناطق مَن روسيا، ارتكب أشخاص مجهولون سلسلة اعتداءات على

مفوضي حـــزب «اتحاد المبدعين». العديد مـــن أعضاء الحزب يرقدون حالياً في المستشـــفيات ويعانـــون من إصابات متفاوتة الخطـــورة... ومن الجدير بالذكـــر أنَّ إحدى قادة حزب «اتحاد المبدعين»، يانا شـــارونوفا، ارتكبت يـــوم الخميس عند افتتاح المسرح الجديد أعمال عربدة ضد رئيس الدولة..».

عُرِضَ تسلسل اللقطات المُصَوَّرة المألوفة، فرأى ساشا يانا مرة أخرى - شـــعرها مُسَرَّح بنعومة، ما جعـــل وجهها رقيقاً وعاجزاً جداً...

ثم ظهرت المذيعة، مبتســـمة، وقالت إنَّ هذه كانت الحلقة الأخيرة من برنامجهم الإخباري، وشـــكرت كل من كان معهم خلال هذه السنين.

صمت الجميع لمدة دقيقة.

خرج ساشا إلى الشارع ووقف تحت الثلج المتساقط بهدوء.

وخرج ماتفي بعد ذلك.

- كم استاؤوا من أجل هذا الوجه المرتعب... - قال ساشا.

لم يرد عليه ماتفي. وطلب سيجارة.

استنشـــق ماتفي الدخان وامتص خديه المكســـوين بالشَّعر الخشـــن، فانفرجـــت عظام وجنتيـــه الجميلتـــين والمشرقتين، البارزتـــين والعظميتين. وتحركت حنجرتـــه، كما لو أنه أراد أن يبتلع شيئاً حياً مندفعاً إلى الخارج.

- دعنا نعود، يا ساشا.

اقتاد صاحب الدار حصاناً ذا عينين فزِعَتَين.

- لدينا جرارنا الخاص الذي لا يهمه أيّ ثلج. - قال بتجهّم.

عندما مرّوا من جانب المنزل الذي قضوا فيه الليل، تباطأ أوليغ. ربما، أراد أن يلوِّح بيده إلى الجد أو يزمِّرَ له، لكن الجد لم يخرج ولم ينظر من النافذة.

- آخ، لقد نسيت أن أغير الجوارب، - قال فينيا. - لقد خرجتُ بالجوارب الصوفية...

لم يردّ عليه أحد.

- ابقَ بهما الآن، - قال أوليغ بعد نصف دقيقة. إذ لم يعجبه هذا الصمت العام.

التفت ماتفي بانزعاج إلى فينيا. ونظر إليه نظرة تعنيف.

- اللعنة، هل تعتقد أنني لا أشعر بالأسف على الأولاد، يا ماتفي؟ - شاطَ فينيا. - أشعر بالأسف! وماذا الآن؟ نبقى نزجر حتى نموت؟ ها أنا ذا سأصل وأفعل بأحدهم بشدة.

ظلوا صامتين لمدة ثلاث دقائق أخرى.

- لقد انتقموا منا، - بدأ ماتفي يتكلم. - وربما، سينتقمون مرة أخرى. لذلك ليس ثمة ما ننتظره. كان كوستينكو يقول إننا يجب أن نبدأ فقط عندما لا يكون ثمة ما ننتظره.

الآن صمتَ الجميع بشكل مختلف: واستمعوا صاغين إلى ما يقول.

- لدينا فروع في أربعين مدينة كبرى. يمكننا أن نحتل جميع الإدارات في يوم واحد، - قال ماتفي.

- وماذا بعد؟ - سأل فينيا بمرح.

- سنعرف ماذا بعد.

فكَّر ماتفي، وهو يضيّق عينيه وينظر إلى وميض مسّـاحات زجاج السيارة.

- أنا أفهم ماذا سنفعل في موسـكو. ولكن أنتم، يا ساشا، هل تستطيعون ترتيب أموركم بأنفسكم؟

- سنرتّب أمورنا، -أجاب ساشا بحزم من دون أن يعرف أي شيء بعد.

- الأمر أسهل بالنسـبة لكم، - تابعَ ماتفي بهدوء. - كلنا أردنا ذلك. لقد كنا ننتظر هذا. وهـذا يعني أننا يجب أن نفعل ذلك، الآن. وإلّا، فسنخسر كل شيء.

- تبـدو كأنّك تحاول إقناعنا، يا ماتفـي، كما لو كان أحدنا ضد الفكرة. - قال فينيا

- إنكَ، على العموم، تَسْـكَر طوال الوقت! لا تفعل سوى النوم والسُـكر! - أطلقَ ماتفي الشـتائم، مرة أخرى بعد أنْ التفتَ بغضب من المقعد الأمامي.

- سأبقى هنا، - ردَّ فينيا بفظاظة وبتحدٍّ.

- إذاً، ابقَ.

صمتَ الجميع مرة أخرى. ولكن هذه المرة وهم يتأمَّلون بما قاله ماتفي.

- إنّكم، على الأرجح، تخافون الموت بشــدة، - قالت فيرا فجأة بصوت غاضب وهي على وشــك البكاء. - لقد ماتت، روسيا بلدكم، وهذا واضح لجميع العقلاء. فلماذا تتشبثون بها؟ ما لكـــم، ألا تعلمون أنَّ كل شيء يمــوت في بعض الأحيان؟ الإنسان والكلب والجرذ - كلّهم يموتون! يموتون!

- سأُلقي بكِ من السيارة الآن، - قال ساشا بهدوء.

بكت فيرا بهدوء. انكمشت على نفسها، وجعلت تمسّد على ركبتيها الصغيرتين وتعضّ على شفتيها الرقيقتَين.

انتابت ساشا الرغبة بضربها.

- أنـــا أعرف كيف أفعل كل شيء هنا، - قال أوليغ كما لو لم تكن ثمة فيرا في صالون السيارة.

الفصل الثالث عشر

لم ينَم ساشا طوال الليل، لكنه شعر كما لو أنَّ صدره قد فُرِكَ بالثلج. وكان يبتســم كثيراً - هكذا يحدث عندما تعدُّ مفاجأة لطيفــة لأحبائــك والمُقرَّبينَ منك. وكأنَّ المفرقعة على وشــك الانفلاق، وســوف تنثر على الجميع قصاصات الورق الملوَّنة، ويعــدو أرنب كبير الأذنين يتحــرك بالنابض وهو يصرّ بمرح ويدير عينيه الكهربائيتين بشكل رهيب.

داروا في السيارة مع أوليغ في المدينة، وهم يحسبون كل شيء بالدقيقة. وكان أوليغ يكشر عن أسنانه بابتسامة سرور ويكرر كثيراً عبارة: «النــذل شرير، وأنا أكثر شرّاً مــن ثلاثة أنذال»، وأحياناً في غير محلها تماماً.

ثم من جديد ناقشــوا كل شيء ثم جابــوا أنحاء المدينة مرة أخرى. لم يُخِفْهُم أحدٌ. وقد اندفعوا عدة مرات إلى سيارة الشرطة ومرّوا من جانبها كما لو كانوا يتحدثون معهم، ولم يوقفهم أحد. فقد كان أفــراد الشرطة مرةً ينادون شرطــي المرور على جهاز

اللاسلكي، ومرّة توجَّب عليهم إيقاف سيارة في الأمام ارتكبت مخالفة وهم يصفّرون عليها بغضب.

- لقد أزالوا جميع المعالم أمامنا، - قال أوليغ بعد أنْ حالفهم الحظ في المرة التالية.

فهِمَ ساشا قصده: فقد تذكر أوليغ ما قاله الجدُّ في القرية. مع أنه آنذاك بدا مشغولاً بأكل المربى.

- هل تؤمن بالله؟ - سأل ساشا.

همهمَ أوليغ متذمِّراً.

- كان لدينا قناص، يضع في بعض الأحيان صليب الصدر في فمه قبل إطلاق النار. قال إنه يساعد.

- «روسيا مولعةٌ بالله، وباللهب الأحمر الذي تُرى فيه الملائكة من خلال الدخان...»[1] - تذكر ساشا فجأة، ونطق هذه الكلمات ببساطة وهدوء، تماماً من دون شعور: بعد أنْ فكَّر لسبب ما في سبعة عشر عجوزاً بقمصان بيضاء في كوخ أسود قاتم... وجده بينهم. -... والملائكة ألا تراهم؟

هز أوليغ رأسه، ولم يكن واضحاً ما يعنيه ذلك: بلى، لا أراهم... لا، لن أقول... - أو: إنَّ سؤالك ليسِ في محله، على الإطلاق...

(1) هذا مقطع من قصيدة المنازل القديمة للشاعر نيكولاي غوميليف (1886 - 1921). وهو شاعر وناقد أدبي، زوج الشاعرة الشهيرة آنا أخماتوفا، وأب الشاعر ليف غوميليوف. قُبِضَ على نيكولاي غوميليوف وأُعدم على يد تشيكا (هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب) في عام 1921. (المترجم).

نام ساشـــا في الليلة الماضية لمـــدة أربعين دقيقة، ورأى حلـــماً سريعاً. كأنما وصل إلى جدَّتـــه، في القرية. وبسرعة أخـــرج الإوز والدجـــاج من الحظيرة ودعاهـــا خلفه إلى السيارة.

كما هـــو الحال دائـــماً في الحلـــم، كان هناك نـــوع من عدم الوضـــوح: لأنه وصل إلى هناك بســـيارة صغيرة، ولكنه دخل إلى الفناء في شـــاحنة... أو بواســـطة نقل فيها قفّة. وكان ساشا يستعجل قبل أنْ تخرج جدته، يريد أن يلحق أمراً ما.

فتح القفّة وألقى الأجســـاد، وكانت تســـقط مبلَّلَة وكأنها رطبةٌ من الداخل والخارج. كانـــت الإوزات تهجم بنهم على ما سقط، وتســـحب بمناقيرها شيئاً طويلاً وترفرف بأجنحتها البيضاء على نطاق واسع وهي تزعق. والدجاجات خائفة من أجنحـــة الإوز، وتهرب مذعورة، ومن ثم تثني رؤوســـها من جديد وتندفع مسرعة تنقر مرة وتنقر مرة أخرى.

استدار ساشـــا فرأى جدته تنظر إليه من عتبة الباب، وأباه جالساً على الدكة، يدخن.

اســـتيقظ وتذكَّر كيـــف ينادي الإوز والدجـــاج: المحكمة بالمحكمة، المحكمة بالمحكمة...

- ماذا بك، هل غفوت؟ - سأله أوليغ. كانوا في المرآب.

لأول مرة، شعر ساشا بشيء لطيف وبشري في صوته.

- بدا لك، على الأرجح.

- هل سيَحصَل ذلك، يا أوليغ؟ سأل بصوت مبحوح وسعل لمدة. وتثاءب فاغراً فاهُ كلَّ الفتح. ومدّ يده نحو السجائر. لقد دخنوا كمية رهيبة، أربع علب لكل شخص في اليوم.

بالطبع لم يجِب أوليغ. فهو في العادة لا يجيب عن مثل هذه الأسئلة.

- كلا، هل أنت متأكد من أنَّ فيرا لن تشي بنا؟ - رد أوليغ بسؤال على السؤال، سأل عن هذا للمرة الثالثة، على الأرجح، في الأيام الأخيرة.

لقد أنزلوها من السيارة في محطة القطارات.

- لن أقول أيَّ شيء لأيّ أحد، - قالت فيرا وهي تنحني على السيارة وتنظر إلى ساشا بعينين متوهجتَين وجافّتَين. - هل تسمعون؟ لن أقول أيَّ شيء لأيّ أحد! أعدكم. وسامحوني. اليوم سأغادر إلى مدينة أخرى، إلى جدتي. وهذا كل شيء.

أعطت مفتاح سقيفتها لساشا، واستغرقت بعض الوقت لتفصله من مجموعة مفاتيح أخرى مع إنها كانت تستعجل، وحتى كسرت إحدى أظافرها...

وقالت مع نفسها وهي تغادر من دون أن تلتفت:

- أيها الحمقى، سوف تُقتَلون جميعاً!

ويبدو أنَّ ساشا وحده سمع هذه الكلمات.

- نعم، أنا متأكد، يا أوليغ. دعنا نذهب، بالمناسبة، سنأخذ الأعلَام.

وصــلا إلى منزلها. وذهبا إلى الســقيفة. وثب من مكان ما كلبٌ ســائب، ونبح إلى درجة بدا أنَّ لسانه الشرير على وشك أن ينخلع. مرَّ أوليغ من جانبــه من دون أنْ يوليه انتباهاً. أراد ساشــا أنْ يركل الكلب في وجهه، لكنه قفز إلى الخلف وعوى أكثر.

– خذ طماطم، أو شيئاً ما هناك، – اقترح أوليغ وهو ينحني على القبو الذي كان ساشــا يبحث فيه عن الأعلام في كومة من اللافتات وأشرطة الذراع وصور كوستينكو.

– امسك، – ناولهُ علبة.

وناوله بعدها صاريتين ولافتات حزبية ساطعة، بلاستيكية قابلة للطي.

– افتحها، – طلب أوليغ عندما ركبوا في السيارة.

– سنستعملها الآن كلها.

– أريد شيئاً. إنه مثل الكحول. يُسكِر.

انطلقا بالسيارة في شــوارع المدينة الليلية. فتح ساشا العلبة بسكين وأخرج الطماطم بيديه، فتدفق العصير اللاذع، فابتلعه وهــو منحنٍ حتــى لا يقطر عــلى سرواله. ووضــع الطماطم الصغــيرة في فم أوليغ الذي فتحه عــن طيب خاطر. فمضغها أوليغ، مضيّقاً عينيه ومحرِّكاً فكيه بقوة.

اخترقت المصابيح الأمامية الليل مثل مشرطٍ بيد مخمور. تحامق أوليغ وسار بالشعاع العالي. وإذا ردَّ عليه أحدهم وأشعل المصباح

البعيد، كان أوليغ يتواقح ويقود السيارة تقريباً إلى المسار المقابل - ما يجبر الخصم الليلي العفوي على التباطؤ.

كان فينكا وتسعة أولاد من «الاتحاديين» المحليين ينتظرونهم في شقة أوليغ. فقد اختاروا الليلة البارحة، بعد أن جابوا جميع أنحاء المدينة، مَن هم أكبر سناً وأشد، المجرَّبين أكثر من مرة والمرحين. شامان وبوري ودالنوبويشيك وبايالا وعدد آخر...

قرروا عدم جمع المزيد من الناس، حتى لا يحترقوا عَرَضاً. فقد جاء رجال الشرطة السريّة في الأيام الأخيرة إلى الكثيرين، وتصرَّفوا بوقاحة، لكنهم لم يمسوا أي شخص، كانوا يبحثون عن ساشا ووعدوا بصدق أنْ يقتلوه.

- ألم يعطِ ماتفي المزيد من الأخبار؟ - سأل فينيا وهو يفتح الباب.

- كلا. لم يتغيّر شيء، - قال ساشا بصوت منخفض. ضرب الأرض بحذائه نافضاً عنها الثلج القذر.

- متى؟ - سأل فينيا.

- عند الضرورة.

جلسوا جميعاً في دائرة على الأرض وفتحوا زجاجة واحدة من الشراب الجيد. سكبوا للجميع، لكن ساشا وأوليغ احتسيا بضع قطرات فحسب.

فينيا، الذي لم يشرب لمدة أربعة أيام، بعينين منتفختَين، سكب لنفسه الماء من دون أنْ يحسَّ به أحد. وحتى إنه فقد الوَزن بسبب الامتناع غير العادي عن المسكرات.

- أيها الإخوة، - قال ساشا ببساطة وحتى بابتسامة طفيفة.

- يقول لنـــا الحزب إنَّ: الجميع مدينون للروس، والروس غير مَدينين لأحد. ويقول الحــزب أيضاً: الجميع مدينون للروس، والروس مدينون لأنفسهم فقط. نريد أن نعيد ما نحن مَدينون به لأنفسنا فقط: للوطن. وإلى الأمام.

ضحكوا مِلء أشداقهم. وشربوا كؤوسهم جرعةً واحدة. ومدّوا أيديهم إلى الجبن والخضار وعلبة الطماطم المفتوحة.

- لنشرب كأساً أخرى - أمر ساشا.

سكبوا الزجاجة بأكملها.

أومأ ساشا برأسه للجميع وشرب في صمت.

- والآن، إلى النوم، - أمَرَهم.

وقبل أنْ ينام ذهب ليُدَخِّن.

- أين بوزيك؟ - سأل فينيا، الذي تبعه إلى المطبخ.

- ذهب ليسقي الزهور.

أومأ ساشا برأسه ولم يقل شيئاً.

- وعدَ أنْ يعود في الصباح... - نظر فينيا في عَينَي ساشـــا.

- دائماً أنســـى أن أقول لـــك: أوصى نيغاتيف... أو بالأحرى، طلبَ، ألّا نُقحم بوزيك في أيّ شيء.

- قلتَ، متى سيأتي؟

- في الصباح. ربما، سيأتي مع أولى حافلات الترولي.

- لن يلحق. وهذا جيد.

- اذاً، في الغد؟ - أدرك فينيا، وانفرجت على وجهه ابتسامة، مثل الزبدة على الفطيرة.

- اليوم، يا فينيا. اذهب إلى النوم.

دخن ساشا السيجارة وهو ينظر من النافذة. ثم ألقى عقب السيجارة من كوّة النافذة بنقرة. فأومض، ناثراً الشرار تحت الثلج.

في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل أيقظ ساشا الأولاد. واستدعى اثنتين من سيارات الأجرة، وركب ساشا وفينيا مع أوليغ في السيارة «فولغا».

فوجئ سائقو سيارات الأجرة قليلاً عندما خرج الأولاد على مشارف المدينة بالقرب من المتنزَّه القديم.

وقد ركن أوليغ سيارته هناك في المكان نفسه. وبعد أنْ أغلقها قال: «انتظريني، يا صبيّة!» - وصفقَ على جانبها.

- امشوا إلى المتنزَّه، هناك أراجيح، تأرجحوا عليها لبعض الوقت، - اقترح أوليغ على الأولاد «الاتحاديين» الذين يدوسون على الثلج.

- سنتصل، - أومأ لهم ساشكا برأسه. - انتظروا.

وذهبوا، الثلاثة - هو وفينيا وأوليغ.

- هل لديكم إدارة في الغابة؟ - سأل فينيا بمرح. لم يعرف أي شيء بعد.

خلــف المتنزه يقع مبنى وحيد يتكون مــن طابقين. كان في السابق مدرســة داخلية للأطفال المتخلفين عقلياً. ولا يُعرف الآن إلى أين نُقلوا جميعاً، ولكن في السنوات الأخيرة صار مقراً للقوات الخاصة التابعة لوزارة الداخلية، وهي الجهة التي عمل فيها أوليغ من قبل.

وكان أوليغ حتى الآن يأتي إلى هناك أحياناً في المساء - إلى صالة الألعاب الرياضية، بعد أنْ ينصرف من العمل كبار الضبّاط.

- فينيا، نحن بحاجة إلـــى ســلاح، - قال ساشا. - سنأخذه الآن. اســمع ما أقوله، اســمع ما يقول أوليغ، وكل شيء سيكون على ما يرام.

داروا حول المبنى، المحاط بسور مرتفع، ووجدوا أنفسهم في المؤخرة. صارت أمامهم البوابة الثقيلة التي تصرّ صريراً خافتاً.

«هــذا النوع كنت أرغب في أيام طفولتي أنْ ألعقه بلســاني طوال الوقت»، - تذكر ساشكا هذا الأمر في غير محله.

زحف أوليغ تحت البوابة ونادى ساشــا وفينيا من الجانب الآخر.

- الكامــيرات الأمنية لا تلتقط هنا بعــد، - أوضح عندما خرجا واحداً تلو الآخر.

مشــوا إلى المبنى وهم ينظرون مِــن حولهم. من أحد الجوانب - ساحة واســعة وعارضة عقلة (للجمباز) وإطارات مدفونة في الأرض، وعلى الجانب الآخر - صف قصير من المرائب.

- هذه هي رحبة العجلات، هذه محركاتنا، - أشــار أوليغ بهدوء: عــلى اليمين كانت تقف ســيارات شرطــة - «لادا»، وحافلتــان لنقل أفــراد القوات الخاصة، مألوفتان لساشــا في المســيرات والتجمعات. وتذكر أنَّ على جانب هذه الحافلات رُسِــمَ حيوان مفترس، من نوع غير معروف، مكشر عن أنيابه. في كل مــرة عندمــا يُجَرّ ساشــا إلى هذه الحافلــة كان ينظر إلى المفترس، محاولاً تحديد ما هذا الذي يكشر عن أسنانه، أيّ نوع من المسوخ.

- هل أنت متأكد أنهم لا يروننا؟ - سأل ساشا.

- كل شيء على ما يرام، - أجاب أوليغ. - قفا هنا خلف السيارة.

ومشــى هو ببطء إلى البوابة الحديدية الخلفية. ضغط على الجرس. والتفت بوجهه مبتســماً إلى كامــيرا المراقبة، ولوَّح بيده.

- هذا أنــا، أنا! - قال بصوت عالٍ، عــلى الرغم من أنه لم يُسمَع بعد، وهو نفســه لم يرَ بالطبع من حيّاه. وكان لديه علبة غاز في يده الأخرى.

انتظر دقيقة.

يزعم أوليغ بأن شــخصاً واحداً فقط يجلس في القسم الخفر في الليــل، نائماً نومــاً خفيفاً، وهو في أغلــب الأحيان مكلَّف بمناوبــة يومية. والضابط الخفر ينام عــادة في الليل. والمناوب الدَائم ومساعد الضابط الخفر يُبدّلان أحدهما الآخر.

بشكل عام، وفقاً للنظام الداخلي، يجب أن يوجد في الخفارة شخصان على الأقل - ولكن لا أحد يتبع التعليمات منذ مدة طويلة، حسبما قال أوليغ لساشكا.

- وأخيراً! - قال أوليغ.

أخذ ساشا قطعة من الثلج ووضعها في فمه. وألقى نظرة، من دون أنْ يختبئ، من وراء بدن السيارة «لادا»، فرأى جانب أوليغ الذي يحدق ببلادة في الباب المغلق ويديه المتدليتَين على طول جسده، كما يبدو، بتراخٍ تمام.

سألوه شيئاً من وراء البابِ، لأن أوليغ ابتسم ابتسامة عريضة (هكذا اعتاد على الابتسام) وقال:

- نعم، أنا، افتح، الجو بارد... زوجتي طردتني من المنزل، وليس ثمة مكان أذهب إليه...

- أنت، كما أظن، غير متزوج - قال الذي فتح الباب ولم يسمح لأوليغ بالدخول وهو يقف على العتبة. لاحظ ساشا على الفور الرتبة على كتف الرجل الذي خرج.

«هذا الضابط، المفروض أنه نائم» - خطرت الفكرة في رأس ساشا.

- الآن متزوج، أيها الرفيق الملازم، - أجاب أوليغ وضرب الضابط برأسه على جسر الأنف. وبعد أنْ أسقط العلبة عن عمد، أمسك الضابط من صدره بيده اليسرى وسحبه إليه، وضربه من جديد عدة ضربات، بطقطقة. وبعد أن ارتدّ للخلف ضرب الخصم

بكوعــه، مثل حجر الرحى، على فكــه، واضعاً في الضربة قوة ثقل جسمه القصير ذي العضلات القبيحة.

أسند أوليغ الضابط بحرصٍ وأجلسه على الثلج، لكنه سقط على الفور وهــو يضغط وجهه بكفيه ويختلــج بإحدى رجليه بشــكل ضعيف. أسرع ساشكا وأخذ المســدس من الحافظة الكلبشات المعلقة على حزام الضابط. وأثناء ما كان يشبِك يديه المستسلمتين بســهولة والملطختَين بالدم بسخاء، سمع أحدهم في المبنى، يركض نحو الباب ويصرخ:

– ما الذي يحدث هناك بحق الجحيم؟ الآن، اللعنة، سأطلق النار!

– يا غوشا! هذا أنا، أوليغ، ما بك! – رفع أوليغ يديه.

– أوليغ، ماذا تفعل هنا، بحق الجحيم؟

قفز أوليغ لملاقاة القادم. وعندما أسرع ساشا إلى المبنى خلفه رأى ساشا مسدســاً متدحرجاً على الأرض... ثم رأى أوليغ جالساً فوق أحدهم، وكان يضغط على حلق الرجل الذي تحته ويتوسل إليه:

– يا غوشا، كلا، يا صديقي. استلقِ بهدوء، غوشا. ارقد.

ترك أوليغ يديه فقط عندما جلس فينيا وساشا إلى جواره، كان غوشا يتنفس بصعوبة ووجهه أحمر بشكل مقرف وعيناه جاحظتين.

نهض أوليغ وقلب الرجل المخنوق على بطنه. تم ربط يديه بالأَصفاد (الكلبشات) التي أخذها من حزامه.

- يا غوشا، هيا، استيقظ، - أجلسَ أوليغ الرجل وأسند ظهره إلى الحائط وربَّتَ على خديه. فلاحظ ساشا على خديه آثار أصابع أوليغ ورديةً فاتحة.

«لا أريد أنْ أقع تحت هاتين اليدين»، - فكر ساشا للحظة، وقال لأوليغ:

- كانت لديك علبة صغيرة.

- أنا معتاد أنْ أحلَّ جميع المشاكل برأسي، - أجاب أوليغ بجدية.

ركضوا في الممر المظلم والضيق، بطول عشرة أمتار، وقفزوا عبر مخرج واسع إلى غرفة الخفر.

كان باب غرفة الخفر الحديدي القوي مغلقاً. نظر ساشا من خلال الزجاجة الضخمة والمنيعة بشكل واضح لكي يعرف ما إذا كان أيّ شخص هناك. على الطاولة كانت ثمة لوحة مغطاة بأزرار متعددة الألوان وضِعَت عليها سمّاعَتا هاتف. في ركن الغرفة أومض تلفزيون صغير، ولم يكن بالإمكان رؤية الشاشة... وثمة كرسيان بذراعين وصندوق مفاتيح وكرسي وباب حديدي آخر يؤدي إلى غرفة مُلحَقَة... لم يلحظ ساشا أيّ بشر.

- دعنا نذهب، هناك رجل ثالث، آخر، - دعاهما أوليغ.

أمسك بيده المسدس الذي التقطه من الأرض.

- ادفع الخرطوشة... - قال عندما رأى مسدساً آخر عند ساشا.

بعد أن اجتازوا غرفة الخفر وساروا في ممر واسع مضاء. رفع ساشا أمان المسدس وسحب الترباس.

فتح أوليغ أحد الأبواب على مهل، فرأى ساشا من خلف كتفه صفين من الأَسِرَّة ذات الطابقين. اقتربا بهدوء من السرير الذي كان عليه رجلَ مستلقٍ على جنبه، في بدلة عسكرية وحتى في قبعة مائلة على عينيه. فوضع أوليغ المسدس على جبهة الرجل النائم، وأمرَ ساشا:

- اسحب المسدس منه.

بينما كان ساشا يعبث بحافظة المسدس، نظر أوليغ إلى الرجل النائم قائلاً بهدوء:

- لا أفهم مَن هو الخفر. ومَن الأصغر، إنه نائم، اللعنة، حتى لو اغتصبته...

سحب ساشا المسدس ودسَّه في جيبه.

- هيا، اسحب الكلبشات الآن... ولا تنسَ المفاتيح.

لم يستيقظ المنزوع السلاح إلّا عندما ربط ساشا يده إلى ظهر السرير. اندفع وحاول النهوض، ومد يده الطليقة إلى حافظة المسدس، وجرى هذا كله في صمت.

- ما هذه المقالب، يا شباب؟ - سأل عندما لم يجد شيئاً في الحافظة وهو يحدّق في الظلام. وبعدما رأى شباباً لا يعرفهم، يرتدون الملابس المدنية، صرخ فجأة بأعلى صوته:

- الإنذار!

ضربه أوليغ على رأسه بالمسدس.

- لكي لا تنام في خفارة أخرى، - قال أوليغ وهو يخرج من غرفة الراحة، وفجأة تذكر شيئاً وعاد مسرعاً. - لديك هاتف نقال بالتأكيد... الآن ستبدأ بالاتصال...

لقد وجد الهاتف الخليوي في جيب صدر المقاتل.

- فينيا، هل سحبت هؤلاء؟ - سأل أوليغ، وهو يخرج إلى الممر ويضيّق عينيه من الضوء الساطع.

- آخ! - أجاب فينيا. - لقد نسيت.

عندما قفزوا إلى الشارع، كان الملازم، وهو يترنّح على ساقيه بغباء ويخفق في الثلج، قد وصل إلى البوابة تقريباً.

وفي الطريق، ركل السيارة على ما يبدو، فبدأت تصفر بالإنذار.

انقضّوا على الملازم، فزحف أثناء ذلك تحت البوابة بعد أنْ سقط على ظهره واندفع بساقيه.

جرّوه بصعوبة وسحبوه الثلاثة إلى البناية وهم يركلونه بجنون.

- اللعنة عليكم، أيها السفلة، سيُقضى عليكم، هل تدركون؟

- كرر الملازم، وهو يلثغ ويسعل.

الثاني، غوشا، كان ما يزال يجلس على الحائط، لكنه صار يتنفس أحسن قليلاً. ونظر حوله بعينين مجنونتين.

- ماذا تفعل، أيها الشيطان ؟! - صاح على أوليغ الذي عاد من الشـــارع وحتى حاول أنْ يركله. انحنى أوليغ من دون أنْ يرد عليه ولفَّ فمه بشريط لاصق كان معه.

ولفَّ كذلك وجه الضابط الدامي والمكســـور على ما يبدو. فجعل يتنفّس من خلال أنفه نافخاً المخاط الأحمر بغزارة.

- ألا يختنق؟ - سأله ساشا.

لـــوح أوليغ بيده - حتى وإنْ اختنـــق، ليذهب إلى الجحيم. وقال:

- لننقلهما كليهـــما إلى غرفة النوم. وهناك ينبغي أنْ نربط يد المناوب الأخرى. لوكنت مكانه لفتحت الكلبشات خلال هذا الوقت. بأيّ دبوس.

لكن المناوب كان يجلس على السرير ورأسه منحنياً ويمسّد على جبهته براحة يده الطليقة. ضربه أوليغ على رأسه.

- فينيا، راقبهم، - أمره أوليغ، ودفع المسدس إليه.

فُتِح باب غرفة الخفر بسهولة، ولم يحتَج الأمر سوى الضغط على زر مخفي في الزاوية. وكان أوليغ يعرف أين هذا الزر.

كان التلفزيون يعرض فيلماً إباحيّاً.

- الأنذال، - كشّر أوليغ بابتســـامة خبيثة. - تركوا المناوب ينام وجلسوا يشاهدون الفيلم. لذلك يمكن أن تُغتصَب البلاد بأكملها. اتصل بالأولاد. وقل لهم ألّا يقتحموا الباب الأمامي، وأَنْ يلتفّوا مِن الخلف.

وأثنـــاء ما كان ساشـــا يتصل مباشرة من الهاتــف الموجود على اللوحـــة، وجد أوليغ قطعة من الورق تحـــت الزجاج على الطاولة، كُتب عليها اسم المدينة ورقم مكون من ثلاث علامات.

- الآن سوف نتصل بالحراس غير الحكوميين وسنفتح المشجب (غرفة خزن السلاح)، - قال أوليغ.

استقبل ساشا «الاتحاديين» عند البوابة، ودخلوا المبنى وهم يتلفتون مِن حولهم. وقفوا في الممر، بعضهم مندهشاً وبعضهم في توتر شـــديد، ولكن لم يختلج أحد منهم خوفـــاً، ولم يُحدِث ضجة.

اتصل أوليغ بالرقم على الهاتف وقال:

- مدريد، 972، سأفتح لمدة عشرين دقيقة.

- حســـناً، - أجابـــه صوت أنثى لم تنَل القســـط الكافي من النوم.

أخـــذ أوليغ مفتاحاً طويلاً من الدرج ونضَّد الرمز على قفل الباب المشـــفر المؤدي إلى الغرفة المُلحَقة، التي تبين أنها مشجَب الســـلاح. وأدخل المفتاح وأداره ثلاث دورات. ففرقعَ الباب. فسحبه أوليغ نحوه بقوة.

دخلوا إلى المشجَب. كان مليئاً بصناديق حديدية. وسرعان ما اســـتخدم أوليغ مجموعة المفاتيح التـــي انتزعوها من حزام المـــلازم، وفتح الصناديـــق. كان كل واحد منهـــا مليئاً بأنواع الأسلحة.

- اللعنة! - قال ساشـــا، وهو يرى داخـــل الصناديق مليئة بأنواع الأسلحة الفاتنة المختلفة العيار.

- احملــوا كل شيء - أمر أوليغ بصـــوت منخفض. - هنا مائة بندقية كلاشـــنكوف ومائة مســـدس ماكاروف وســـت قاذفات وثلاثة رشاشـــات بيكا وثلاث بنادق قنص وخمسون قنبلة يدوية... وهنا مسدسات رشاشـــة أيضاً، تشبه غدارات «عوزي» ولكنها روسية الصنع... وثمة شيء كان هنا أيضاً.

أخرجَ أوليغ بندقية كلاشنكوف ومسّد عليها بلطف.

جاء أحد «الاتحاديين»، الملقب بوري، ونظر مذهولاً، وسأل:

- ما هذا الذي يحدث هنا؟

- إنـــه متجر هدايا عيد رأس الســـنة، - أجاب أوليغ. - ما لكـــم، هيا يا شـــباب، لماذا تقفون، لدينا تســـع عـــشرة دقيقة. ارصفوهـــا في الممر في الوقـــت الحالي، - قـــال ووضع بندقية رشاشة في يَدَي السائل.

بعد سبع عشرة دقيقة أصبح الممر مليئاً بالبنادق والقنابل اليدوية (الرمانـــات) والإطلاقات (الخراطيـــش). نظر فينيـــا إلى هذا كله بانبهار، بعد أنْ دسّ وجهه خارج باب غرفة النوم.

- يا فينيا، خذ مفاتيح غـــرف تغيير الملابس، - ألقى أوليغ رزمـــة فيها ثلاثة مفاتيح. - هناك بدلات عســـكرية تتدلّى فيها على الأحزمة أصفاد (كلبشـــات). اربطوا إخوتي من أرجلهم أيضَاً، وإلا فإنهم سينطّون بعيداً.

أغلق أوليغ غرفة المشجب واتصل بالحراسة مرة أخرى، وأبلغ بمرح أنَّ كل شيء على ما يرام: «مدريد، 972، وضعتها على الحراسة».

توقف «الاتحاديّون» مجموعة ساشكا لمدة دقيقة في الممر، وهم ينظرون أيضاً إلى السلاح. وأشعل أحدهم سيجارة ليتمكّن من التركيز.

- يا شباب! - قال ساشا وهو ينظر إلى وجوه أصدقائه الصادقة. - يا شباب. ستندلع اليوم ثورة في روسيا. هذا الصباح، سوف يرتب إخواننا في جميع أنحاء البلاد، في كل مدينة، حالة من الفوضى الخلّاقة. وسنفعل ذلك هنا. كل ذلك من أجل القضية.

- وموسكو ستشترك؟ - سأل دالنوبويشيك.

- وموسكو أيضاً، - قال ساشا.

- اختر بدلة عسكرية متناسبة مع طولك، - صاح أوليغ بمرح، وهو يرمي من غرف تبديل الملابس الأطقُم الشتوية المُخَشخِشَة ذات الرائحة النفّاثة والسترات التكتيكية والسترات الواقية من الرصاص.

- الدروع، حسب الرغبة، - صاح أوليغ بعد أنْ خلع كل شيء حتى ملابسه الداخلية وجعل يرتدي بخفّة، - أنا شخصياً لا أحتاجه. لست أُخطط لأعيش إلى الأبد. هيّا، هيّا يا رجال، الوقت يمر. يا فينيا، هل ربطتَ إخواني؟ لا بأس، أحسنت...

ارتدى أوليغ ملابســه أولاً قبل الجميع، وتحول على الفور إلى وحش مموه، وابتسم كثيراً وهو يردد عبارته المعتادة: «النذل شريــر، وأنا أكثر شرّاً من ثلاثة أنــذال... اللعنة، منذ متى وأنا أنتظــر هذا!» ســحب تربــاس (مغلاق) الرشاشــة. ووضع الكلاشنكوف على كتفه وأدخل المسدس ماكاروف في الحافظة وشــبكَ الغدّارة في الســترة التكتيكيــة ودسَّ الرمانات فيها، وجعل يقفر في مكانه. خلاص، أنا جاهز.

بعــض الأولاد الذيــن لم يخدموا في الجيش، بســبب عدم التعــود، لم يتمكنــوا من ارتــداء البدلة العســكرية كما ينبغي وجعلوا ينظرون إلى الســترات التكتيكيــة ويرفعونها أمامهم مندهشين كأنهم من البرابرة المتوحشين.

انتثرت على الأرض ملابس «الاتحاديين» المدنية: قمصان بائســة وسراويل باليــة وأحذية مهترئة وســترات ببطانات مخرَّقة.

- ماذا بكم، أيها الشــياطين؟ تخلَّصتم من جلودكم القذرة! ألم تَرَوا مِن قبل ســترات تكتيكية! - اهتاج أوليغ بعزم. - إيه، أيها البُوَم، أنتم لا تحتاجون ســوى فكّ حمالات الصدر... هيّا أساعدكم!

- يا أوليغ! - دعاه ساشــا الذي تمكــن بسرعة من ارتداء البدلة العسكرية. - هناك نداء في جهاز اللاسلكي إنهم ينادون «المَركز».

- هــذه دوريتنا، - قال أوليغ. - ما حاجتهم في هذا الوقت المبكر؟

لدى القوات الخاصة دورية ليلية واحدة، أربعة أشــخاص في ســيارة «لادا». كان أوليــغ ينوي أنْ يســتدعيهم ويجردهم من ســلاحهم، لكن في وقت لاحق... هكذا اتفق مع ساشا، وهكذا أرادا أنْ يفعلا...

ذهب أوليغ إلى غرفة الخفر، وأخذ جهاز الاتصال اللاســلكي، وانتظر، وهو يمضغ بشــفتيه الرقيقتين، حتى يطلبــوا «المركز» مرة أخرى.

- المركز يسمعك، - أجاب بصوت خافت.

- لماذا أنت صامت؟

أدار أوليغ جهاز اللاســلكي أمام وجهه وهو يفكر وسأل بهدوء:

- ماذا تريد؟

- افتــح الباب، التدفئــة عطلت عندنا. إننــا نتجمد. من يتكلم؟ أنت غوشا؟

ألقى أوليغ اللاسلكي على المنضدة، وأسرعَ إلى الممر، وألقى نظــرة سريعة عــلى كل شيء - فوضى، الأســلحة والبدلات العســكرية مبعثرة عــلى الأرض، أربعة مــن «الاتحاديين» ما يزالــون نصف عراة، ذوو بــشرة بيضاء ونحيفــون، يرتدون السراويــل بأحزمة غير مربوطة وبســاطير (أحذية عســكرية

طويلـــة) مفكوكة... واســتدار ونقر بيده الثقيلــة على مفتاح الدورة الكهربائية. انطفأت الأنــوار في الممر بأكمله. وأعطى الأوامر:

- ثلاثــة على هذا الجانب من المخــرج، وثلاثة على الجانب الآخر. عندمــا يدخلون، نطرح الجميع على الأرض. اصرخوا عليهم بصــوت أعلى. ولا تطلقــوا النار. يا ساشــا، يا فينيا، يمكنكم الضرب بأخمص البندقية، بقساوة.

ذهب مسرعــاً في الممر الضيق المظلم نحــو الباب ليفتحه. وكان ينبغــي أنْ تســقط الدورية عند اجتياز هــذا الممر تحت أعقاب بنادق «الاتحاديين».

وقف ساشــا على يســار المخرج، ورأى خيــال فينيا يقف مقابله. ونظــر خلف أوليغ، وبرغم عدم رؤية أي شيء تقريباً، فقد خمن أنَّ أوليغ ينظر من خلال ثقب الباب.

- ماذا هل أنتم نائمون هنــاك، يا أبناء الخنازير! - صخَبَ أحدهم من خلف الأبواب.

دفع أوليغ المزلاج، واســتدار ومشــى عائــداً ببطء باتجاه «الاتحاديين» المتخفــين. فُتح الباب الخارجي خلفه، وســقط ضوء خافت من مصباح الشارع في الممر.

- لديكم سيارة تدوي هناك، وأنتم نائمون، أليس كذلك؟ - سأل أحدهم بمرح وهو يدخل.

شعر ساشـــا برائحة الريح والثلج. فأنزلَ البندقية الرشاشة من كتفه وأمسـكها في يديه لكي تكـون أكثر ملاءمة للضرب بالأخمص.

اسـتناداً إلى الأصوات والخطوات، دخل عدة أشخاص في وقت واحد.

- أيها المناوب، أخبر الملازم أنْ يوقف تشغيل الإشارات في سيارته. من المحتمل أنَّ قطة قفزت على السطح...

مشى أوليغ ولم يستدِر.

- ومـا لك ترتدي هكـذا كأننا سـنذهب إلى القطب؟ - سـألوه. - هل هناك تيار هواء في غرفة الخفر؟ ولا يوجد ضوء في الممر! هيه، أشعل الضوء! أيها المناوب!

- يا روسـيك، انتبه، هناك دم على الأرض... - قال أحد الذين دخلوا.

- تباً، صحيح، إنه دم. أيها المناوب، اللعنة، اشعل الضوء! هل جاءتك الدورة الشهرية؟ لماذا لا ترد؟ - وقالوا فيما بينهم:

- قلت إنه مشوَّش...

كان الباب الخارجي بنابـض فأُغلِق خلف آخر من دخل، وعمَّ الظلام من جديد، وتلاشـى صوت إشارة التنبيه المزعج من الفناء.

وقـف أوليـغ بـين فينيـا وسـاشا وهـو ينظـر أمامـه ولا يلتفت.

اقترب دبيب أقدام السـائرين في الممر. وعندما سمع أوليغ هذا مشى بضع خطوات صغيرة أخرى إلى الأمام.

رأى ساشا في البداية يداً تمتد إلى كتف أوليغ، ثم رجلاً قوياً يحاول أنْ يدير المناوب الغبي نحوه:

- هيه، أنت، توقَّف! - أسـعف الوقت الرجلَ الداخلَ أنْ يقول.

ضرب ساشـا رجلَ القوات الخاصـة بأخمص البندقية على قفاه، فوقع الرجل وكاد يُسقِط أوليغ. وفي الوقت نفسه ضرب فينيا الرجـل الثاني، بعد أنْ أمسـك البندقية بكلتـا يديه من السبطانة (الماسورة)، مثل مضرب بيسبول، فسقط الرجل على ظهره بعد أنْ تنخّم بوجهه كله.

وعندما رأى ساشا هذا أدرك أنه استعجل، فقد كان عليه أن ينتظر حتى يدخـل الجميع، أما الآن فبقي اثنان آخران متبقيان في الممر الصغير الذي من غير الملائم العراك فيه لاسـيما إذا ما بدأ إطلاق النار...

اندفع ساشا إلى الممر، بعد أنْ داس على الرجل الذي أسقطه فينيا، وهو يصيح: «انبطاح، الجميع!» - أراد أن يطيح بالثالث مـن رجليه على السريع، وكان من المفـترض أن يكون الرجل الرابع واقفاً في مكان ما، لكنه لم يسـقطه، بل تشبَّثَ به، وكأنه يعِانقه مدركاً كيف سيضربونه بركبة قوية وبلكمات على ظهره ويسحقونه بأجسادهم ويحاولون التخلص منه.

«يا له من معافى، الكريه!» - خطرت في رأس ساشا بوضوح عندما أمسك ساشا بأسنانه، وهو لا يعرف ماذا يفعل وبأيّ شيء يعارِك، الخد المالح الذي يفوح برائحة الكولونيا المقزِّزة، ولسبب ما أحسَّ بثقل حاد من الخلف على كتفيه عندما انكبَّ على الرجل الذي مزَّق عضلات وجهه بأسنانه.

اندفع «الاتحاديون» جماعة ساشا على أثره وأسقطوه.

وفجأة سطع النور، فقد فتح أحدهم الإنارة. فتراجع ساشا عندما رأى أمامه العينين المجنونتَين والخد الذي سال الدم منه بسرعة على شكل قطرات سوداء منتفخة.

أمسك فينيا بيد رجل القوات الخاصة الذي سحقه ساشا... وأمسك باليد الأخرى كذلك شخص آخر، إنه بايالا... وجلسوا على أرجل الراقد والذي عُضَّ.

نهض ساشا ونظر مِن حوله. فرأى على بعد سبعة أمتار تقريباً منه على الأرض أنَّ أوليغ بدا كأنه يريد أنْ يجلس على ظهر رجل القوات الخاصة، ويعجنه بقبضتيه على قفاه وعلى صدغيه ولكنَّ الرجل لم يستسلم وحاول النهوض منتصباً على أطرافه الأربعة. فأثارَ اثنان من «الاتحاديين»، أحدهما عارٍ إلى الخصر، ضجةً مِن حولهما، من غير أنْ يقْدرا على مساعدة أوليغ.

أدار فينيا وثلاثة آخرون الشخص الذي عضَّ ساشا خدَّه.

أخذ ساشـــا رشاشـــة أحدهم الملقاة على الأرض وقفز إلى الشـــارع: تمكن الرجـــل الرابع من أنْ يهـــرب، وربما قد هرب بالفعل. أو...

كانت الموســـيقى تصدح بصوت عالٍ في الشـــارع. فتوقف ساشا للحظة، غير مدرك ما هي ومن أين أتت.

بالقرب من المدخل كانت تقف سيارة «لادا» تابعة للدورية الليليـــة، التي كانت قد وصلت لتوهـــا، وقد قرع فيها بصوت جهير جهاز التسجيل.

كان باب سيارة الشرطة «لادا» الأيسر مفتوحاً.

سار ساشا حول السيارة ورأى السائق ينكش في الصالون.

وقف قباله، وسحب الترباس.

التفتَ الســـائق، وهو يبتســـم، ويمســـح يديه الوسخَتَين بخرقة. نظر إلى ساشـــا، ودسّ رأســـه مرة أخرى في الصالون وأوقف تشغيل الموسيقى.

- أزعجتنا إشارة التنبيه، تصرخ... فأخرسناها بالموسيقى. أين الملازم؟ هل هو نائم، ذكر الإوز؟ - قال وهو يســـتدير. - التدفئة لا تعمل في السيارة. إنها عربة عتيقة ملعونة...

نظرا إلى بعضهم بعضاً لثانية.

سُمِع الصراخ والشتائم في المبنى.

- ماذا هناك؟ - ســـأل الســـائق بعد أن أزال الابتسامة عن وجهه ونظر إلى ساشا. - إيه، هل أنت من الشباب الجُدُد؟

- ارفع يديك! - قال ساشـــا، لا أحد يعلم من أين جاءته عـــلى هذه العبارة الغبيـــة، لكنه لم يســـتطع أنْ يختلق أيّ عبارة غيرها.

- تباً لك، - أجـــاب السائق وألقـــى بجسده المـرن فـي الصالون، ربما، كان لديه هناك، فـــي المقعـد الخلفي، بندقيـة رشاشة... تمكن من أخذهـــا، ولكن لـم يكنْ لديـه الوقـت الكافـي لكي يستدير. فقـد ضربـه ساشا علـى ظهره بأخمص البندقية عدة مرات، ثم ألحقه بضربـــة أخرى على قفاه، حتى تدحرج السائق إلى قدميه.

- لمـــاذا لا تنفذون ما يُقال لكم من المرة الأولى، يا رجال...

- بصق ساشا لعاباً أحمر على الثلج.

في الزاوية البعيدة من الفناء، خلف موقف السيارات، كان هناك قفص واســـع. جرّوا إلى ذلك القفص الرجال، أفواههم ملفوفة بشريط لاصق ومكبّلي اليدين.

- ما هذا القفص، يا أوليغ؟ - ســـأل فينيا وهو يستند: كان رجال القوات الخاصة ثقيلين جداً.

- كان لدينا كلب من قبل، وقد مات...

- ألا يتجمدون؟ - ابتسم فينيا ابتسامة خبيثة وهو يشير إلى الرجال الذين ألقوا في الثلج.

- سيحل الدفء قريباً...

- في الربيع؟ - لم يفهم فينيا، لهذا بدأ يثرثر.

وبعد أنْ جرَّ ساشـا مع الجميـع الأسرى المموهين الذين يتلفتـون بعيونهم المسـعورة توقف لثانيـة في منتصف الفناء ورأى فجأة نفسه من الجانب: ضوء المصابيح اللبني... والثلج الخفيف يسقط على جبهته الساخنة...

... وجه فينيا مُفعَم بالرضا والسرور ووجه أوليغ مُصعَّر...

... وحفنـة من الرجـال يرتدون الزي العسـكري خلف القضبان، في الثلج، مع وعاء فارغ أخرق تركه كلب...

... وذقن دام تجمَّعَ لدى الضابط على لصقة بيضاء...

... تحرك رجال القوات الخاصة على نحو أخرق، كما لو كان كل منهم في شرنقة...

هز ساشكا رأسـه ونفض الثلج عن قذلته السوداء «مقدمة الشعر في الرأس»، ابتسـم إلى أحد «الاتحاديين» وسمع أوليغ، الـذي أغلق القفص خلف رجال القـوات الخاصة الأخيرين الذين جرَّهـم من غرفة النوم، يشتم:

- إيـه، أيهـا الفريق! لم تتمكنوا من شـدّ وِثـاق أربعة رجال... وأنتم اثنا عشر رجلاً! ومَن أشعل النور، بالمناسبة، في الممر؟

- أنا فتحته، - أجـاب بوري، أحد «الاتحاديين»، بتحدٍّ. - لأنه لم يكن بالإمكان رؤية شيء عندما بدأتم العراك.

- لا بأس، يا شـباب، - قال ساشـا. - تـصرَّفَ الجميع بشكل جيد للغاية. يا أوليغ، هل تفهم؟ ممتاز! - وقال بنغمتين

أعلى وأكثر حماساً: - لنُفَرِّغ الترسانة، يا شباب! اثنتان من سيارات «لادا» والحافلة، صارت لنا... يا أوليغ، سلم مفاتيح السيارات.

فتحوا الباب الحديدي، وتركوا تيارات الهواء الفضولية تهبّ إلى المبنى. وسحبوا البنادق والخراطيش وأنابيب القاذفات والحشوات الناسفة وصندوقاً ثقيلاً مليئاً بالقنابل اليدوية إلى الحافلة المرسوم على متنها الوحش المفترِس...

- انتبه! - كرر فينيا. - الله، يا سانيا! ماذا قلت؟ أليس لديهم طائرة هليكوبتر؟ يا أوليغ! أليس لديكم طائرة هليكوبتر؟ أو دبابة؟ أريد أنْ أقود دبابة في المدينة.

ثم جلبوا الدروع، وجمعوها في كومة، وسحبوا بدلات الزي الرسمي أيضاً، وأخذوا كل ما أمكنهم أخذه... وفتح أوليغ غرفة أخرى، وأخذ من هناك صندوقاً طويلاً فيه أرزاق جافّة.

- جيد، يا أوليغ - حاول ساشا إقناعه بالحجة، - يجب أن نذهب.

- هيّا، لنذهب.

كان الشارع هادئاً والنور خافتاً. ضوء المصابيح تشتت قليلاً، كما لو أضيف الماء إلى مسحة صفراء من طلاء الألوان المائية.

- شغّلوا السيارات، أيها الحشد! - أمر ساشا.

ركض أوليغ إلى البوابة لفتحها. فقاد ساشـا أول «لادا» إلى المخرج. والتحقت بعدها الحافلة، وكان دالنوبويشـيك يقوده، ومن غيره يستحق ذلك... وخلف الحافلة «لادا» أخرى، يقودها شامان الذي لديه إجازة سوق، وهو يحب العربدة بالسيارات...

خرج ساشا من السيارة من دون أنْ يطفئ المحرك، وأعطى صفيحة بنزين إلى أوليغ:

- خذها، وجدتها هنا.

أومأ أوليغ برأسه. وركض إلى المبنى مع الصفيحة.

- يا جماعـة! - انحنى فينيـا، الجالـس في المقعد الأيمن، عبر ركبتي ساشـكا ولوّح بيده للرجال، المجموعين في قفص الكلب. - تصبحون على خير! لا تعبثوا!

مكث أوليغ لمدة دقيقتـين داخل المبنى، وخرج وهو يصبّ كمية إضافية من البنزين على العتبة.

- استمتع! - ضحك فينيا الذي أفلت رأسه المسرور ليرى كيف يشـعل أوليغ النار في المبنى. - استمتع، يا سانيا! سيأتي الرؤسـاء للعمل في الصباح، وهنـا في القفص في الهواء الطلق عُصبة كاملة، جماعة النوبة الليلية. ويجدون كل شيء قد احترق. القفـص وحده، فيه رجال على الرماد. أليس كذلك؟ وهذا ذو الخطم الدامي ولزقة العض سيقدّم التقرير: «أيها الرفيق العقيد، أثناء غيابك، كل شيء قد احترق وذهب إلى الجحيم! لم نستطع إنقاذ شيء! لقد فقدنا كل شيء!»

قفز أوليغ إلى الصالون، وصفع الباب. بجانبه على المقعد الخلفي وضعت أنابيب قاذفات القنابل اليدوية، ومدفع رشاش كلاشنيكوف ذو قدرة عالية وعُلب خراطيش.

ضرب ساشكا بقبضته على زمارة المنبه وضغط على دواسة البنزين وانطلق بالسيارة «لادا» خارج البوابة بعد أن خفق الثلج بالإطارات. فتبعته الحافلة وهي ترتجف. اندفعوا على طول الطريق في المتنزه الفارغ. وصرخ فينيا بشيء ما مسروراً.

- لقد أضرمت النار في القبو، - قال أوليغ، وهو يمسح يديه اللتين تنفث منهما رائحة البنزين بحفنة من الثلج التقطها براحة يده في طريقه إلى السيارة. - لن ينطلق الإنذار حتى ينتشر الحريق في الممر، لدينا 15 دقيقة تقريباً... قف بالقرب من سيارتي «الفولغا».

- الوقت قصير، - قال ساشا.

- توقف، يا سانيا.

نهض، بعد أن ضغط على الفرامل.

قفز أوليغ، وفتح السيارة «الفولغا»، وعاد حاملاً العلم.

- مثل هذه الأشياء يجب أن تُعمَل بشكل جميل، - قال أوليغ.

- كل ما تفعله مرة واحدة في حياتك يجب أن يُعمل بشكل جميل، كرر أوليغ.

ركّبَ الصارية وشبك فيها قطعة قماش حمراء وسوداء وفتح النافذة ورفع العلم بعد أنْ ثبَّتَه بين الباب والمقعد. وكان ساشا قد زاد من السرعة. فرفرف قماش العلم نابضاً بالحياة ورقيقاً ومرتجفاً، مثل سمكة الأعماق، في الريح الجليدية معرِّضاً جوانبه الصاخبة للصفع تحت الثلج الخافق.

لم يكن ساشا يفكر في أيِّ شيء، ولم يَخشَ أيَّ شيء، وكان معقَّماً وشفافاً مثل الحقنة.

اندفعوا عبر المدينة، ناشرين الذعر في السيارات التي تقابلهم. ونهضوا وهم يصرفون بالفرامل قُبَيلَ أنْ يصلوا إلى المبنى المكون من ثلاثة طوابق التابع لدائرة الشؤون الداخلية الرئيسة في المدينة.

قفزوا من سيارات «لادا» مندفعين مع رشّاشاتهم التي رفعوا الأمان عنها ودفعوا الخراطيش فيها. بقيت الحافلة المرسوم على جانبها الوحش المفترس والسيارة «لادا» الثانية في الشارع.

- يا فينيا، لقد فهمتَ كل شيء، - قال ساشا مؤكِّداً.

- فينيا فهمَ كل شيء، - ردَّ عليه فينيا.

كان باب بهو الإدارة مفتوحاً. فدخل الثلاثة.

مقابل المدخل الرئيس كان القسم الخفر، ولكنه ضعف حجم المبنى الذي اشتعلت فيه النيران الآن.

كان في البهو شرطي يجلس على طاولة خشبية. وكانت بنَدقيته الرشاشة على الطاولة.

- مرحباً، - قال له أوليغ بخفة ونشاط ومدّ له يده. فصافح الشرطي الكفّ التي مُدَّت له، وهو ينظر إلى أوليغ، لكنَّ أوليغ دخل على الفور إلى غرفة الخفـــر. وعندما اقترب من الزجاجة السميكة التي تفصل غرفة الخفر عن البهو التقط سماعة الهاتف للتواصل مع الضابط المناوب - وهو رجل خامل سمين الوجه ذو شـــارب وعلى كتفه رتبة رائد. بدا مـــن خلف الزجاج مثل سمكة الجري (القرموط) في حوض الأسماك.

صافح ساشكا أيضاً رجل الشرطة ومشى بعد أوليغ، وبقي فينيا واقفاً.

- أي نوع من الدوريات أنتم؟ - ســـمع ساشا صوت الشرطي المستاء. - مع إنّي الأقدم، لكنّي أراكم للمرة الأولى. هل صار رجال القوات الخاصة يتدربون الآن في الليل، أم ماذا؟

لم يردّ عليه فينيا.

«استمر معه في الحديث، يا فينيا!» - طلب منه ساشا ذهنيّاً.

- أم ماذا، - ردَّ عليه فينيا بمرح.

- مرحباً، يا نيكولايتش، اســـمعني، - بـــدأ أوليغ يتحدث عبر الهاتف. - لدينا مشـــكلة صغيرة هناك. قُبِضَ على أحدهم في شجار. وعُثِـــر بحوزته على مخدرات. فجعـــل يصيح بأنـــه أخ المدعي العام الشقيق. ووفقاً لهويته الشـــخصية، يبدو أنَّ اسم العائلة واسم الأب يتطابق. وهذا ليس كل شيء، يا نيكولايتش...

واستمع إلى الجواب.

- الضابط الأقدم موجود معنا في السيارة، يا نيكولايتش.

اسمع، دعني آتي، - طلب أوليغ بهدوء. - لا داعي لأن... أنفخ في سماعة الهاتف... إنه ليس حديث هاتف، افتح، هيا، - كشَّر أوليغ متظاهراً بالابتسام، فهم ساشا ذلك من صوته.

ضغط الضابط المناوب على زر تحت طاولته العريضة، فطقطقَ قفل الباب الحديدي المؤدي إلى «حوض الأسماك» الذي خلف الزجاج وعندما دخل استطاع ساشا أنْ يسمع الشرطي خلف الطاولة الخشبية يسأل فينيا:

- أيها العسكري، لماذا تمسك الرشاشة من الفوهة، هل علَّموكَ هكذا؟

أدرك ساشا من دون أنْ يلتفت أنَّ فينيا، بعد أنْ تأهَّب بقوة، ضرب الشرطي على رأسه بهذه البندقية الرشاشة، وربما، عدة مرات... فالطاولة والكرسي والرجل الساقط، كل هذا اهتزّ بعد ذلك.

وعندما دخل ساشا راكضاً إلى غرفة الخفر شاهد الرائد السمين الوجه الذي انتفض من على كرسيه محاولاً فتح قِراب المسدس... وضابطاً آخر قفز من الغرفة الصغيرة المُلحَقة بعينين جاحظتين...

ودوَّت رشقة. فقد أطلق أوليغ النار من الرشاشة على السِقف وهو يصيح: «انبطح على الأرض الجميع، أيها الكلاب القذرة! قلتُ لكم، على الأرض!»

أسرع ساشـكا بقفزتين إلى الغرفة الأخرى. فقد رسـم له أوليغ تصميم الغرف في القسـم الخفر في وقت سابق، ولم ينسَ الوصف. رأى هناك المناوبة التي تستقبل المكالمات، كانت يدها البيضاء على سـماعة الهاتف، كما لو كانـت تريد للتو الاتصال بمكان ما. وبجانبها، على جهة ساشـا، جلس شرطي، بشريط سـميك لرتبة رقيب أول، ولسـبب ما يرتدي سترة عسكرية مزدوجة الصدر... وكان شـخص ثالث طويل ونحيف يحمل رتبة ملازم ثانٍ يقف بالقرب من الطاولة، وعندما رأى ساشـا وضع الطاقية (غطاء الرأس) على رأسه كما لو كان يستعد ليقدّم تقريراً.

- لا يتحرك أحد منكم، وإلا سأقتله، - قال ساشا بصوت غريـب لم يعهده مِن قَبل. - أنت، الـذي خلف الطاولة، ضع يديك على الطاولة. نفّذ بسرعة! - أخرج الشرطي الذي يرتدي كنزة صوفية يديه الثقيلتين الرخوَتَين كأنهما مخلبان مترهلان من تحت الطاولة، وأخرجت المناوِبة بتشنج يدها الأخرى، وحتى قلَّبَتها - إنها فارغة، فارغة.

- الآن، الرفيـق المـلازم الثـاني سـيقيد الرقيب الأول بالكلبشـات. - سحب ساشكا «الأسـاور» من جيبه وألقى بها على الطاولة. - أيهـا الرقيب، انهض، ضع يديك خلفك. هل يحتاج الأمر أنْ أُطلق النار قليلاً أم سـتبدأ تتحرك بشكل أسرع؟

- تدريبـــات، أم ماذا؟ - قال المـــلازم الثاني، وهو ينظر إلى ساشا.

- بالتأكيد، هو ما قُلت!، - أكد ساشـــا كلامه، - هيا، نفِّذ ما قيل لكّ.

أخذ الملازم الثاني الكلبشـــات وصعَّـــر وجهه كما لو كانت ساخنة وأغلقها على كفَّي الشرطي الواقف الذي يرتدي سترة عسكرية مزدوجة الصدر.

- دعني أساعدهم، - اقترح فينيا الذي دخل بصخب.

جـــرَّدوا الشرطة كلهـــم من الســـلاح وســـدّوا أفواههم باللاصق، والمـــرأة أيضاً التـــي قبَّلها فينيا بشـــكل غير متوقَّع من شـــفتيها الملصوقتَـــين وهو يفعل ذلك. وبعـــد أنْ وضعوا «الأساور» في أيدي الأسرى وأجلسوهم على الأرض.

اقتحم غرفة الخفر حشدٌ من الشباب «الاتحاديين» الهائجين الذين ترتجف خدودهم، مثل الـــكلاب. كان من المفترض أن يدخل الشـــباب إلى المبنى بعد أن يســـمعوا إطلاق النار فقط، لأنهـــم إذا ما جاؤوا قبل هذا الوقت فســـيثيرون الشـــك لدى الضابط المناوب: ما هذه الزمرة التي اقتحمت المكان، من أين جاءت هذه الدورية، ولما كان سيفتح الباب لأوليغ.

وجَّه «الاتحاديّون» فوّهاتِ بنادقهـــم متوقّعين الخطر وهم ينظِـــرون إلى الجص الذي انهار على الأرض من الرشـــقة التي وجَّها أوليغ ويدوسون بأرجلهم ولا يتحدثون.

نظر أوليغ إلى أربع شاشـــات مراقبـــة خارجية صغيرة التي تعرض الفناء والساحة الصغيرة أمام المدخل.

- جاءت سيارة دورية «شرطة الدوريات والسيطرات»...

- قال برباطة جأش. - اركضوا، استقبلوهم... ليذهب ثلاثة أشخاص.

انهالوا بعضهم فوق بعض في البهو.

- نستدرجهم ليدخلوا ثم ننزع سلاحهم. - استطاع ساشا أنْ يقول للأولاد. - إذا أمكن، لا تقتلوا منهم أحداً.

كان «الاتحاديون» مسرعـــين في طريقهم نحو الباب فدخل مقابلهم ثلاثة من رجال الشرطة، هادئين ومتعَبين. واحد فقط منهم كان معه رشاشـــة معلقة على كتفه. سار ساشكا بجانبهم من دون أنْ يرحّب بهم وهو ينظر لمعرفة ما إذا كان هناك مزلاج على الباب، لكـــي لا يزحف أحد بعد أولئـــك الذين دخلوا. فلاحظ وجود المزلاج.

- من فضلكـــم لا تقاوموا! تجري تدريبـــات! - قال فينيا للداخلين بصوت عالٍ وبحيوية كما في السيرك.

أُســـقِطَ بالضرب رجال الشرطة المتهاونـــون، ليس بمهارة ولكن بسرعة وحقد. أما أحد رجال الشرطة، العنيدين، الذي تمكن مـــن ضرب أحد «الاتحاديـــين» بقوة، فقد حُطّم رأســـه بأخمص البندقية، فسالت بقعة كبيرة من دمه على بلاط البهو.

لم يُتَح لساشـا أن يتدخـل، بل وقف وشـاهد كيف كان رجاله المسـعورون يتحكمون ويأخذون الأسلحة ويطقطقون بالكلبشات... ويركلون بأرجلهم من يصيح بصوت شنيع، في الوجه والصدر والأسنان...

كان أوليغ يراقب من خلف زجاج غرفة الخفر هذا كله بوجه متجمّد. رن جرس الهاتف، فالتقط السماعة، وأجاب بشيء.

«مع من يتحدث هناك؟» - فكَّر ساشا.

سـحب ثلاثة مـن «الاتحاديـين» الدورية إلى غرفـة الخفر، وضربوهم عند الباب الأمامي مرة أخرى. الآن فقط لاحظ ساشا أنَّ الشرطي الذي كان يجلس في البهو والذي نكَّل به فينيا كان يرقد هنا، تحت طاولته الخشـبية، قد بانت رجلاه من وراء الطاولة وهو يكشط بكعبيه على الأرض، محاولاً الزحف بعيداً.

أراد أن يقول لفينيا الواقف هنا: «لماذا تركته بحق الجحيم؟!» - ولكنه لم يقل، لم يكتمل تفكيره في ما يجب فعله، - وفتح الباب...

- أي نـوع من حراس الشرف يسـتقبلنا؟ - سـأل القادم الأول، عندمـا رأى «الاتحاديـين» في زي القوات الخاصة من دون أنْ يميز بعد مظهرهم المتعرق والأشعث وعيونهم القافزة مثل السناجب في غابة مشتعلة.

دخل ستة أشخاص واحداً تلو الآخر دفعةً واحدة، وعندما دخل آخر شـخص، كان الأول يقف كأنه مغروس بالأرض

بعد أن لاحظ الشرطي يرقد على الأرض تحت الطاولة من دون قبعة وبوجه مضروب وفي بركة من الدم بفم ملفوف...

... عندما بدأ كل شيء، فتح الضابط المناوب الباب الأيمن لأوليغ إلى غرفة الخفــر، ولكن، كما اتضح، كان ثمة باب أيضاً على اليسار، قد نُسِيَ، وكان من خلال هذا الباب يمكن الخروج من الغرفة التي دُفِعَ إليها جميع رجال الشرطة المأسورين...

ومن هناك خرج الضابط المناوب نفســه، بسترة رسمية ممزَّقة يبدو منها بطنه العاري ويداه خلف ظهره. على ما يبدو، شــدَّ فينيا وجه الضابــط المناوب على عجل، وبدلاً من الشريط الأبيض على فمه، لف الرأس بالكامل بشرائط ملتوية بشــكل عشوائي، كما لو أنَّ الضابط قد احترق. ولأن فينيا لــّف الشريط اللاصق بإهمال، تزحزحت عضلات وجهه على نحــو قبيح. فبدا الضابط المناوب كأنما أصيب بضربة، كانت إحدى العينين أعلى بشكل ملحوظ من الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك اتفق أنَّ فينيا ترك ثقباً صغيراً، بسمك إصبع، في منطقة الفم، ومن هناك سُــمِعَ نفَسُه السريع كأنه صفير هادئ. وبدا أنَّ الضابط المناوب أراد أن يقول شــيئاً، لكن الثقب الذي تركه لم يكفِ بأيّ حال من الأحوال لإمكانية التحدث...

جعل رجال الشرطة، الســتة كلهم، الذين دخلوا ينظرون مندهشــين تارة إلى الضابط المناوب وتارة إلى الشرطي الراقد على الأرض في بِركة الدم.

- لقد مثَّلنا معكم بمهارة! - قال فينيا وهو جذلان ومنشرح، لكن هذا لم ينفع بشيء، فقد سحب أحد رجال الشرطة البندقية الرشاشة من كتفه.

«إذا ما نشب شـــجار، ناهيك عن إطلاق النار، فلن نكون قادرين على التعامل مع هذا الحشـــد»، - أدرك ساشا ليس عن طريق العقل، وإنـــما من خلال عظم الجبهـــة والجلد والصدر والنهايات العصبية.

- انتباه! هذه عملية احتلال! - صاح ساشـــا. - عددنا في المبنى مئتين تقريباً! لا تتحرك! ســـنحافظ عـــلى حياة الجميع! المبنى مُستَولى عليه بالكامل!

كما لـــو كان تأكيـــداً لكلماته، هبَّ ثلاثة مـــن «الاتحاديين» الآخرين من غرفة الخفر وبنادقهم في وضعية الاستعداد.

- الجميع، إلى الحائط! استدر نحو الجدار! يدكَ على الحائط! - صاح ساشـــا، بعد أن أمسك بالشرطي الأقرب إليه من ياقته ورماه على الحائـــط تقريباً، وهو يشـــعر أنَّ في أي لحظة يمكن لشخص ما الضغط على الزناد، وعندها ينتهي كل شيء.

- هذه عملية استيلاء! وجهك للحائط! - صاح ساشا وكأنّما أوحي له أنَّ الشخص الذي ينظر إلى الجدار لم يعد يريد المقاومة.

- قـــف! يدكَ على الحائط! المكان كله ملغوم! لا تتحرك! - صاحِ أوليغ الـــذي خرج راكضاً من غرفة الخفر بصوت أجش شديد الشبه بصوت رجال القوات الخاصة.

ومع ذلك، اندفـــع أحد رجــال الشرطة، ولكن فـــات الأوان، لم يستطع الآخرون أنْ يســاندوه... فقد صُرِعَ وديسَ على قفاه...

بقي الضابط المناوب هناك واقفاً بوجهه المعوج، ينظر إلى ما يحدث، غير قادر على فعل أي شيء...

انتهى الشريــط اللاصق، فمــدَّدوا الجميــع على الأرض وجعلوا ينكشــون بالمسدســات طويلاً - فقد كانت مشدودة بأشرطة خاصة ولا يمكن خلعها عــلى الفور... وتركوا بايالا ببندقية آلية يحرس الراقدين.

- ساشا، يا ابن الســافلة، هناك ثقب (للمراقبة) في الباب!

- شتم أوليغ، وهو يفتح المشجب (غرفة خزن السلاح). - ألم ترَ؟ كان بإمكانك إدخال كتيبة كاملة إلى هنا!

- إلى أين نظرت؟ - وبخه ساشا. - اعتقدتُ أنَّ السائق هو الذي أتى. مَن هم على أيّ حال؟

- هذه هي الدوريــات الآلية الليليــة، «شرطة الدوريات والســيطرات». - أدخَــلَ أوليغ «الاتحاديين» إلى المشــجب، وصاح: - لنأخذ بسرعة، بسرعة!

حملـوا السـلاح إلـى الحافلـة، بعد أنْ قادوهـا إلـى الباب مباشرة.

- يؤلمنــي كثيراً ألّا نأخذ كل شيء، - قال ساشــا. - دعونا نلتفّ. لقد خرجنا عن الموعد المحدد.

- هيا، نعم، وإلا ســتأتي بقية الدوريات الآن - نهاية النوبة قريباً. سنتعب هنا معهم... - وافق أوليغ.

لم تعد الحافلة تسع الســلاح، وكانت مواسير البنادق بارزة كأنما جُرَّ إلى الصالون قنفذ كبير ومسعور ينفخ بالإبر.

أخرجوا جميع رجال الشرطة إلى الشــارع، فوقفوا في حشد مثير للسخرية أمام المبنى، في الكلبشات، بعضهم ملفوف الفم بشريط لاصق وبعضهم غير ملفوف. كانت المرأة تنتعل حذاءً خفيفاً. فتى صغير من «الاتحاديين» ألقى ســترة عسكرية على كتفيها. كانت الدماء تسيل على وجوه الكثيرين. وكانوا ينظرون إلى هؤلاء الناس المجهولين الذين يرتدون البدلات العسكرية، بعضهم بازدراء وبعض بخوف وبعض بكره شديد.

- ســندعكم تذهبون بســلام! اذهبوا لشأنكم! - خاطب فينيــا رجال الشرطة في صوت قــسٍّ. - اذهبوا، أقول لكم! - وهز البندقية الرشاشة.

مشــى رجال الشرطة بخطى ثقيلة، وهم يتعثرون ويصفع وجوههم الثلج وبأيد مشــبوكة وملتفّة، من المبنى الذي رُشَّ بالبنزين.

- شياطين! - صاح أحدهم بعد أنْ استدار.

لم يُولِه أحد انتباهاً.

- إنه لأمر مؤسف، ألّا نرى كيف يحترق، - تحسَّر فينيا وهو ينظر إلى المبنى.

- غير مأسوف عليه، - ردَّ عليه ساشا وهو يشغل السيارة.

ابيَضَّت المدينة (من كثرة الثلج المتساقِط) وهي تتجلى بصعوبة في ضوء الصباح الكئيب والعليل.

خرجوا بتثاقل في الضباب الخفيف باتجاه المنزل، مثل جنيات الموت القبيحات المرتديات بجامات المستشفى.

شعر ساشا بوجهه وكأنه متجمد. فقد خدرَ خدّاه، والنهايات العصبية على جمجمته دخلت في العمق، إلى درجة إذا ما أشعلت النار في شعره، فلن يلحظ.

غيّر السرعة، وضغط على الدواسة.

ومن دون أنْ ينظر اجتاز بكل سرعته على مطب صناعي، فقُذِفَت السيارة وقرقعت الأسلحة وعلب الخراطيش المعدنية.

- اكبح الفرامل، ثمة مطبّ آخر هنا، - حذره أوليغ.

خفَّض ساشا السرعة. كانت سيارة شرطة من نوع «لادا» كذلك تسير ببطء مقابلهم عابرةً فوق النتوء على الأسفلت.

- لماذا أنتم واحداً تلو الآخر؟ - صدح صوت وقح من جهاز اللاسلكي: لقد دُهِش أحد أفراد الدورية لرؤية ثلاث مركبات للقوات الخاصة في هذا الوقت المبكر جداً.

- نخاف السير كل واحد وحده، - أجاب أوليغ بنشاط، وطلب على الفور: - فرمل للحظة، هل تسمع؟ «شرطة الدوريات والسيطرات»، قف!

توقفت سيارة الشرطة «لادا».

- لماذا رفعتم هذا العلم المأبون؟ - سأل سائق سيارة «شرطة الدوريات والسيطرات» بعد أنْ قفز من مقصورة الركاب وأومأ إلى راية «الاتحاديين».

- الآن أنت ستكون المأبون، - أجاب أوليغ. وعلى الفور فرقع وجه السائق بجميع أسنانه، حين تلقّى ضربة بأخمص البندقية.

وبعد أن صوَّب ساشكا وفينيا فوهات بندقيتيهما أخرجا الباقين من السيارة.

هبَّ «الاتحاديّون» من الحافلة ووضعوا الجميع على الرصيف واقترح أحدهم قلب سيارة الشرطة: أمسك بها عشرة منهم وألقوها على جانبها وهي تقعقع.

والتفتوا جميعاً، كالشخص الواحد، إلى عواء صفارات الإنذار العالي.

- هذه سيارة إطفاء، - طمّنَهم أوليغ.

سيارة الإطفاء الكبيرة التي اقتربت كثيراً زمَّرَت تزميراً طويلاً ومسعوراً مطالبةً بفتح الطريق. وسارت الثانية متثاقلةً وهي تدير وتومِض بصفارة الإنذار على سطحها.

اقترب ساشا ببطء من أول سيارة من دون الالتفات إلى رجل الإطفاء الذي قفز من قمرة القيادة، وهو يصرخ: «ماذا تفعلون هنا؟ قاعدتكم مشتعلة! وإدارة الشؤون الداخلية مشتَعلة! لماذا أنتم هنا..».

سدَّدَ ساشا رشـــقة إلى الإطار الكبير... ثم مشى، وبعد أنْ عضَّ على أسنانه، وأطلق النار على العجلات الخلفية للسيارة.

تبع رجل الإطفاء ساشا، كما لو كان يتفقد السيارة معه، وفي الوقت نفسه ينظر مرعوباً تارة إليه وتارة إلى العجلات.

- أطفئ صفارات الإنذار، - طلب منه ساشا.

ذهب إلى السيارة الثانية التي فرَّ منها رجال الإطفاء...

غطست السيارتان بعجلاتهما الهابطة كالجرحى.

خرجت ســيارة أجنبية الصنع من مكان ما، نظر السائق إلى مــا كان يحدث لعدة ثوانٍ، ثم تراجع بحدة، واســتدار بسرعة وانطلق.

عــاد «الاتحاديــون» إلى الحافلة، وحتى إنهم تكاســلوا أنْ يفعلوا شــيئاً مع الدورية، سوى سحب السلاح. وبقي رجال الشرطة يرقدون على الأسفلت، وكان منظرهم مرعباً للغاية.

«المدينة ملك لنا، - فكّر ساشــا وهــو يغضّن وجهه بهدوء ويضغط على الدواسة ليزيد السرعة. - إنها مدينتنا..».

ولكن في الداخل كان لديه شــعور وكأنه أُهدي صندوق كبير في العيــد، وفي داخل الصندوق ثمة كرتون محطّم وحذاء قديــم وبقايا طعام وســاعة متوقفة وإطار لشيء ما ومســمار صدئ.

- بقيت لدينا الآن ساعتان، - قال أوليغ، - إلى أنْ يجتمعوا كلهم... ويتصل بعضهم ببعض... مذعورين...

- كم بدا سهلاً كل شيء! - قال فينيا مندهشاً وهو يتّكئ على المقعد.

- وهل كنت تعتقد أنَّ هذا كله جديّ؟ - سأل أوليغ.

- ما هو الجدّيّ؟ - التفت فينيا.

- هذه... دولتهم، - قال أوليغ باحتقار شديد.

- لا بأس، طالما أنَّها ساعتان... - قال ساشا، وهو يكبح الفرامل بانزلاق شديد ويدير السيارة نحو السوبر ماركت الليلي الذي ذهب إليه ذات مرة.

- هلا، هلا، هلا! - صاح فينيا من دون أيّ خوف. - خفِّف!

صعدت السيارة، وهي تهدر، على الدرجات وضربت مقدّمتها العريضة على الأبواب الزجاجية التي تناثرت بصوت رنّان. أطفأ ساشا محرك السيارة وضبطها على السرعة ورفع فرملة اليد.

ومع ذلك، كان القفز غير ملائم، إذ وقفت السيارة ووجهها إلى أعلى، وكان تحت أقدامهم، على السلالم، ثمة الكثير من قطع الزجاج الكبيرة والزلقة. فتمسك ساشا بالباب للحظة، ليحقق التوازن.

دخلوا المتجر بعد أنْ دفعوا جانباً الحارس ذا السترة السوداء. أخرج الهاتف من جيبه، لكن أوليغ التقط السماعة وألقاه.

- ماذا يحدث هنا؟ - صاحت أمينة الصندوق (الكاشيرة).

- كيف تجرَّأتم على فعل هذا؟ هل تعتقدون أنكم في البدلة الرسمية يمكنكم فعل كل شيء؟

مرّوا من جانبهـا صامتين، وانتشروا في جميع أركان المتجر. ركضـت البائعـات إلى الغرفة الخلفية. فجمـع «الاتحاديّون» الزجاجات والعبوات الجميلة.

وقف ساشـا بجانب إحدى واجهـات العرض ثم وقف بجانب الواجهة الثانية. لم يسـتطع أن يفهـم ما يريد. وما هذا الفعل بشكل عام، ولماذا يحدث هذا كله.

لم يختَرَ أيَّ شيء، وجعل ينظـر في حيرة. ثم ضرب ببندقيته الرشاشـة المتأهِّبة أجمـة الزجاج فتناثرت العلـب التي كانت مصفوفة على شكل هرم، وذهب.

أخذ تفاحة في طريقه إلى مسجّلة النقد (القاصة) وقضمها. التفاحة لم يكن فيها طعم.

- إلى السـيارات، أيها الحشد! - صاح. وانتظر الجميع عند المدخل.

في الجوار، جلس الحارس على كـرسي، غير مبالٍ بكل شيء، يدخّـن وينظر إلى الشـياطين المموهين الذيـن يخرجون بجيوب محشوة، مضيِّـقاً عينيه بازدراء بين الحين والحين.

- ممنوع التدخين في المبنى، - قال فينيا وهو يأخذ السيجارة من فمه.

- إلى الإدارة أيها الإخوة! - أمرَ ساشا في الشارع. - المحافظ ما يزال على قيد الحياة...

- المحافظ، ما يزال نائماً، - قال فينيا.

وبعد أنْ خرج ساشا بسيارته من مدخل المتجر انطلقت على أثره الحافلة والسيارة «لادا» الأخرى. واندفعتا خلفه.

بعد ثلاث دقائق تقريباً، لحقت بهم سيارة شرطة، وصرخ أحدهم منها في مكبر الصوت:

- سيارة دورية القوات الخاصة! توقّف! سيارة دورية القوات الخاصة!

- لماذا لا يتحدثون إلينا عبر جهاز اللاسلكي؟ - سأل فينيا أوليغ. - لماذا يصرخ هكذا؟ سنوقظ الناس...

- هؤلاء من الحراسات الخاصة غير الحكومية. - قال أوليغ، - لديهم موجة مختلفة. على الأرجح، شغّلت أمينة الصندوق منبه الإنذار، وسوف يتجمعون الآن...

نقر أوليغ على جهاز اللاسلكي بحثاً عن الموجة المطلوبة، وسأل، بعد أنْ ضغط على زر التحدث:

- هذه دورية القوات الخاصة، مَن هذا الذي نادى علينا، أجب؟

بعد بضع ثوانٍ، صاح صوت عصبي من السماعة:

- توقف بسرعة، أيها المسخ، سأطلق النار!

- كلا، أنت يجب أنْ تتوقف، وسألقي الآن قنبلة يدوية على الطريق، - قال أوليغ. - انظر إلى اليسار! النافذة اليسرى! - ومدِ يده التي تضغط على قنبلة يدوية. فرأى ساشا من خلال مرآة الرؤية الخلفية ثمة حلقة في أسنان أوليغ.

بصق أوليغ الحلقة إلى الخارج وأعلن بصوت عالٍ في جهاز اللاسلكي:

- سأرميها!

تباطأت السيارة التي تتبعهم، وأدار السائق عجلة القيادة وأسرعَ نحو الطريق القادم الفارغ، فاصطدم بشاخص ولكن ليس بقوة. تمكن ساشا أنْ يلحظ كيف قفز شرطي من الباب الأيمن للسيارة «لادا» واستلقى على الأسفلت.

انفلقت القنبلة.

- هل قُتِل أحدهم؟ - سأل ساشا من دون أنْ يرى أيَّ شيء في المرآة اليسرى، انحرف الطريق إلى الجانب الأيسر بحدة.

- لا بأس، اللعنة، وإنْ قُتل... - أجاب أوليغ. - إذا ما مات أحدهم، فمن الخوف فحسب... إنها قنبلة صوتية...

كانت ثمة سيارة واحدة فقط أجنبية الصنع متوقفة خارج مبنى الإدارة.

الأسفلت نظيف وصناديق القمامة فارغة.

ضغطوا على جرس الباب الزجاجي العالي. فركض شرطي شاب ذو خدود سمينة وفتح المزلاج بسرعة.

- لا أفهم شيئاً! - تمتم أحدهم بسرعة من خلف الزجاج.

- إنهم يصرخون بشيء عبر اللاسلكي. شيء ما يحترق، وهناك إطلاق للنار، أليس كذلك؟

انتظر ساشا بلهفة متى يُفتَح الباب.

- ماذا يحدث هناك؟ - سـأل الشرطي وهو يفتح. نظر إلى الشباب مبتسماً.

- اذهب، وانظر، - قال ساشا بوقاحة وسحب الشرطي مـن ياقته بدفعة واحدة إلى الشـارع. ودخـل من جانبه إلى المبنى.

أخذوا المسـدس من الشرطي، وصفعـوه على قفاه صفعة مهينة، وتركوه واقفاً في الشارع.

الشرطـي الثاني، الأكبر سـناً، كان يجلس فـي كشـك حراسة خاص على يسار المدخل، وينظر عن كثب إلـى جهاز اللاسلكي، كما لو كان ينتظر شيئاً منه.

- صباح الخير، - قال ساشـا. - اذهـب إلى لمنزل. لقد فُرِضَ نظام أمني خاص، هناك إرهابيون في المدينة.

نظر الشرطي إلى ساشا نظرة ارتياب.

- أين الإرهابيون؟ - سأل وهو ينهض.

دخل «الاتحاديون» المبتهجـون المبنى مدجّجين بالسـلاح مثل القراصنة.

- هنا، - أجاب ساشا.

تجولـوا في المبنى وفتحوا بعض الأبـواب، ولأنهم لم يجدوا مفاتيح بعضها الآخر بدؤوا يكسرونها. أمر أوليغ بمكان تثبيت المدافع الرشاشة.

- الباقــي يتوزعون كلّ اثنين في مكتب. بين النقاط، فاصلة من عشرة مكاتب، احسبوا...

ذهب ساشــا على الفور يبحث عن مكتب المحافظ. داس ببطء على الممر ذي الصــدى. رأى قبالته عاملة التنظيف معها دلو وممسحة.

- يا خالتي أين يجلس المحافظ؟

- إنه لم يأت بعد، أيها الجندي. ربما، لم يأت أحد حتى الآن. بعد نصف ســاعة، ســيبدأ الجميع في الوصول... هناك، هل ترى، في وسط الممر باب جلدية، هناك مقصورته.

سحب ساشا المقبض وكان الباب مفتوحاً.

«هنا، على ما يبدو، يجلس الســكرتير»، - خمَّن ساشــا وهو ينظر مِنْ حولــه في الغرفة المضيئة التي فيهــا خزانات وطابعة وجهاز فاكس وجهاز كمبيوتر عــلى الطاولة... ومزهرية فيها أزهار...

كان أحد أبواب الســكرتارية يؤدي إلى اليسار والآخر إلى اليمين.

الباب الأيمن عالٍ ومنجَّد بثراء، مع لوحة محفور عليها اسم المحافظ.

الباب الأيسر - أبســط ومفتوح قليلاً. دفعه ساشــا بقدمه ودخـــل. فــرأى بيزليتوف يجلــس خلف الطاولــة وينظر إلى كمبيوتر محمول مفتوح.

- ما هذه القعقعة؟ - سأل وهو ينظر إلى ساشا من دون أنْ يتعرف عليه. - أعمال إدامة مرة أخرى؟

تأمَّل ساشا للحظة فيما يجب عليه القيام به، وأخيراً، قال:

- بيزليتوف، اخرج من هنا.

ومشى نحو النافذة ونظر إلى الشارع. كان هناك شرطيان مرتبكان يتلفتان ولا يعرفان ماذا يفعلان. وكان هناك «الاتحاديون»، من دون أنْ يلحظوهما، يجرون الأسلحة من الحافلة.

- ساشا... - عرفه بيزليتوف وهو ينهض.

ضيَّق بيزليتوف عينيه وعندما نظر إلى تيشين (ساشا) اختلجت عضلة على خده وكأنَّ أحدهم قرصها.

- ماذا تفعل هنا، يا ساشا؟ اذهب إلى الجحيم، ما هذا التهريج! سوف تضعني تحت الشبهة في نهاية المطاف...

أُدخِلَت الأسلحة إلى الغرفة التي يجلس فيها السكرتير.

- ساشا، هل أنت هنا؟ - نادى أوليغ بعد أنْ نظر في الغرفة ورأى بيزليتوف.

- مَن هذا؟ هل هو المحافظ؟ - سأل وهو يبتسم ابتسامة عريضة. وبدا من خلف كتف أوليغ وجه فينيا المستعد دائماً للضحك.

هز ساشا رأسه بشكل سلبي وهو يخرج من غرفة بيزَليتوف.

- ها هنا يجلس المحافظ، - قال ساشا وأشار إلى الباب الجميل العالي.

- يا بيزليتوف، أين مفاتيح مكتبه؟ - صاح من دون أن يستدير.

في مكتب المحافظ كان ثمة طاولة طويلة والعديد من الكراسي وجهاز تلفزيون في الزاوية. وصورة ضخمة لرئيس الدولة معلقة على الحائط. يبدو الرئيس في الصورة وهو يمشي ويضغط بقبضته الضعيفة. الصورة بخلفية سوداء، كما لو أنَّ الرئيس قد خرج من الظلام وهو الآن يسرع إلى مكان ما.

رمى أوليغ رشاش البيكا على الطاولة وأنزل عن كتفه أنبوبَتي قذف القنابل.

مشى بجوار النوافذ وهو يدفع الستائر الجميلة.

- لن نصمد طويلاً، بالطبع، لكننا سنحاول (إطلاق النار) قليلاً، إذا ما تطلَّب الأمر...

تمشّى فينيا في المكتب، كما لو كان يبحث عن شيء لكي يكسره. فوجد مدخَلاً غير ملحوظ مغطى بستارة، وصدح صوته:

- وهذه غرفة أخرى هنا، ثلاجة كبيرة، انظر...

وقف بيزليتوف عند باب المكتب، وهو يراقب بصمت ما كان يحدث.

جلس ساشـــا على كرسي المحافظ، فتمايل الكرسي ودار. أخذ جهاز التحكم عن بُعد من على الطاولة، وشغَّل التلفزيون. ومض شيء على الشاشة، وظهرت نساء مبتسمات.

- أنتم مجانين! - صاح بيزليتوف.

- مَـــن هذا، ما زلت لا أفهم؟ - ســـأل فينيا وهو يخرج من الغرفة ومعه قطعة جبن وزجاجة كونياك.

لم يرد ساشا عليه.

- هل ستتحصَّن بطريقة ما؟ - سأل أوليغ.

- كلا... - قـــال أوليغ وثلم قطعة جبن مـــن فينيا، وأخذ الكونياك ونظر إلى الزجاجة. - إننا على كل حال سنُنهي إطلاق النار من رجال الشرطـــة... ولكن إذا ما عجّلت القوات، فلن يعود ثمة شيء يمكن الإمساك به.

أومأ ساشا برأسه. وتذكر شيئاً فنهض وربَّت على جيوبه.

- ماذا فقدت؟ - سأله أوليغ.

- ماذا؟ نعم، ظرف الإطلاقة الفارغ.

«لقد تركتها في جيبي، في ســـترتي... الآن ربما احترقت...»

- خمَّن ساشا.

- هل تحتاج الظرف الفارغ؟ - سأل أوليغ وأطلق النار على صورة الرئيس. وقعت الرصاصة في جبهته.

- في الحقيقة، إنني أبحث دائماً عن سبب لأطلق الرصاص عليه، - قال وهـو يلتقـط ظـرف الخرطوشـة ويسـلمه إلـى ساشا.

ومع ذلك، قرر بيزليتوف الدخول، اقترب من ساشا بخطوة واثقة، وجره من كُمِّه:

- يا ساشا، من أحضرت إلى هنا؟ إنّي آمُرك: اخرج من هنا على الفور، مع جماعتك الحثالة...

أمسك أوليغ بأصابعه الحمراء الجميلة والسميكة يد بيزليتوف البيضاء الرقيقة وخشخشَ حلقة الكلبشات على معصمه، فُتحت الكلبشات بعد أنْ لوَّحت بقوسها المسنن وأُغلِقت من جديد على الفور.

- تعال إلى هنا، - سحب أوليغ إليه بيزليتوف بعنف ودفعه بسهولة إلى الجدار بين النوافذ وربط الحلقة الثانية إلى مشع التدفئة المركزية. - النذل شرير، وأنا أكثر شرّاً من ثلاثة أنذال... أفهِمت؟

- ونفث في وجه بيزليتوف حتى ارتد الرجل إلى الحائط.

- يا ساشا، ألا تشعر بالخجل؟ - سأله بيزليتوف. - ربما، ستطلقون النار عليَّ كذلك؟

- يا أليكسي كونستانتينوفيتش، إذا ما حكمنا بنبرة صوتك، فأنت لا تؤمن على الإطلاق بمثل هذا الاحتمال. لا حاجة للانكسار هنا...

- حسناً، أنتما واصلا حديثكما، أما أنا فسأذهب لأرى نقاط الحراسة، - قال أوليغ بعد أنْ كشَّر بابتسامة حزينة. فخرج فينيا خلفه وهو يبتسم ساخراً.

- ساشـــا، اســـمعني: ما هو المغزى؟ لقد سألتك وأسألك للمـــرة الأخيرة: ما المغزى؟ هل تفكر برأســـك الآن أم لا؟ ما الهدف، يا ساشا؟ لماذا أتيتم إلى هنا؟

- المغزى هو أن تعرف من أجل أيّ شيء تموت. أما أنت فلا تعرف حتى من أجل أيّ شيء تعيش.

- المرعـــب في الأمر، يا ساشـــا، أنَّ روحك ســـتموت قبل موتك أنت!

- النـــاس من أمثالك، لا خلاص لهـــم إلا بعد أنْ يلتهموا روســـيا، والنـــاس الذيـــن هم مثـــلي، خلاصهـــم بالتهامهم أرواحهم. روســـيا تتغذى بأرواح أبنائها، وبهم تعيش. لا تحيا بالصالحين بل بالملعونين. أنا ابنها، وإن كنتُ ملعوناً. أما أنت - فضالٌّ قذر.

ذهب ساشـــا إلى النافذة ورأى العديد من سيارات الشرطة تظهر على الطريق. فأخرج رشاشـــته وأطلق رشقة طويلة من خلال النافذة مباشرة، فتناثر الزجاج، شظايا ملتوية وحادة...

فكبحت السيارات فراملها، وانحرفت بحدة وابتعدت.

- آخ، يا أمي! - ضحك ساشا. - هل خفتم؟

كسَّر دُرَف النافـــذة بعضاً بيديه وبعضـــاً بأخمص البندقية. فهبت الرياح على المكتب ونفخت الستائر مثل الأشرعة.

- ساشا، شـــغّل التلفزيون، الآن ســـتُبَث الأخبار! - قال أوليـــغ بعد أنْ عاد حامـــلاً علماً في يديه، ومعـــه فينيا والعديد

من «الاتحاديـين» المضطربين الذين، على مـا يبدو، قد شربوا الكونياك.

«إذا ما كانت هناك أخبار، فهذا يعني أننا خسرنا بالتأكيد»، - فكَّر ساشا.

عُرِضَ على شاشـة فاصل بخيول ثلاثيـة الألوان تجري في اتجاهات مختلفة.

صمتَ الجميع ونظروا إلى الشاشة بتوتر.

عُرِضَ ماتفي على الشاشة، دُفِع بسرعة، تقريباً جرياً، منحنياً بشكل مهين، ممسـكين به من تحت مرفقيه، ولكن بالقرب من الكاميرا، استطاع أن يستقيم للحظة: وأشعَّت عينه بهجة وتألّقاً على وجهه الدامي...

«... أُحبِطَت هذه الليلة محاولة الاستيلاء على عدة مكاتب حكومية في موسكو...»، - قرأت المذيعة.

ابتسم كوسـتينكو، وهو يمسـك القفص، بشراسة وجنون: «لقطات أرشيفية للمحاكمة»، وكانت ثمة كتابة في أسفل الشاشة.

«تمكنّا مـن الاتصال بزعيم الحزب المتطـرف عن طريق الهاتف المحمول، - ذكرَ المذيع... - والآن نشغّل التسجيل..».

صدح صوت غريب وألثغ وغير مريح، لا يشـبه مطلقاً نباح كوستينكو اللذيذ والقاسي والكثير الوثوق بنفسه.

«... ضُربتُ في وجهي بعصا خشـبية. وطُلِبَ منّي حل الحزب على الفور...» - بدا في اللقطة يتكلّم بصعوبة.

«ماذا قلتَ لهم؟»

«قلتُ لهم: اذهبوا إلى الجحيم، لم يعد لديَّ الآن وجه».

اختفت صورة كوستينكو في قفص الاتهام، وظهر المذيع.

«وفقاً لمعلوماتنا، تمكن ممثلو هذا الحزب المتطرف في الوقت الحاضر من الاستيلاء على 30 مبنى تقريباً من الإدارات الإقليمية في مناطق مختلفة من البلاد. ويوجد ضحايا بين رجال الشرطة..».

- أيها الإخوة! نصف البلاد بأيدينا، - قال ساشا تيشين وهو يطفئ التلفزيون. - والشعب معنا. سنكون جديرين أمام شعبنا. خذوا أماكنكم.

عانق بعضهم بعضاً.

- فينيا، يا عزيزي...

- ماذا بك، إلى أين تذهب؟ - سأل فينيا. - كفاك تعصرني...

- ساشا، كل شيء صحيح! - قال أحدهم وهو يخرج، - ساشا، كان علينا أنْ... كل شيء صحيح!

بعد ساعة، وصلت دبابة إلى مبنى الإدارة، وهي تكسر الإسفلت. وخلفها أربع ناقلات جنود مدرعة.

دارت السيارات حول المبنى وهي تقعقع، ووقفت في جوانب مختلفة على مسافات منتظمة.

ركض الجنود عبر الحديقة المحيطة بمبنى الإدارة.

ســـارت عاملة التنظيف من المبنى في اتجاه المركبات المدرعة حاملةً الدلو بيدها وتســـحب الممســـحة خلفها وهي تنظر من حولها كل ثانية. تركت الممســـحة خلفها أثـــراً مُبلَّلاً على الثلج الذي نزل في الصباح.

- اســـمع، يا أوليغ... أنا دائماً ما أنسى كل شيء... - سأل ساشـــا، بعد أنْ جلس عند النافذة ماسكاً بيده الرشاشة، -... هل أنت حقاً لا تخشى أن يُقتل رفاقك الجنود بهذا السلاح؟

- لو لم نأخذ هذا الســـلاح، لقتلونا به، ونحن عُزَّل. مع إننا على حق. وهم عـــلى باطل. ولديهم خيار، بينما نحن ليس لدينا خيار.

أومأ ساشا برأسه، بمعنى إنه هكذا يعتقد أيضاً.

- بشـــكل عام، رفاقي في الســـلاح يجلسون الآن في المنزل، - قـــال أوليغ وكشَّر بابتســـامة، - لأنهم ليـــس لديهم بدلات عســـكرية ولا ســـلاح. وليس لديهم مكان يتجمعون فيه، فقد أُحرق كل شيء. وليـــس ثمة مَن يجمعهم. وكما ترى، لا يوجد فرد من القوات الخاصة ولا من شرطة الدوريات والسيطرات على الإطلاق. الجنود وحدهم والجيش...

دوّى خارج النافذة صوت مكبر صوت أجش.

- انتبـــاه! أطلـــب الانتباه! المبنى محـــاصر! أعرض عليكم الاستسلام على الفور!

أخرج ساشا سيجارة ودخَّنها. جلس عند النافذة ممدِّداً ساقيه.

علـى الجانب الآخر من المكتب الطويـل، جلس بيزليتوف ممسـكاً وجهه بيده الطليقة. في بعض الأحيان بدا لساشـا أنه يبكي: فقد اختلج كتفاه...

- نحن نعرف أنَّ ألكسندر تيشين في المبنى، - صدح صوت جافّ لا حياة فيه. - يا تيشـين! أوقـف المقاومة فوراً! نضمن لكم جميعاً أنْ تبقوا أحياءً!

- سـانيا، هل تريد التحدث معهم؟ - سأله أوليغ. - لديَّ مكبر صوت، أخذته من قاعدتنا.

وضع ساشا بندقيته الرشاشـة جانباً، وأخذ مكبر الصوت ووقف عند النافذة بطول قامته.

- أنا، ساشـا تيشـين، أعتبركم حثالة وخونـة! أعتقد أن السلطة التي تخدمونها بغيضة ومثيرة للاشمئزاز! أراكم صديداً والديدان تغلي في آذانكم! كلكـم! اخرجوا من هنا! - وألقى مكبر الصوت من النافذة.

اختبـأ خلف عضـادة الباب، وأخذ نَفَسـاً عميقـاً آخر من سيجارته التي بقي يمسك بها بين أصابعه عندما تحدَّث... نظر إلى عقب السيجارة، وألقى بها من النافذة من دون أن ينظر.

- ساشا، - ناداه أوليغ بصوت منخفض. - انظر!

نظر تيشـين مرة أخرى فـرأى كيف يركـض بوزيك من الحديقة، كأنه مفزوع، ويسرع نحو المبنى.

نادوا عليه مِن خلفه بفظاظة، لكنه لم يتوقف.

دوَّت إطلاقة، فسقط بوزيك، بعد أنْ ارتعد بشدة.

رآه ساشا منحنياً ويمسك بساقه... وكان الدم واضحاً على الثلج.

استدار بوزيك في اتجاه الرماة وهدد بقبضته الصغيرة المرتجفة.

مشى ساشا نحو بيزليتوف، وأخرج المسدس من القراب. أطلق النار على سلسلة الكلبشات التي تربط الحلقة على ذراعه بالحلقة على أنبوب مشعّة التدفئة. فاندفع بيزليتوف إلى الأمام، طليقاً، ينظر بخوف إلى يده ليتأكد إنْ كانت لم تُصَب. أمسكه ساشا بقوة من كُمِّ سترته وقذف به إلى النافذة دفعة واحدة، وأمسكَ بيده الأخرى بالسروال بين ساقيه ورمى بيزليتوف بسهولة من خلال عتبة النافذة.

- النذل الشرير... أنا الآن بالنسبة لكم... - همسَ أوليغ بصوت مبحوح، واصطفَّ عند النافذة الأخرى المفتوحة والقاذفة على كتفه، -... الآن سأرتب لكم معركة قلعة بريست.

كان فينيا يمضغ شيئاً وينظر من النافذة بعينين فارغتين. لأول مرة، لم تكن ثمة ابتسامة على وجهه.

جلس ساشا على حافة النافذة، ووضع البندقية الرشاشة على ركبتيه.

«حلَّ الصقيع، نعم. سيذوب، وسيتدفق الطين...»، - فكَّر متعباً.

أخـــرج راحة يده اليـــسرى. كان من الغريب أن تتســـاقط رقاقات الثلج حولهـــا، من دون أن تقع على جلدها الحار وعلى الخطوط الحادة المرسومة فيها.

فكَّ أزرار الســـترة والبـــزة... وأخرج صليبـــه الصدري ووضعه في فمه. في البداية بَرَّدَ لسانه، ثم صار دافئاً ثم حلواً.

دار في ذهنه إحساســـان متحدان بشكل غريب: سرعان ما ســـينتهي كل شيء في الحال، ولكن لـــن ينتهي أيّ شيء، هكذا سيستمر الحال، بهذه الطريقة فقط.

نبذة عن المؤلف



زاخار بريليبين (اسمه الحقيقي يفغيني نيكولايفيتش بريليبين)، ولد في قرية بالقرب من مدينة ريزان في عام 1975؛ كاتب ولغوي وناشر روسي. له نشاطات متنوعة اجتماعية وثقافية وسياسية وشارك في المشاريع الإبداعية المختلفة، فهو منتج ورئيس تحرير ومقدم برامج تلفزيونية وموسيقي وممثل. شغل عدة مواقع ثقافية آخرها نائب المدير الفني لقسم الأدب في مسرح موسكو الفني. حائز جائزة حكومة الاتحاد الروسي في مجال الثقافة وعدداً من الجوائز الأخرى من بينها جائزة أفضل المبيعات الروسية، وجائزة البوكر الروسي لعدة سنوات وللعديد من الروايات من بينها رواية «سانكا». ألف ست روايات وسبع مجموعات قصصية وخمسة كتب سيرة ذاتية عن الكُتّاب الروس وثلاثة كتب في مجال الصحافة ومنهجاً دراسياً.

نبذة عن المترجم

أ.د. تحسين رزاق عزيز.
دكتوراه لغة روسية.
من مواليد العراق 1963.
عمل بصفة أستاذ في قسم اللغة الروسية - جامعة بغداد.
عمل مترجماً تحريرياً وشفهياً في دوائر الدولة ومترجماً مع الشركات الروسية.
نشر أكثر من 30 بحثاً باللغة الروسية واللغة العربية في المجلات العلمية الروسية والعربية والعراقية. وترجم أكثر من 30 كتاباً في مجال اللسانيات والرواية.
حائز جائزة «نوار» للمترجمين العراقيين عن اللغة الروسية للعام 2019.
رئيس تحرير مجلة «الثقافة الأجنبية» من عام 2016 إلى بداية عام 2020.

سـانكـا

لوحِظَت في سلوكهم أمارات انقطاع الأمل، كما لو أنهم جاؤوا إلى هنا بآخِر ما لديهم من قوة ويريدون الموت هنا. والصور التي حملوها على أيديهم وضمّوها إلى صدورهم تصوِّر الزعماء، وكان جلياً أنَّ الزعماء أصغر سناً من أكثرية الذين تجمعوا هنا. فقد لاح وجه لينين المبتسم بهدوء على صورة مكبَّرة رآها ساشا سابقاً في كتاب القراءة للمبتدئين. وبانَ وجه خليفته الهادئ على أيدي الكهول المرتجفة. كان الخليفة بقبعة وعلى كتفه رتبة قائد القوات المسلحة.

عُرضت عليهم صحف رقيقة مطبوعة على ورق رمادي، رفضها ساشا، وكشَّر فينكا ساخراً.

أثارَ فيهما ما حدث مزيجاً بسيطاً من الشفقة والحزن.

تجمع عدة مئات أو ربما عدة آلاف من الأشخاص مرتين أو ثلاث مرات في السنة في هذه الساحة، في شيء من الثقة التي لا يمكن تفسيرها بأنَّ اجتماعاتهم الحاشدة المحزنة ستتسبب في رحيل الحكومة البغيضة.

مع مرور السنين منذ الانقلاب البرجوازي، شاخ المتجمهرون بشكل نهائي ولم يعودوا يخيفون أحداً.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

السعر 100 درهم

كلمة KALIMA

Abu Dhabi Culture & Tourism أبوظبي للثقافة والسياحة

9 789948 251224